دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة المجلد ٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نيتوتشكا نزفانوفنا
الليالي البيضاء بروخارتشين
جارة المهرج
الشريف البطل الصغير
ـه في تسع رسائل
عيد الميلاد والزواج
زوجة رجل، وزوج تحت السرير

دار ابن رشد



الأعمال الأدبية الكاملة

المجلد الثاني

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو
ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٣٥٢٨٣٢

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتوورك - ايطاليا ١٩٨٥

Progettazione grafica a cura della NETWORK ITALIANA - Via Bertini, 34 - 20154 Milano

- نيتوتشكا نزفانوفا
- الليالى البيضاء
- بروخارتشين
- الجارة
- المهرّج
- السارق الشريف
- البطل الصغير
- قصة فى تسع رسائل
- شجرة عيد الميلاد والزواج
- زوجة آخر.. وزوج تحت السرير

تقديم

يضم هذا المجلد الثانى من « أعمال دوستويفسكى الأدبية » رواية واحدة هى « نيتوتشكا نزفانوفا » ، وقصصا تسعا تتفاوت طولا وقيمة ٠

نيتوتشكا نزفانوفا

١٨٤٩

هذه الرواية التى كتبها دوستويفسكى فى عامى ١٨٤٧ و ١٨٤٩ ، كان مقدرا لها أن تكون رواية كبيرة تشتمل على ستة أجزاء ، غير أن مانشر منها لا يضم الا ثلاثة أجزاء جعل لها دوستويفسكى العناوين الفرعية التالية : « طفولة » ، « حياة جديدة » ، « السر » ٠ ذلك أن اعتقال دوستويفسكى فى الثالث والعشرين من شهر نيسان (ابريل) ١٨٤٩ قد قطع عليه عمله فلم ينجز كتابة روايته ، ثم لم يعد الى هذا العمل من أعمال شبابه بعد ذلك أبدا ٠ وحين أعدها لطبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، حذف العناوين الفرعية ، وحذف فصلا من الجزء الثانى هو فصل تلتقى فيه نيتوتشكا ، فى بيت الأمير ، بصبى يتيم صغير اسمه لاريا كان الأمير قد ضمه اليه من باب الرأفة والبر والاحسان ٠ ان مصير هذا الصبى البائس

الذى مات أبواه فى أسبوع ، يشبه مصير نيتوتشكا ، ولكن فكرة غريبة كانت تحاصر ذهنه وتستبد بعقله ، وهى أن أبويه قد ماتا حزنا وكمدا لأنه لم يكن يحبهما • ولعل هذا اليتيم كان سيعود الى الظهور فى نهاية الرواية على نحو ما تصورها دوستويفسكى قبل أن يعتقل فينقطع عن اتمامها ، فلما لم يتم الرواية عمد الى حذف هذا الفصل أصلا فى طبعة عام ١٨٦٠ •

تتألف رواية « نيتوتشكا نزفانوفا » ، فى صورتها الحالية ، من ثلاث قصص فى الواقع ، لا تكاد تجمع بينها أو لا تجمع بينها فعلا الا شخصية البنت التى تروى ذكرياتها فيها • فأما القصة الأولى فهى قصة الموسيقى ، يافيموف ، وأما الثانية فهى قصة حياة الفتاة فى منزل الأمير وصداقتها مع ابنته كاتيا ، وأما الثالثة فهى قصة السر فى حياة الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهذه القصة الثالثة لم تكتمل •

يقول ألكسندر سولوفييف : « ان قصة يافيموف ، العازف على الكمان ، تذكر بشخصية كرايزلر ، البطل الذى وصفه هوفمان تجسيدا للصورة الرومانسية عن الموسيقى المجنون الذى تسحره آلة شيطانية ؛ ولا شك أن شخصية باجانينى الشهيرة قد ساهمت مساهمة كبيرة فى رواج هذه الصورة ، وأغلب الظن ، عدا ذلك ، أن دوستويفسكى قد قرأ قصة بالزاك التى عنوانها « جامبارا » وفيها يصور بالزاك موسيقيا شبه مجنون يحاول أن يخلق موسيقى جديدة ، فيطوف أوروبا كلها فى صحبة زوجته الوفية ، ويظل الناس لا يفهمونه ، ثم تشتد عليه وطأة الفقر فيهوى الى الجنون » • فكأن سولوفييف يريد أن يقول ان دوستويفسكى قد تأثر ، فى كتابة هذه الرواية ، بقصة هوفمان أو قصة بالزاك ؟ • ولكن أيكفى أن يكون يافيموف والبطلان اللذان وصفهما هوفمان وبلزاك موسيقيين أشباه مجانين حتى نزعم أن دوستويفسكى قد تأثر بهذين الكاتبين ؟ الحق ان يافيموف كان يمكن أن لا يكون موسيقيا ، ثم هو يبقى يافيموف نفسه بوجهه النفسى الخاص : بعذابه وتناقضاته ، بطموحه وشراسته ، بغروره وصلفه ، بزهوه وعجزه ، بادمانه على الخمرة وعزوفه عن العمل تكبرا وكسلا ، وبالقائه تبعة اخفاقه على غيره ، بحبه تعذيب الآخرين وتعذيب نفسه فى آن واحد ، مع وجود بعض بذور الخير فى قرارة ذاته ••• انه ، سواء أكان موسيقيا أم غير موسيقى ، هو الانسان الذى تمزقه المسافة الكبيرة بين ما يطمح اليه وما يقدر عليه ،

الانسان الذى يضنيه الشعور بالمقدرة والعجز مجتمعين ، ويعاني من عقدة النقص وعقدة التفوق فى آن واحد ، ثم لا يعرف كيف يحل التناقض أخيرا الا بالهروب ٠٠ بالهروب الى الادمان على الخمرة يغرق فيها أحزانه ، والى القسوة يبرهن بها على قيمته ، ثم الى اليأس فالموت خاتمة للمطاف ونهاية للعذاب ٠٠ الأحداث فى قصة يافيموف بسيطة ، ولكن الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى فيها عميقة غاية العمق ٠ البطل موسيقى يعزف على الكلارنيت فى أوركسترا خاصة يملكها سرى من سراة القوم ، ويلتقى بافيموف بايطالى عجيب يورثه قبل موته كمانا شيطانية ٠ وبطفرة ليس لها تعليل ظاهر ، يصبح العازف على الكلارنيت عازفا على الكمان من الطراز الأول ، ولكنه يصبح فى الوقت نفسه متكبرا سىء الطبع خبيث النفس وقحا سليط اللسان ، وما يلبث أن يهجر مولاه الذى أحسن اليه وأنعم عليه قائلا له اننى لم أعد أطيق الحيـاة عندك ، فان الشيطان قد سحرنى ، ولسوف أحـرق بيتك اذا أنا مكنت فيه ٠٠ وتستبد بالرجل قوة الزهو بنفسه والغيرة من غيره ٠ وها هو ذا يبدد كل المال الذى نفحه اياه مولاه الطيب ، وها هو ذا يفقد جميع الوظائف التى يعين لها بعد ذلك ، وها هو ذا ينقطع عن العمل آخر الأمر انقطاعا تاما ، ويدمن على الشراب ادمانا يقضى على البقية الباقية من عافية روحه وجسمه ٠ وتظل أحلام المجد تسكن رأسه رغم ذلك ، بل هى تزداد من ذلك قوة وعنفا ٠ ويتزوج يافيموف أرملة شابة تحمل اليه بائنة صغيرة ، فما يلبث أن يتلف المال ٠ وتصبح الزوجة الشابة كبش الفداء للموسيقى التعيس ، فهو لا ينفك يلقى عليها تبعة ما يلقاه من اخفاق ، فلـــولاها لازدهرت عبقريته ، وذاع صيته ، وعرف نبوغه ٠ والزوجة امرأة « حالمة كثيرة الحماسة » جمة النشاط مهدمة الروح من قسوة القدر ، وهى الى ذلك مصابة بالسل الذى سوف يقضى عليها ٠

نحن هنا أمام حالة من الحالات التى يمكن أن يتخذها عالم النفس آدلر مثالا على عقدة النقص كيف تفعل بصاحبها ٠ هاهنا يسبق حدس دوستويفسكى دراسات آدلر سبعين عاما أو يزيد ٠ ولكن دوستويفسكى لا يسبق آدلر فحسب ، بل يسبق فرويد أيضا ٠ ولا عجب أن عده فرويد نفسه رائد التحليل النفسى قبله ٠ وهو انما يسبق فرويد حين يصف لنا البنية نيتوتشـــكا ، راوية هـــذه الذكريات ٠ والحق أن

دوستويفسكى لا يسبق فرويد وآدلر كليهما فى هذه الرواية ، بل هو يصالح بينهما أيضا • ان من شأن النظرة العلمية أن تنظر الى الواقع من خارج ، فنرى جانبا منه تضع له القوانين ، ولا كذلك الحدس الفنى والأدبى ، فانه يعايش الواقع من داخل ، ويراه لذلك دفعة واحدة بكل الحياة التى تنبض فيه ، الحياة الدافقة التى لا يمكن حصرها فى اطار قانون عام شامل يصدق على جميع الأفراد • ان الحدس الأدبى يرى الواقع كله جملة واحدة ، متداخلا متناغما متشابكا ، متعدد الجوانب على انسجام ، متكثر الوجوه على وحدة هى وحدة الحياة النفسية التى تترقرق فيه •

قلنا ان دوستويفسكى يسبق فرويد حين يصف لنا هذه البنية نيتوتشكا ، راوية ذكرياتها •• ان نيتوتشكا تحب أباها (زوج أمها) وتكره أمها •• « شعرت نحوه بحب لا حدود له ، حب ليس فيه شيء من طفولة » • هذه عقدة أوديب •• نكاد وأنت تقرأ قصة نيتوتشكا أن تتساءل : ماذا بقى لفرويد أن يقوله ؟ ولكن عقدة أوديب ليست تنفصل فى رواية دوستويفسكى عن مجرى التاريخ الغنى الحافل الذى تعيشه الصبية • هى تحب أباها وتبغض أمها ، كما قد يقول لنا فرويد • ولكنها تحمل عقدة النقص فى الوقت نفسه ، يجرحها التناقض بين فقر المسكن الذى تقيم فيه مع أبويها وبين المنزل الغنى ذى الستائر الحمر الذى يقابل هذا المنزل ، وتصدق أباها حين يزعم لها أن أمها هى السبب فيما هم فيه من ضعة الشأن وسوء الحال وادقاع الفقر وخمول الذكر •• فيزداد كرهها لأمها ، حتى لتسرق مال أمها التى تدخره الأم لاقامة الأود وسد الرمق ، وتعطيه أباها يشترى به تذكرة حضور حفلة موسيقية يحييها موسيقى مشهور من العازفين على الكمان • وكان حضور هذه الحفلة هو الضربة القاضية على يافيموف ، فقد اكتشف يومئذ ماهى الموهبة الحقة ! عاد من الحفلة مهدم النفس ، فوجد امرأته ميتة • وتناول كمانه وأخذ يعزف ، ولكن الموسيقى التى تخرج من الكمان لا تزيد على أن تكون آهات ونحيبا وعذابا وقلقا وحسرات • ويوافيه الجنون ، فيترك البيت مع البنية الصغيرة يطوف فى الشوارع المغطاة بالثلج ، ويظل يطوف الى أن تنهار قواه ، ثم يموت فى أحد المستشفيات • لقد قتله أن أكتشف الموهبة الصادقة ، وأن اكتشف أن أحلامه باطل كقبض

الريح • كذلك يسبق الحدس الأدبى عند دوستويفسكى نظرية فرويد ونظرية آدلر ، بل ويصالح بين النظريتين فى ادراك للحياة من الداخل •

ويصالح دوستويفسكى بين فرويد وآدلر فى الجزء الثـــانى من الرواية حين ينقل نيتوتشكا الى بيت أمير يضمها اليه رحمة وشفقة • فهنالك تتعرف الصبية بابنة الأمير •• وتنشأ بين الفتاتين عاطفة هى حب الفرد فردا من جنسه ، هى الحب المثلى الذى يحدثنا عنه فرويد : قبلات وعناق ونجوى ومسارات •• وتنشـــأ بينهما فى الوقت نفسه صلات تصلح تجسيدا لنظرية آدلر فى « عقدة النقص » أو « مركب الدونية » •

وتشعر الأميرة زوجة الأمير بما قد يكون للصبية اليتيمة العجيبة من تأثير سيىء على ابنتها ، فسرعان ماتفترق الحبيبتان : ترسل كاتيا بنت الأمير الى موسكو ، ويعهد بنيتوتشكا الى سيدة تمت الى الأمير بقربى هى الكسندرين ميخائيلوفنا • وهكذا ينتهى الجزء الثانى من الرواية على حين بغتة •

ويبدأ الجزء الثالث • انه « قصة جديدة » • ان السيدة التى تحسن الى الصبية اليتيمة فتضمها اليها ، تحب هذه الصبية حبـــا صادقا ، فتبادلها الصبية الحب • ولكن نيتوتشكا تشعر بوجود شىء ما وراء ذلك الهدوء الظاهر الذى يبدو على سيدة البيت • فانها تلاحظ أن السيدة تقترب من القلق والاضطراب والخوف كلما بدت أسعد حالا وأهدأ بالا • ثم تكتشف نيتوتشكا السر : تعثر فى كتاب لوالتر سكوت على رسالة قديمة أرسلها الى الكسندرين ميخائيلوفنا شـــاب يعترف لها بحبه ، ويشكر لها « عاطفتها الأخوية » ، ويتركها الى الأبد لأن الناس من حولهم أخذوا يروجون الأقاويل • وتفهم نيتوتشكا السر فى حزن « الخاطئة البريئة » • وكان بطرس الكسندروفتش ، زوج السيدة ، يتظاهر بأنه غفر لامرأته ، ولكنه كان يضطهدها ويسومها سوء العـــذاب بتذكيرها بخطيئتها • وكان هذا الرجل الذى أحدث فى نفس نيتوتشكا منذ أول الأمر أثرا مؤلما يحـــاول أن يخفى نظرته عـــامدا بنظارتين زرقاوين • وتكتشف الفتاة فى الرجل الوقور الرصين انسانا طاغية يعذب « القلب الضعيف » ، امرأته • فكانت تسائل نفسها : ماهذا العذاب الذى لا مخرج منه ؟ ماهذا الخوف الذى لا نهاية له ؟ ماهذه التضحية تبذل فى مذلة

بلا تذمر ولا تململ ؟ •• وكانت الفتاة تحس أن هذه التضحية هدر •• أمجرم يغفر خطايا برىء ؟ •• وكان ذلك يمزق نفسها تمزيقا • وتنتهى القصة بمشهد ميلودرامى : يفاجىء بطرس الكسندروفتش الفتاة وهى بسبيل قراءة تلك الرسالة ، فيشتبه فى أن تكون قد تلقت رسالة من عشيق • ان نيتوتشكا مستعدة لأن تتحمل هذه التهمة ، كما فعلت ذلك من قبل فى سبيل كاتيا • ولكن هـاهى ذى الكسندرين تعترف أثناء مناقشة حامية بينها وبين زوجها بأنهـا هى أيضا « خاطئة » ، وبأنها مستعدة لأن تترك المنزل مع نيتوتشكا • وتكشف نيتوتشكا عن الحقيقة للزوج الغيور ، فتطلعه على سر الرسالة ، وتأخذ تقرع فيه صلفه وكبرياءه وأنانيته وقسوته ونفاقه ، وتصفه بأنه انسان يحسب نفسه مبرأ من كل خطيئة ، فهو لا ينفك يعذب الآخـرين • وبهذا الانفجار الذى تنفجره نيتوتشكا تنتهى الرواية مبتورة •

الليالى البيضاء

١٨٤٨

ان هذه القصة التى كتبت سنة ١٨٤٧ ونشرت فى كانون الأول ديسمبر ١٨٤٨ تكاد تروى فصلا من حياة كاتبها • ان البطل الذى لا اسم له فى هذه القصة ، والذى يروى أحلامه وانفعالاته وحبه الرقيق الحنون ، يصف جانبا من طبع الكاتب الشـاب دوستويفسكى ، ويقص حيـاته الانعزالية ومشـاعره العنيفة وأحـلامه الرومانسية • بماذا يحلم هذا الكاتب الشاب ؟ •• انه يحلم بكل شىء • يحلم بدور الشاعر المغمور أول الأمر ، المتوج بأكاليل المجد بعد ذلك ، يحلم بصداقة مع هوفمان(*) ، بليلة سان بارتلمى ، بديان فرنون ، بالسلوك البطولى الذى أظهره ايفان سيليفيتش عند الاسـتيلاء على قازان ، بكلارا موفبراى ، بايفى دينز ، بأحبـار المجمع البـابوى وأمامهم هـوس ، بيقظة المـوتى فى « روبير الشيطان » (ألا تتذكرين هذه الموسيقى التى تفوح فيها رائحة المقابر ؟) بمينا وبرندا ، بمعركة بريزينا ، بقراءة قصيدة عند الكونتيسة ف • د ،

بدانتون ، بكليوباترا وغرامها ، ببيت صغير فى كولومنا ، بركن صغير له تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه فى أماسى الشتاء . »
... هذه هى التأملات الخلاقة التى كان يسترسل فيها الكاتب الشاب محوما حول الموضوعات التي يمكن أن تتناولها أعماله وقد تشبعت برومانسية تاريخية ونفسية . ان الكاتب يدرك أحيانا أن هذه الحياة الانعزالية التأملية يجب أن تدان لأنها تفصله عن الحياة الواقعية وهو مع ذلك مفتون بهذه الأحلام لأنها ينبوع وحيه والهامه . ان حياة هذا الحالم بطل القصة الذى يعيش فى بطرسبرج منذ ثمانى سنين (كالكاتب نفسه) والذى لم يعقد فيها أثناء هذه السنين الثماني علاقة بأحد من الناس هى مزيج من خيال جامح ومثالية مسعورة وتفاهة مبتذلة عادية . انه في عزلته في هذه العاصمة المتوحشة التي لا تكلمه يسترسل فى دراسة وجوه المارة ليتخيل طباعهم حتى أن البيوت نفسها معارف له وأصدقاء ، وان له بينها ما هو أثير عليه حميم عنده . ان » الهة الخيال« تنسج أمامه موكبها العجيب ولكنه فى حاجة الى الخروج من هذه الحياة الخيالية ، انه فى حاجة الى أن يجد صديقا حيا (أو صديقة) ليستطيع أن يفضى بما فى قلبه الفياض حبا وحنانا . وها هو ذا فى ليلة من ليالى شهر أيار (مايو) البيضاء بينما كان الضياء الشمالى يضفى على المدينة النائمة طابعا سحريا ، ها هو ذا يلتقى بفتاة بائسة فيحميها من عابر مزعج . انه يشعر نحوها بشفقة عميقة لأنه يرى أنها حزينة وأن ذكرى من الذكريات كانت تبكيها فيقدم لها صداقته . ويلتقى الشاب والفتاة أربع ليال متتاليات في المكان نفسه فيقص كل منهما على صاحبه حياته القصيرة صادقا مخلصا لا يخفى منها شيئا . ان ناستنكا تنتظر الرجل الذى تحبه ، الرجل الذى ضرب لها موعدا فى هذا المكان نفسه ولكنه لا يجيء فاذا هى تغرق فى كمد عميق . ويعرض عليها البطل صداقته ويحاول أن يساعدها رغم أن هذه الصداقة سرعان ما استحالت حبا .

هكذا نرى أن دوستويفسكى يعود الى موضوع قصته الأولى « الفقراء » . ولكن النغمة مختلفة هنا اختلافا كبيرا فالكاتب لا يقتفى هنا أثر المدرسة الطبيعية على طريقة جوجول ولسنا نجد ها هنا أى شىء يتصل بالمجتمع ، فلا مكاتب ولا دواوين ولا موظفين ولا «أصحاب معالى». ولا يشير البطل الا اشارة عابرة الى عمل يتقاضى عليه أجرا مقداره مئة

روبل فى الشهر والى مكافأة سينالها قريبا • فى هذه القصة يحل محل ماكار (بطل قصة«الفقراء») الفقير المسن الأخرق المضحك القليل الثقافة، يحل محله شاب حالم يفيض حماســـة وثقــافة أدبية • كما أن فارنكا دوبروزيولوفا المراض الحزينة قد استحالت هنا الى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها طافحة الحيوية بارعة المكر على براءة • ثم ان الحب العاطفى الذى شعرت به فارنكا نحو الطالب بركروفسكى قد انتهى بمأساة هى موت الشاب • ثم هى بعد ان أذلها وهجرها السيد بيكوف قد ارتضت أن تتزوجه دون أن تشعر نحوه بأى حب حين عاد اليها ليصلح خطأه • ولا كذلك فى قصة الليالى البيضاء فان الحب الذى يشبه أن يكون طفوليا ولكنه عميق أعنى حب ناستنكا للشاب الذى استأجر غرفة فى بيت جدتها ، قد انتهى نهاية سعيدة ، وناستنكا قد تركها حبيبها أيضا فترة من الوقت ولكنه يعود اليها بعد ذلك فى الليلة الرابعة وتكون خاتمة القصة زواجا سعيدا • وأخيرا فان ماكار المسكين يبقى حزينا منعزلا مهجورا قد هوى الى قاع اليأس ، أما فتى « الليالى البيضاء » فانه بعد أن رأى خطة زواجه تنهار يبارك قـــدره فى وثبة من انكار الذات فاذا هو يخاطب ناستنكا قائلا : « بوركت يامن وهبت لحظة من هناءة وسعادة لقلبى الممتن الذى يعيش فى وحشة العزلة ! لحظة بكاملها من سعادة ! رباه ! هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » • ان الحب شبه الأخوى الذى شعر به الحالم قد رفعه الى ذرى عالية من عاطفة الايثار وسوف نرى هذه الشخصية المثالية ذات القلب الحـار الحســـاس الخجول تظهـر مرة أخرى عند دوستويفسكى وذلك فى روايته «مذلون مهانون» •أليس ايفان بيتروفتش فى هذه الرواية شبيها ببطل الليالى البيضاء ؟ • ان هـــذه الشــخصية هى من أحب الشخصيات التى خلفها دوستويفسكى وهى عند دوستويفسكى نفسه أقربها الى قلبه وآثرها فى نفسه ولعل من الشائق أن نذكر فى هذه المناسبة أن دوستويفسكى قد تصور فى عام ١٨٧٦ أن يكتب رواية برمتها يجعل عنوانها : « الحالم » •

بروخارتشين

١٨٤٦

القصة الثالثة فى هذا المجلد « بروخارتشين » ، قد كتبها دوستويفسكى فى صيف عام ١٨٤٦ ، وفى مقال له ظهر سنة ١٨٦١ ، يروى لنا دوستويفسكى كيف نبتت فى خياله شخصية هذا « الفقير الغنى » بروخارتشين • قال انه كان قد قرأ فى احدى جرائد العاصمة خبرا صادقا عن بخيل غريب ، « يشبه هارباجون الذى وصفه موليير فى مسرحية البخيل ، مات فقيرا فوق أكوام من الذهب • انه موظف صغير محال على التقاعد اسمه س •• كان لا يدفع الا ثلاثة روبلات أجرا لمبيته على سرير وراء حاجز فى بيت يسكنه عدد من المستأجرين ، وكان لا ينفك يشكو الفقر ، حتى أنه لم يدفع أجر المبيت ، فى السنة الأخيرة التى سبقت وفاته • فلما مات اكتشفوا بين أشيائه مائة وتسعة وستين ألف روبل ، نقودا فضية وأوراقا مالية • » لقد أثرت قراءة هذا النبأ فى نفس دوستويفسكى • وتابع دوستويفسكى يقول فى مقاله : « عندئذ انما تراءى لى بين جمهرة المارة فى الطريق رجل ليس له وجود فى الواقع ولكنه من ابتكار الخيال ، يرتدى معطفا لا شك أنه كان يتخذه غطاء لنفسه فى الليل ، وأدركت أنه هو نفس ذلك الهارباجون الذى مات راقدا فوق نصف مليون • وهاهى ذى شخصية قصصية تنبجس فى خيالى ، شخصية تشبه شخصية « الفارس البخيل » الذى وصفها بوشكين ، وسرعان ما رأيت أن أمامى شخصا فذا : يهجر العالم ويهجر جميع ما فى العالم من مغريات ، ويمضى يعيش منزويا وراء الحاجز فى البيت الوضيع• ماله وللترف الباطل والرخاء السخيف والدعة الكاذبة والهناء المزعوم ؟ لا •• ليس به الى ذلك حاجة قط •• انه يملك تحت مخدته كل مايريد ، يملكه تحت كيس وسادته الذى لم يغيره منذ سنة بكاملها • ليس عليه الا أن يصفر ، حتى يأتيه كل ماهو فى حاجة اليه زاحفا اليه زحفا ! لو

شاء لابتسم له واحتفل به ألوف الناس ·· ولكننى أحسست وأنا أحلم بهذه القصة أننى أسرق بوشكين ··· »

ويجب أن نذكر أن هناك شخصـــية بخيل آخر قد رستمها يراع جوجول فى كتابه « النفوس الميتة » ، وهى شخصية بليوشكين · وهل يجهل أحد أن هذين الكاتبين قد كانا نقطة انطلاق دوستويفسكى !

وحين نشرت هذه القصة ، قسا الناقد بيلنسكى فى الحكم عليها ، فكتب يقول : « هذه قصة ثالثة للسيد دوستويفسكى تنير الاستهجان حتى لدى المعجبين بموهبته · ان فيها بضع ومضات من موهبة ، ولكن هذه الومضات القليلة محاطة بظلمات تبلغ من الكثافة أن ضياءها لا يتيح للقارىء أن يميز شيئا · ليس فى هذا الأثر شىء من الهام ، ليست هذه القصة ثمرة عمل حر يقوم به فنان منطلق على سجيته · ان فيها تصنعا ·· ان فيها ادعاء ·· انها غير مفهومة · ولا شىء فى الفن يجب أن يكون مظلما أو غير مفهوم · » والحق أن هذا الحكم قاس جدا · لقد كان بيلنسكى ناقدا واقعيا اجتماعيا يسرف فى التبسيط ، ولم يكن قادرا على أن يقدر عمق الأغوار النفسية التى يهبط اليها دوستويفسكى ·

صحيح أن هذه القصة ليس فيها مافى « الفقراء » من غنى يشد القارىء ويجذبه اليها ، ولكن عالمها هو عالم «الفقراء» نفسه: الغرف الصغيرة المفروشة ، المؤجرات الجاهلات البسيطات ، سكان هذه الغرف على اختلاف أنواعهم ، السكارى الأشقياء ·· الخ ·· والقصة أكثر جفافا من قصـــة « الفقراء » ، فالمؤلف لا يكاد يصف فيها الا شخصية واحدة ، غير جذابة· وهى ــ أى القصة ــ خالية من عمق العاطفة التى تحفل بها قصة الفقراء· ولكنها تشتمل على صفحات كاوية حقا ، ولا سيما الصفحات التى تصور هذيان البخيل فموته ، ذلك عدا الأحلام الرهيبة المشئومة التى يصفها دوستويفسكى وصفا أخاذا ، والتى لعله عانى هو نفسه مثلها !

الجـــارة

١٨٤٧

بدأ دوستويفسكى كتابة هذه القصة « الجارة » فى خريف عـــام ١٨٤٦ • وقد أرسل الى أخيه يقول له أيامئذ : « لسوف تكون هـذه القصة الجديدة خيرا من رواية « الفقراء » • هى من ذلك النوع نفسه • وانما يقود قلمى فى كتابتها الهام ينبع من النفس رأسا • فلست أعانى فى كتابتها من العناء ما عانيت فى كتابة قصة « بروخارتشين » التى أرهقتنى طوال الصيف » •

فلما نشرت القصة ، كان بيلنسكى قد أصـــبح لا يطيق أى أدب يخرج على نطاق الواقعية ذات الاتجاه الاجتماعى ، لذلك لم يستطع أن يفهم شيئا من جمال هذه القصـــة الرومانســية التى تختلف فى حقيقة الأمر اختلافا كبيرا عن رواية « الفقراء » • فاذا هو يصفها فى دراسة تستعرض الأدب الروسى سنة ١٨٤٧ قائلا عنها انها لا تشتمل على كلمة واحدة أو عبارة واحدة يمكن أن تعد بسيطة حية ، فكل شىء فيهـــا متكلف مبرقش مصطنع زائف •

والحق أن القصة على جانب عظيم من الجمال • وهى أول قصـــة يصور فيها دوستويفسكى شخصية « حالم » • أوردينوف فتى مثقف ، منفصل عن المجتمع ، منحبس فى عالم فكره الخيـــالى وأحلامه الكثيرة ، عاكف على كتابة تاريخ للكنيسة • ان هذه السمة الأخيرة فيه تربطه بالشاب التقى الرومانسى شدلوفسكى الذى كان لدوستويفسكى صديق صباه • وهو الى ذلك فتى شديد الحماسة تنتابه فى بعض الأحيان نوبات صرعة • هذه أول مرة يصف فيهـــا دوستويفسكى مرضـــه هو ، والاحساسات الحادة التى كان يشعر بها • ان أوردينوف انسان منعزل، تفيض نفسه أهواء مكبوته لا تنتظر الا أن تنبجس من قلبـه طافحـــة عارمة • فها هو ذا يتوله حبا بجارته الجميلة التى استأجر فى بيتهـــا غرفة ، والتى لا يعرف أهى ابنة الشيخ الذى تعيش معه أم هى زوجته، وهو شيخ يشبه أن يكون لغزا ، وتوافيه نوبات صرعة هو أيضا • والقصة كلها تجرى فى جو هو الى الحلم أقرب منه الى اليقظة •• فى جو لا يكاد يستطيع البطل أن يميز فيه بين أحلامه وبين العالم الواقعى •

لا شك أن دوستويفسكى قد تأثر فى كتابة هذه القصة بجوجول. ان الجارة تشبه كاترين بطلة « الانتقام الرهيب » (حتى لقد استعار اسمها) التى سحرها أبوها الساحر نفسه . ولكن دوستويفسكى قد نقل شخوص الجو الأكرانى الذين وصفهم فيه جوجول ، الى روسيا الكبرى ، فى غابات الفولجا التى يرتادها قطاع الطرق . وهو يتأثر أيضا بأسلوب سرد القصص الشعبية ، هذا الأسلوب الأخاذ الذى عرف كيف يقلده تقليدا بارعا موفقا .

دعك اذن من النقد المر الذى وجهه بيلنسكى الى هذه القصة ، وانظر اليها بقلب متفتح للجمال تجد فيها روعة أخاذة . ثم ان لهذه القصة مكانا هاما بين جملة أعمال الشباب التى أنتجها دوستويفسكى . ان كاترين « قلب ضعيف » مثل اوردينوف تماما . وها هى ذى نفسها تقول : « هب الحرية لانسان ضعيف ، يرفضها هو نفسه ويردها اليك » ان هذه الفكرة سيعود اليها دوستويفسكى بعد سنين طويلة فى « الأخوة كارامازوف » فيعرضها بمزيد من القوة والعمق .

ان كاترين مأسورة مسحورة أفسدها مورين ، قاتل أبويها . وهى تهتف قائلة عنه : هو شيطانى الخبيث ، بعته روحى . فأنا له .. أنا ملك يمينه . ويدرك أوردينوف أن مورين على حق حين يصفها بأنها « قلب ضعيف » . ان هذا القلب الضعيف خاضع لمشيئة مورين الشيطانية . ان كاترين لا تستطيع أن تتمتع بالحرية التى يتظاهر مورين بأنه يمنحها اياها ، فهى فى الفصل النهائى تعود الى الذى أغواها ، رغم أنها تحب الفتى حبا قويا . هذه المرأة التى لها نفس حارة ملتهبة ، هذه المرأة التى تريد أن تهب الحب الصادق الحر لانسان جدير بها ، ثم هى لا تستطيع أن تتحرر من سلاسل خطيئتها ، أليست صورة لبطلة رواية « الأهبل » ، ناستازيا ، وبطلة « الاخوة كارامازوف » جروشنكا ؟ وأخيرا ، فلسوف نجد هذا الهوى المحموم المسعور الذى يستبد بمورين ، هذا الهوى الذى يعبر عن الظمأ الى التسلط ، سوف نجده فى الروايات التى سيكتبها دوستويفسكى فى المستقبل . ان دوستويفسكى يعالج منذ الآن ، مشكلة الحرية والارادة ، فى هذه القصة التى لم يفهمها معاصروه .

المهرج

١٨٤٨

لم ينشر دوستويفسكي قصة « المهرج » في طبعة أعماله سنة ١٨٦٠ ، بعد أن نشرها عام ١٨٤٨ ، لقد عدها تافهة • ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاة دوستويفسكي ملحقة بالمجلد الأول الحاقا • على أن هذه القصة لا تخلو في الواقع من طرافة ، كما أنها تشبه من بعض النواحي بعض قصص دوستويفسكي في أيام شبابه • ان المهرج بولزونكوف الذي يريد أن يسر الناس جميعا وأن يبهجهم هو المعادل المضحك لفاسيا شومكوف • فكلا الشابين ذو « قلب حار » ، وكلاهما طيب النيات ، يتمنى أن يحب وأن يحب • ولكن الثاني يصبح كاريكاتورا للأول ، كما يحدث ذلك كثيرا لدى دوستويفسكي • ان بولزونكوف يقص علينا هو أيضا حكاية غرامية عن خطبة الفتاة ماريا المسكينة التي تشبه خطيبة فاسيا • ولكن هذه الحكاية الغرامية محاطة باطار هزلي ، بمشهد منفر يحاول فيه بولزونكوف أن يحمل حماه على أن يغني ، وفي آخر الأمر يظهر بولزونكوف مخدوعا قد غرر به حموه هذا • ان هذا التناوب بين النيات الطيبة والرغبات الخسيسة لهو من السمات البارزة التي تميز بعض أبطال دوستويفسكي •

السارق الشريف

١٨٤٨

في شهر نيسان أبريل ١٨٤٨ ، نشر دوستويفسكي « من أقاصيص شيخ عابر سبيل » ، وكان ما نشره يضم قصتين ، احداهما هي : « الجندي المتقاعد » والثانية هي : « السارق الشريف » ، والقصتان كلتاهما يرويهما جندي متقاعد برتبة صف ضابط اسمه آستافي كان قد سكن عند دوستويفسكي بعض الوقت خادما •

فلما أعد دوستويفسكي اعادة طبع أعماله سنة ١٨٦٠ ، عدل هذا العمل من أعماله ، فأسقط القصة الأولى بأسرها ، وهي عن حرب عام ١٨١٢ ، وجعل عنوان الثانية للعمل كله •

ان دوستويفسكي يعرف كيف يتحدث باللسان البدائي البسيط الذي يتكلم به رجل من الشعب • والفكرة الأساسية في هذه القصة هي ما يتصف به انسان بسيط من طيبة متواضعة صادقة • • ان صف الضابط ، الفقير هو نفسه ، يؤوي في غرفته سكيرا مدمنا ، هو ايمليان، ويساعده ، ويعطف عليه ويشعر نحوه بحزن شديد حين يلاحظ أن هذا السكير الذي آواه وأطعمه من جوع وآمنه من خوف قد سرقه • ولكنه لما يتصف به من رهافة في الطبع وذوق في المعاملة لم يوجه اليه كلمة لوم واحدة •

ان السكير ايميليان الذي سبق أن التقينا به في رواية «الفقراء» والذي كان يعرفه دوستويفسكي فعلا ، هو انسان حساس مرهف الشعور • لقد ارتكب جريمة السرقة ضعفا ، ولكن ضميره يعذبه أشد التعذيب ، وهو يحاول أن يسر الرجل الذي أحسن اليه وأنعم عليه وأن يبهجه ، ويتمنى لو يعمل ، ثم اذا هو من فرط عذاب الضمير تنهار صحته ، واذا هو يعترف بجريمته حين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيخفف ذلك عنه ويواسيه ، ويشعر أن صاحبه قد غفر له وصفح عنه •

ان هذين الانسانين اللذين يمتازان بالشهامة والمروءة ، ويفيضان عاطفة وطيبة أقرب الى الواقع من أصحاب « القلوب الضعيفة » ومن « الحالمين » الذين وصفهم في قصصه السابقة • ان ضابط الصف ، القادر على أن يحب وعلى أن يعفو ، هو « الانسان العادل » بين أبناء الشعب الروسي في نظر دوستويفسكي • وسنقع عليه في رواية « المراهق » بسمات شخصية دولجوروكي •

البطل الصغير

١٨٤٩

أثناء الأشهر الثمانية التي قضاها دوستويفسكي في سجن منفرد بقلعة بتروبافلوسكايا ، لم ينقطع عن التفكير في تأليف قصص جديدة • وها هو ذا يكتب الى أخيه ميشيل ، في ١٨ تموز (يوليو) ١٨٤٩ قائلا : « انني لا أضيع وقتي : فلقد تخيلت ثلاث قصص وروايتين ، وأنا عاكف الآن على كتابة احداها • ولكنني أخشى الاسراف في العمل • ذلك أن

العمل ، لا سيما اذا قمت به فى حماسة ونشـــاط (وأنا لم أعمل يوما كما أعمل الآن) يهدم صحتى دائما بتأثيره فى أعصابى » • والحق أن دوستويفسكى لم ينجز أثناء تلك المدة الا قصة « البطل الصغير » ، أما الأعمال الأخرى التى تخيلها ووعد بها ، ولعله لم يزد على أن شرع فيها ، فلا نعرف عن مصيرها شيئا •

وبعد ذلك بزمن طويل قال دوستويفسكى للأستـــاذ فسيفاود سولوفييف ، المختص باللغات الرومانية : « حين وجدتنى فى السجن قدرت أن هذه هى النهاية ، وأننى لن أستطيع الاحتمال أكثر من ثلاثة أيام ، ولكننى لم ألبث أن هدأت هدوءا تاما على حين فجأة • فماذا فعلت ؟ كتبت قصة « البطل الصغير » • اقرأ هذه القصة ! هل تجد فيها شيئا من غضب أو حنق أو ألم ؟ وكنت وأنا فى ســـجنى أحلم أحلاما هادئة طيبة حلوة عذبة ، وكلما طال بقائى فى السجن ، ازداد حالى تحسنا • » • ان هذا التناقض بين الزنزانة الرطبة مع الانتظار الطويل لصدور الحكم وبين الأحلام الهادئة والذكريات المضـيئة المشرقة لهو ظاهرة نفسية نادرة • وقد علل دوستويفسكى هذه الظاهرة فى تلك الرسالة نفسها قائلا : « ان فى طبيعة الانسان حيوية مدهشة ! حقــا ما كان لى أن أصدق أن الانسان يملك مثل هذه الحيوية ولكننى أعرف الآن ذلك بالتجربة • » ان هذه الحالة النفسية التى ولدت هذه القصـة الأخاذة التى تذكر بمناليته الهادئة فى قصة « الليالى البيضاء » ، ولكنها تنقلنا من الجو الخيالى ، جو الضياء المظلم الذى تعرفه العاصـــمة فى لياليها البيضاء ، تنقلنا من هذا الجو الى جو البرية الغارقة فى الشمس ، الى جو الطبيعة التى أحبها دوستويفسكى حبا كثيرا ، ولكنه لم يصفها الا نادرا • ان دوستويفســكى يصـــور فى هذه الرواية حيـــاة لاهية مرحة فى أطيان غنيـة قرب موســكو ، « حياة تشـــبه أن تكون عيـــدا لن ينتهى فى يـوم من الأيـــام » ، حياة تتعـاقب فيهـــا المباهج : فمن رحلات على صـوات الجياد ، الى نزهات فى الغابات ، الى رقص ، الى موسيقى ، الى غناء ، الى تمثيل ••• وفى هذه القصة نقع على موضوع من الموضوعات المألوفة التى يعالجها دوستويفسكى : يقظة العواطف فى نفس طفل لما يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، يقظة الحب بالغريزة على غير شعور فى قلب ملتهب • ان هذا الموضوع يربط بين «البطل الصغير» وبين

« نينوتشكا نزفانوفا » ، ولكن البطل الصغير أملأ بالحياة وأفيض بالحركة وأحفل بالنشاط وبروح المغامرة من نيتوتشكا الخجول التي عانت مذله الحياة منذ نعومة أظفارها • والى جانب البطل الصغير نرى شخصيني امرأتين تقابلان كاتيا (بنت الامير في قصه «نيتوتشكا نزفانوفنا» والكسندرين ميخائيلوفنا (في تلك القصة نفسها) • هاتان المرأتان هما : الشقراء الجميلة والسيده م ••• أما الأولى فهي نشيطة خفيفة كالنار ، تضطهد الصبي وتسومه سوء العذاب ، وتدعى أنها مولهة بحبه ، وما تنفك تلاحقه بشيطناتها •• حتى اذا برهن على شجاعة نشبه أن تكون تهورا ، وذلك حين ركب مهرا جامحا لا سبيل الى ترويضه ، أدركت ما في عاطفته من جد ، وأصبحت صديقته الرقيقة الوفية • وأما الثانية فهي التي من أجلها انما قام الصبي بمغامرته المتهورة • فالصبي انما يحب السيدة م ••• وقد راح يضع نفسه في خدمتها فارسا مفتون اللب بسيدته على نحو ما تروى حكايات القرون الوسطى ، مستعدا لأن يخاطر بحياته في سبيل معبودته التي لا سبيل اليها •• ان الصبي يحب السيدة م ••• وحبه انما هو مزيج من اعجاب وشفقة معا • واذا كانت الشقراء الجميلة تشبه كاتيا (في قصة « نيتوشكا نزفانوفا ») ، كاتيا التي تحب تعذيب المحبوب ، فان السيدة م ••• تشبه الكسندرين ميخائيلوفنا• انها تبدو هي أيضا سعيدة مع زوجها الرصين المتكبر ، ولكنها تحمل هي أيضا حزنا خبيئا • ان نظرتها خجلة وجلة قلقة: « كان هذا الخجل الغريب يضفي على قسماتها الناعمة العذبة الرقيقة التي تشبه قسمات مادونا ايطالية تعبيرا يبلغ من الحزن أنك تشعر بالحزن يغزو نفسك متى رأيتها » • والفتى مفتون بها بل مسحور • انه يريد أن يخدم هذه الانسانة الحزينة وأن يخفف عنها وأن يواسيها • وقد أصبح وصيفها • وهو يشعر نحو زوجها السيد م ••• بعداوة شديدة واضحة ، لأنه يدرك بحدسه أن هذا الرجل ليس طيب النفس ، وأنه غيور ، وأنه ربما كان قاسي القلب •

وبعد حادثة امتطائه صهوة المهر الجموح على ذلك النحو البطولي الذى جعل له شهرة كشهرة أبطال شيللر وفرسان دولورج وتوجنبرج ، يعثر الصبي مصادفة على رسالة يشعر أنها تضم بين ثناياها سر المرأة الشقية في حبها الدفين العاثر الحظ • فكذلك عثرت نيتوتشكا أيضا بالمصادفة على رسالة مرسلة الى صاحبتها ، ولكن الفرق بين القصتين أن الفتاة الطلعة

قد قرأت الرسالة وأعادت قراءتهـا بل ونسختها ، أما البطل الصغير فانه يحـاول أن يرد الرسـالة الى سيدته مختومة غير مفضوضة ، لا يريد أن يكشف عن سرها ، وكان قد شهد خفية ، مشهد الوداع بين السيدة م ٠٠ وحبيبها : « لعل هذه القبلة كانت قبلة الوداع ، القبلة الاخيرة ، المكافأة اليسيرة على تضحية ستحمل اليهـا الهدوء وتحفظ لهـا حسن السمعة ٠ وكان الحبيب ن ٠٠٠ قد سـافر ٠ ولعـله قد تركها الى الأبد » ٠ وتظـل الرسالة بين يدى الصبى ، فلولا ذلك لاكتشف سر السيدة على حين فجأة، ولنزل عليها ذلك نزول صاعقة رهيبة ٠ ويتخيل الصبى خطة لرد الرسالة الى صاحبتها ، فيمضى يجمع باقة من أزهار الحقول يدس فيها الرسالة ، ثم يقدم الباقة الى سيدته فرحا مبتهجا ٠ ويتظاهر بالنوم منتظرا أن تقع السيدة على الرسالة ، ثم يحس بقبلة الشكر والعرفان تطبعها السيدة على شفتيه ، ويبقى هو ساكنا فى نشوة كأنهـا الوجد ٠ ويتأمل الطبيعة فى روعة الصيف ٠ انه ممتلىء سعادة ٠ ويستسلم لهدهدات هـذا الاكتشاف الأول لقلبه ، ويستسلم لهدهدات هذه اليقظة الأولى التى تتحقق فى طبيعته على غير شعور منه٠ « لقد انتهت طفولتى »٠ ما أروع وصف دوستويفسكى لهذه العواطف التى تضطرم فى قلب فتى ملتهب ! ان الأسطر الأخيرة من هذه القصة التى كتبها دوستويفسكى قبل سفره الى المعتقل بسيبيريا لهى من أصفى ماخطه قلمه من أحلام رومانسية٠ انها وداع للشباب قبيل الآلام التى ستكشف له عن قوة الشر فى أعماق النفس الانسانية ٠

قصة فى تسع رسائل

١٨٤٧

قبل أن ينشر دوستويفسكى روايتيه الأوليين « الفقراء » و « المثل » كان قد كتب سنة ١٨٤٥ ، هذه القصة : « قصة فى تسع رسائل » ٠ لقد كان دوستويفسكى فى ذلك العام يعانى نوعا من هوس العظمة : كان يقدر أنه يستطيع أن ينجح فى الكتابة فى جميع الأنواع الأدبية ، ومنها القصص الهزلية المضحكة ٠ وقد طلب اليه نكراسوف حين فـكر فى اصدار مجلة ساخرة أن يكتب له قصة من هذا النوع ، فسر دوستويفسكى بهذا الطلب سرورا كبيرا ، ثم اذا هو يمضى الى بيتـه فى المساء ، فمـا يكاد يطلع عليه الصباح ، حتى يكون قد فرغ من كتابة قصته « قصة فى تسع رسائل » ،

وحمل القصة الى نكراسوف فقبل نكراسوف نشرها في مجلته • وكتب دوستويفسكي الى أخيه ميشيل يقول : « لقد قرئت القصة عند تورجنيف في ذلك المساء نفسه ، فأحدثت دويا •• وقال لى بيلنسكى انه واثق من موهبتي ، لأنني قادر على معالجة موضوعات متنوعة أكبر التنوع •• » • ولكن مجلة نكراسوف لم تصدر ، ولم تنشر القصة الا بعد سنة ، وكان بيلنسكى قد غير رأيه ، حتى لقد كتب الى تورجنيف يقول : « ان هذه الرسائل التي يتبادلها مخادعان في قصة دوستويفسكي لم تعجبني بل لقد أثارت نفوري واشمئزازي •• على دهشة مني •• انني لم أستطع أن أتم قراءتها الا في كثير من العناء • ذلك كان شعوري بوجه عام » • والحق أن هذه القصة هي أضحل ما خط قلم دوستويفسكي • حتى أن دوستويفسكي نفسه لم يعد نشرها حين أعد طبعة أعمال الشباب سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦٥ ، ثم لم يعد نشرها الا بعد وفاته • انها قصة اثنين من المقامرين يجتمعان على ابتزاز مال شاب غنى هو أوجين • وقد اقترض الأول ، بطرس ايفانوفتش ، مبلغ ثلاثمائة وخمسين روبلا من الثانى ليدبر أمر هذا الغش ، وهو يتحاشى أن يلتقى به ، فيكتب اليه الثانى رسائل طويلة متهما اياه بسوء الذمة • وتترتيك الأمور في النهاية ، فيرسل كل من الرجلين الى صاحبه رسالة لطيفة مكتوبة بخط زوجته • ونعرف عندئذ أن أوجين لم يكن الضحية التى خدعها المخاتلان ، بل كان هو الجانى الذى أوقع الرجلين كليهما في شركه بسطوه أمرأتيهما • ويمكن القول ان هذه القصة القصيرة التى كتبت على أسلوب المهزلة الفرنسية ما تزال تعكس شيئا من تأثير جوجول : فان موضوعها قريب في الواقع من موضوع المسرحية الهزلية الصغيرة التى كتبها جوجول بعنوان « المقامرين » ، وفيها يحاول اثنان من المقامرين بالورق أن يخدعا شابا غنيا ، ولكن حيلتهما تكتشف في آخر الأمر ، ويرتد كيدهما الى نحرهما •

شجرة عيد الميلاد والزواج
١٨٤٨

« شجرة عيد الميلاد والزواج » قصة صغيرة عميقة من الناحية النفسية • تبتدىء هذه القصة بوصف احتفال بعيد الميلاد يبتهج فيه

الأطفال ويفرحون • لقد كان دوستويفسكي يحب الاطفال كثيرا ويعنى بمعرفة نفوسهم • كتب ذات مرة يقول : « انني أحب ملاحظة الاطفال كثيرا • انه ليشوقني كثيرا أن أفاجيء فيهم أولى تجليات الحياة » • وهو في هذه القصة يصف بكثير من المحبة والتعاطف بنية في الحادية عشرة من عمرها ستكون وريثة ثروة طائلة ، كما يصف بمزيد من المحبة والتعاطف أيضا صبيا صغيرا هو ابن الخادمة الذى يحتقره سائر الاولاد• ان صورة الطفل الصغير المضطهد ستعود الى الظهور في روايات دوستويفسكي (نيتوتشكا في قصة « نيتوتشكا نزفانوفا » ، واليوشا في « الاخوة كارامازوف ») •

وفيما كان الأطفال يحتفلون مبتهجين ، يدخل شخص من الكبراء (يذكر بالمحسن الى فاسيا في قصة « قلب ضعيف ») • ان هذا الشخص هو هنا رجل ماكر طماع شره الى المال شهواني• وهاهو ذا يطمع بينه وبين نفسه في أن يتخذ من البنية زوجة له في المستقبل ، متى أتمت السادسة عشرة من عمرها • ان الزواج الذى يقوم بين رجل مسن وفتاة صغيرة ـ وكان هذا يحدث كثيرا في ذلك الزمان الذى كان ينادى فيه « بالزواج القائم على العقل والحكمة » ـ كان يثير الاشمئزاز في نفس دوستويفسكي • وسوف نرى دوستويفسكي يعالج هذا الموضوع نفسه في روايته « حلم العم » • وقد تحقق للرجل المسن ما أراد •• فما بلغت الصبية السادسة عشرة من عمرها حتى رأيناها تزف اليه •

زوجة آخر ، ورجل تحت السرير

١٨٤٨

الحق أن هذه القصة هي من أضعف أعمال دوستويفسكي • لقد أراد في هذه القصة ، كما أراد ذلك في « قصة في تسع رسائل » أن يضحك القراء ، أن يقدم اليهم قصصا هزلية ، وعرة متشابكة بعض الشيء على طريقة روايات بول دو كوك الذى كان يحظى برواج كبير في ذلك الوقت • ان موضوع هذه القصة أشبه بموضوع مسرحية من نوع « المسخرة » • وهي تتألف من جزأين ، في الجزء الاول منهما نرى زوجا غيورا ينتظر خروج زوجته من موعد غرامي ليقبض عليها متلبسة

بالجـرم المشـــهود ، وها هو ذا يدخل فى حديث مع شـــاب هو عشـــيق الزوجة كان ينتظرها هو أيضا • وتخرج الزوجة الخائنة أخيرا يصحبها شخص ثالث ، فلقد خانت زوجها وعشيقها الأول كليهما ، ولكنها حين تلتقى بهما تحافظ على رباطة جأشها وهدوء أعصابها • وفى الجزء الثانى من هذه القصة نرى هذا الزوج الغيور نفســه يريد أن يفاجىء امرأته متلبسة بالجرم المشهود ، ولكنه يضل طريقه الى الطابق الذى كان يجب أن يصعد اليه من العمارة فاذا هو يدخل بيتا لا يعرفه ، فيختبىء تحت السرير حيث يجد شابا قد سبقه الى الاختباء تحت السرير أيضا لانه ضل طريقه الى الطابق المقصود كذلك • ان هذا الشاب هو عشيق زوجته •ثم يجىء صاحب البيت وهو شيخ هرم ، فيسمع وشوشات مخنوقة تحت السرير ، وتدور بينه وبين زوجته الشـــابة أحاديث يقطعها ســعاله • ويفتضح وجود الزوج وغريمه على أثر نباح كلب صـــغير يدخل تحت السرير هاجما عليهما ، فلا يسع الزوج الا أن يخنقه فيلفظ الكلب الصغير أنفاسه ويموت • ويلوذ الشاب بالفرار ، ولا يسع ايفان آندربفتش الا أن يخرج من تحت السرير ، ويأخذ يبرىء نفسه أمام صاحب المعالى ، الشيخ زوج الشابة الجميلة • والحق أن هذا المشهد الذى يجرى بين ايفان آندريفتش المسكين ، وبين الشيخ الذى يشبه أن يكون أصـــم لا يسمع ، هذا المشـــهد الذى نرى فيه ايفان يتدفق فى ســـيل من كلام مفكك لا ترابط فيه ، هو المشهد الوحيد المضحك حقا • وسوف يرسم لنا دوستويفسكى مرة أخرى صورة هذا الوجيه الشـــــــيخ ، المريض الضعيف ، فى روايته « حلم العم » ، ولكن الصورة ستكون عندئذ أغنى وأحفل •

واذا كان لهذه القصة الهزلية جانب يجعلها شائقة بعض الشىء ، فهذا الجانب هو شكلها : ان القسم الأكبر منها حوار حى ، حتى لتكاد تكون مسرحية ، وحتى ليمكن أن توصف بأنها « قصة مسرحية هزلية »، كرواية « حلم العم » • وسيكون طابع الحوار هذا غالبا على الروايات التى سيكتبها دوستويفسكى • وبفضل هذا انما كانت روايات دوستويفسكى سهلة الاخراج على المسرح •

نيتوتشكا نزفانوفنا
١٨٤٩

«نيتوتشكا * نزفانوفا» ، ظهرت في « حوليات الوطن» ، أعداد كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) وأيار (مايو) سـنة ١٨٤٩ ، وقد انقطع نشر هـذه الرواية بسـفر دوستويفسكي الى سيبيريا .

الفصل الأول

لا أتذكر أبى ، فقد كنت فى الثانية من عمرى حين مات، وتزوجت أمى مرة أخرى، الا أن زواجها الثانى هذا ، رغم انه قام على حب ، قد سبب لها كثيرا من الآلام . كان زوج أمى موسيقيا ، لقى مصيرا غريبا ، وكان بين جميع من عرفت من الناس أغربهم وأشذهم . وكان أثره فى مشاعرى الاولى ابان الطفولة من القوة بحيث ألقى ظله على حياتى كلها بعد ذلك . و لابد لى أن أذكر هنا سيرة حياته لتكون قصتى مفهومة . وكل ما سأرويه عنه انما عرفته بعد ذلك من «ب» ، العازف على الكمان ، الذى كان فى شبابه رفيق عمى (زوج أمى) وصديقه الحميم .

كان عمى يدعى « يافيموف » . وقد ولد فى أرض أحد المالكين الأغنياء جدا . وكان أبوه موسيقيا فقيرا انتهى به المطاف الى هذه الارض ، بعد تغرب طويل ، فانخرط فى جوقة هذا المالك الغنى . وكان المالك يعيش حياة رخية ، وكان مولعا بالموسيقى الى حد الهوى الشديد ، حتى ليُروى عنه أنه ، وهو الذى لم يكن يترك أرضه يوما ، ولو للذهاب الى

موسكو ، قرر ذات يوم ، على حين غرة ، أن يسافر الى مدينة من مدن المياه في الخارج يقضي بضعه اسابيع ، لا لشيء الا ليسمع عازفا على الكمان شهيرا قالت الجرائد يومذاك انه سيحيي هنالك ثلاث حفلات •

وكان هذا السري يملك جوقة ممتازة يقف عليها جميع موارده تقريبا * • وقد انخرط عمي في هذه الجوقة عازفا على الكلارنيت • وكان في الثانية والعشرين من عمره حين صادق شخصا عجيبا • لقد كان يعيش في تلك المقاطعة نفسها كونت غني جدا يدمر ثروته لينفق على مسرح أقامه في بيته • وقد طرد هذا الكونت رئيس جوقته ، وهو ايطالي ، لسوء سلوكه •

وكان رئيس الجوقة هذا انسانا سيء السلوك حقا ، فما كاد يطرد حتى فقد كل كرامة ، فاخذ يدمن على الشراب بل أخذ يتسول ، ولم يعد في وسعه أن يجد عملا في أي مكان بهذه المنطقة • هذا الرجل هو الذي صادقه عمي • ولم يلحظ أحد في عمي أي تغير يمكن أن يعزى الى تأثير رفيقه فيه ، حتى أن المالك الذي منعه أول الأمر من معاشرة الايطالي انتهى أخيرا الى غض النظر عن ذلك • ثم مات الايطالي بغتة ، ففي ذات صباح اكتشفت بعض الفلاحين جثته في حفرة أحد السدود • ودل التحقيق الذي تم في هذا الامر أن الرجل انما مات بالسكتة القلبية• وكان كل ما يملكه الايطالي محفوظا عند عمي الذي لم يلبث أن بين أنه صاحب الحق في تركته ، اذ أبرز ورقة كتبها الايطالي بخط يده ، يذكر فيها أن « يافيموف » هو وريثه • وكانت التركة بدلة سوداء عُني المتوفى بالاحتفاظ بها لأنه كان يأمل دائما أن يجد عملا ، وكماناً لا يدل مظهره على أنه ذو قيمة كبيرة • ولم يعترض أحد على هذا الميراث • ولكن بعد مدة قصيرة جاء كبير العازفين على الكمان لدى الكونت ، جاء الى المالك

يحمل كتابا من مولاه يرجوه فيه الكونت بل يلح في الرجاء ان يبيعه يافيموف الكمان الذي تركه الايطالي ، ويظهر رغبته الشديدة في الحصول على هذا الكمان لجوقته ، ويقدم ثمنا له ثلاثة الاف روبل ، ويضيف الى هذا انه قد ارسل يستدعي يافيموف غير مرة ، ليعقدالصفقة بينه وبينه شخصيا ، الا أن يافيموف كان يرفض دعواته هذه في عناد . ويؤكد الكونت في كتابه ان الثمن الذي يقدمه يساوي قيمة الآلة ، وانه لا ينوي أن يخدع أحدا ، وانه يعتبر رفض يافيموف اهانة له ، وان يافيموف ، أخيرا ، مخطيء في الشك فيه ، فهو لا يريد أبدا أن يستغل بساطته وجهله . وخلاصة ذلك كله أن الكونت يطلب أن يُردَّ يافيموف الى صوابه .

واستدعى المالك زوج أمي على الفور فقال له :

ـ لماذا لا تريد أن تبيع كمانك ؟ انك لست في حاجة اليه . ثم ان الكونت يقدم لك ثلاثة آلاف روبل . وهو الثمن الذي يستحقه الكمان . وتخطيء ان ظننت انك تستطيع أن تبيعه بأكثر من ذلك . ان الكونت لا يحاول أن يخدعك أبدا .

فأجاب يافيموف بأنه لن يذهب الى الكونت من تلقاء نفسه ، وانه ان أكره على الذهاب اليه ، فسيذعن لارادة سيده ، لكنه لن يبيع كمانه . على ان سيده يستطيع أن ينتزع منه الآلة ، ان كانت تلك مشيئته !

وواضح ان جوابا من هذا النوع لا بد أن يضرب على وتر حساس في نفس المالك . لقد كان هذا السري يزهو دائما بأنه يعرف كيف يعامل موسيقييه ، وكان يعدهم جميعا ، من أولهم الى آخرهم ، فنانين حقيقيين ، وكان يعتقد أن جوقته ، بفضلهم ، لا تفوق جوقة الكونت فحسب ، بل تضارع جوقات العواصم .

فقال له المالك :

ـ حسنا • سأبلغ الكونت أنك لا تريد أن تبيع كمانك • سأبلغه أن هذا هو رأيك ، وأنك تشعر أن لك الحق كله فى أن تبيـــع كمانك أو ألا تبيعها ، أليس كذلك ؟ ولكن قل لى ـ أنا الذى أطرح عليك السؤال الآن ـ ما فائدة احتفاظك بهذه الكمان ؟ ان آلتك هى الكلارنيت وأنت لا تجيد العزف حتى على الكلارنيت • تنازل لى عن هذا الكمان ، فأعطيك ثلاثة آلاف روبل (من ذا الذى كان يظن ان هذه آلة ذات قيمة ؟!)

فابتسم بافيموف ، وأجاب :

ـ كلا يا سيدى ، لن أتنازل عن الكمان ، لكنك تستطيع طبعا أن••

ـ اننى لا أكــرهك على شيء •• أتراني أعذبك لأحملك على ما لا تريد ؟!

قال المالك ذلك فى صراخ غاضب ، خاصةً وأن المشهد كان يجرى على مرأى من « عازف » الكونت الذى يستطيع أن يستنتج من ذلك أن حظ الموسيقيين لدى المالك ليس بالحظ السعيد • وأضاف المالك حانقا :

ـ اذهب ، يا ناكر الجميل ، ولا أحب أن أراك بعد الآن أبدا • ماذا كنت لولاى ، انت وآلتك ، الكلارينت ، التى لا تكاد تعرف العزف عليها ؟ أنت هنا تأكل ، وتشرب ، وتلبس ، وتتقاضى أجرا ، وتعيش كما يعيش الوجهاء من الناس • أنت فنان ، ثم تأبى أن تفهم هذا كله وأن تقدره حق قدره • اذهب • لقد هيجت غضبى •

لقد كان المالك يطرد هكذا جميع من يثور عليهم ، لأنه كان يخشى نفسه ، ويخاف سورات حنقه • وماكان ليحب أبدا أن يقسو فى معاملة « فنانيه » ، كما كان يسمى موسيقييه •

وظُنّ أن الأمر قد انتهى ، ما دامت الصفقة لم تتم . ولكن ها هو عازف الكونت ، بعد شهر من ذلك ، يخلق لعمي ، من تلقاء نفسه في هذه المرة ، لا بوحي من الكونت ، مشكلةً جديدة . وهي الآن مشكلة رهيبة . انه يشي بزوج أمي على أنه قاتل الايطالي ، وعلى أنه أقدم على قتله أملا في الاستيلاء على ميراث ضخم ، ويؤكد أن الوصية انما كتبت بضغط واكراه ، وانه مستعد للبرهان على ذلك بشهود . وعبثا حاول الكونت والمالك أن يدافعا عن زوج أمي وأن يتوسلا الى متهمه ، بكل الأساليب ، أن يكف عن اتهامه ، فقد أصر على الاتهام اصرارا قويا لم يتزحزح عنه . ثم بيَّنا له أن تشريح جثة المتوفى ، رئيس الجوقة ، قد تم وفقا للأصول ، وان وشايته تخالف البداهة ، وانه انما أقدم على ما أقدم عليه حبا في الانتقام أو بداعي الغضب ، لأنه لم يحصل على الآلة التي كان يريد الحصول عليها (فمن أجله اذن كان يريد الكونت أن يشتري الآلة) . لكن الموسيقي ظل متمسكا برأيه ، وأخذ يقسم أنه على حق ، وأن السكتة القلبية لم يكن سببها السكر بل السم ، وطالب باجراء تحقيق جديد . وكان من الجد في اتهامه بحيث لم يكن بد من استئناف التحقيق : فقُبض على يافيموف وأودع سجن المدينة . وبدىء تحقيق جديد شغل المنطقة كلها وأثار اهتمامها الشديد ، وانتهى الى الحكم على الكماني بتهمة الوشاية الكاذبة .. ومع ذلك فانه ظل مصرا على رأيه ، وظل يدافع عن هذا الرأي حتى النهاية . لكنه اضطر أن يعترف بأنه لم يكن يملك من الأدلة غير ما أمدّه به خياله ، وبأنه لفق القصة كلها من شكوكه واستدلالاته . ومع ذلك ، ورغم أن اختتام التحقيق برهن على براءة يافيموف برهانا

قاطعا ، فقد ظل متهمه على يقين من أن يافيموف هو قاتل المسكين ، رئيس الجوقه ، وانه ربما لم يستعمل السم فى قتله ، لكنه قتله بوسيلة من الوسائل ! •• ولم يمكن تنفيذ الحكم الذى أصدر على العازف بالسجن ، فقد أصيب فجأة بنزيف فى الدماغ ، ففقد عقله ، ثم مات فى مستشفى السجن !

وكان المالك ، طوال المدة التى استغرقتها هذه القضية ، يعامل عمى أكرم المعاملة • لقد أتعب نفسه من أجله كأنه ابنه : مضى يراه غير مرة ليواسيه ، وأعطاه مالا ؛ وآتى له بأحسن سيجاره ، منذ علم أن يافيموف يحب التدخين • حتى اذا ظهرت براءة يافيموف أقام مأدبة للجوقة كلها •

لقد كان يعتبر قضية يافيموف قضية الجوقة كلها ، لأنه كان يحترم الأخلاق الحسنة التى يتمتع بها موسيقيوه ، احترامه لمواهبهم ، بل وأكثر من ذلك •

وانقضت على ذلك سنة ، حين شاع فى المنطقة أن عازفا شهيرا على الكمان ، وهو فرنسى ، قد وصل الى مركز المنطقة ، وأنه ينوى اقامه بضع حفلات موسيقية • فلم يلبث المالك أن أخذ يسعى سعيا حثيثا ليدعوه الى بيته • وكان له ما أراد ، فوعده الفرنسى بالمجىء ، ووزعت الدعوات على جميع سكان المنطقة تقريبا ، وكان كل شىء معدا لاستقبال الفرنسى ، حين وقع فجأة مالم يكن فى الحسبان •

ففى ذات صباح ، عُلم ان يافيموف قد اختفى دون أن يترك أثرا يدل عليه ! •• وأخذوا يبحثون عنه دون أن يظفروا بطائل • لقد أصبحت الجوقة فى وضع حرج ، اذ تعوزها الان كلارينت • ولكن بعد ثلاثة أيام تلقى المالك من الفرنسى رسالة يتحلل فيها من وعده بالمجىء ، ويقول ، بلهجة متعالية وان لم تكن مقنعة، انه سيكون بعد الآن شديد الحذر

فى علاقاته مع أشخاص يملكون جوفة موسيقية ، ويبدى أسفه على أن موهبةً عظيمه تعيش تحت رحمة انسان عاجز عن تقديرها حق قدرها ، ويذكر ان مال يافيموف ، وهو الفنان الموهوب وأحسن عازف على الكمان رآه فى روسيا ، اوضح برهان على صدق كلامه •

صُعق المالك لدى قراءة هذه الرسالة • انه يُطعن فى الصميم • كيف ؟ كيف يمكن أن يفترى عليه يافيموف ، يافيموف نفسه ، هذا الذى عنى بأمره كل تلك العناية ، وأسدى اليه كل ذلك المعروف ، فاذا هو يقول فيه هذا الكلام السيىء لفنان أوروبى يحرص هو على حسن رأيه فيه أشد الحرص ؟

ثم ان الرساله عجيبة من ناحيــة أخرى • ان الفــرنسى يدعى ان يافيموف ، وهو الفنان الموهوب ، انما هو عازف على الكمان لم يعتر ف له بمواهبه ، وا دره على العزف على اله اخرى • وبلغ تأثر المالك بهـذه الرسالة أنه قرر الذهاب فورا الى المدينة للقاء الفرنسى • لكنه فى تلك اللحظة نفسها تلقى كلمه من الكونت يدعوه فيها الى الذهاب اليه ، دون تأخر ، ويذكر له أنه على علم بالأمر ، وأن الفنان الفرنسى هــو الآن فى بيته مع يافيموف ، وانه لاستيائه من وقاحه يافيموف وأكاذيبه ، قد أصدر أوامره بمنعه من الخروج • وأضاف الكونت الى ذلك أن لا بد من مجىء المالك اليه ، وأن الاتهام الذى لفقه يافيموف قد أثر فيه شــخصيا ، وان الأمر يبدو له من الخطوره بحيث لا بد من توضيحه بأسرع ما يمكن •

أسرع المالك الى الكونت ، فلقى عنده الفرنسى ، واذ ذاك شرح له المالك قصة يافيموف من أولها الى آخرها ، وأضاف أنه لم يكن ليــدور فى خلده ان هذا الرجل يتمتع بمــوهبة رفيعــة لأنه ، خلافا لمـــا يقول الفرنسى ، قد كان عنده عازفا رديئا على الكلارنيت ، وأن هذه هى المرة

الأولى التي يسمع فيها أن الموسيقى الذى هجره عازفٌ على الكمان ، وأضاف الى ذلك أيضا أن يافيموف لم يكن عبدا ، وانه كان يتمتع بحرية تامة ، وانه كان في وسعه دائما أن يتركه لو كان يسيء اليه حقا !

صُعق الفرنسى من الدهشه . ونودى على يافيموف الذى تبدلت معالم وجهه حتى ما يكاد يُعرف ، فاتخذ موقف التعالى ، وأخذ يجيب فى سخرية واستهزاء ، ويؤكد صدق ما أسلف للفرنسى . وقد أثار ذلك حفيظة الكونت الى أبعد حد ، فقال بلا لف ولا دوران ان يافيموف حقير، وانه واشٍ كذاب يستحق أرذل العقاب . فأجابه عمى قائلا :

ـ مهلاً يا صاحب السعادة ، فان لى معك شأنا منذ مدة طويلة ، وانني لأعرفك حق المعرفة ، فبفضلك أوشكت أن يُحكم عليَّ بتهمة القتل . انى لأعلم من ذا الذى دفع « الكسيس نيكيفوريتش » ، الموسيقى الذى كان يعمل عندك ، الى الوشاية بى !

وخرج الكونت عن طوره لدى سماعه هذا الاتهام الفظيع ، وكان هنالك ، عرضا ، موظف جاء لبعض الأمور ، فلما سمع هذا الكلام قال انه لا يمكن أن يترك هذا كله دون توضيح ، وان وقاحة يافيموف المهينة تستند الى تهمة باطلة وضيعة ، وانه يرجو أن يسمح له بمحاسبة هذا الشخص على الفور فى البيت نفسه . وأظهر الفرنسى استياء شديدا وقال انه لا يفهم هذا النكران للجميل . فأجاب عمى غاضبا بأنه يفضل أن يحاكم ، وأن عودة أخرى الى القضاء آثر عنده من الحياة التى عاشها حتى ذلك الحين فى جوقة المالك ، وهى حياة لم يستطع أن يتركها قبل الآن لفقره الشديد . وما ان فرغ من كلامه حتى أوقفوه وقادوه الى خارج الصالة ثم سجنوه فى غرفة بعيدة ، على أن يقودوه فى اليوم التالى الى المدينة .

وفى حوالى منتصف الليل ، رأى السجين باب غرفته يفتح ، ورأى المالك يدخل مرتديا ملابس البيت ومحتذيا نعل البيت وممسكا بيده قنديلا . كان واضحا انه لم يستطع أن ينام ، وأن عذابا مبرحا أخرجه من سريره فى مثل هذه الساعة . ولم يكن يافيموف نائما ، فجعل يحدق فيه دهشا . ووضع المالك قنديله ، وجلس الى مقعد أمام يافيموف ، وقد ظهرت عليه علائم التأثر العميق .

ـ « ياجور » ، لماذا أهنتنى هكذا ؟

ولم يجب يافيموف . وكرر المالك سؤاله . وكان كلامه يختلج بعاطفة عميقة ، بغم غريب !

وأخيرا أجاب عمى قائلا ، وهو يقوم بحركة تشير الى العجز :

ـ لا أدرى يا سيدى لماذا تجرأت عليك هكذا . لا شك أن الشيطان هو الذى أضلنى . لا أدرى أنا نفسى ما الذى دفعنى الى هذا كله . على أن حياتى عندك لم تكن بالحياة يا سيدى ، لم تكن بالحياة .. هذا هو السبب فى أن الشيطان تملكنى ودفعنى الى ما دفعنى اليه .

فأجاب المالك :

ـ ياجور ، عد الى ، سأنسى كل شىء ، سأغفر كل شىء ، اسمع : ستكون كبير العازفين على الكمان فى الجوقة ، وسأدفع لك أكثر مما أدفع للآخرين .

ـ كلا يا سيدى ، كلا ، لا تزد على ما قلت ، ليس لى مكان عندك . قلت لك ان الشيطان قد تملكنى . سأوقد فى بيتك نارا ان بقيت فيه . تمر بى لحظات من القلق الخانق أوثر فيها أن لا أكون قد ولدت . والآن لن

أستطيع أن أجيب . الافضل أن تتركنى يا سيدى . لقد ألم بى هذا كله منذ تعلق بى ذلك الشخص الجهنمى !

— من هو هذا الشخص ؟

— ومن عساه يكون غير ذلك الذى فطس كما يفطس كلب ضائع ، ذلك الايطالى المنحوس .

— أهو الذى علمك العزف على الكمان يا عزيزى ياجور ؟

— نعم ، وعلمنى أشياء أخرى ، ليزيد شقائى . ليتنى لم أعرفه .

— وهل كان قديرا فى العزف الى هذا الحد يا عزيزى ياجور ؟

— كلا ، لم يكن يجيد العزف كثيرا ، لكنه كان يحسن التعليم . لقد علمت نفسى بنفسى . أما هو فلم يزد على أن يرشدنى . نعم، لقد كان أفضل لى أن تكون ذراعى يابسة من أن أتعلم هذا الفن . لقد أصبحت الآن لا أعرف ماذا أريد . تستطيع أن تقول لى يا سيدى : « ماذا تريد يا ياجور ؟ يمكن أن أعطيك كل ماتريد » . أما أنا ، يا سيدى ، فلن أجيبك بكلمة ، لأننى لا أعلم أنا نفسى ماذا أريد . كلا ، يا سيدى ، الأفضل أن تتركنى . أقول لك هذا للمرة الثانية . أحب أن أتصرف تصرفا يرسلنى الى أبعد مكان ممكن ، فينتهى كل شىء .

فقال المالك بعد لحظة من صمت :

— لن أتركك هكذا يا ياجور * . اذا كنت لاتحب أن تعود الىّ ، فلك ذلك . أنت حر ، ولا أستطيع أن أحجزك ، لكننى لن أتركك الآن قبل أن تعزف لى شيئا ، يا ياجور . خذ كمانك ، أناشدك الله ، واعزف قليلا . افهمنى . اننى لا آمرك أمرا ، ولا أحاول أن أكرهك اكراها ،

وانما أتوسل اليك باكيا • أناشدك الله ، يا عزيزى ياجور ، أن نعزف لى ماعزفته للفرنسى • أطعنى • انك عنيد مثلى • لكل منا طبعه ، ياعزيزى ياجور • لقد فهمت أنا عواطفك ، فحاول أن تفهم أنت عـواطفى • لا أستطيع أن أعيش ما لم أسمعك تعزف مسرورا ما عزفته للفرنسي •

ـ ليكن ما تريد • لقد عاهدت نفسى على ألا أعزف أمامك ياسيدى ، على ألا أعزف أمامك أبدا • ولكنك أثرت فى قلبى الآن ، فسأعزف لك ، وحدك ، وهذه هى المرة الأولى والأخيرة يا سيدى ، ولن تسمعنى بعـد ذلك أبدا ، فى أى مكان ، ولو دفعت من أجل ذلك ألف روبل !

عندئذ أمسك يافيموف بكمانه ، وأخذ يعزف مقطوعة من تأليفه كان قد استمد موضوعها من أغان روسية قديمة (ويؤكد «ب» أن هذه المقطوعة هى أول وأحسن أثر ألفه عمى للكمان ، وانه لم يعزف فى حياته شـيئا آخر بمثل هذه القوة) ـ وكان المالك أثناء ذلك ، وهو من أولئـك الذين لا يستطيعون أن يسمعوا موسيقى دون أن يتأثروا ، كان يبكى من فرط الانفعال • فلما انتهى يافيموف من عزف المقطوعة ، نهض المالك من مكانه، وأخرج من جيبه ثلاثمائة روبل ، فمدّ يده بها الى عمى وهو يقول :

ـ الآن تستطيع أن تمضى ، يا ياجور • ســأخرجك من هنـا ، وسأتولى تسوية الأمر مع الكونت • ولكن اسمع جيدا : اياك أن تلقانى يوما ، ولو فى طريق • أمامك مستقبل واسع ، واذا التقينا يوما وجهـا لوجه ، فسيسىء ذلك الينا كلينا • والآن وداعا ! •• بل اسمع : نصيحة أخرى أسديها اليك قبل أن تمضى ، نصيحة واحدة : لا تدمن على الشراب •• وخذ نفسك بالدراسة الدائمة ، والعمل المستمر ، ولا تغتر • أقول لك هذا نصيحة أب لابنه • أعود فأحذرك ! اعمل دائما ، واياك والحانات،

فانك ان ألم بك حزن ، أو أصابتك خيبة (وما أكثر ما ستصاب بخيبات) فأخذت تشرب ، مضيت الى دمارك ، وساءت حالك ، وكنت تعرض نفسك لأن تفطس فى أى مكان ، فى قاع حفرة ، كصاحبك الايطالى • والآن وداعا • بل انتظر • عانقنى •

وتعانق الرجلان • ثم مضى عمى حرا طليقا •

ولم يكد يتحرر حتى سارع الى تبديد روبلاته الثلاثمائة فى مركز المنطقة ، وأخذ يصاحب رواد أقذر الحانات وأحقرها ، وكانت نتيجة ذلك أن اضطر بعد قليل ، وقد أصبح وحيدا بلا مال ولا من يحميه ، أن ينخرط فى جوقة حقيرة لمسرح متجول ، وعين فى هذه الجوقة الكمانى الأول ـ ولعله كان الكمانى الوحيد ! ـ وطبيعى أن هذا لا يتفق مع أهدافه التى كان يرمى اليها فى أول الأمر • لقد كان يريد أن يمضى بأقصى سرعة الى بطرسبرج ، وأن يدرس هنالك ، وأن يجد عملا مناسبا ، وأن يصبح فى تلك المدينة العظيمة فنانا مرموقا • ولم تجر حياته فى المسرح المتجول بلا عقبات • فانه لم يلبث أن تخاصم مع رئيس الفرقة ، وترك المسرح المتجول ، وفقد عندئذ كل شجاعة ، واضطر تحت تأثير اليأس ، أن يكتب الى سيده القديم يذكر له وضعه ويسأله بعض المال ، رغم أن ذلك يجرح كبرياءه جرحا عميقا ، الا انه لم يتلق أى جواب على رسالته تلك ، وكان قد كتبها بلهجة عنيفة • فكتب رسالة أخرى ذليلة ، يعترف فيها بفضل سيده عليه ، ويسميه باسم حامى الفنون ، ويتوسل اليه مرة أخرى أن يهبّ الى نجدته • ووصله الجواب : أرسل اليه المالك أخيرا مائة روبل ، مع بضعة أسطر بخط خادمه ، يحذره فيها من طلب المعونة بعد الآن • وحين تلقى عمى هذا المبلغ اعتزم أن يسافر فورا الى بطرسبرج ، لكنه بعد أن سدد ديونه كان ما بقى له من المال لا يفى بنفقات السفر •

وهكذا ظل فى الأقاليم ، وانخرط مرة أخرى فى جوقه صغيرة • وفى هذه المرة أيضا لم يتفاهم مع أفراد الجوقة • وأخذ ينتقل من عمل الى آخر ، وقد قر فى رأسه أن يمضى الى بطرسبرج بأقصى سرعة ممكنه ، وبأية وسيلة من الوسائل • لكنه قضى على هذا فى الاقاليم ست سنين طوالا • واخيرا استولى عليه اليأس • ولاحظ ، على رعب وهول ، انه كان يفقد موهبته شيئا فشيئا فى هذه الحياة البائسة المشوشة التى لم يكن يلقى فيها الا ذل بعد ذل • وفى ذات صباح ترك عمله ، وحمل كمانه تحت ذراعه، وسافر الى بطرسبرج وهو يكاد يتسول طوال الطريق • وهناك أقام فى شونة ، ولم يلبث أن اتصل بـ « ب » الذى كان قد وصل من ألمانيا وكان يحلم هو الآخر بمستقبل عريض • وسرعان ما قامت بينهما صداقة • وما يزال « ب » حتى الآن يتحدث عن صداقتهما فى ذلك الوقت بتأثر عميق• لقد كان كل منهما شابا ، وكانت تطوف فى رأس كل منهما أحلام واحدة، ويهدف الى عين الغاية التى يهدف اليها الآخر • الا أن « ب » كان لايزال شابا فى زهرة شبابه ، ولم يكن قد عانى حتى ذلك الحين كثيرا من الفقر والذل • وكان ألمانياً فوق كل شيء وقبل كل شيء ، يمضى الى غايته بعناد ومثابرة ، ويعرف قواه تمام المعرفة ، ويكاد يعرف مقدما ماسيصبحه، فى حين أن رفيقه الذى ناهز الثلاثين وبلغ منه الارهاق مبلغه ، كان قد فقد كل جلد ، وكان قد أتلف صحته وقواه خلال تلك الأعوام الستة التى اضطر أن يكسب فيها قوت يومه بالعمل تارة فى مسرح صغير بالعاصمة ، وتارة فى جوقة حقيرة • لقد كانت الفكرة الثابتة التى تسيطر عليه أيامذاك هى أن يخرج من هذا الوضع الحقير ، أن يدخر قليلا من المال ليلحق ببطرسبرج • الا أن هذه الفكرة الغامضة الغائمة كانت نوعا من نداء داخلى مبهم فقد سناءه على مرّ السنين ، شيئا بعد شيء ، فى نظر يافيموف نفسه ، حتى أصبح وصوله الى بطرسبرج أشبه بوصول انسان

يتحرك بلا ارادة ، أو انسان تحركه رغبة قديمة أصبحت عادة ، وكأنما قد أعشته الرحلة ، فأصبح لا يكاد يعرف ماذا جاء يعمل فى بطرسبرج • كان فى حماسته شيء من الكسل والمرارة ، فهى لا تزيد على أن تجعله يغتر بنفسه ، الى أن يستعيد الثقة بقواه الأولى ، بحمياه القديمة ، بالهامه الماضى الذى لم ينضب •

وكانت حماسته الدائمة هذه تبهر صاحبه البارد الرصين « ب » ، حتى بلغ من شدة اعجابه بعمى أن اعتقد أنه سيصبح فنانا عبقريا ، ولم يستطع أن يتصور مستقبل رفيقه على غير هذا النحو • ومع ذلك فان « ب » لم يلبث أن فتح عينيه ، وأدرك الحقيقة ، ورأى بوضوح أن هذه الحماسة الفائرة المحمومة ليست الا يأسا لا شعوريا من موهبة ضائعة ، موهبة لعلها لم تكن ، حتى فى أول أمرها ، بالموهبة الخارقة • ورأى أن كل هذا لم يكن الا مزيجا من عماوة ، وغرور فارغ ، وزهو فى غير محله ، وخيال طائش ، وأحلام فى عبقرية يخال المرء أنه يحملها فى نفسه • وقد تحدث «ب» قائلا : « ولكننى لم أكن أستطيع أن أمتنع عن العجب لطبيعة رفيقى الغريبة • لقد ظل المسكين ، خلال سبع سنين طوال، يجتر أحلام مجده المقبل دون أن يشعر أنه كان يفقد المبادىء الاولية فى الموسيقى ، بل والتكنيك الذى لا بد منه لمبتدىء • وكان ، مع ذلك ، يرسم للمستقبل فى خياله المضطرب ، أضخمَ المشاريع الوهمية • كان يريد أن يصبح أحد أوائل العازفين على الكمان فى العالم • وكان يعد نفسه منذ ذلك الحين عبقريا من هذا الطراز ، بل كان ، وهو الذى يجهل أبسط مبادىء الطباق ، يعتقد أنه خلق ليكون مؤلفا موسيقيا • الا ان ما كان يدهشنى أكثر من أى شيء آخر هو أن هذا الرجل ، رغم ضعف المامه بالتكنيك الموسيقى ، كان يملك معرفة بالموسيقى واضحة ، معرفة «غريزية» ان صح التعبير • لقد كان احساسه بالموسيقى من القوة ، وكان فهمه

للموسيقى من العمق بحيث لا بد أن يخدع عن حقيقه فيمنه ، وأن يعد نفسه لا نافذا عميقا نافذ الحدس فحسب، بل أحد جهابذة الفن وعبقريا من عباقرته أيضا • وكان ينفق له ان يقول لى بلغته البسيطة الخشنة ، وهو الذى كان غريبا عن كل ثقافة ، حقائق تبلغ من العمق انني كنت أقف حيالها مشدوها ، لا أفهم كيف كان فى وسعه أن يدركها ، هو الذى لم يقرأ فى حياته سيئا ، ولا تعلم سيئا • ولا اكتم انني استفدت منه كثيرا ، وانتفعت بنصائحه فيما حققت من تقدم • وكنت مطمئنا الى مصيرى • لقد كنت ، أنا أيضا ، شغوفا بفنى متعلقا به أشد التعلق ، رغم انني كنت أعرف أن مواهبى ليست بالمواهب الفذه ، واننى سأكون عاملا من عمال الفن ، وكنت راضيا بذلك قانعا به ، ولكننى أستطيع أن أعتز بأننى لم أقبر ماحبتنى به الطبيعة ، بل ضاعفته مائة مرة • ان الناس ليثنون على مرونتى فى العزف وعلى ما حصلته من براعة تكنيكية مدهشه • لكننى أعترف بأننى أدين بهذا العمل المتواصل العنيد الذى أخذت به نفسى ، أدين به لمعرفتى الواضحه بقيمتى الحقيقية ، أدين به لنفورى من كل ما يمت بصلة الى الطمع والزهو ، الى القناعة الهينة والكسل ، الى كل هذه الصفات التى تنتج عن رضى المرء عن نفسه • » •

وقد حاول « ب » أن يسدى النصح ، بدوره ، الى هذا الرفيق الذى طالما أصغى هو الى نصائحه باحترام ، الا أن رفيقه كان يضيق بنصائحه ذرعا ويغضب منها غضبا شديدا • ولم تلبث صداقتهما أن اعتراها الفتور • ولاحظ «ب» أن عمى يزداد استسلامه للخمول والحزن والضجر شيئا بعد سيء ، وأن وثبات حماسته أصبحت أندر من ذى قبل ، وأصبح يعقبها نوع من القلق القاتم المحطم • وأخيرا هجر يافيموف كمانه أسابيع طويلة• ولم يكن السقوط النهائى ببعد • اذ لم يلبث أن انهارالمسكين انهيارا تاما • وتحقق كل ما تنبأ به المالك !

فها هو ذا يافيموف يدمن على السكر ادمانا لا يردعه عنه شيء •
وكان « ب » ينظر الى ذلك وقد امتلأ قلبه رعبا • ولم يبق لنصائحه من أثر البتة ، حتى أصبح يتحاشى أن يوجه اليه أي نقد •

ووصل يافيموف من ذلك شيئا فشيئا الى استهتار لا يعرف الخجل : انه يعيش الآن عالة على « ب » ، ولكن ذلك لا يُشعره بشيء من الاسف أو الندامه ، حتى لقد كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يعيش عاله عليه !

وكانت أسباب الرزق تنضب شيئا بعد شيء • لقد كان « ب » يعطي بعض الدروس في الموسيقى ، او كان يقوم بالعزف في حفلات ساهرة لدى بعض أهل التجارة من الالمان ، أو لدى بعض الموظفين الفقراء ، وكان لا يتقاضى الا أجرا ضئيلا ، الا أنه أجر على كل حال • وكان يافيموف يأبى أن يرى حالة الفقر التي يعانيها رفيقه • وكان يعامله في كثير من الصلف والكبرياء ، حتى لقد تمضي أسابيع طويلة دون أن يكلف نفسه عناء التحدث الى رفيقه بكلمة واحدة •

وفي ذات يوم قال « ب » لعمي ، في كثير من الرقة واللطف ، ان من الأفضل له ألا يهمل كمانه كثيرا حتى لا يفقد مرونة أصابعه • لكن يافيموف غضب غضبا شديدا • وكأنما تخيل أن صاحبه سيركع متوسلا اليه أن يعود الى كمانه ، فقال انه هجر كمانه عمدا ، وانه لن يمسه بعد الآن أبدا • وفي مرة أخرى احتاج « ب » الى زميل يعزف في حفلة ساهرة دعي اليها ، فطلب الى يافيموف أن يصحبه ، الا أن هذا العرض أثار في يافيموف حنقاً هائلا ، فقال لصاحبه في احتقار وازدراء انه ليس ممن يعزفون في الشوارع ، وانه ليس من التفاهة ، كصاحبه «ب» بحيث يرضى أن يدنس فنه النبيل بالعزف لأناس من أصحاب « الدكاكين » وكان

تعلق أحدهما بالآخر فد بلغ من القوة أن تصرفات يافيموف الغريبة ، وعيوبه الواضحة كانت لا تزيد « ب » الا تعلقا بصديقه . لفد كان « ب » يفهم صديقه ويقرأ ما فى نفسه . كان يوجس النهاية التى سيصير اليها كل هذا .

وقد تعانق الاثنان ساعه الانفصال ، بل وقع كل منهما فى ذراعى الآخر ، وأخذا يبكيان . وفى تلك الساعة صرخ يافيموف قائلا ، من خلال الدموع والشهيق ، انه ليس الا انسانا شقيا ، ليس الا انسانا ضالا ، وانه كان يعرف ذلك منذ مدة طويلة ، ولكنه فى هذه اللحظة انما يدرك أنه على شفا الهاوية ، كمحتضر . وختم كلامه ، وقد امتقع لونه ، بقوله :

ـ اننى لا أملك أية موهبة .

وتأثر « ب » من ذلك تأثرا رهيبا . ثم قال لصديقه :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش . أنت مخطىء . انك بهذا اليأس تدفع بنفسك دائما الى الانهيار . انك لا تملك جلدا ولا شجاعة . تدعى الآن أن ليس لك موهبه . لكن هذا يرجع الى حزنك . ليس صحيحا انك لا تتمتع بموهبة . أنت تتمتع بالموهبة . أؤكد لك أن الموهبة لا تعوزك . هذا واضح من قدرتك على فهم الموسيقى والاحساس بها . وأستطيع أن أبرهن لك على ذلك بالرجوع الى حياتك نفسها . لقد ذكرت لى أنك تألمت فى حياتك كيرا ، وهذا يدل على انك منذ ذلك الحين ، تحمل فى نفسك هذا اليأس نفسه . فى ذلك الوقت ، أدرك فيك استاذك الاول ، ذلك الانسان الغريب الذى طالما حدثتنى عنه والذى أيفظ فى نفسك حب الموسيقى ، أدرك فيك الموهبة الموسيقية . لكنك لم تكن تعرف أنت نفسك ماذا يجرى فى أعماق نفسك . لم تكن تشعر بالراحة والطمأنينة عند المالك ، وكنت تجهل ماذا تريد . ومات أستاذك قبل الأوان ، وتركك

لامال ومطامع غامضه مبهمة ، ولم يكشفك لنفسك ، وهذا أهم ما في الامر •• كنت تشعر ان عليك ان تسلك سبيلا آخرى ، سبيلا آرحب • كنت تشعر ان حياة آخرى تنتظرك ، لكنك لم تكن تعرف الطـــريق اليها • ويئست ، فصرت تكره كل ما حولك • ان السنين الست التي قضيتها في بؤس متلاحق لم تذهب ســـدى ، فقد تعلمت فنك ، وفكرت ، وعرفت قواك ، حتى أصبحت تفهم فنك وقيمتك • يا صديقي لا بد من الصــبر والشجاعه • ان ما خصتك به الطبيعة أعلى كثيرا مما خصتني بهآنا • انك فنان آكثر مني مائة مرة ، ولكنني آسأل الله أن يهب لك جزءا مما وهب لي من صبر • اعمل ، ودع الشراب ، كما نصحك بذلك صـــاحبك المالك الممتاز •• واستأنف من البداية ، استأنف من الالف باء • ما الذي يقعدك؟ الفقر ؟ العوز ؟ ولكن الفقر هو الذي يصنع الفنان • وهو أمر لا بد منه في البداية • انك الآن انسان مهمل ، لا يحتاج اليك أحد ، ولا يحتاج أحد أن يعرفك •• تلك هي الحياة • وسترى في المستقبل قساة آخرين حين يُعرف من أنت ، وحـــين تُعرف قيمتـــك • ســـيخنقك الحسد وستخنقك النذالات وحماقات الناس أكثر مما يخنقك الفقر • ان الموهبة في حاجة الى حب ، انها في حاجة لأن تُفهم ، وسترى كيف سيعاملونك حين تشارف على تحقيق غايتك • سيدوسونك بالأقدام ، سيحتقرون هذا الذي تكون قد اكتسبته بالعمل الشاق ، بالحرمان والجوع وسهر الليل •• لن يشجعك رفاقك الآتون ، ولن يواسوك • لن يدلوك على مافيك من عناصر الخير والصدق • بالعكس ، سيحصون عليك كل غلطة ، ولن يروا غير عيوبك ، ولن يبينوا لك الا ما أنت فيه مخطيء ، سيفعلون ذلك وفي نفوسهم فرح خبيث • واذا تظاهروا لك بأنهم لايحفلون بأمرك بل يزدرون شأنك كانوا في الحقيقة يفرحون لكل ما تقع فيه من أخطاء (كأن الانسان معصوم من الخطأ) ! •

ثم إنك امرؤ لا تتحمل شيئا ، انت انسان صلف فى غير داع الى صلف . وأنت لذلك معرض فى كل لحظة لأن تجرح كبرياء طبـــل منفوخ .. ذلك هو سر شقائك ، لانك ستظل وحدك ، وهم العدد الكبير. سيعذبونك بوخزات الابر . لقـــد بدأت أنا نفسى أشعر بذلك . هيـا يا عزيزى ، انهض من كبونك الآن . ولست أعزل من كل سلاح . انك تستطيع أن تكسب رزقك . لا تحتقر التمارين اليدوية المبتذلة : ليس يضيرك أن يكون عزفك أولَ الأمر كنشر الخشب ثقلا ، فلطالما نشرت أنا الخشب سهرات برمتها فى بيوت أولئك البـائعين التافهـين . الا انك لا تملك الجلد اللازم ، وانت لهذا مريض .

ثم انك تعوزك البساطة . انك تنتقد ، وتسرف فى التفكير : رأسك وحده هو الذى يعمل . انت جرىء فى الكلام ، حتى اذا كان عليك أن تمسك بفوسك ارتعشت خوفاً وهلعاً .

ان كبرياءك قوية ، ثم أنت لا تجرؤ على تحقيق شىء . كن شجاعا وعليك بالصبر ، وخذ نفسك بالتمرين ، واذا أعوزتك القوة حقا ، فعليك يومئذ بالمغامرة : ان فيك حماسة ، وان نفسك لتفيض بالعاطفة ، وربمـا بلغت هدفك على هذا النحو . وهبك لم تبلغه ، فامض مع ذلك الى أمام . لن تخسر فى ذلك شيئا ، بل سيزداد امتلاكك ناصـــية فنك . أجـل يا صديقى ، ان « المغامره » أمر عظيم ، بالنسبة الينا معشر الفنانين !

◆ ◆ ◆

وقد أصغى يافيموف فى أول الأمر الى صديقه القديم منفعلاً أعمق الانفعال . وحين كان «ب» يتكلم كانت وجنتا يافيموف الشاحبتان تنتعشان وتحمران شيئا فشيئا . والتهبت عيناه ببريق من الجـــرأة والامل غـير معهود فيه .

ولكن سرعان ما انحدرت هـــذه الجرأة النبيلة مرة أخـرى الى

الاستهتار ثم الى الوقاحة ، فلما أنهى «ب» كلامه كان يافيموف قد أخذ يتململ • ومع ذلك فقد شد على يد صاحبه بحرارة ، وشكره • الا انه انتقل فجأة من مشاعر الذل العميق والحزن الشديد الى التعالى والكبرياء والصلف ، فصرخ فى وجه صاحبه بلهجة متحدية ، قائلا : « لا تصدع رأسك بالاهتمام بمصيرى • اننى أعرف ما ينبغى لى أن أعمل ، وسترى قريبا عند من سأعمل ! سأحيى فى القريب حفلات موسيقية رائعة ، وسأحصل على المجد والمال معا » •• ولم يعترض «ب» على هذا الكلام ، بل اكتفى بأن هز كتفيه • وعندئذ افترق الرفيقان القديمان •• الى حين طبعا ••

فان يافيموف سرعان ما بدد المال الذى تركه له رفيقه ، وعاد عبئا عليه مرة ثانية ، فثالثة ، فرابعة •• فعاشرة •• الى أن نفد صبر « ب » • حتى اذا عاد يافيموف مرة ، أوعز «ب» أن يقال له ان صاحبه ليس فى البيت • ومنذ تلك اللحظة لم يعد يراه !

◆◆◆

وانقضت على ذلك بضع سنين • وفى ذات يوم ، بينما كان « ب » عائدا من عمله ، اصطدم ـ فى زقاق صغير ، على باب احدى الخمارات المنحطة ـ بسكران رثّ الثياب يناديه باسمه • كان هذا السكران هو يافيموف ، ولكن وجهه كان قد تغير وشحب حتى لا يكاد يُعرف • واضح اذن انه لم يدع حياته المضطربة الفاسدة ، حتى لقد تركت هذه الحياة على وجهه طابعا لا يمحى •

وشعر « ب » بكثير من السعادة لهذا اللقاء ، وهمّ أن يتكلم ، لكن يافيموف لم يدع له فرصة الكلام ، بل جرّه الى داخل الخمارة ، وهناك، فى حجرة صغيرة مدخنة استطاع « ب » أن ينعم النظر فى يافيموف • لقد

كان صاحبه في خرق بالية ، وكان حذاؤه ممزقا ، وكان سرواله ملطخا بآثار الشراب ، وكان شعره قد ابيض وقلت غزارته ٠

ابتدره «ب» قائلا :

ـ كيف أنت ؟ وأين أنت الآن ؟

وظهرت على وجه يافيموف علائم الاضطراب ، وبدا عليه الارتباك٠ وكانت أجوبته على أسئله «ب» مفككة متقطعة ، حتى خيل الى «ب» انه أمام انسان مخبل ٠ واعترف يافيموف أخيرا انه لا يستطيع الكلام قبل أن يقدَّم له شيء من الشراب ، وان صاحب هذه الحانه أصبح يرفض أن يقدم له الشراب ديناً منذ مدة طويلة ٠٠ احمر وجه « يافيموف » وهو يقـول هذا الكلام ، رغم محاولته أن يتجلد ٠٠ وكان منظر هذا كله يثير الشفقة والحزن والألم ، فاهتزت نفس الصديق الطيب ، وفاضت حنانا ورحمة ٠ لقد كانت مخاوفه اذن في محلها ٠ وأمر يافيمـوف بشراب ٠٠ فمـا ان احتساه حتى تغير وجهه !!

وكان من الهوان على نفسه بحيث تفجـر الدمع من عينيــه عرفانا بالجميل ، وحاول أن يقبـِّل يد «ب» المحسن اليه ٠ وصعق «ب» حين علم أثناء الغداء أن صاحبه البائس قد تزوج ! ٠٠ الا أن دهشته تجاوزت كل الحدود حين قال له « يافيموف » ان امرأته هي السبب في انهياره ، وانها قتلت موهبته ٠

فسأله «ب» :

ـ وكيف ذلك ؟!

فأجاب :

ـ انقضت سنتان ، يا عزيزي ، لم ألمس خلالهما كماني ٠ انها امرأة

من طبقة منحطة ، امرأة عامية تافهة •• قتلها الله ! •• ان كل ما نستطيع أن نعمله معا ـ أنا وهى ـ هو أن نتضارب !

ـ ولكن اذا كانت كذلك ، فلم تزوجتها ؟

ـ كنت أتضور جوعا حين عرفتها ، وكانت تملك ألف روبل • وفقدت عقلى ، فتزوجت • وهى التى تهالكت على ، وتمسكت بعنقى •• لم أدفعها الى ذلك • وذهب المال بسرعة يا عزيزى ، أما بقية الموهبة ، فقد ضاعت هى الأخرى !

لاحظ « ب » أن يافيموف كان فى حاجة لأن ينتحل لنفسه الاعذار •

وأردف يافيموف يقول :

ـ لقد هجرت كل شىء ••

وهنا صرح بأنه فى المدة الأخيرة كاد يصل الى كمال امتلاكه ناصيه فنه ، وانه لو شاء لما استطاع « ب » أن يلحق به ، رغم أنه أحد أوائل العازفين على الكمان فى العاصمة !

وفوجىء « ب » بهذا الكلام ، فسأله :

ـ ولماذا هجرت اذن كل شىء ؟ أما كان عليك أن تبحث عن عمل ؟

فأجاب يافيموف ، وهو يحرك يده علامة الاحتقار

ـ عبثا • أين منكم من يفهم الموسيقى ؟ ماذا تعرفون من الموسيقى ؟ لا شىء •• لا شىء البتة •• قصاراكم ان تنفخوا لحنا راقصا فى باليه •• انكم لم تروا ولم تسمعوا عازفا على الكمان مجيدا • فعلام أفسد عليكم راحتكم ؟ ظلوا اذن حيث أنتم ، ما طاب لكم ذلك !

ودعم « يافيموف » كلامه مرة أخرى بحركة من يده ، وترنح على

مقعده ثملا ، ثم دعا « ب » ان يصحبه الى بيته ، وألح في الدعوة • الا أن « ب » رفض ، واكتفى بأن آخذ عنوانه ، مؤكدا انه سيأتي لزيارته في الغد • وأخذ يافيموف ــ وقد اكتظت معدته ودارت في رأسه الخمرة ــ ينظر الى رفيقه القديم نظرة ساخرة ، ويحاول أن يلذعه لذعا قويا بأيه وسيلة • فلما نهض « ب » يريد الانصراف ، هب « يافيموف » فتناول فراءه الغالي وقدمه اليه ، كما يفعل الخادم مع عظيم من العظماء • وبينما كانا يجتازان القاعه ، توقف يافيموف ليقدم صاحبه للخدم وللجمهور ، قائلا انه أول عازف على الكمان في العاصمة ، بل العازف الوحيد •• والخلاصه أنه كان في منتهى الوقاحة •

ومع ذلك ، مضى « ب » يزوره في صباح الغد ، في الغرفه الحقيره الوحيدة التي كنا نسكنها جميعا •• كنت يومئذ في الرابعه من عمري ، وكان قد انقضى على زواج « يافيموف » بأمي سنتان • ولقد كانت أمي شقيه حقا • كانت قبل أن تتزوج أبي تعمل مربية ، وكانت على جانب من ثقافة ، الا أنها لفقرها تزوجت موظفا عجوزا هو أبي •• ولم تعش معه الا سنة واحدة ، مات أبي بعدها فجأة • وبعد موته وزعت تركته الهزيلة بين وارثيه ، فأصاب أمي قدر زهيد من الدراهم ، وبقيت أمي وحيدة معي •• وكان من الصعب أن تجد من يستخدمها مربية بعد أن أصبحت تحمل على ذراعيها طفلا •

وفي تلك الأثناء ، عرفت يافيموف صدفةً ، فأحبته وافتتنت به ، والحق يقال • ذلك انها امرأة شديدة الحماسة ، حالمة ، فصدقت ما كان يكيله يافيموف لنفسه من الثناء على مواهبه ، وما كان يتحدث به عن مستقبله اللامع •

وساعدها الخيال فانطلقت تداعبها آمال رائعة •• وراق لها أن تكون مرشدا وسندا لرجل عبقري ، فتزوجته •

ولكن ما ان انقضى على زواجها به شهر واحد ، حتى تبددت جميع أحلامها وجميع امالها ، ليحل محلها الواقع المحزن • ذلك أن يافيموف ـ ولعله تزوجها من أجل روبلاتها الالف ـ تنكر لها منذ نفد المال ! •• وكانما راق له أن يتعلل عن اخفاقه بهذه الحجه ، فطفق يعلن لكل من يلقاه أن زواجه قد قتل مواهبه ، وانه يستحيل ان يعمل فى غرفة خانقة ، ومن حوله أسرة جائعه ، وانه ما من الهام موسيقى يمكن أن تواتيه فى جو كهذا الجو ••• وأخيرا ، أن القدر قد تآمر عليه منذ طفولته وانذلك كله واضح وضوح النهار •• ولعله انتهى ـ هو نفسه ـ الى تصـــديق شكاواه ، فلقد كانت هذه الحجة الجديدة تغريه أيما اغراء •

ان هذه الموهبة الشقية ، هذه الموهبة المتعطلة ، كانت تبحث ـ عـلى غير شعور ـ عن علة خارجية تلقى عليها تبعة كل ما تلقاه من اخفاق ، وكل ما تعانيه من بؤس ••

ولم يكن يافيموف قادرا على أن ينظر الى الحقيقة الرهيبة وجهـا لوجه ، فيعرف انه فيما يتصل بفنه قد انتهى الى الأبد ، ومنذ مدة طويلة •• كان يكابر ويتمزق تمزق المريض حاصرته أحلام الحمى •• كان فى حرب مستمرة على الحقيقة المخيفة • فاذا اتفق له أن تفتحت عينـــاه لحظة من الزمن ، فاستشف هذه الحقيقة ، كان يذعر حتى ليشعر انه على شفا الجنون •• كان يستحيل عليه أن يتنازل عن أحلامه التى كانت حيا ته نفسها خلال مدة طويلة ، فظل يعتقد ـ حتى لفظ أنفاسه الاخيرة ـ ان ساعته لم تحن بعد ، وان مجده آت لا ريب فيه •

وكان فى الساعات التى يتضعضع فيها ايمانه هذا، يندفع الى الشراب، فاذا ضباب السكر يطرد همومه وينفى قلقه • ولعله لم يكن يدرى الى أى حد كانت حاجته الى امرأته شديدة • لقد كان وجودها حجة يتعلل

بها عن اخفاقه، حتى لقد رسخ في عقله أخيرا أن حياته لن تستأنف مجراها السليم الا بعد أن يقبر هذه المرأة التي ضيعته !

ولم تكن أمي تفهمه •• فهي امرأة حالمة ، حتى انها لم تستطع أن تتحمل الصدمة الاولى حين تبدت لها الحقيقة المرة • وقد أصبحت سريعة الاهتياج ، كئيبه المزاج ، كثيرة التأنيب والتقريع ، فكانت المشاجرات بينهما لا تنقطع ، وكان هو يجد لذة في تعذيبها ، وكانت لا تني تحثه على البحث عن عمل • الا أن عماوة عمي ، وطبعه الشاذ ، وما رسخ في عقله من ان امرأته هي السبب في ضياعه •• كل ذلك جعل منه انسانا لا يعرف الرحمه الانسانيه ، فلا سبيل للعاطفة الى قلبه • فكان لا ينقطع عن الضحك عليها ، وكان يقسم بصراحة قاسية انه لن يمس كمانه مادامت امرأته على قيد الحياة •

ولم تطق أمي هذه الحياة ، رغم انها كانت تحب زوجها حبا عنيفا ، ورغم أنها ظلت تحبه الى آخر لحظة من حياتها ، فاعتلت صحتها ، وأصبحت لا تفارقها الاوجاع ، ولا يفارقها الذعر والفـزع • الا أن ذلك كله لم يعفها من تبعة اطعام الاسرة ، وحاولت أن تستضيف سكانا يطعمون عندها بأجر ، الا أن زوجها كان يسرق دراهمها خلسة ، وكثيرا ما اتفق لها ان وضعت الصحون فارغة أمام هذين الشخصين اللذين تناضل من أجلهما •

وحين أتى « ب » لرؤيتنا ، كانت أمي منهمـكة في غسل الثيـاب وترقيع الملابس العتيقة •• تلك هي الحياة الشقية التي كنا نعيشـها في ظلمات غرفتنا الحقيرة •

وتأثر « ب » لرؤية شقائنا • فما كان منه الا أن قال لعمي :

ـ اسمع • انك لا تقول الا هراء وسخفا •• فلا تعد على مسامعي قصة موهبتك الميتة •• ما عملك هنا ما دامت هي التي تطعمك ؟

فأجاب عمي :

ـ لا شيء !

الا أن « ب » لم يكن يتصور ، بعد ، كل ما تعانيه أمي •• فكثيرا ما كان أبي يعود الى البيت في صحبة أناس حقيرين ممن لا عمل لهم الا التسكع في الازقة •• ويالهول ما كان يجرى في البيت عندئذ !

وأخذ « ب » يعظ رفيقه القديم طويلا • وصرح له ـ أخيرا ـ بأنه ان لم يرعو عن غيه ويسلك سلوكا شريفا ، فلن يمد له يد المعونه ، وقال له ـ بلا لف ولا دوران ـ انه لن يعطيه شيئا من المال ، ما دام سيبدده في الشراب • ثم طلب اليه أن يمسك بكمانه فيسمعه عزفه ليحكم على قدرته • ومضى عمي لاحضار كمانه ، فانتهز « ب » هذه الفرصة ، ومدّ الى أمي خلسة بعض المال ، الا أن أمي لم تشأ أن تقبله ، فتلك هي المرة الأولى التي تتلقى فيها صدقة ! •• عندئذ مد « ب » المال اليّ أنا ، فأخذته ، وانفجرت أمي المسكينة باكية •• وأتى عمي بكمانه، الا انه طلب أن يقدّم اليه قليل من الخمر ، قائلا انه لا يستطيع أن يعزف بدون ذلك •

وجيء له بالخمر فشرب ، وسرعان ما انطلقت أساريره وانتعش • ثم قال متجها الى « ب » وهو يخرج من الدرج دفترا كبيرا غطاه الغبار :

ـ باسم الصداقة ، سأعزف لك شيئا من تأليفي •

ثم قال وهو يشير الى الدفتر :

ـ هل ترى ؟ •• هذا كله من تأليفي ! •• ولكنه من عجينة أخرى غير ألحان « الباليه » التي تعزفونها •

وأخذ « ب » الدفتر ، وقلب بعض صفحاته صامتا • ثم أخرج من جيبه دفترا موسيقيا ، وطلب الى عمي أن يدع الآن مؤلفاته ، وأن يعزف له قطعة عيّنها له من دفتره هو •

وانزعج عمي من ذلك قليلا • الا انه لخوفه من أن يضيع هـذا

الحامي الجديد ، نفذ ما طلب اليه • وأدرك « ب » عندئذ أن رفيقه القديم الذي يتباهى بأنه لم يلمس كمانه منذ زواجه ، كان ـ في الواقع ـ قد تمرن كثيرا أثناء ذلك ، فتحسن عزفه تحسنا واضحا خلال فترة انفصالهما !

ليتكم ترون الفرح الذي فاض في وجه أمي المسكينة في تلك اللحظة !•• لقد أخذت تتأمل زوجها في كثير من التباهي والاعتزاز •• وسر الصديق الطيب « ب » سرورا صادقا هو الآخر ، ووعد أن يجد لعمي عملا • وكانت له ـ في ذلك الحين ـ علاقات بذوي الشأن ، فما لبث أن أعمل هذه العلاقات ، فأوصى بعمي خيرا ، بعد أن استقطعه عهدا على نفسه أن يصلح سيرته ويقوم سلوكه • واشترى « ب » لعمي ثيابا لائقة ، وقدمه لأشخاص من أصحاب النفوذ يتوقف عليهم ايجاد العمل الذي كان يريد أن يحصل له عليه • والحق أن « يافيموف » لم يكن يتصلف ويتكبر الا بالكلام ، أما في أعماق نفسه ، فقد ملأه فرحا هذا العرض الذي تقدم به اليه صديقه القديم •

وقد روى « ب » ـ فيما بعد ـ كيف كان يشعر بخجل شديد حين كان عمي يطفق يتملقه ويتزلف اليه ويتذلل له ويغمره بسيل من عبارات التعظيم والاجلال ، خوفا على نعمه أن يقطعها عنه • والحق أن « يافيموف » فهم أنهم يريدون أن يردوه الى الطريق السوي ، ففرح لذلك حتى انقطع عن الشراب •• وأخيرا وجدوا له عملا في جوقة أحد المسارح ، واجتاز المسابقة بنجاح باهر لأنه استطاع خلال شهر من الدأب والعمل ، أن يسترد كل ما كان فقده خلال ثمانية عشر شهرا من القعود عن العمل • وقطع على نفسه عهدا أن لا يكف عن العمل بعد ذلك ، وأن يقوم بواجباته الجديدة على نحو دقيق منظم • الا أن حالة أسرتنا لم

تتحسن • فان عمى لم يعط أمى من رواتبه قرشا واحدا ، بل كان ينفقها كلها على موائد يدعو اليها أصحابه الكثيرين ، الذين لم يلبث عددهم أن أصبح كبيرا جدا •

ولكنه كان يتجنب الاشخاص الذين يتمتعون بموهبة حقيقية ، ويجالس خاصة موظفى المسرح وأفراد « الكورس » وغيرهم ممن يستطيع أن يسيطر عليهم •

واستطاع أن يوحى اليهم باحترام خاص لشخصه ، اذ بين لهم — منذ البداية — ان الناس لا يفهمونه وانه يتمتع بمواهب فذة ، وان امرأته هى السبب فى ضياعه ، وان رئيس جوقتهم — أخيرا — لا يفهم فى شئون الموسيقى شيئا البتة ! •• وكان يسخر من جميع فنانى الجوقة ، ومن اختيار المسرحيات التى تمثل ، ومن مؤلفيها • وأخيرا ، أخذ يشرح نظرية جديدة فى الموسيقى • ثم تشاجر مع زملائه ومع رئيس الجوقة ، وكان فظا مع رؤسائه ، حتى اشتهر بين الجميع بأنه انسان مختل ، مزعج ، لا يصلح لشىء •• هكذا عرف يافيموف كيف يتصرف على النحو الذى يتعب جميع الناس ، فما يطيقون بعد ذلك احتماله !

والحق أن ثمة ما يثير الاستغراب فى هذه الادعاءات المتطرفة ، تصدر عن موسيقى فى مثل اهماله ، وعن عازف فى مثل عجزه ، لاسيما حين كان يمدح نفسه بمثل هذا الافتخار ، وبمثل تلك اللهجة الجازمة القاطعة •• ولم يستثن من اتهاماته صديقه «ب» ، بل أخذ يشيع عنه تهما حقيرة ووشايات وضيعة ، يبتكرها ثم يذيعها على انها حقائق لا تقبل الشك • وانتهى ذلك كله الى أن تعكر الجو بين عمى وبين «ب» • ولم تنقض ستة أشهر على عمله فى الجوقة على هذا النحو الفوضوى المستهتر، حتى اضطروا الى اخراجه • الا انه لم يدع أروقة المسرح بهذه السهولة

وسرعان ما أصبح يُرى من جديد ، بخرقه الباليه القديمه ، بعد أن باع أو رهن ملابسه المناسبة ، وطفق يتردد على زملائه القدماء ، لا يعنيه أن يعرف هل يسرهم أو يزعجهم أن يستقبلوا زائرا منله • فكان ينقل اليهم الأقاويل ، ويروج عندهم الحكايات السخيفة ، ويشكو اليهم حياته يوما بعد يوم ، ويدعو كلا منهم الى زيارته فى بيته للاعجاب بزوجته المجنونة •

وطبيعى أنه كان يجد دائما بينهم من يسره أن يقدّم لزميـل له مطرود قدحا من الشراب ليسمعه يلفق أسوأ الأقاويل • ثم ان حـديث يافيموف كان بارعا يفيض ملاحظاتٍ مرةً لاذعة تفتن هـذا النوع من المستمعين • وكانوا يعاملونه كمهرج شبهمجنون ، يحضونه على الثرثرة تزجيه للوقت وملئا للفراغ • وكان يحلو لهم أن يستثيروا غضـبه ، بالتحدث أمامه عن عازف جديد وصل الى العاصمـة • فسرعان ما كان يتغير وجهه ، ويشرد لبه ، ويعضه الحسد ، ويسأل عن هـذا العازف الجديد من هو وما هى مواهبه • وأعتقد أن ذلك الوقت كان بداية جنونه الحقيقى ، بداية الفكرة النابتة التى حاصرت عقله واستبدت به ، أعنى ايمانه بأنه أول عازف على الكمان ، فى بطرسبرج على الاقل ، وأن الحظ هو الذى خانه، وأنه مضطهد مهان، وأنه ضحية أنواع شتى من المؤامرات وان الناس لا يفهمونه ، وانه لذلك مجهول • وكانت هذه الفكرة الاخيرة تروق له وتتملق غروره ، فهناك أناس يحبون أن يعتقدوا أنهممضطهدون مهانون ، حتى يستطيعوا أن يتفجعوا جهارا ، وأن يتأسـوا فى سرهم بعبادة عبقريتهم المجهولة • وكان « يافيموف » يعرف جميع العازفين من أولهم الى آخرهم ، ويزعم أنه ما من أحد منهم يستطيع أن يضـارعه • وكان الهواة الذين يعرفون لوثته يحبون أن يثنوا أمامه على عازف من العازفين ليحضوه على ابداء رأيه •

وكانوا يستعذبون ضغينته ، ويستلطفون ملاحظاته المحكمة وكلماته

اللاذعة الفكهة التى كان يطلقها فى التهكم على عزف خصمه الخيالى ! •
وكانوا كثيرا ما لا يفهمونه ، الا انهم كانوا يعتقدون أنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يصف مشاهير الموسيقيين فى تلك الآونة وصفا « كاريكاتوريا » فى مثل براعته وفكاهته ، حتى ان الفنانين الذين كان يسلط عليهم لسانه المر كانوا يخشونه بعض الشيء ، لأنهم يعرفون السم الذى يقطر من أحاديثه ، ويشعرون بما فى ملاحظاته من أحكام صائبة ! •• واعتاد الناس أن يروه فى أروقه المسرح وكواليسه •• وكان المستخدمون يدعونه يدخل دون اعتراض ، كشخص لا غنى عنه • لقد أصبح « ترسيت » * هذا المكان •

ودامت هذه الحياة سنتين أو ثلاث سنين ، الى أن سئمه جميع الناس ، حتى فى هذا الدور الأخير ، وعندئذ طرد طرداً نهائيا • واختفى عمى بعد ذاك سنتين كاملتين اختفاء تاما ، لا يعلم أحد ممن يعرفونه الى أين مضى • الا ان «ب» صادفه مرتين على حال من البؤس والشقاء استدرت شفقته ، فتغلبت الرحمة فى قلبه على الاشمئزاز ، فناداه مرة ، الا أن عمى ارتبك ، وتظاهر بأنه لم يسمعه وشد قبعته المشوهة الرثة على رأسه حتى غطت عينيه ، وتابع سيره • وفى صباح أحد الاعياد جاء خادم « ب » يقول له ان صديقه القديم على الباب أتى يقدم اليه تهانيه بالعيد وتمنياته• فخرج «ب» للقائه • كان يافيموف فى حالة سكر شديد ، فلما رأى «ب» خرّ راكعا حتى كاد يلامس الارض اظهارا لذله ، وتمتم بضع كلمات ، وأبى أن يدخل • وكان لسان حاله طبعا يقول : ليس من حقنا نحن أهل الشقاء أن نعاشر عظماء فى مثل منزلتكم •و كل مايسمح لنا به ، نحن صغار الناس ، ان نفعل ما يفعله الخدم : نتملق واقفين على

عتبة الباب ، وننخر راكعين ثم ننصرف • ذلك كان سلوكه المزرى • ولم يره «ب» منذ ذلك الحين الا بعد مدة طويله ، أى يوم وقعت الواقعة التى اختتمت بها هذه الحياة الشقية المريضة الفاسدة • لقد كانت فاجعة فظيعة• انها لا ترتبط ارتباطا وثيقا بمشاعر طفولتى فحسب ، بل بحياتى كلها ، وسأروى لكم الآن كيف وقعت • ولكن لا بد لى ، قبل كل شيء ، أن أذكر ماذا كانت طفولتى ، وماذا كان بالنسبة الى ذلك الرجل الذى خلّف فى عواطفى الاولى أثرا مؤلما الى هذا الحد ، ذلك الرجل الذى سبب موت أمى المسكينه •

الفصل الثانى

لم تبدأ ذكرياتى الا متأخرة جدا ، فى نحو التاسعة من عمرى • لاأدرى كيف يمكن ذلك • الا أن كل ما انقضى قبل هذا العهد لم يدع فى نفسى أى أثر يمكن أن أذكره الآن • ولكننى فى مقابل ذلك أستطيع أن أرى بوضوح تام كل ما وقع بعد الثامنـــة والنصف من من عمرى ، يوما بيوم ، دون أى انقطاع ، كأنه وقع بالامس • صحيح اننى أستطيع أن أتذكر بعض الحوادث التى سبقت هذه المرحلة ، الا أن ذكرياتى عن هذه الحوادث أشبه بأحلام مريض : ما زلت أرى ــ مثلا ــ سراجا صغيرا يعس فى ركن مظلم الى جانب أيقونة قديمة • وما زلت أعلم أننى كنت ذات يوم فى الشارع ، فداسنى حصان ، وقيل لى اننى بقيت بعد ذلك طريحة الفراش طوال أشهر ثلاثة • وما زلت أذكر أيضا أننى أثناء ذلك المرض استيقظت ذات مرة مذعورة (وكنت أنام مع أمى عـلى فراش واحد) وان أوهامى والسكون وقرقعه فأر فى ركن الغرفة أرعبتنى أشد الرعب ، فقضيت بقية الليل أرتعد منكمشة على نفسى تحت الغطاء ،

دون ان اجرؤ على ايقاظ امي (وهـــذا ما يجعلني افترض انني كنت اخشاها اكثر مما اخشى سائر المخاوف مجتمعه !) •• الا انني منذاللحظه التي شعرت فيها بذاتي ، أصبح نموي سريعا وعجيبا ، حتى أنني أحسست بكثير من المشاعر التي ليست من الطفوله في شيء • لقد اضاء كل شيءامام نظري ، وسرعان ما اصبح كل شيء مفهوما • ان اللحظه التي بدات فيها ذكرياتي الحقيقيه قد تركت في نفسي اثرا حادا من الالم ، وكان هـــذا الاثر يزداد يوما بعد يوم ، حتى اضفى على جميع حياتي التي قضيتهـا بين عمي وأمي ، أعني على طفولتي كلها ، لونا قاتما غريبا !

يخيل الي الان انني كانما استيقظت فجاة من نوم ثقيل ، استيقظت في غرفة كبيرة منخفضه السقف ، قذرة ، تفوح منها روائح الاختناق ، جدرانها ملطخة بلون رمادي قذر ، وفي احـدى زواياها تنتصب مدفاة روسية قديمة • والنوافذ تطـل على الشـارع ، او قل على سـطح البيت المقابل ، وهي جميعها أشبه بشقوق ، لشدة ضيقها وامتدادها عرضا ، وحوافيها تبلغ من البعد عن أرض الغرفه أنني احتجت ، فيما أذكر ، الى أن أضع كرسيا والى أن أضع فوق الكرسي مقعدا حتى أستطيع أن أصل الى هذا المكان الذي كنت أحب أن أجلس فيه حين لا يكون في البيت أحد • لقد كان المنظر يمتد من هذه النوافذ على نصف المدينة • لقـد كنا نعيش تحت السقف من عمارة كبيرة تتألف من ستة طوابق ، وكان أثاث بيتنا كله لا يزيد على « ديوان » من قماش مشمع أصبح مزقا مغبرة باهتة ، وعلى طاولة كبيرة من خشب أبيض وكرسيين ، وعلى سرير أمي ، وخزانة صغيرة ، وأخرى متداعية أسندت الى زاوية من زوايا الغرفة ، وحاجز من ورق تمزق •

اني أتذكر ذلك المساء ، عند الشفق • كان كل شيء قد تبعثر على

أرض الغرفة : المقشة ، خرق المسح ، أوانينا التى من خشب ، زجاجة مكسورة ، وأشياء أخرى أيضا •• وأمى تبكى مرتعدة من شدة الهيجان، وعمى جالس فى أحد أركان الغرفة ، يرتدى ردنجوته السرمدى • وكان عمى يرد على كلام أمى هازئا ساخرا ، وكان ذلك يزيد غضب أمى •

وفجأة تعود المقشة والأوانى الى رقصها العنيف • وأخذتُ أصرخ غارقه فى الدموع ، واندفعت الى أمام أحاول أن أباعد بينهما • كنت فى حالة ذعر هائل • وأحطت عمى بذراعى أريد أن أغطيه بجسمى لأحميه• كنت أعتقد ، لا أدرى لماذا ، ان أمى هى المخطئة فى غضبها عليه ، وانه ليس بمذنب • ووددت لو أتشفع له ، وأن أحتمل عنه كل قصاص •

كنت أخاف أمى خوفا شديدا ، فكان يتراءى لى انه ما من أحد الا ويخشاها كما أخشاها أنا •

وشدهت أمى فى أول الأمر ، ثم أمسكت بيدى وجرتنى الى ماوراء الحاجز • واصطدمت يدى بالسرير فآلمتنى ألماً شديداً ، الا أن الخوف كان أشد من الألم ، فلم أحرك ساكنا ، ولا ظهرت على وجهى علامة من علامات الألم •

وما زلت أذكر أن أمى خاطبت أبى بعد ذلك بلهجة عنيفة وهى تشير الىّ باصبعها (سأسميه بعد الآن أبى فى قصتى هذه ، لأننى لم أعلم أنه ليس أبى الا بعد مدة طويلة) • ودام هذا المشهد ساعتين طويلتين كنت أحاول عبثا خلالهما ، وأنا أرتجف من القلق ، أن أحزر كيف سينتهى الأمر •

وأخيراً هدأت المشاجرة ، وانصرفت أمى • وعندئذ نادانى أبى

فقبلني ، وداعب رأسي ، وحملني الى ركبتيه بينما كنت أشد جسمي اليه برفق وحب •

كانت تلك فيما أعتقد أول ملاطفة أبوية • ولعلها هي السبب فيأن ذكرياتي اصبحت منذ تلك اللحظة واضحه هـذا الوضـوح • ولاحظت بجلاء تام انني اكتسبت عطف أبي بالتحزب له • ولعل هـــذه هي المرة الاولى التي قام فيها في ذهني أن امي كانت تجعل حياة أبي قاسية شاقة• ومنذ استقرت هذه الفكرة في نفسي اصبحت تعذبني وتزيدني عذابا يوما بعد يوم •

وشعرت نحو أبي ، منذ تلك اللحظة ، بحب ليس له حدود ، حب غريب ليس من الطفولة في شيء • حتى لاستطيع أن أقول ان هذه العاطفة تشتمل على شيء مما تشعر به الام نحو ابنها من حب وقلق ، ان لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا • كان يتراءى لي أن أبي حقيق بالرثاء ، معذب ، مضطهد ، وأن من الظـلم أن لا أحبه حبـا قويا ، وأن لا أواسيه ، وأن لا أظهر له أية عاطفة ، وأن لا أهب له نفسي مخلصـة صادقة • ومع ذلك فانني لا أعرف الآن لِمَ كانت الفكرة التي استقرت في ذهني يومئذ هي أن أبيأشقى الناس وأكثرهم عذابا • ما الذي ألهمني هذه الفكرة ؟ كيف استطعت ، أنا الصغيرة ، أن أنفذ الى أعماق نفسـه فأدرك الآلام التي كان يعانيها ثمرة لاخفاقه ؟ لقد نفذت مع ذلك الى هذه الآلام ، وان كنت قد بدلت صورتها طبعا ، وجعلتها في مستوى خيالي • والى الآن لا أدري من أين أتاني هذا الحدس • لعل قسوة أمي الشديدة عليَّ هي التي دفعتني الى التعلق بأبي ، تعلقي بانسان يعاني مثـل الشقاء الذي أعانيه ، وفقا للصورة التي رسمتها نفسي له •

رويت الى الآن يقظتي الأولى من نوم الطفولة ، والحادث الأول في

حياتى • وقد جرحنى هذا الحادث جرحا عميقا ، ومنذ ذلك اليوم أخذ نموى يتم بسرعة عجيبة ، بسرعة مرهقة ، وأصبحت لا أكتفى بالمشاعر التى تصلنى من الخارج بل صرت أفكر ، وأحكم ، وألاحظ • فاذا كل ما يحيط بى يرتسم فى ذهنى وفقا للصورة الخيالية التى كان يكررها أبى، والتى كان لا بد أن أعدها الحقيقة الخالصة • وأدركت أشياء كثيرة عجيبة• أدركت مثلا (لا أفهم الآن كيف تم لى ذلك) اننى أعيش فى أسرة عجيبة ، وأن أبوىّ لا يشبهان الناس الذين كان يتفق لى أن ألقاهم • كنت أتساءل : « لماذا يختلف مظهر الناس الذين أراهم عن مظهر أبوى ؟ لماذا أرى فى وجوههم فرحا •• على حين أنه ما من أحد يضحك يوما فى بيتنا ، فى ركننا النائى ، ما من أحد يعرف الفرح سبيلا الى نفسه !؟ » لست أدرى الآن ما الذى كان يدفعنى ، أنا الطفلة التى لم تتجاوز التاسعة من عمرها ، الى ملاحظة الناس بمثل هذا الانتباه الشديد ، والى الاستماع الى كل كلمة يقولونها بمثل هذه المرارة اللاذعة ، حين كنت ألقاهم عرضا على سلم البيت ، أو فى الشارع ، أو حين كنت أمضى الى أحد الحوانيت ، ملفعةً بثوب أمى ، لأشترى ببضعة قروش قليلا من السكر أو الشاى أو الخبز ؟ •• وفهمت ـ لا أدرى كيف ـ أن شقاء لا يحتمل يختبىء فى بيتنا ، فى هذا البيت الحقير • وكنت أعصر ذهنى باحثة عن علة ذلك ، ولا أدرى ما الذى ساعدنى على حل اللغز على النحو التالى : قلت فى نفسى أن أمى هى المسئولة ، انها سبب شقاء أبى • وهذا يضطرنى الى التساؤل مرة أخرى : كيف أمكن أن ترسخ هذه الفكرة الشيطانية فى نفسى • ومهما يكن من أمر فان تعلقى بأبى أخذ يزداد ، وأخذ يزداد كرهى لأمى ، وما زالت هذه الذكرى تحدث لى ألما عميقا حتى الآن •

وهذا حادث آخر عجّل تعلقى بأبى أكثر من الحادث الأول : ذات

مرة ، في نحو الساعة التاسعة من المساء ، أرسلتني أمي الى السوق لشراء قليل من الخميرة ، أثناء غياب أبي عن البيت • ووقعت في الشارع وأنا عائدة الى البيت فانسفح على الارض كلّ ما كان يحويه الفنجان • وتصورت ، اول ما تصورت ، جامَ الغضب الذى سنصبه أمي على راسي ، وشعرت الى جانب ذلك بالم فظيع في ذراعي اليسرى ، ولم استطع أن أنهض على قدمي ، وتجمع حولي « المنفرجون » • وحاولت امراة أن تنهضني ، ومر صبي وهو يركض فلكمني على رأسي ومضى ، وأنهضوني أخيرا ، فلملمت قطع فنجاني ، ومضيت مرتعشه مرتجفة لا أكاد أقوى على السير • وفجأة لمحت أبي • لمحته في وسط جمهور تجمع أمام المنزل الجميل الذى يقابل بيتنا • كان هذا المنزل الذى يقطنه أناس أغنياء يتألق بضياء رائع • وأمام باب البيت كان يقف عدد من العربات • ومن خلال النوافذ كانت تخرج أصوات موسيقى • وأمسكت بطرف ثوب أبي ، وأريته فنجاني المكسور ، وذكرت له ، باكيةً ، انني خائفة من العودة الى البيت • لا أدرى الان لِمَ كنت على ثقة من أنه سيصحبني وأنه سيدافع عني ، لا أدرى من أين أتاني هذا اليقين ، ومن ذا الذى أوحى اليَّ بأنه سيحميني ، وأنه يحبني أكثر مما تحبني أمي كثيرا • لا أدرى كيف اتجهت اليه دون أن يساورني أى خوف • وأمسك أبي بيدي ، وأخذ يواسيني ، ثم قال لي انه سيريني شيئا • ورفعني بين ذراعيه • لم أستطع أن أرى شيئا ، لأنه شد ذراعي المجروحة ، فآلمني ألما هائلا • غير أنني لم أصرخ ولم أتوجع ، لأنني كنت لا أحب أن أزعجه في شيء • وسألني ملحا هل أرى شيئا • وحاولت ، جهد اليائس ، أن أجيبه بما يحب ، فقلت له انني أرى ستائر حمرا • وحين أراد أن يحملني الى الجانب الآخر من الشارع ، بالقرب من البيت ، رأيتني أبكي فجأة على رغم ارادتي وأخذت أتوسل اليه ، وقد أحطت عنقه بذراعي ، أن يصعد بي الى البيت

بسرعة . انني أتذكر الان أن مداعبات أبي في تلك اللحظة كانت تؤلمني، فانني لم احتمل ان يحبني ويداعبني احد هدين اللذين أود أن احبهما كل الحب ، في وقت اخاف فيه الاخر وأخشى ان أمثل بين يديه . الا أن أمي لم تكد تغضب ، وأمرتني أن أمضى الى فـراشي وأنام . وأذكـر أن ألم ذراعي أخذ يشتد ويشتد ، حتى سبب لى حمى شديدة . ورغم ذلك كانت سعادتي عظيمة جـدا ، لأن الامر انتهى بسـلام ، حتى لقد حلمت طوال الليل بالبيت الذى يقابل بيتنا وبستائره الحمر .

لذلك كانت صورة هذا البيت أول ما مثل في خاطرى حين استيقظت في صباح اليوم التالى . وما كادت أمي تنزل الى فناء المنزل ، حتى تسلقت حافة النافذة لاتامل ذلك البيت مرة أخرى ، وكنت أفكر فيه منذ زمان طويل ، وكنت أحب أن أنظر اليه في المساء خاصة ، حين تضيء الأنوار في الشارع ، فتصطبغ بلون الدم ، تحت الاشعة الخاصة التى تسقط عليها من خـلال نوافذه العالية المغللة بالستائر الارجوانية ، والمضاءة اضـاءة قوية .

وأمام الباب ، تقف دائما عربات فاخرة شدت اليها خيول رائعـة . كان كل شيء ينير في نفسي حب الاسـتطلاع : الصراخ ، الازدحام ، القناديل المبرقشـة ، النساء المتبرجات ينزلن من العـربات . كان خيـالى يخلع على هذا كله جوا سحريا مترفا كجو الاساطير . وفي ذلك اليـوم على وجه الخصوص ، بعد لقائى بأبى على عتبة هذا البيت ، ازداد البيت في نظرى فتنة وسحرا . وكانت صور الروعة قد بدأت تتخاطر في ذهني الهائم . انى أعيش بين أناس شاذين كأبي وأمي ، فلا عجب أن أصبحت شاذة عجيبة ، أنا الأخرى ، فما من ذلك مهرب . من ذلك أن رؤية أمي وهي تتحمل هذا العناء كله في سبيل اعالتنا ، وما كنت أسمعه من تقريعها أبي دون انقطـاع على انهـا وحـدها تعمل ، كل ذلك كان يشـغل بالى

ويصدعه • فكنت أتساءل ، بالرغم مني : لماذا لايساعدها أبي آبدا ، ولماذا يعيش بيننا كأنه غريب عنا ؟ ان بعض كلمات أمي أيقظت في نفسي هذه الفكرة • وكانت لي مفاجأة كبيرة يوم فهمت أن أبي شخص « موهوب » ، انه « فنان » • ورسخت هذه الكلمة في ذاكرتي ، وسرعان ما استقر في ذهني ان الفنان مخلوق عجيب ، لا يشبهه غيره من الناس • لعل سلوك أبي هو الذي انتهى بي الى هذه النتيجة ، أو لعل كلمة سمعتها ثم نسيتها، هي التي رسّخت في نفسي هذه الفكرة • ومهما يكن من أمر فان هناك عبارة قالها أبي ذات يوم بحرارة قوية ورسخت في ذاكرتي لا تبرحها قال : سيأتي يوم لن يكون هو فيه انسانا رثاً بل سيداً محترما ورجلا غنياً، سيأتي يوم يبعث فيه بعثا جديدا ، هو اليوم الذي تموت فيه أمي ! ••أذكر انني ما ان سمعت هذه الكلمات حتى انتابني في أول الأمر رعب شديد ، فلم أستطع أن أبقى في الغرفة • فهربت الى الممر البارد ، وانكمشت الى جانب النافذة ، وقد اعتمدت وجهي بين يدي ، وأخذت أشهق وأنتحب • ثم لما فكرت في الأمر مليا ، وهبّ الخيال الى نجدتي ، وجدتني آلف رغبة أبي الكريهة هذه • وكنت ، من جهة أخرى ، لا أستطيع أن أظل مدة طويلة أمام سر لا يمكن فهمه ، وكان لا بد لي من أن أستقر على افتراض يرتاح اليه عقلي ، وهكذا وجدتني أعتقد (لا أدري كيف تم ذلك) أنه متى ماتت أمي فسيترك أبي هذا البيت الحقير ، ويمضي بي الى مكان آخر • أما أين يكون ذلك المكان ، فذلك ما لم أستطع أن أتخيله واضحا الى آخر لحظة • والذكرى الوحيدة التي بقيت لي عن المكان الذي سنمضي اليه (وكنا سنمضي اليه من أجلي أنا طبعا) هو أنه سيكون مكانا رائعا فخما عظيما • لقد خلقت من أحلامي الخيالية واقعا حيا • وتراءى لي اننا سنصبح أغنياء في طرفة عين ، فما احتاج أن أذهب الى شراء بعض

الحاجات من الدكاكين ، وكان هذا العمل كريها جدا الى نفسي ، فقد كان أولاد البيت المجاور يتحرشون بي كلما خرجت ، وكنت أخشاهم خاصة حين أحمل قليلا من الحليب أو الزبدة ، فأسقط ما أحمل على الأرض ، وأتعرض لعقاب أمي القاسي • وتراءى لي أن أبي سيشتري لنفسه ثيابا جميلة • وتخيلت أننا سنمضي بعد ذلك الى البيت الذي يقابل بيتنا ، فنقيم فيه • نعم ، ان البيت الغني ذا الستائر الحمر الذي رفعني أبي أمام نوافذه ذات يوم من أجل أن يريني ما بداخله ، قد هبّ كذلك لنجدة خيالي • وحللت المسألة على الفور : سيكون هذا البيت بيتنا ، وسنمكث في حناياه في عيد دائم ، في سعادة أبدية • ومنذ تلك اللحظة صرت اذا جاء المساء أقف على نافذة بيتنا أتأمل القصر المسحور في شوق ما بعده شوق : فأرى وصول العربات ، وأرى الزوار في أجمل الحلى ، وأسمع أصوات موسيقى عذبة تخرج من خلال النوافذ ، وأتأمل الظلال التي تتخاطر على الستائر ، وأحاول أن أحرز ما يعمله الناس في هذا البيت الذي كان في نظري جنة ، وعيدا أبديا ، وصرت أحتقر مسكننا الوضيع ، وأحتقر الخرق البالية التي أرتديها •

◆ ◆ ◆

وذات يوم غضبت أمي فأمرتني أن أنزل عن النافذة ، حيث أطلق لأحلامي العنان على عادتي • فما لبثت أن اعتقدت أن أمي انما تمنعني من التفكير في هذا البيت ومن النظر اليه لأن مستقبلنا لا يحلو لها ، ولأنها تريد أن تحول بيننا وبينه • وظللت طوال السهرة أرقب أمي بحذر •

كيف أمكن أن أكون في مثل هذه القسوة على انسان لقي من العذاب الأبدي ما لقيت أمي ؟ اليوم فقط أصبحت أدرك انها كانت تعيش في جحيم ، اليوم فقط أدرك ، وقلبي يتمزق من الأسى ، أنها شهيدة • على انني في تلك الفترة القاتمة من طفولتي الغريبة ، في تلك الفترة من

حياتي التي كنت انمو فيها نموا غير طبيعي ، كثيرا ما كان ينقبض صدري الما ورحمه ، كثيرا ما كان يثور ضميري كلما تراءى لي انني اظلم امي • الا ان القلق والخوف والريبة ظلت اقوى من كل شيء اخر • والحق اننا كنا بعيدين احدانا عن الاخرى • فلست أذكر انني تمنيت في يوم من الايام ان اخلو بها • لذلك كانت أية ذكرى من ذكرياتي تسمم الان نفسي وتجعلني أرتعد من شدة الألم •

أذكر مرة (ولا شك أن ما سأرويه أمر مبتذل ، الا أن ذكريات من هذا النوع هي التي تعاودني الان وتعذبني) أن أمي أرادت ذات مساء ، أثناء غياب ابي ، ان ترسلني الى الدكان اشتري لها قليلا من الشاي والسكر • ولكنها قبل أن ترسلني فكرت طويلا ، ولم تعزم أمرها ، وجعلت تعد ، بصوت عال ، المبلغ الضئيل الذي كانت تملكه قطعاً نقدية صغيرة • اعتقد أنها ظلت تعد هذا المبلغ خلال نصف ساعة كاملة دون أن تفرغ من ذلك • لقد كانت المسكينة تصاب في بعض اللحظات بنوع من التبلد ، نتيجةً لما كانت تقاسيه من آلام • واذا صدقت ذاكرتي ، فقد تمتمت أمي لا أدري بماذا ، دون أن تكف عن عد دراهمها ببطء وعناية كبيرة• كأن الكلمات كانت لاتوافيها • وكانت شفتاها دكناوين، ووجنتاها كابيتين مكفهرتين ، ويداها مرتجفتين ، وكانت لا تني تهز رأسها ، على عادتها حين تتخذ قرارا •

وأخيرا قالت وهي تنظر الي : « كلا •• مستحيل •• خير لي أن أنام •• أليس كذلك ؟ هل تحبين أن تنامي يا نيتوتشكا ؟ » • ولم أجب • عندئذ رفعت أمي رأسي ، ونظرت اليَّ في رفق ولطف وحب ، وأشرقت في وجهها ابتسامة صافية تفيض بحنان الأم ، فما رأيتني الا وقلبي يخفق•

لقد نادتني بقولها نيتوتشكا ، وهذا يشير الى انها في تلك اللحظة أحبتني حبا خاصا . كانت هي التي تخيلت فيما مضى ان تغير اسمي ، وهو آنا ، فتناديني بهذا الاسم المصغر الذي يشير الى الحب ، وحين كانت تناديني بهذا الاسم المصغر كان ذلك يعني أنها على استعداد لأن تلاطفني وتداعبني . وانفعلت انفعالا قويا حتى اشتهيت أن أطوق عنقها بذراعي ، وأن أشاركها البكاء .

وداعبت رأسي طويلا ، ولعلها فعلت ذلك على نحو آلي دون أن تشعر ، وظلت تكرر : « صغيرتي انا ، حبيبتي نيتوتشكا » . وتفجرت من عيني الدموع ، الا انني تجلدت لأحبسها .. كابرت جهدي حتى لاأدعها ترى انفعالي ، رغم ما يسبب ذلك لي من ألم .

كلا ! لا يمكن أن يكون هذا مجرد قسوة مني . لا يمكن أن أشعر نحو أمي بالعداوة لمجرد قسوتها عليّ ! لقد كان يدفعني الى كرهها هــذا الحب الموحّد الشديد الذي اشعر به نحو أبي . لقد كان يتفق لي ، في بعض الأحيان ، أن أستيقظ من نومي ليلا ، في الركن الذي أنا فيه ، على حصيرتي الصغيرة ، تحت غطائي الرقيق ، وقد تملكني شعور مخيف . كنت ما زلت أتذكر في ذلك الحــين ، وأنا شــبه نائمة ، انني قبل هذه المدة بقليل ، كنت أنام مع أمي ، وكنت أقل خوفا حين أستيقظ ، وكان يكفيني أن أشد نفسي اليها ، وأن أغمض جفني ، وأن أعانقها بقوة ، حتى أنام على الفور . ثم لقد كنت أشعر انني ، رغم كل شيء ، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن حب أمي في السر . وأدركت بعد ذلك أن كثــيرا من الاطفال قد يفقدون مشاعر الرحمة فقداناً رهيباً ، وأنهم اذا أحبوا شخصا أحبوه وحده ولم يعبأوا بمن عداه . فكذلك كانت حالي أنا .

وكان يسطر على منزلنا الحقير ، في بعض الأحيان ، صمت رهيب

يدوم اسابيع برمتها ، وذلك حين يسام أبي وأمي مشاجراتهما • كنت أعيش بينهما حياتي كلها دون ان انبس بكلمة، غارقة في افكاري وحزني، ساعيه وراء خيالات أحلامي • وكنت ، لفرط ما تأملتهما ، افهم ما يكن كل منهما للآخر ، وأفهم هذا البغض الاصم المستمر الذي يرين بينهما ، وافهم هذه الحياة الفاسدة التي يعيشانها في كوخنا الحقير •

وطبيعي ان أفسر ذلك كله على النحو الذي أستطيعه ، ما دمت أجهل أسبابه ولا اعرف نتائجه • لقد كان يتفق لي خلال سهرات الشتاء الطويلة أن أظل قابعة في ركني ساعات كاملة أتأملهما• وكنت أحاول وأنا أطوّف بصري في وجه أبي ان أحزر مايفكر فيه ، وما يشغل باله • وكان وضع أمي يدهشني في بعض الاحيان ادهاشا يبلغ حد الفزع : كانت تسير في الغرفة جيئة وذهابا خلال وقت لا ينتهي ، وكان يتفق لها ذلك حتى في الليل ، حين يمضها الارق ، فكانت تدندن وتشير بيديها كأنها وحدها لا يراها أحد ، فهي تارة تضع يديها على صدرها ، وتارة تعضهما وقد تملكها يأس رهيب ، وتارة تجري دموعها على وجهها ، ربما دون أن تعلم لذلك سببا ، فقد كانت تفقد وعيها في بعض الاحيان • لقد كانت تعاني مرضا خطيرا أهملته اهمالا تاما •

وازدادت وطأة وحدتي وصمتي حتى أصبحت لا أجرؤ على أن أخرج منهما • وانقضت سنة كاملة على تيقظ شعوري ، وعلى استرسالي في التأملات والاحلام ، وعلى تمزقي صامتة بين مطامح غامضة نشأت فيّ بغتة • وأصبحت متوحشة كأنما أنا عشت في وسط غابة • وأخيرا انتبه أبي الى وضعي هذا ، فاستدعاني وسألني لماذا أحدّق فيه كل هذا التحديق• ولا أدري الآن بم أجبته • الا أنه ، بعد لحظة من تفكير ، وعدني ، وهو يداعب يدي ، أن يحضر لي كتاب الابجدية في الغد ، وأن يعلمني القراءة •

وانتظرت هذا الكتاب بفارغ صبر ، وحلمت به الليل كله ، دون أن أدرك ما هي الابجدية على وجه الدقة • وفي اليوم التالى بدا أبى يعلمنى القراءة • وفهمت ما يطلب الىّ فى طرفة عين ، وتقدمت فى دروسى بخطى سريعة ، لعلمى أن ذلك يسر أبى ، وكانت تلك أسعد مرحلة فى طفولتى البائسة • وحين كان أبى يثنى على سرعة فهمى ، ويداعب رأسى ويقبلنى، كنت أطفق أبكى من شدة الفرح •

وازداد أبى حبا لى شيئا بعد شيء • وأصبحت أجرؤ على أن أكلمه ، وأصبحنا كثيرا ما نمضى نثرثر معا ساعات طوالا • وكان يتفق لى أن لاأفهم شيئا مما يقول ، ولكننى كنت أتظاهر بفهم كل شيء ، خشية أن يظن أبى اننى أضيق بحديثه • واعتاد أن يقضى السهرة معى ، فأصبح يعود الى البيت عند الغروب ، فما ان يصل حتى أحمل أبجديتى وألحق به ، فيجلسنى أمامه على المقعد ، حتى اذا فرغنا من الدرس أخذ يقرأ لى بصوت عال • وكنت لا أفهم شيئا مما يقرأ • الا اننى أضحك دون انقطاع، لاعتقادى بأن ذلك يسره سرورا عظيما • ولم أكن مخطئة فى اعتقادى ذلك : فقد أولع بى حقا ، وكان يفرحه أن يسمعنى مغرقة فى الضحك • وفى ذات مساء ، قص على ، بعد الدرس ، حكاية من حكايات الجن • كانت تلك أول حكاية أسمعها • وغمرتنى هذه الحكاية بفيض من الفتنة والسحر • على أن خيالى لم يكن فى حاجة الى مثلها ليفتتن ويسحر • كل ما فى الأمر اننى تقبلت الآن هذه الحكاية على انها جد ، وخلقت من الوهم واقعا • فاذا البيت ذو الستائر الحمر يتراءى لى ، لا أدرى كيف ، واذا الشخصية الاساسية فى الحكاية تتقمص أبى وهو يقص علىّ الحكاية ، واذا أمى تظهر لتحول بيننا وبين السفر لا أدرى الى أين ، واذا أنا أعيش مع أحلامى الرائعة وقد حم رأسى وغلى برؤاه العجيبة المستحيلة، وتداخل

هذا كله وتشابك ، ثم لم يلبث أن كون سديما لاشكل له ، سديما جعلني، خلال مدة من الوقت ، أفقد صوابي وأفقد شعوري بالواقع ، واعيش بين السحب .

وأحرقتني رغبة قوية في أن أسال أبي عما يخبئه لنا المستقبل ، عما ينتظر هو نفسه ، عن الامكنه التي سيقودني اليها ، عن الموعد الذي سنترك فيه بيتنا الحقير . كنت واثقة من جهتي ، ان هذا كله لن يتأخر كثيرا ، ولكن كيف وعلى أية صورة ؟ عبثا حاولت أن أبحث عن جواب على هذا السؤال المرهق . وكان يتراءى لي في بعض اللحظات ، ولا سيما أثناء السهرة ، ان ابي سيطلب الي فجأة ، بحركة خفية ، أن أمضي الى الممر ، فاذا انا أنهض خلسة ، دون أن تلاحظ أمي ذلك ، فأتناول أبجديتي عابرة ، واتابط اللوحة (وهي صورة مطبوعة لا قيمة لها كانت متدلية على جدار الغرفه بدون اطار منذ زمن لا أول له ، وكنت قد عزمت على أن أحملها معي) ، ثم نمضي دون أن نحدث ضجه ، نمضي الى غير رجعه ، لا الى البيت ولا الى أمي . وذات مرة ، لم تكن أمي في البيت ، فأردت انتهاز لحظة رأيت أبي فيها فرحا جدا (يتفق له ذلك بعد أن يحتسي قليلا من الشراب) ، فاقتربت منه لأدير الحديث حول هذا الموضوع الحبيب اليّ . وسرعان ماظفرت باضحاكه . عندئذ أحطت عنقه بذراعي ، وشددت نفسي بقوة اليه ، ورحت أسأله (وقد أخذ قلبي يخفق من شدة الخوف مما سأقوله من أمور سرية رهيبة) رحت أسأله في تمتمة وفي كلام متهدج ، عن المكان الذي سنمضي اليه ، وعن موعد السفر أهو قريب ، وعما سنحمله معنا ، وعن حياتنا كيف ستكون ، وعن البيت ذي الستائر الحمر هل نسكنه ؟

ــ أي بيت ؟ أي ستائر حمر ؟ ماذا تقولين أيتها الحمقاء الصغيرة ؟

وشعرت برعب لم أشعر به من قبل ، وأخذت أشرح له اننا لن نبقى

هنا في هذا البيت الحقير بعد موت أمي ، وانه سيأخذني بعد موتها الى مكان آخر نعيش فيه سعيدين ، غنيين • وأكدت له أخيرا أنه هو الذى وعدني بذلك • وكنت على يقين ، وأنا أقول له هذا الكلام ، من أن أبى قد حدثني عن هذه الاشياء ، أو انني قدرتها تقديرا على الاقل •

وأردف أبي يقول :

ـ أمك ؟ تموت ؟ حين تموت ؟ ماذا تقولين أيتها البلهاء الصغيرة البائسة ؟

قال ذلك وهو ينظر الىّ مشدوها ، مقطبا ما بين حاجبيه الكثيفين المبيضين ، مكفهر الوجه على حين فجأة •

ثم وبخني ، وظل مدة طويلة يقرعني ويقول انني طفلة بلهاء لا أستطيع أن أفهم شيئا •

لست أتذكر الآن ألفاظ التأنيب التى صبها على رأسي ، ولكن استياءه كان شديدا جدا •

على أنني لم أفهم قوله ، ولا فهمت هذا الحزن الذى شعر به حين أدرك انني أصغيت الى كلامه وترجمت الى لغتي الخاصة عبارات البغض التى كان يكيلها لأمي •

ومهما يكن من أمر سلوكه حينذاك ، ومهما تكن آراؤه الشخصية السيئة في أمي ، فمما لا شك فيه أن كلامي قد شدهه • أما أنا فانني لم أستطع أن أفهم غضبه ، وشعرت بحزن مر ، وانفجرت باكية ، واعتقدت أن ما ينتظرنا هو من الخطورة بحيث لا يجوز لي ، أنا الطفلة الغبية ، أن أتحدث عنه ولا أن أفكر فيه • على انني ان لم أفهم شيئا من غضب أبى ، فقد شعرت انني أهنت أمي ، ولو شعورا غامضا مبهما ، حتى أن الخوف

والارتياع بلغا منى مبلغا جعل الشك ينشب اظافره فى أعماق نفسى • وحين رآنى ابى باكية معذبة ، اخذ يواسينى ، ومسح دموعى بكمه ، وأمرنى أن أكف عن البكاء • وبقينا بعد ذلك جالسين مدة من الزمن صامتين ، وكان باديا على وجه أبى انه يفكر منقبض الاسارير • ثم احذ يتكلم من جديد ، الا أن كل ما قاله بدا لى غير واضح ، رغم ما حاولته من تركيز انتباهى ؛ والكلمات القليلة التى بقيت فى ذاكرتى الى الان من حديثه تجعلنى أستنتج أنه تحدث عن مواهبه العظيمة ، عن كونه فنانا كبيرا ، عن أن الناس لا يفهمونه ، الخ • وما زلت أذكر انه سألنى هل أفهم ما يقول ، فلما أجبته بما يرضيه حملنى على ان اكرر على مسامعه أنه موهوب فقلت « موهوب » •• وكاد يبتسم لدى سماعه هذه الكلمة ، ولعله ابتسم لانه رأى من المضحك أن يتحدث معى فى موضوع خطير فى نظره الى هذا الحد• وانقطت محادثاتنا بوصول كارل فيودورفتش • فما لبثت أن استعدت مرحى وأخذت أضحك ، حين قال لى أبى مشيراً اليه :

ــ هل ترين ؟ هـــذا كارل فيـودروفتش ! انه لا يملك ذرة من موهبة !

كان كارل فيودروفتش انسانا عجيبا • مازلت أتخيله كأننى رأيته بالامس • (ولا عجب ، فان الناس الذين عرفتهم فى حياتى حتى ذلك الحين كانوا قلة) • وكان الرجل ألمانيا ، أتى الى روسيا تهزه رغبة شديدة فى الانتساب الى هيئة الباليه ببطرسبرج • الا أن رقصه كان من الرداءة بحيث لم يمكن أن يسند اليه فى الفرقة أى دور مهما يكن ثانويا ، على انهم كانوا يستخدمونه أحيانا فى بعض الادوار الجماعية ، مع فرســـان فيرون مثلا ، الذين يبلغ عددهم العشرين ويجب عليهم أن يصرخوا معا فى لحظة من اللحظات هاتفين وفى أيديهم خنـــاجر من ورق مقوى :

« لنمت فى سبيل الملك » • ولكن لا شك فى انه ليس على وجه الارض ممثل واحد بلغ شغفه بدوره مثلما بلغ شغف كارل فيودروفتش بدوره !

على أن أفظع تعاسة فى حياته كلها هى انه لم يستطع أن ينخـرط فى هيئة الباليه • كان يعتقد ان فن الرقص يفوق جميع فنون الدنيا ، وهو من هذه الناحية يحرص على فنه حرص أبى على كمانه • وقد تصادق الرجلان حين كانا يعملان معا فى المسرح • ومنذ ذلك الحين لم يدع هذا الممثل البسيط أبى أبدا • فكانا يلتقيان فى كثير من الاحيان ، يتفجعان معا على حياتهما المحطمة ، ويشكوان غدر البشر • ولقد كان هذا الالمانى أكثر الناس عاطفية ، فكان يحمل لأبى أعنف مشاعر الصداقة وأخلصها • الا ان أبى لم يكن يقدره كثيرا ، وانما يحتمله لانه لم يكن له صديق غيره فى ذلك الحين • ثم ان أبى كان يرفض ، لتعصبه ، أن يسلم بأن الرقص فن من الفنون • وكان ذلك يجرح كبرياء الالمانى المسكين الى حد البكاء• فما يكاد هذا البائس يتحمس للرقص حتى يأخذ أبى يسخر منه ، ويهزأ بفنه ، فيمس بذلك وترا حساسا فيه • ولقد سمعت « ب » فيما بعد يتحدث كثيرا عن كارل فيودروفتش هذا ، وقد روى لى كثيرا من التفاصـيل عن صداقة هذين الشخصين اللذين لم يخلق أحدهما للآخر ، واللذين كانا اذا احتسيا قليلا من الخمر معا ، يذرفان الدموع على حظهما العاثر وعلى ان الناس لا يفهمونهما !

وكنت اذا رأيتهما يبكيان آخذ فى الشهيق والنحيب ، أنا ايضا ، دون سبب يدعو الى ذلك • وكان ذلك يقع فى غياب أمى دائما • لقد كان الالمانى يخافها خوفا كبيرا ، حتى أنه كان اذا جاء قبع فى الممر مدة ، الى أن يخرج أحدنا فاذا علم ان أمى موجودة فى البيت ، طار لبه من الخوف وهرب يتدحرج على السلم بسرعة • وكان يأتينا دائما بقصائد

ألمانية تنال أعجابه ، وتثير حماسته ، فيأخذ ينشدنا اياها بصوت عال ، ثم يترجمها الى الروسية ترجمة خرقاء لنفهمها • وكان ذلك يفرح ابى كثيرا ، ويجعلنى أضحك فى بعض الاحيان ضحكا قويا • وفى ذات مرة وقع بين أيديهما كتاب روسى أعجبا به كلاهما أيما اعجاب بل افتتنا به افتتانا ، حتى انهما كانا كلما وقعا عليه بعد ذلك يعيدان قراءته • وكان هذا الكتاب ، فيما أذكر ، درامة شعرية لمؤلف روسى شهير • وقد رسخت الأبيات الأولى من هذه الدرامة فى ذاكرتى رسوخا قويا ، حتى اننى بعد انقضاء سنين كثيرة على ذلك صرت كلما وقع هذا الكتاب بين يدى مصادفة أتعرف عليه بلا عناء • وكانت هذه الدرامة تدور حول رسام كبير ، يدعى « جرينارو أو لاكوبو » ، يشكو حظه الشقى ويصرخ فيما يصرخ قائلا : « ان الناس لا يعرفون قيمتى » ، ثم يصرخ فى موضع آخر قائلا : « ان الناس يعرفون قدرى » ، وفى موضع يقول : «ليس لى من موهبة» ، وفى موضع آخر يقول : « ان لى مواهب عظيمة » • وخاتمة الدرامة محزنة • لاشك أن هذا الكتاب ليس له من قيمة • غير أنه ـ وتلك هى المعجزة ـ كان يفعل فعْل السحر فى هذين القارئين اللذين يجدان بينهما وبين بطله الرئيسى صفات مشتركة كثيرة • وكان كارل فيودوروفتش يبلغ من الانفعال انه يقفز من مكانه ، ويعدو الى الطرف الآخر من الغرفة ، ثم يتجه الىّ (وكان ينادينى « مادموازيل ») والى أبى ، متوسلا الينا ، وقد تفجر الدمع من عينيه ، أن نكون جمهورا له نرى رقصه ونحكم عليه • ثم يأخذ يقوم بأنواع شتى من خطوات الرقص ، صارخا فينا أن نعلن رأينا فى رقصه صراحة : أهو فنان أم لا ؟ هل يستطيع أحد أن يزعم أنه ليس بموهوب ؟ وكان أبى فى مثل هذه الأحوال يأخذه مرح مباغت ، ويومىء الىّ بعينيه خلسة أنه سيسخر من الالمانى ، وأن الامر سيكون مضحكا جدا • وكانت تنتابنى رغبة فى الضحك مجنونة ، حتى يشير ابى

الىّ بيده مهددا ، فأمسك عن الضحك • ومازلت حتى الآن لا أستطيع أن أتذكر هذه المشـاهد دون أن أضحك • ومازلت أرى المســكين كارل فيودوروفتش كأنه أمامي : انه قصير القامة ، نحيل مفرط في النحـول ، مبيض الشعر ، انفه كبير أحمر أشبه بمنقار الغراب ، اما ساقاه فمقوستان تقوسا بشعا جدا ولكنه كان يتباهى بشكلهما الجميل، حتى لقد كان يرتدي سروالا ضيقا يلتصق بهما ابرازا لمفاتنهما • وحين كان يتجمد على حركة أخيرة ، باسطا يديه نحونا ، مبتسما ابتسامة الراقصين على المسرح حـين يفرغون من احدى رقصاتهم ، كان أبي يظل صامتا لحظة من الزمن ، كأنه عزم على أن لا يعلن رأيه • الا أنه كان يفعل ذلك عمدا ليدع الراقص في وضعه ذاك ، مترنحا على قدميه ، جاهدا أن يحافظ على توازنه في كثير من العناء • وأخيرا يلتفت أبي الىّ في هيئة رزينة رصينة ، كأنما ليدعوني أن أكون شاهدا على حكمه الصادق الذي لا تحيز فيه ، وتلك هي اللحظة التي كان فيها الراقص يثبت بصره فيّ أنا أيضا ، وقد فاضت عيناه بمعاني الحياء والتوسل ، واخيرا يقول له أبي ، متظاهرا بالاستياء من الاعتراف بالحقيقة المرة :

ـ كلا ، ياكارل فيودوروفتش • لم تتقنها بعد !

وعندئذ يطلق كارل فيودوروفتش من أعماق صدره آهة حرى ، الا أنه يتجلد ، ثم يطلب الينا بحركات سريعة ان ننتبه اليه مرة أخرى ، زاعما ان الحظ لم يحالفه في المرة الأولى ، متوسلا ان نصبر عليه ونصدر حكمنا في هذه المرة الجديدة • ثم يركض من جديد الى الطرف الآخر من الغرفة • وكان في بعض الاحيان لفرط حماسته يبلغ من شدة الوثب ان رأسه يصطدم بالسقف ، فيحدث له ألما شديدا جدا ، الا انه كان يحتمل الألم ببطولة ، كاسبارطي ، ثم يتجمد مرة أخرى في وضع من الاوضاع، مبتسما ، مادا يديه نحونا ، طالبا أن نصدر رأينا في رقصته هذه المـرة •

ولكن أبى كان لا يعرف الرحمة ، فكان يجيب بنفس اللهجة الساخرة التى أجاب بها فى المرة الأولى ويقول :

ـ كلا ، يا كارل فيودوروفتش ، لم تحسنها بعد ، رغم كل ماعملت!

وكنت عندئذ لا أستطيع ان أضبط نفسى ، فأطلقها قهقهة مجلجلة يرد عليها أبى بقهقهة مثلها ، ويشعر كارل فيودوروفتش فجأة أننا انما نسخر منه ، فيحمر وجهه خجلا ، ويقول لابى وقد فاضت عيناه بالدموع وسرت فى لهجته عاطفه عميقة مضـــحكة فى آن واحد ، عاطفة كانت تحملنى بعد ذلك على أن أرثى لحاله :

ـ انك لست بصديق •

ثم يتناول قبعته ، ويهرب وهو يقسم أغلظ الايمان انه لن يعـــود أبدا • الا أن هــذا النوع من المخاصـــمات لم يكن يدوم طويلا ، فاذا بصاحبنا يعود بعد بضعة أيام ، واذا بالصديقين يستأنفان قراءة تلك الدرامة التى يحبانها ، واذا بالدموع تترقرق من جديد ، واذا الســـاذج كارل فيودوروفتش يطلب الينا أن نكون حكما بين مواهبه وبين الجمهور ، ولكن بعد أن يتوسل الينا أن نكون جادين فى الحكم ، كما يليق بأصدقاء مخلصين بدلا من أن نسخر منه •

وفى ذات مرة أرسلتنى أمى الى الدكان اشترى لها شيئا من الأشياء ، وعدت ممسكةً بالنقود الصغيرة التى ردها لى البائع ، فلقيت أبى هابطا على السلم ، فابتسمت له كما كنت أبتسم كلما لقيته ، وكنت فى الواقع أعجز من ان لا أبتسم له • الا أنه وقد انحنى علىّ يريد تقبيلى، لمح النقود التى أقبض عليها بيدى ـ (نسيت أن اذكر اننى تعودت ان اقرأ فى وجهه ما يدور فى خلده ، حتى أصبحت ادرك رغباته من أول نظرة • وكنت اذا

رأيته حزينا ينهشني الالم نهشا • وكان حزنه يزداد حين تفرغ يده من الدراهم فراغا تاما ، فما يســـتطيع أن يحتسى قليلا من الخمر ، بعد أن أصبح الكحول حاجة لا يستغنى عنها) ـ في تلك اللحظة التى لقيته فيها على السلم لاحظت ان به شيئا خاصا • كانت نظرته قاسية ، وكانت عيناه متجمدتين ، حتى أنه لم يرنى في اللحظــة الأولى • الا انه حــين رأى النقود البراقة التى أمسكها بيدى ، احمر وجهه فجأة ، ثم شحب ، ثم مد يده ليأخذها ، ثم ما لبث ان كبح حركته هذه • واضح ان صراعا قام فى نفسه • وكأنما سيطر أخيرا على نفسه ، فأمرنى أن أصعد • وهبط هــو بضع درجات على السلم ، الا انه توقف بعد ذلك فجأة ، ونادانى •

لقد كان فى حالة انزعاج فظيع •

ـ اسمعى يا نيتوتشكا • أعطينى هذه النقود • وسأردها اليك فيمــا بعد • ستعطين اباك هذه النقود يانيتوتشكا ، اليس كذلك ؟ انك ابنة طيبة ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟

كنت كأنما أوجست أنه سيفعل ذلك • الا أن صورة الغضب الذى ستصبه أمى على رأسى ، وخوفى ، ولاسيما خجلى عليه وعلى نفسى ، كل هذا صدنى عن ان أمد اليه المال • ولاحظ هو ذلك فورا فبادر الى القول :

ـ على كل حال ، لا داعى ، لا داعى ••

ـ بل خذ يا بابا ، سأقول لأمى اننى أضعته ، سأقول ان أبناء الجيران اختطفوه !

ـ حسنا ، حسنا • كنت أعرف ذلك ، أعرف انك ابنة طيبة ذكية •

قــال ذلك ، دون ان يكتم فرحه حين أحس بالدراهم فى يده ، وعادت الابتسامة الى شفتيه المرتعشتين ، وأضاف :

ـ انك ابنة صغيرة رائعة ، أنت ملاك صغير • أنت ملاكي الصغير ، هات يدك الصغيرة ••

وتناول يدى يريد تقبيلها ، غير انني انتزعتها منه بقوة • واجتاحني شعور غريب بالشفقة يمازجه شعور بالخجل والعار آخذ يعذبني ! ••• فتركت ابي دون آن استأذنه ، وركضت ركضا حتى بلغت باب البيت ، كانما يدفعني الخوف دفعا •ودخلت وقد تملكني ذعر مجنون • كان خداى كأنهما من جمر ، وكان قلبي يخفق خفقانا عنيفا • لم يكن شيء من هذا فد وقع لى قبل الآن • ومع ذلك زعمت لأمي ، بجرأة ، آن القطعة النقدية سقطت من يدى في الثلج فلم أستطع أن أجدها• وكنت أتوقع آن تضربني، ولكنها لم تضربني رغم انها استاءت استياء شديدا أخرجها عن طورها في أول الأمر ، لشعورها بفقرنا الفظيع ، فأخذت تقرعني وتؤنبني ، لكنها ما لبثت أن استعادت رباطة جأشها ، واكتفت بأن تلومني على اهمالي ، وقالت انني لو كنت أحبها حقا لعرفت كيف أحافظ على دراهمها • وآلمتني هذه الملاحظة أكثر من الضرب • لقد كانت أمي تعرفني حق المعرفة ، فلاحظت أن حساسيتي أصبحت مرهفة الى حد مرضي ، وانها ان لامتني على هذا النحو المرير ، واتهمتني بأنني لا أحبها ، كان ذلك أوقع في نفسي ، وأولى بأن يجعلني في المستقبل أكثر تيقظا وانتباها •

وعند هبوط الليل ، في الساعة التي يعود فيها أبي الى البيت ، مضيت الى الممر أنتظره على عادتي • كنت في هذه المرة مضطربة أشد الاضطراب • كانت الندامة تملأ كياني كله ، وتقلقني أعنف القلق • وعاد أبي أخيرا ، فسررت بعودته سرورا كبيرا ، كأنما هو يحمل الىّ العزاء والسلوى • وكان ثملا بعض الشيء ، فقد نظر الىّ حين رآني نظرةحائرة وغريبة في آن واحد ، وبعد أن قادني الى ركن من الممر ألقى على باب

الغرفة نظرات خائفة ، وأخرج من جيبه قطعة من الحلوى اشتراها لى ، ثم حذرنى من أن أسرق بعد الآن شيئا من نقود أمى ، قائلا ان هذا أمر سيىء ، معيب • وأضاف ان هذا حدث في هذه المرة لأن بابا كان فيحاجة ماسة الى بضعة دراهم ، وان بابا سيعيد هـــذه الدراهم ذات يوم ، وانني أستطيع يومئذ أن أقول لأمى انني وجدت ما أضعته ، وأن سرقة الدراهم من ماما شيء فظيع ، ينبغي أن لا أعود اليه قط ، بل أضاف انه سينتبه الى هذا الامر بعد الان ، وانني ان أطعته فسوف يأتيني بحلوى أخرى •• بل ذهب الى أبعد من ذلك وقال ان عليّ أن آرثي لحال أمى ، المريضـــة ، البائسة ، التى تعمل وحدها لتطعمنا نحن الثـــلاثة • واستمعت الى كلام أبى ، وأنا أرتجف من الخوف ، وقد فاضت دموعى • بلغ انفعــــالى من القوة أننى لم أستطع أن أجيب ولا أن أتحرك • ثم دخل البيت بعـــد أن أمرنى بأن لا أبكى وبأن لا أذكر شيئا مما حدث • ولاحظت عندئذ أنه كان في حالة انزعاج هائل ، هو الآخر • وقضيت السهرة كلها فزعة ، كأنما أنا أترقب خطرا كبيرا ، ولأول مرة لم أجرؤ على أن أنظر الى أبى ، وعلى أن أقترب منه • وكانت أمى تسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وتحدث نفسها كأنها غائبة عن وعيها ، على عادتها • كانت وطأة المرض عليهـــا فى ذلك اليوم أقسى ، كانت تعانى نوبة حادة من الاوجاع • وأخيرا انتابتنى حمى من شدة الانفعال الاصم الذى كنت أكابده • وحين أظلمت الغرفة لمأستطع أن أنام ، وهاجمتنى أحلام مزعجة مخيفة ، فأخـــذت أشـــهق باكية • واستيقظت أمى على أصوات شهيقى ، فنادتنى اليها وسألتنى عما بى • وبدلا من أن أجيب ، ازداد شهيقى قوة • عندئذ أشعلت أمى الشمعة ، واقتربت منى تحاول تهدئتى ، لاعتقادها بأن حلما أفزعنى ، وأخذت تقول : « كفى كفى ، أيتها الحمقاء •• أتبكين بسبب حلم ؟ كفى ، كفى • » ثم قبلتنى وأرادت أن تأخذنى الى سريرها أنام الى جانبها • ولكننى رفضت • لم

أستطع أن أضع ذراعي على عنقها ، ولا أن أتبعها . كان عذابي يتجاوز كل الحدود ، وودت لو أعترف لها بالحقيقة ، وما كنت لأستطيع أن أمسك عن ذلك ، لولا انني تذكرت أبي ، وتذكرت أنه حذرني من افشاء السر !

وقالت أمي ، وهي ترتب سريري وتغطيني بمعطفها العتيق ، اذ لاحظت انني أرتعش من الحمى :

ــ مسكينة أنت يانيتوتشكا ! أعتقد أنك مريضة مثل أمك .

ثم تأملتني بحزن شديد فلم أملك أن أحتمل نظرتها ، فأغمضت عيني ، واستدرت الى جهة الحائط . لا أدري متى نمت ، الا أن صورة أمي المسكينة وهي تكلمني ظلت ماثلة أمامي وأنا بين النوم واليقظه . لم أكن شعرت قبل ذلك بألم ثقيل الى هذا الحد . كان صدري منقبضا انقباضا خانقا ، الا انني شعرت بتحسن في صباح اليوم التالي ، وأخذت أتحدث مع أبي دون أن أشير الى حوادث الامس ، لشعوري بأن اشارة كهذه لن تسره . وما لبث أن انبسطت أساريره ، فقد كان هو الآخر ينظر اليّ في قلق أصم ، حتى اذا رآني مسرورة ، عاد اليه صفاؤه بل عاد اليه مرح ساذج . وبعد قليل ، خرجت أمي من البيت فلم يستطع أبي أن يكبح جماح نفسه فأخذ يقبلني بقوة حتى كدت أجن من شدة الفرح ، فصرت أبكي وأضحك في آن واحد ! .. ثم أخبرني أنه ، مكافأة على انني كنت ابنة طيبة عاقله ، سيريني شيئا جميلا جدا ، شيئا يسرني كثيرا أن أراه . ثم فك أزرار سترته فأخرج مفتاحا صغيرا كان معلقا على رقبته بخيط أسود ، وألقى عليّ نظرة غريبة كأنما يريد أن يقرأ في عيني السرور الذي كان لا بد ــ في رأيه ــ أن أشعر به . وفتح الصندوق فأخرج منه ، في كثير من الحذر ، علبةً سوداء ذات شكل غريب ، لم أرها قبل ذلك

أبدا • ولمس العلبة بنوع من الرهبة غير مألوف فيه ، وامحت الابتسامة من وجهه ليحل محلها فجأة مظهر الرصانة والجلال • وأخيرا فتح العلبة الغريبة بالمفتاح ، وأخرج منها شيئا غريب الشكل لم أره قبل ذلك أيضا • وتناول الشيء بيديه في عناية أشبه بالاجلال قائلا : ان هذا هو كمانه • ثم حدثني بصوت خافت رصين حديثا لم أفهمه • والشيء الوحيد الذي بقي في ذهني هو ما كنت أعرفه من قبل من أن أبي فنان ، ومن انه موهوب ، ومن انه سيعزف على كمانه في يوم من الايام ــ بَعُدَ هذا اليوم أو قرب ــ ومن اننا سنصبح يومئذ أغنياء نعيش حياة سعيدة رخية لا يكدرها شيء • وسالت دموع أبي على خديه ، وتملكني أنا انفعال شديد، وأخيرا طبع على كمانه قبلة رقيقة ثم مده الىّ لأفعل مثلما فعل • ثم لاحظ انني أتمنى لو أرى الآلة عن كثب ، فأجلسني على سرير أمي ، ووضع الآلة بين يدي • الا انني شعرت أنه كان يرتجف خوفا على الآلة أن أكسرها ، ومع ذلك نقرت على الاوتار نقرا خفيفا ، فأخرجت صوتا ضعيفا، فرفعت نظري الى أبي قائلة :

ــ هذه موسيقى ••

فقال ، وهو يفرك يديه ، وقد أشرق وجهه فرحا :

ــ نعم ، نعم ، موسيقى • انك صغيرة ذكية ، شجاعة •

غير أنني لاحظت بوضوح ، رغم مدائحه وحماسته ، انه يرتعد خوفا على آلته ، واستولى عليّ الخوف أنا أيضا ، فبادرت أردها اليه •• فأعادها الى علبتها بعناية كبيرة ، وأغلق العلبة ثم أرجعها الى مكانها في الصندوق • ووعدني وهو يداعب رأسي أنه سيريني الكمان مرات أخرى كلما كنت عاقلة مطيعة مثلما أنا الآن •

هكذا طرد الكمان حزننا كلينا • ومع ذلك همس أبى فى أذنى ، حين أتى المساء ، أن لا أنسى ما أوصانى به أمس •

وعلى هذا النحو كبرت فى بيتنا البائس • وكان حبى لأبى (والافضل أن أقول « هيامى » بأبى ، لأننى لا أعرف كلمة قوية تستطيع أن تعبر تعبيرا كاملا عن هذه العاطفة الجارفة التى كانت تعذبنى وتدفعنى نحو أبى دفعا) أقول : كان هيامى بأبى يشتد ويشتد حتى أصبح نوعا من الهوى المرضى ! •• صرت لا أجد فى الحياة من متعة غير أن أفكر فيه، وأن أحلم به •• صرت لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أعمل كل ما أستطيع عمله لأهيىء له ولو أقل مسرة • كم من مرة انتظرت عودته على السلم ، وأنا أرتجف من البرد ، لا لشىء الا أن أحس وجوده وأراه قبل الموعد بلحظة • وكنت أجن من الفرح حين يتفق له أن يمسنى بمداعبة عابرة • على ان فتور عاطفتى نحو أمى كثيرا ما كان يسبب لى حزنا أشبه بالعذاب • كنت اذا نظرت اليها امتلأت نفسى هولا • الا اننى لم أكن أستطيع أن أظل محايدة فيما كان يقوم بين أبوى من خصومات لا تنقطع • كان لابد لى أن أختار احدهما فأتحزب له • وقد تحزبت لهذا الانسان نصف المجنون ، لأنه كان فى نظرى انسانا بائسا مضطهدا ، ولأنه قد خاطب خيالى منذ البداية • ومع ذلك ، من يدرى ؟ لعلى تحزبت له لغرابته الشديدة ، وحتى لغرابة مظهره ، فان هذا المجنون لم يكن صارم الوجه حزين الملامح كأمى ، بل كان يضحك ويهرج كأنه طفل ، ولعلنى أحببته لأننى لم أكن أخشاه كما كنت أخشى أمى ، ولأننى لم أكن أحترمه كما كنت أحترم أمى ، بل أنظر اله نظرتى الى ند من أندادى ، أو الى ترب من أترابى •• حتى لقد شعرت شيئا فشيئا اننى سيطرت عليه ، اننى

أخضعته ، واننى أصبحت له حاجة لا غنى عنها . ولم يصبنى زهو وغرور، ولكنه الشعور بالظفر . وكنت من شدة تقديرى لمنزلتى فى نفسه بحيث كدت فى بعض الأحيان أن أدل عليه ، وأتظرف له . الحق أن فى تعلقى الغريب هذا شيئا يذكر بالروايات . الا أن هذه الرواية لم يقدر لها أن تدوم طويلا ، فاننى ما لبثت أن فقدت أبى وأمى . لقد انتهت حياتهما بفاجعة فظيعة ما زالت ذكراها محفورة فى نفسى ترهقها وتمضها ، واليكم كيف وقعت الفاجعة :

الفصل الثالث

في تلك الفترة ، راج فى بطرسبرج أن العازف الشهير على الكمان « س » سيصل الى العاصمة وشيكا ، فأحدث هذا النبأ فى بطرسبرج ضجة كبيرة ، واهتز له العالم الموسيقى اهتزازا كبيرا ، وأقبلت المغنيات والشعراء والرسامون ومحبو الموسيقى يختطفون تذاكر الحفلة اختطافا ، بل وأقبل على ذلك أناس ممن يصرِّحون فى كبرياء متواضعة بأنهم لا يفهمون من الموسيقى شيئاً ! .. كانت صالة الحفلة لا تتسع لعُشر هؤلاء المتحمسين الذين كانوا على استعداد لأن يدفعوا ثمن تذكرة الدخول خمسة وعشرين روبلا . ان شهرة « س » ، وشيخوخته التى يتوجها المجد ، وموهبته النضرة التى لم تجففها الايام ، وما ذكر عنه من أنه لم يمسك قوسه أمام الجمهور الا نادرا منذ زمن ، ومن انه يقوم بآخر جولة له فى أوروبا قبل أن ينقطع عن العمل نهائيا ، كل ذلك كان له أثره فى حفز الناس الى حضور الحفلة . الخلاصة : لقد اهتزت بطرسبرج لهذا النبأ اهتزازا قويا عميقا .

وقد سبق أن قلت أن وصول كل عازف جديد على الكمان، أو كل موسيقى شهير ، كان يولد فى ابى شعورا مؤلما • كان دائما اول المقبلين على سماع اى فنان يمر بالمدينة ، ليحكم على موهبته• وكثيرا ماكان يمرضه النناء الكثير على القادم الجديد ، ثم لا يجد الراحة والطمأنينة الا حين يستطيع أن ياخذ على عزفه عيبا من العيوب ، فاذا هو يطفق يذيع رايه فيه ، اينما استطاع ذلك ، فى سخرية مرة لاذعة • لقد كان هذا المهووس المسكين لا يرى فى الدنيا الا موهبة واحدة ، هى موهبته ، ولا يرى فى الدنيا الا فنانا واحدا ، هو شخصه • ومع ذلك فان وصول « س » ، الموسيقى العبقرى ، قد أحدث فى نفسه نوعا من الرعب • وينبغى ان نذكر هنا انه ليس بين الموسيقيين المشهورين الذين مروا ببطرسبرج خلال السنين العشرة الاخيرة موسيقى واحد يمكن أن تقاس موهبته بعبقرية « س » • كان أبى اذن لا يعرف شيئا البتة عما عسى أن يكون عزف موسيقى كبير عرف فى أوروبا كلها بأنه من كبار الفنانين •

وقد رووا لى انه ما ان أذيع نبأ وصول « س » الى بطرسبرج ، حتى ظهر أبى من جديد فى كواليس المسرح ، وقالوا لى أيضا انه كان يبدو منفعلا أشد الانفعال ، وانه كان يسائل الناس قلقاً عن « س ، » ، وعن الحفلة المزمع احياؤها ، وهو أشد ما يكون اضطرابا • وكان ابى قد غاب عن هذه الامكنة منذ مدة طويلة ، فلما ظهر فيها من جديد أثار انتباه الناس والتفاتهم ، ثم ما لبث أن قال له أحدهم مستفزا :

ـ اسمع يا ياجور بتروفتش ، لن تسمع فى هذه المرة ، ياعزيزى ، موسيقى « باليه » • وانما ستسمع موسيقى تحرمك لذة الحياة !

وقد أكدوا لى ان لونه قد امتقع لدى سماع هذه الكلمة • الا انه حمل نفسه على الابتسام وقال :

ـ سنرى • ليس فى وسع غريب آت من بعيد أن يخدع الناس فى حقيقــة أمره مــدة طويلة • أظن أن « س » قد عزف فى باريس • والفرنسيون هم الذين أطاروا اذن صـيته ، ونحن نعرف قيمة هــؤلاء الفرنسيين !

على هذا النحو كان يتجمع حوله الناس ، ويأخذون فى الضحك • لقد كان المسكين يشعر بالحنق يعضه عضا ، الا انه كان يتحامل على نفسه، ويتجلد ، ويؤكد انه ليس فى نيته أن ينتقد ، وأن الانتظار لن يطول ، ما دامت الحفلة ستقام بعد غد •

وقد روى لى « ب » انه ، فى ذلك المساء نفسه ، لقى الامير «ك» ، وهو من هواة الموسيقى المعروفين الذين يفهمــون الفن ويتدوقونه تذوقا عميقا ، وكان الاثنان يسيران معا وهما يتحدثان عن القادم الجديد ، فاذا « ب » يلمح أبى فجأة ، عند منعطف أحد الشوارع ، واقفا أمام أحــد المخازن يحدق فى اعلان ملصوق على البلور ، يعلن بأحرف كبـيرة عن حفلة « س » •

فقال «ب» للامير وهو يدله على أبى :

ـ هل ترى هذا الشخص ؟

فسأله الامير :

ـ من هو هذا الشخص ؟

ـ انك تعرفه • هو يافيموف الذى حدثتك عنه غــير مرة ، والذى أردت أن تتفضل عليه بحمايتك •

فهتف الامير قائلا :

ـ آ ••• أهذا هو ؟ نعم لقد حدثتني عنه كثيرا •• يقال انه انسان عجيب ، لكم يشوقني أن أسمعه •

فأجاب « ب » :

ـ كلا ، ان ذلك لايستحق العناء • ان الاستماع اليه مؤلم • لاأدرى ما هو الاثر الذى يمكن أن يحدثه فى نفسك • أما أنا فانه يمزق قلبى تمزيقا • ان حياته ماساة محزنة • انني أعرف حقيقـــة نفســه • ورغم انحداره الى الدرك الاسفل ، لم تمت عاطفتى نحوه موتا تاما • لقد قلت منذ هنيهة ، يا سيدى الامير ، ان سماعه لا بد أن يكون أمرا شائقا • هذا صحيح • الا انه يحدث فى النفس شعورا مؤلما قبل كل شيء • انه أولا انسان شاذ ، وهو عدا هذا مجـرم ثلاث مرات : مجرم فى حق نفسه اذ أفسد حياته ، ومجرم فى حق امرأته وفى حق ابنته اللتين أفسد حياتهما أيضا • انني أعرفه • لو أدرك جريمته لمات على الفور •• وهذا هو الامر الفظيع فى المأساة كلها : انه منذ ثمانى سنين يكاد يدرك ذلك ، وهو منذ ثمانى سنين فى صراع مع ضميره !

ـ وهو يعيش حياة بائسة ؟

ـ نعم • والبؤس سعادة له ، لأنه حجة يتعلل بها ، فهو يستطيع الآن أن يزعم لكل انسان ان الفقر هو الذى يحول بينه وبين الوصول الى قمة المجد ، وانه لو كان غنيا لاستطاع أن يتفرغ لفنه ، ولأمكن أن يعـرف الناس عندئذ ، على الفور ، من هو وما قيمته • لقد تزوج يحدوه أمـل عجيب هو أن تستطيع الروبلات الالف التى كانت تملكها زوجته أن تقيله من عثرته • لقد تصرف على هذا النحو كانسان مجرد من الحس العملى ، كشاعر ، وكان هذا شأنه فى سائر حياته على كل حال • هل تعرف ماذا يردد فى كل يوم منذ ثمانى سنين ؟ انه يدعى أن امرأته هى المسئولة عن

جميع مبائسه ، انها هي التي تمنعه من الوصول الى المجد . ثم هو يعقد ذراعيه ويأبى أن يعمل ، ولو انتزعت منه امرأته لاصبح بلا سلاح البتة . هذه سنين ثمان لم يلمس خلالها كمانه ، لماذا ؟ لأنه كلما أمسك بقوسه شعر في أعماق نفسه انه لا شيء . حتى اذا عاد فأراح قوسه في مكانه ، رجعت اليه آماله كلها ، وأصبح واثقا من انه موهوب . ذلك انسان حالم : انه يتخيل أن معجزة ستتحقق فجأة فتجعل منه موسيقيا شهيرا . شعاره : « اما أن أكون قيصر ، واما أن لا أكون شيئا ! » .. كأنما يستطيع المرء أن يصبح قيصر في طرفة عين ! .. وحين يصبح شعور كهذا الشعور هو الشاغل الوحيد الذي يملأ رأس فنان ، لا يبقى هذا الفنان فنانا ، لأنه يكون قد فقد الغريزة الفنية الاساسية ، أعني حب الفن للفن ، هذا الحب الذي لا شأن له بالمجد ولا بغير ذلك . أنظر الى « س » مثلا : انه متى أمسك بقوسه غاب عن كل شيء في الوجود الا الموسيقى ، والشيء الذي يحتل المكانة الاولى عنده بعد الموسيقى انما هو المال . أما المجد فانه لا يأتي الا في المرتبة الثالثة فيما أعتقد . انه آخر مشاغله . هل تعرف ما الذي يشغل بال هذا البائس يافيموف في هذه اللحظة ؟ انه يكرر على نفسه هذا السؤال السخيف ، المضحك ، المحزن : أهو متفوق على « س » أم أن « س » متفوق عليه ؟ لا شيء غير هذا السؤال يشغل باله . لأنه يظل مقتنعا رغم كل شيء بأنه أعظم موسيقى في العالم ! .. ولو برهنت له على انه ليس أعظم موسيقى في العالم فأنا كفيل لك بأنه سيموت على الفور ، كأن صاعقة سقطت على رأسه ؟ .. لا شيء أفظع من التحرر من فكرة ثابتة ، وخاصةً حين يكون المرء قد وقف عليها حياته كلها ، في ايمان خطير عميق .. على أن يافيموف قد بدأ بداية صادقة في الواقع .

فقاطعه الامير قائلا :

ـ لا شك أن مشاهدة انفعاله لدى سماع « س » أمر شائق •

فأجاب « ب » سادرا :

ـ نعم • بل لا • انه سيستعيد ثقته بنفسه فورا • لأن جنونه أقوى من الحقيقة • سيجد لنفسه مهربا على الفور •

ـ تعتقد ؟

وفي هذه اللحظة وصلا الى أبي الذي أراد أن يتوارى حالا • الا أن « ب » أمسك به وأخذ يكلمه • ساله هل ينوى أن يذهب الى الحفلة ليسمع « س » ، فأجاب أبي ـ بلهجة من لا يحفل بهذا الموضوع ـ قائلا انه لا يدرى هل يذهب أو لا يذهب ، وانه مشغول بأمر أهم من حفلات الموسيقيين الاجانب ، وانه سينظر في الامر على كل حال ، وانه لا مانع عنده من الذهاب اذا وجد في وقته ساعة من فراغ ، وانه قد يذهب مع ذلك • قال هذا ثم ألقى نظرة على « ب » وعلى الامير ، ثم ابتسم ابتسامة مصطنعة ، ورفع قبعته ، وحنى رأسه ، وتركهما زاعما أنه في عجلة من أمره ! ••

أما أنا فكنت قد لاحظت اضطراب أبي منذ الليلة البارحة •

كنت أجهل سبب هذا القلق الذى عصف به ، على وجه الدقة ، الا انني رأيت ذلك القلق الفظيع يقضمه قضما • حتى ان أمي لاحظت ذلك• وكانت يومئذ مريضة جدا ، بل كانت لا تكاد تقـــوى على الوقوف على قدميها • وكان أبي لا يني يدخل ويخرج بلا انقطاع • وفي الصباح جاءه ثلاثة أشخاص أو أربعة من رفاقه القدماء ، فاستغربت ذلك ، ولا سيما انه لم يكن يغشانا أحد تقريبا ، عدا كارل فيودوروفتش ، بعد أن هجرنا جميع الناس منذ انقطع أبي عن التردد على كواليس المسرح • وأخيرا جاء كارل

فيودوروفتش راكضا ، لاهثا ، يحمل في يده « برنامجا » • كنت اشهد هذه الحركة غير المألوفة ، وأصغي اليها ، بانتباه عميق ، وأنا في حالة تأثر وانفعال ؛ كأنني السبب في هذا القلق الذى اقرؤه في وجه أبى • وددت لو أعرف ما الأمر ، وسمعت لأول مرة اسم « س » ، ثم فهمت انه لا بد من خمسة عشر روبلا على أقل تقدير لمشاهدة حفلة « س » • وأذكر أيضا أن أبى لم يستطع أن يكبح سورة اضطرابه ، فكان يقوم بحركات كثيرة ، ويردد قائلا انه يعرف هذه العبقريات التى تأتى من البلاد الاجنبية، انه يعرف هذه المواهب الفذة ، يعرف قيمتها ، ويعرف « س » أيضا ؛ يعرف انه يهودى بائس ، جاء الى روسيا ـ كغيره ـ باحثا عن المال ، وان الروسيين أناس سذج يصدقون جميع الاكاذيب ؛ لا سيما حين يكون الفرنسيون ملفقيها ! •• وكنت قد تعلمت معنى هذه الكلمات : « لاموهبة له » • وبعد أن ضحك الزائرون كثيرا ، انصرفوا الى شأنهم ، وتركوا أبى لهياجه العنيف • وأردت أن أسليه عن حزنه فاقتربت منه ، وأمسكت بالبرنامج وقرأت فيه بصوت عال اسم « س » • ثم نظرت الى أبى جالساً على الطرف الآخر من الطاولة مستغرقاً في التفكير ، وقلت له ضاحكة : « لا شك أن هذا الرجل مثل كارل فيودوروفتش ، لن يخرج منه شيء حسن ، هو الآخر » •• فانتفض أبى كأنما استولى عليه خوف مفاجيء ، وانتزع البرنامج من بين يدى ، وأخذ يصرخ ويضرب الارض بقدمه ، ثم تناول قبعته وهم بالخروج ، الا أنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، والتفت اليّ ، ودعاني أن أوافيه في الممر • وهناك قبلنى وأخذ يردد لى ، بنوع من الارتباك ، بنوع من الخوف لم يستطع أن يكبحه ، انني ابنة طيبة عاقلة ، وانني لاأحب له طبعا أن يتألم ، وانه يعوّل عليّ في أمر هام • ولكنه لم يقل لى ما هو هذا الامر الهام • على ان حديثه آلمنى ، فقد

أدركت ان كلماته وملاطفاته ليست صادقة ، وكان هذا وحده كافيا لاشاعة الاضطراب في نفسي ، وهكذا أصبح فلقي عليه عذابا ممضا .

وفي اليوم التالي ــ وهو اليوم الذي سبق موعد الحفلة ــ بدا لي ابي أثناء الطعام منهك الاعصاب محطما . لقد حدث في نفسه تغير رهيب . كانت نظراته تنتقل بيني وبين أمي بغير انقطاع . ولشد ما كانت دهشتي كبيرة حين رأيته يتحدث الى أمي ، لا سيما وانه كان لا يكاد يخاطبها بكلمة واحدة . وبعد أن فرغنا من الطعام لاطفني كثيرا ، وجعل يدعوني في كل لحظة الى الممر منتحلا مختلف الاعذار ، وهناك يأخذ ينظر من حوله كانما هو يخشى أن يقبض عليه بالجرم المشهود ، فاذا اطمأن الى انه ما من أحد يراه ، طفق يداعب رأسي ويقبلني ويردد على مسامعي انني ابنة طيبة ، وانني أحب بابا من غير شك ، وانني سأفعل كل ما يطلبه الى مافي ذلك ريب . فأسلمني هذا الى قلق لا يطاق . حتى اذا دعاني الى الممر أخيراً ، للمرة العاشرة ، اتضحت الامور : في هذه المرة نظر أبي الى جميع الجهات نظرة مرتابة ، ثم سألني وقد تقبض وجهه ، هل أعرف أين خبأت أمي الخمسة والعشرين روبلا التي أتت بها في صباح الامس ؟ .. فما ان سمعت هذا السؤال حتى شعرت كأنني أموت من شدة الخوف ، الا أن أبي وقد سمع صوتا على السلم ، ارتاع فتركني حيث أنا وهرب . ولم يعد الا في المساء ، حيث جلس على كرسي وقد بدا عليه الاضطراب وانشغال البال ، وأخذ ينظر الىّ بنوع من الحياء الوجل . وتملكني خوف شديد حتى صرت أحاول أن أتحاشى نظرته . وأخيرا نادتني أمي ، وكانت في السرير طوال اليوم من وطأة المرض ، فأعطتني قطعة نقدية ، وأرسلتني أشترى لها من الدكان قليلا من الشاي والسكر . كان الشاي لا يشرب الا نادرا في بيتنا ، اذ كانت أمي لا تسمح لنفسها بهذا الترف ، ونحن فيما نحن فيه من الفقر ، الا حين تشعر أنها مريضة محمومة .. فأخذت

الدراهم ، وما ان خرجت الى الممر حتى جعلت أعدو ، خشية أن يلحق بى أبى . الا ان ما كنت أخشاه قد وقع : فقد أدركنى أبى فى الشارع وأعادنى الى السلم وهناك قال لى بصوت مرتعش :

ـ نيتوتشكا ، حبيبتى ، اسمعى ، أعطينى هـذه الدراهم ، وغدا سوف ...

فارتميت على ركبتيه وأخذت أتوسل اليه قائلة :

ـ بابا ، بابا ، لا أستطيع . لا يجوز . ان ماما فى حاجة الى الشاى. لا يجوز أن تسرق ماما . كلا لايجوز . مرة أخرى ..

فدمدم كأنما هو يهذى :

ـ آ . لا تريدين ؟ لا تريدين ؟ حسنا .. الآن أتركك .. ابقى مع ماما . أما أنا فسأذهب وحدى . هل تسمعين ، أيتها الابنة السـيئة ؟ هل تسمعين ؟

ـ بابا . خذ . ما العمل ؟ ستبكى أمى أيضا . وستؤنبنى أيضا .

قلت هذا وأنا أرتعد من الخـوف ، وأضرب كفا بكف ، وأتعلق بذيله .

لم يكن أبى يتوقع هذه المقاومة . على انه أخذ المال ، ولم يستطع أن يحتمل نحيبى ، فتركنى على السلم وهرب . وصعدت السلم . الا أن قواى خانتنى على باب مسكننا ، فلم أجرؤ على الدخـــول ، لم أســتطع الدخول . كنت فى حالة ذعر شديد واضطراب فظيع . كان قلبى كأنما انخلع . ووضعت وجهى بين ذراعىّ كما فعلت فى المرة الاولى يومسمعت أبى يتمنى موت أمى . وبلغ منى الذعر أن أقل صوت على السلم كان

يجعلني كقطعة من الثلج ترتجف • وأخيرا سمعت وقع خطوات سريعه تصعد السلم فعرفت انه أبي •

قال أبي هامسا :

ـ هذا أنت ؟

وارتميت على عنقه •

ـ خذي • خذي دراهمك • ولست أباك بعد الآن • هل تسمعين ؟ لا أريد أن أكون أباك • اذهبي الى أمك • لا أريد أن آخذك معي •

فلما أنهى هذا الكلام دفعني عنه ، وهرب مرة أخرى هابطا السلم • فركضت وراءه باكية ، أريد أن أمسك به ، وصرخت محتجة :

ـ بابا • أبت العزيز • سأفعل كل ما تريد • أنت تعلم انني أحبك• خذ • خذ الدراهم • خذها !

الا انه كان قد غاب • بلغت من شدة الذعر أنني ظللت السـهرة كلها محمومة لا أستطيع حراكاً • وأذكر أن أمي كلمتني ، وجاءت بي الى جانبها ، الا انني كنت أشبه بمن فقد وعيه ، فما أرى شيئا ولا أسمع شيئا • وأدى ذلك كله الى نوبة : فأخذت أبكي وأعول ، وارتعبت أمي فلم تدر ماذا تصنع • ووضعتني في سريرها • وكنت خائفة مما أتوقع ان يقع بين دقيقة وأخرى ، فاذا أنا أنام ، لا أدري كيف ، متشبثة بعنقها • وانقضى الليل على هذا النحو ؛ فلم أستيقظ الا في ضحى اليوم التالي ، بعد أن غادرت أمي البيت الى عملها • ورأيت مع أبي في البيت رجلا غريبا ، وكان الاثنان يتحدثان بصوت عال جدا • وانتظرت أن يذهب الزائر بصبر فارغ ، حتى اذا مضى وأصبحنا وحدنا ، ارتميت على عنق أبي باكية منتحبة، أتوسل اليه أن يغفر لي سلوك البارحة •

فسألني بلهجة قاسية :

ـ هل تصبحين عاقلة كما كنت في الماضي ؟

فأجبت :

ـ نعم ، يا أبت • أعدك بذلك • سأقول لك أين تخبيء أمي دراهمها •• لقد وضعتها أمس مساء في هذه العلبة ، على الرف •

فصرخ أبي منتفضا :

ـ أين ؟ أين ؟

وقفز من مكانه وسألني مرة أخرى :

ـ أين الدراهم ، تقولين ؟

ـ العلبة مقفلة بالمفتاح ، يا أبت • انتظر حتى هذا المساء • سترسلني أمي لتبديل الورقة النقدية بقطع صغيرة ، رأيت ذلك بنفسي •

ـ انني في حاجة الى خمسة عشر روبلا ، يانيتوتشكا • هل تسمعين؟ خمسة عشر روبلا فقط ! هاتيها اليوم ، وسأردها اليك غدا • وسامضي حالا أشتري لك حلوى ، وجوزا •• ولعبة أيضا • وغدا ، غدا على التاكيد ، أرد اليك الدراهم •• وسأشتري لك حلوى في كل يوم ، اذا كنت عاقلة فاعطيني خمسه عشر روبلا !

ـ كلا ، يا بابا ، لا أريد حلوى • لن آكل الحلوى اذا جئتني بها ، سأردها اليك •

قلت ذلك محتجة باكية ، وقد تمزق قلبي من القلق •

أدركت في تلك اللحظة أن ليس في قلبه ذرة من رحمة بي ، وانه

لا يحبنى ما دام لا يقيم لعاطفتى نحوه وزنا ، وما دام يظن اننى اخضع لارادته طمعا فى الحلوى ! •• ومع اننى كنت طفلة ، استطعت ان انفذ الى أعماقه نفاذا بلغ من القوة اننى شعرت منذ تلك اللحظة ان عبادتى اياه قد تسممت الى الابد • شعرت اننى لن استطيع ان احبه بعد الان ! •• شعرت اننى فقدت بابا الحبيب القديم الى الابد • اما هو فقد سره وعدى ، بل سحره • لقد رأى اننى مستعدة من اجله لكل شىء ، ويعلم الله ماذا كانت تعنى كلمة « كل » هذه فى خيالى ! كنت اعلم قيمة هذه الدراهم عند أمى المسكينة ، وكنت أعرف العذاب الذى ستلقاه حين تفقدها ، فكان ضميرى يعول من اليأس • الا أن أبى لم يلحظ شيئا من ذلك • كنت أفهم كل شىء • غير أن أبى كان لايرى فى الا طفلا فى التالثة من عمره • وتملك أبى فرح هذيانى ، فغمرنى بالقبل ، وتوسل الىّ أن لا أبكى ، وأكد لى ، مداعبةً لخيالى ، اننا سنسافر الى مكان بعيد عن ماما فى بحر اليوم نفسه • ثم أخرج البرنامج من جيبه ، وذكر لى ان الرجل الذى سيمضى الى سماعه هذه الليلة انما هو عدوه ، بل أحد أعدائه الألداء ، الا أن عدوه لن يستطيع أن ينتصر عليه ، لا هو ولا غيره • لا شك أنه هو الطفل ، لا أنا ، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة عن أعدائه ! •• ولما رأى أننى ظللت صامتة لا أجيب ولا أبتسم كما أبتسم عادة ، تناول قبعته ، ومضى ، كمن حان وقت ذهابه • الا انه قبل أن يتركنى ، قبلنى مرة أخرى • وتبسم لى ، وأشار الىّ اشارة الاتفاق ، كأنه غير واثق منى كل الثقة ، فهو يريد أن يعمل ما ينبغى عمله ليمنعنى من التفكير والتردد •

◆ ◆ ◆

سبق أن قلت انه تغير منذ الأمس تغيرا كبيرا حتى لكأنه شخص آخر • كان لا بد له من الحصول على المال لشراء تذكرة ، مهما كلف

الأمر • فقد كان يعتقد أن هذه الحفلة سيكون لها فى حياته تاثير حاسم ، حتى انه حين اراد ان يستولى على الدراهم القليـله التى كنت أمسكها بالامس ، لم ينتبه من شدة اضطرابه الى انها لا تكفى لشراء التذكرة • وفد تجلى اضطراب عقله المحموم هدا ، على نحو اوضح ، اثناء الطعام • كان عاجزا عن أن يستقر فى مكانه ، ولم يلمس الطعام ابدا ، فكان ينهض ، ثم يعدل عن رأيه ، ثم يجلس مرة اخـرى ، او كان يهم ان يمضى ، فيتناول قبعته ثم تستولى عليه حيرة غريبة ، فيبقى فى مكانه لا يتحرك ، ويدمدم بكلام يخرج من بين أسنانه ، أن يلقى علىّ نظـرة سريعه ، ويغمزنى بعينه ، ويقوم بحركات واشارات يظهر لى بها حرصه على الحصول على الدراهم الموعودة بسرعه •• لكأنه يحقد علىّ لاننى لم أسرقها من أمى بعد • وأخيرا لاحظت أمى اضطرابه الشاذ ، وجعلت تنظر اليه نظرة استغراب • أما أنا فكنت أشعر بخوف كخوف شخص حكم عليه بالاعدام ! ••• فلما نهضنا عن المائدة ، اختفيت فى ركن من أركان الغرفة وأنا أرتعد من الحمى ، وأخذت أعد الدقائق بانتظار اللحظة التى اعتادت أمى أن ترسلنى فيها الى السوق • رباه ! اننى لم أعان فى حياتى بعد ذلك تجربة قاسية هذه القسوة ، وستظل هذه الدقائق محفورة فى ذاكرتى الى الأبد • ان فى الحياة ساعات كأنها تتجمع فيها آلام سنين طويلة برمتها•• كنت أعلم اننى قادمة علىاقتراف عمل سيىء • ألميحاول أبى نفسه أن يوقظ فى نفسى غرائز الخير فى المرة الأولى حين دفعنى الى فعل الشر دون تفكير، ثم هاله عمله فبين لى خطيئتى ، ونصحنى بأن لاأعود اليها ؟ أليس فى وسعه اذن أن يدرك الآن ان من الصعب أن يغش نفسا ظمأى الى المشاعر الواضحة ، نفسا أوجست الخير والشر وفكرت فيهما طويلا ؟ على اننى أدركت انه اذا كان يدفعنى الآن الى اقتراف الشر مرة أخرى ، فيضحى بطفلة بائسة لاحيلة لها فى الدفاع عن نفسها ، ويعرضنى

كذلك لفساد الضمير ، فلا شك انه خاضع لسلطان ضرورة هائله ! ••
ثم تساءلت من الركن الذى كنت مختبئة فيه : « لماذا يريد ان يكافئنى على عمل ساقوم به طواعيه ؟ » •• وهاجمتنى احساسات جديدة ، وآمال جديدة ــ خرجت لا أدرى من أين ــ وحاصرتنى أسئلة جديدة • ثم اذ بى فجأة لا افكر فى أمى ، ولا فى الالم الذى ستعانيه حين تفقد آخر درهم مما حصلته بعرق الجبين • وفجأة تركت أمى العمل الذى كانت آخذة نفسها به فى عناء ، ونادتنى • فاقتربت منها وأنا أرتعد ارتعادا شديدا ، فأخذت الورقة النقدية من الخزانة الصغيرة وناولتنى اياها وهى تقول :

ــ اذهبى يا نيتوتشكا • ولكن أرجوك ، أناشدك الله ، أن تنتبهى الى المبلغ الذى سيرده اليك البائع • اياك أن يسرقوك ، وحذار أن تضيعى شيئا •

فألقيت على أبى نظرة متوسلة • الا أنه هز رأسه ، وابتسم ابتسامة تشجيع ، وأخذ يفرك يديه من فراغ صبره ، فان الساعة تدق الآن السادسة ، وستبدأ الحفلة فى السابعة • لقد سبب له الانتظار ، هو الآخر، ألمًا كثيرا •

ووقفت على السلم أنتظره • لقد بلغ انفعاله وتعجله من القوة أنه أسرع ورائى دون أى احتياط أو تحفظ • وناولته الدراهم • كان السلم مظلما جدا ، فلم أستطع أن أتبين وجه أبى ، الا أننى شعرت بأنه يرتجف وهو يتناول المال • وظللت متجمدة فى مكانى لا أستطيع حراكا ، ولم أتنبه الى نفسى الا حين طلب الىّ أن أصعد الى البيت لآتيه بقبعته • كان لا يريد أن يعود الى البيت •

فقلت له بصوت متقطع ، وكان أملى الاخير هو أن يدافع عنى ، قلت :

ـ بابا ، لماذا لا تصعد معى ؟

ـ لا ... اصعدى وحدك .

ثم هتف ، بعد تفكير ، قائلا :

ـ انتظرى انتظرى . انتظرى ريثما آتى اليك بالحلوى أولا . ولكن اصعدى قبل ذلك ، وأتينى بقبعتى .

شعرت كأن يدا من جليد تقبض على قلبى . فانطلقت من صدرى صرخة ، ثم هربت أصعد السلم ركضا . وحين دخلت الى البيت كنت من الانهيار بحيث لو قلت لأمى ان المال قد سرق لصدقتنى . غير أننى كنت عاجزة عن الكلام. وتهالكت مهدمة على سرير أمى مخبئة وجهى بذراعى. فما انقضت دقيقة على ذلك حتى فتح الباب بهدوء ، وظهر أبى .. لقد جاء لأخذ قبعته . وحزرت أمى فجأة أن شيئا ما قد حدث ، فصرخت بى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟ أين الدراهم ؟ قولى . قولى !

ثم حملتنى بقبضة يدها ، ووضعتنى على قدمى فى وسط الغرفة . ولكنى أطرقت ، وسكت ، وأنا لا أكاد أفهم ما وقع لى ، ولا ما يراد منى. وصرخت أمى مرة أخرى قائلة :

ـ أين الدراهم ؟

الا انها اتجهت فجأة نحو أبى ، الذى تناول قبعته ، وسألته :

ـ أين الدراهم ؟ آ ... لقد أعطتك اياها ! .. وضيع . مجرم . مجنون . تريد أن تشقيها هي أيضا ، هي الطفلة . لا . لا. انتظر . لن تذهب هكذا !

ووثبت الى الباب ، فأقفلته بالمفتاح ، ووضعت المفتاح في جيبها .

ـ هيا . تكلمي . قولي الحقيقة . اعترفي بكل شيء . تكلمي ، تكلمي ، والا فأنا أعرف ماذا أصنع بك !

قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع من شدة الانفعال ، وهي تقبض عليّ ، وتهز ذراعي . فأقسمت في هذه اللحظة لألزمن الصمت ، ولا أتهم أبي . ورفعت عينيّ نحوه ، مرة أخيرة ، في حياء . كان يكفيني منه عندئذ نظرة واحدة، كلمة واحدة ،على نحو ما اتوقع ، على نحو ماأتمنى، حتى أكون سعيدة ، رغم أي تعذيب ينالني . الا انه بدلا من ذلك ـ يا رباه ! ـ أمرني أن أسكت ، باشارة مهددة باردة .. كما لو كان يمكن أن أخشى شيئا من الاشياء في مثل هذه اللحظة . وشعرت بحلقي يتقبض ، وبأنفاسي تتقطع ، وبساقيّ تلتويان تحتي ، وسقطت الى الارض مغشيا علي ، وانتابتني مرة أخرى النوبة العصبية التي صرعتني بالامس .

واستيقظت فجأة على طرق باب منزلنا . وفتحت أمي الباب . فرأيت رجلا يرتدي ثيابا موشاة مما يرتديه خدم النبلاء ، رأيته يدخل البيت ، ثم ينظر الينا نظرات تنم عن الدهشة ويسأل عن الموسيقي يافيموف، فيتقدم أبي نحوه ، فيناوله الرجل عندئذ مظروفا ، وهو يقول انه رسول «ب» الموجود الآن في منزل الأمير سيده . كان المظروف يحتوي على تذكرة ممتازة لحضور حفلة الموسيقي «س» !

ان ظهور الخادم الأنيق الذي يأتي خصيصا من قبل سيده الامير

لدعوة الموسيقى البائس يافيموف ، قد أحدث في نفس أمي ، فجأة ، تأثيرا كبيرا • قلت في أول هذه القصة ، ان هذه المرأة البائسة كانت تحب أبي حب العبادة • وكان قلبها ، في هذه الدقيقة ، رغم السنين الثماني التي قضتها معه في شقاء دائم ، لم يتغير أبدا • كانت قادرة على أن تحب زوجها رغم كل شيء • ومن يدري ! فلعلها اعتقدت فجأة بأن الحظ سيبتسم ، وان كل شيء على وشك أن يتغير • لقد كان يكفي خيالها ظل من أمل ، حتى يسترسل في أحلامه ! لعل عدوى الاحلام المجنونة التي كانت تملأ رأس زوجها قد سرت الى رأسـها هي الاخـرى ، ولعلها أصـبحت مثله تثق بعبقريته ثقة لا تتزعزع ! ومهما يكن من أمر ، فمن المستحيل أن لاتتأثر امرأة ضعيفة بمثل هذه البادرة ، وأن لا تجعلها التفاته الأمير تتخيل في طرفة عين ألف أمل وأمل • وفي طرفة عين أصبحت مستعدة لأن تلتفت الى زوجها ، لأن تغفر له الحياة البائسة التي قضتها معه ، لأن تغفر له حتى الجريمة الأخيرة التي اقترفها في حقها وهي افساد طفلتها الوحيدة • لقد أصبحت مستعدة ، في انطلاقة الحماسة وتجدد الامل ، لان تبرىء زوجها من تلك الجريمة ، فما ترى فيها الا خطيئه بسيطة ، ترجع الى قلة التبصر ، وتأثير البؤس ، وحياة الذل ، وضياع الأمل • الخلاصة : لقد كان كل ما فيها الآن سرورا وامتنانا ، وأصبحت مسـتعدة لأن تنسى كل شيء في سبيل زوجها المسكين •

أما أبي فكان لا يستطيع أن يستقر في مكانه من شدة فرحه • لقد سحرته التفاتة الامير وصديقه «ب» • واقترب من أمي غير متردد ، وهمس في أذنها بضع كلمات خرجت أمي على أثرها من الغرفة ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل نقودا استبدلتها بالورقة المالية •

فتناول أبي روبلا على الفور ، وقدمه للرسول • وانسحب هذا بعد

اظهار آيات الاحترام المهذب • وخرجت أمى من الغـرفة مرة آخرى ، وعادت بعد لحظة « بمكواة » ، فاخذت تكوى قميصا هو آحسن قمصـان زوجها ، وتولت بنفسها عقد ربطة عنقه البيضاء التى كانت قد حفظتها فى خزانتها ، بعناية ، استعداداً للطوارىء ، مع الرداء الاسود الذى كان قد اشتراه لعمله فى المسرح ـ وكان قد آصـابه البلى بعض الشىء ـ فلمـا انتهى أبى من زينته ، تناول قبعته ، وهم آن يخرج ، الا انه قبل آن يخرج طلب شيئا يشربه • لقد كان ممتقع اللون ، ولم يستطع أن يظل واقفا ، فارتمى على كرسى ، وأتيت له أنا بكأس من الماء • لعل شعور العداوة قد دب من جديد فى قلب أمى ، فأخمد حماستها الاولى • ومضى أبى وبقينا وحدنا • ولطوت فى أحد أركان الغرفة ، وأخذت أتأمل أمى مدة طويلة ، وأنا صامتة • لم أرها يوما فى مثل هذه الحالة : كانت شفتاها ترتجفان ، واحمر خداها الشاحبان فجأة ، ورأيت جسمها يرتعد من حين الى حين • وأخيرا أخذ انفعالها يخرج آهات ، وكلاما متقطعا ، وشهقات صما •

ـ أنا المجرمة ، أنا وحدى المجـرمة • ما أشـقانى يا رباه ، ماذا ستصبح حين أموت !

قالت ذلك ، وهى واقفة فى وسط الغرفة ، كأن صاعقة وقعت على رأسها حين فكرت فى ذلك • ثم أردفت تقول ، وهى تضمنى الى صدرها وتقبلنى :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتى البائسة ، من ذا الذى سيعنى بأمرك بعد أن لم أحسن تربيتك ولا ملاحظتك فى هذه الحياة التى نعيشها • آه • انك لا تفهمين • هل ستذكرين ما أقوله لك الآن ؟ نيتوتشكا ، قولى ، هـل ستذكرينه ؟

فصرخت وأنا أضم يدّى احديهما الى الاخرى باشارة التوسل :

ـ نعم • نعم يا أماه ••

وضمتنى اليها فى قبلة طويلة ، قوية ، كأنما تعذبها فكرة الانفصال عنى •

شعرت كأن قلبى يتمزق •

وسألتها وأنا أبتلع دموعى :

ـ أماه ، أمى الحبيبة : لماذا •• لماذا •• لا تحبين أبى ؟

ولم يسمح لى الشهيق بأن أتم كلامى •

وانطلقت من صدرها صرخة ، ثم استأنفت سيرها فى طول الغرفة وعرضها وقد أخذ حزنها الشديد بخناقها من جديد •

ـ صغيرتى ، صغيرتى المسكينة • رباه • لم ألاحظ أنها شبت من دور الطفوله • انها تفهم الآن كل شىء ، كل شىء • رباه ! أى آثار ستخلف فيها هذه المشاهدة ! وأية قدوة ترى !

ومرة أخرى ، ضربت كفا بكف ، علامة الألم واليأس • ثم عادت الىّ وارتمت علىّ ، تغمرنى بسيل من القبل • وأخذت تتناول يدى وتقبلهما ، وتبللهما بدموعها ، وتسألنى أن أصفح عنها ، وأن أغفر لنا • لم أر فى حياتى ألماً كهذا الألم • وبدت أخيرا منهوكة القوى ، فسقطت فى نوع من الانهيار • وقضت على هذه الحال ساعة طويلة • ثم نهضت محطمة ، وطلبت الىّ أن أمضى الى سريرى وأنام • فمضيت الى ركنى ، وتدثرت بغطائى ، ولكنى لم أستطع أن أغفو • لقد كان يعذبنى التفكير فيها ، والتفكير فى أبى • وكنت أنتظر عودة أبى بصبر نافد يمازجه نوع من الرعب • وبعد نصف ساعة تناولت أمى الشمعة واقتربت من سريرى

تريد أن تتأكد انني قد غفوت • فأغمضت عيني تطمينا لها ، وتظاهرت بأنني غارقة في سبات عميق • وبعد أن تأملتني بعض الوقت ، اقتربت من خزانتها سائرة على أطراف الأصابع ، ففتحتها وسكبت لنفسها قدحا من الخمر شربته ، ثم نامت ، تاركة الشمعة مشتعلة والباب مشقوقا ، على عادتها حين يعود أبي متأخرا •

كنت مستلقية على حال من الخدر ، مفتحة العينين رغم النعاس • كنت ما ان أغمض جفني حتى تجتاحني رؤى فظيعة ، فأنتفض مذعورة • وكان خوفي يشتد ويشتد •

كنت أود لو أصرخ ، الا أن صوتي يختنق في حلقي • وأخيرا ، في ساعة متأخرة جدا من الليل ، سمعت أبي يدفع الباب • لقد كان شاحبا شحوبا فظيعا • كان يهوم في غرفتنا صمت الموت • وكانت الشمعة على وشك أن تذوب كلها ، وهي تضيء مسكننا بنور حزين •

نظرت الى أبي مدة طويلة ، وهو جالس على كرسيه مطرق الرأس، مجمد اليدين على الركبتين في سكون تام • حاولت عدة مرات أن أناديه، الا انني لم أستطع ، فكأنني مشلولة • وأخيرا ، تحول فجأة ، ورفع رأسه، ونهض عن كرسيه ، وظل خلال لحظة من الوقت واقفا في وسط الغرفة ، كأنه بسبيل اتخاذ قرار ما ، ثم تقدم بغتة من سرير أمي ، وانحنى عليها يتنصت ، فلما أيقن أنها نائمة ، اتجه نحو الصندوق الذي يرتاح فيه كمانه ، ففتحه ، وتناول العلبة السوداء ، ووضعها على الطاولة ، ثم نظر مرة أخرى حوله • كان ينظر دون أن يرى ، كانت عيناه في اضطراب لم أعهد مثله فيهما من قبل •

وهمّ بتناول كمانه ، الا انه سرعان ما تركه ، وعاد الى الباب يقفله ، ثم لاحظ أن الخزانة مفتوحة ، فاتجه اليها بخطى كخطى الذئب ،

وراى القدح ، فملاه خمرا وشربه • ثم عاد مرة ثانية الى كمانه ، فتناوله، ليتركه من جديد ، ومضى الى سرير امي مرة اخرى • وقبعت انتظـر ما سيفع ، وانا اشد ما اكون انهيارا ••

واصاخ السمع مدة طويله جدا ، ثم رفع الغطاء فجاة عن وجه امي، ومد اليه يده يجسه • ارتجفت • وازداد انحنـــاؤه على رأس أمي حتى لامسه بوجهه • ولما نهض عنه رأيت ابتسامة صفراء رهيبة مرعبه تطوف في وجهه • ثم أرجع الغطاء على رأس النائمة وعلى قدميها المكشوفتين ، بهدوء ورفق وعناية • أخذت أرتعد ، وقد تضـاعف خوفي وذعرى : خفت من أمى ، من نومها العميق هذا العمق • خفت من الخطوط المتجمدة التى يرسمها جسمها تحت الغطاء • ودبت فى نفسى فكرة فظيعه وفعت مبى موفع الصاعقة •

ولما فرغ أبى من جميع أعمال التمهيـد هـذه ، عاد الى الخزانه ، وافرغ فى جوفه باقى الزجاجة • كان يرتجف كورقه فى مهب الريح ، حتى اذا عاد الى الطاولة كان من الشحوب بحيث لا يُعرف • وتنال كمانه• لقد رايت هذه الاله من قبل ، وكنت أعرف فيم تستعمل ، ومع ذلك فقد كنت أتوقع أمرا رهيبا ، فظيعا •• وانتفضت حين سمعت أول صـوت • لقد أخذ أبى يعزف • الا أن الاصوات كانت تأتى متقطعة • كان يتوقف فى كل لحظة ، كأنما هو يستجمع ذكرياته • وأخـذ ينظر الى السرير نظرة غريبة • كان هناك ، على السرير ، شيء يزعجه • وعاد مرة أخرى الى السرير • وأخذت ألتهم بعينى كل حركة من حركاته ، وقد تملكنى خوف لا اسم له !

وفجأة ، أخذت يداه تجسان النائمة ، بسرعة ، وراودتنى الفـكرة نفسها مرة أخرى كالصاعقة : لماذا تنام أمى نوما عميقا هذا العمق ؟ كيف لا تستيقظ على يدى أبى تجسانها هذا الجس ؟ وأخيرا رأيت أبى يتجمـع

كل الأشـياء التى تقـع تحت يديه : معطف أمي العتيـق ، معطفه هو ، قميص نومه ، حتى الملابس التى خلعتها حين نمت ، ثم يضـعها جميعـا فوق أمى حتى اختفت تحتها تماما • وظلت أمي متمددة ، لم يختلج لهـا عضو !

لقد كانت تنام نوما عميقا •

وحين فرغ من ذلك ، أطلق آهة من يتخفف من عبء • الآن لن يزعجه أحد • ومع ذلك ما زال هناك شيء يقلقه • وغير مكان الشمعة • وجلس أمام الباب ، مديرا ظهره للسرير • وأخيرا تناول كمانه بحركة يائسة ، وأمسك بقوسه ، وبدأت الموسيقى •

ان هذه الموسيقى لم تكن موسيقى •• ما زلت أتذكر كل شيء تذكرا تاما ، حتى أبسط حركة • ما زلت أتذكر كل ما أسر انتباهي وقتئـد • كلا ، لم تكن تلك موسيقى شبيهة بما سمعت بعد ذلك من موسيقى •• لم تكن تلك أصوات كمان ، لقـد كانت صراخا دوى فى منزلنـا المظلم لاول مرة • من الممكن أن تكون حالتى المرضية وقتئذ قد ضخمت الأمور، ومن الممكن أن تكون حواسي فى تلك اللحظة مضطربة مشوشة • الا أننى مقتنعة بأنى سمعت آهات وصرخات انسانية ، ونحيبا •• لقد كان يتفجر من هذه الأنغام ألم فظيع ، حتى اذا زمجرت نهاية اللحن ، بدت تلف كل شيء فى آن واحد : كل هول النحيب ، كل عذاب القلق ، كل الاحتضار اليائس •

ولم أستطع أن أتجلد أكثر مما تجلدت • فوثبت من مكانى مرتعدة، وقد أغرق الدمع وجهى ، فارتميت على أبى ، وطوقته بذراعى ، وأنا أعول من الخوف • فأطلق أبى صرخة قوية ، ووضع كمانه على الارض• وكمن فقد صوابه ، أخذ يرسل نظرته التائهة الطائشة فى كل مكان باحثـا عن

ملاح ما . ثم تناول كمانه فجأة ، وهمّ أن يهوى به على رأسى ... ولو انقضت ثانية أخرى لهوى بالكمان على رأسى ، فحطمنى فى مكانى . أننى صرخت متوسلة :

ـ بابا . بابا .

فتعرف صوتى ، وأخذ يرتجف كورقة ، وتراجع الى الوراء خطوتين .

ثم حملنى من كتفى ، وقال :

ـ آ . أنت هنا . اذن لم ينته كل شيء . اذن ستبقين معى .

فقلت متوسلة من جديد :

ـ أبت . أبت . لا تنظر الى هكذا . لو تعرف كم أنا خائفة ! ..

وأثرت فيه دموعى . فوضعنى برفق على الارض ، ونظر الىّ بضع ان نظرة فاحصة تريد أن تعرف وأن تفهم . ثم كأن فكرة فظيعة راودته جأة ، فتفجرت من عينيه المضطربتين دموع سخينة ، وانحنى علىّ . وأخذ ظر فى وجهى فاحصا . فكررت قائلة ، وأنا شبه مجنونة :

ـ بابا . بابا العزيز . لا تنظر الىّ هكذا . بابا ، لنذهب من هنا ، ذهب بسرعة . لنذهب .

ـ نعم . لنذهب . لنذهب . آن الأوان . لنذهب يا نيتوتشكا . سرعة ، بسرعة .

وتحرك حركة من فهم فجأة ما بقى عليه أن يعمله . فألقى على غرفة نظرة مستديرة ، ولمح وشاح أمى ساقطا على الارض ، فرفعه ،

ووضعه في جيبه ، ثم رأى قبعتها فحملها أيضا ، وخبأها تحت ثيـــابه ، كمسافر يزمع رحلة طويلة ، فيأخذ كل ما قد يحتاج اليه •

أما أنا ، فبعد أن ارتديت ثوبى بسرعة ، أخـــذت أجمع ما بدا لى ضروريا للرحلة • ثم سألنى أبى :

ـ هل انتهيت من أخذ كل ما يجب ؟ هـــل هـذا كل شيء ؟ هل انتهيت من كل شيء ؟ اذن فلنذهب بسرعة •

وحزمت متاعى بسرعة ، ولفعت رأسى بوشاح • الا اننى فىاللحظه التى أوشكت أن أخرج فيها ، تذكرت أن على ان أحمل اللوحه المعلقه على الحائط ، ووافق ابى على ذلك فورا • انه الآن هادىء ، يتكلم همساء ويردد أن علينا آن نمضى بسرعة • كانت اللوحة معلقة فى مكانعال جدا من الجدار • فتعاونا معا على وضع كرسى أسندناه الى الحائط ووضعنـا فوقه مقعدا صغيرا ، حتى استطعنا بفضل هذه السقالة وبفضل جهـودنا المشتركة أن تنزل اللوحة من مكانها• وبعد ذلك لم يبق علينا الا أن نسير• وأمسك أبى بيدى ، الا انه استوقفنى حين أوشكنا أن نجتاز عتبة الغرفه• وحك جبينه مدة طويلة كمن يحاول أن يتذكر ما بقى عليه أن يعمله • وأخيرا وجد ما كان يبحث عنه : مضى الى سرير أمى ، فتناول من تحت مخدتها مفتاح الخزانة الصغيرة ، وراح ينبش فى هذه الخزانة على عجل ، ثم عاد يحمل الىّ بضعة دراهم وجدها فى قاع الدرج ، وقال لى مدمدما:

ـ خذى هذا ، احتفظى به • لا تضيعيه • حذار أن تضيعيه •

وقد دس الدراهم ، أول الامر ، فى يدى ، الا انه غيّر بعد ذلك رأيه ، فاستردها منى ؟ ووضعها فى قميصى • ما زلت أتذكر الرعدة التى سرت فى جسمى حين شعرت ببرودة الدراهم على جسدى • أعتقد اننى

في تلك اللحظة انما أدركت قيمة المال • لقد انتهت كل تحضيراتنا الآن• ومع ذلك استوقفني أبي مرة أخرى •

قال وهو يستجمع أفكاره في جهد :

ـ نيتوتشكا • اسمعي يا بنيتي الصغيرة • ولكن نسيت • ماذا ؟ ماذا يجب أيضا ؟ ها • نعم • نعم • تذكرت ، تعالى • هلمي يا نيتوتشكا •

وقادني الى الركن الذي وضعت فيه الصور ، وأمرني أن أركع •

ـ صلى يا بنيتي • هذا أولى بك • هذا أولى بك • نعم هـذا أولى بك •

قال ذلك هامسا وهو يريني الأيقونة ، ويلفني بنظرة غريبـة • ثم أضاف بصوت متوسل :

ـ صلى • صلى •

فركعت ، وضممت يدى احديهما الى الاخرى ، ثم لم ألبث ـ وقد خنقني الخوف ـ ان وقعت على الارض لا أعي ، وبقيت على هذه الحال بضع دقائق • ثم استجمعت قواى كلها ، ووجهت عاطفتي كلها الى الصلاة، غير أن الخوف ظل أقوى من كل ذلك ، فنهضت وقد اجتاحني حـزن فظيع • وددت منذ تلك اللحظة أن لا أتبع أبي ، لقد كان يخيفني •• وددت لو أبقى • ثم انفرجت شفتاى عن سبب عذابي الشديد فقلت وقد تفجر دمعي غزيرا :

ـ وماما ؟ ماذا بها ؟ أين هي •• أين ماما ؟

ولم أستطع أن أتم كلامي من شدة الانتحاب •

فلما رآني أبكي ، أخذ يبكي هو الآخر •

ثم أمسك بيدى ، وقادنى الى السرير ، فرفع كومة الملابس • ورفع الغطاء • رباه • انها ترقد ، باردة ، صفراء الوجه •• فارتميت عليها كالمجنونة ، لأطوقها بذراعى • وأمرنى أبى أن أركع مرة أخرى ، وهو يقول هامسا :

ــ انحنى يا بنيتى ، قولى لها وداعا ••

انحنيت باحترام عميق ، وانحنى أبى فى الوقت نفسه • لقد كان شاحبا شحوبا رهيبا ، وكانت شفتاه تتحركان بهمس • قال وهو يشير الى الجثمان بيد مرتعشة :

ــ لست أنا ، يا نيتوتشكا ، لا ، لست أنا • هل تسمعين ؟

لست أنا الذى فعلت هذا • لست بمجرم • تذكرى هذا ، يانيتوتشكا •

دمدمت ، وقد بلغ بى الذعر حداً لم أعرفه من قبل :

ــ لنمض ، يا أبى ، آن الأوان ••

قال :

ــ نعم ، آن الأوان ، آن الأوان •

ثم أمسك ذراعى بقوة ، وقادنى الى خارج الغرفة •

ــ هلمى يا نيتوتشكا • لقد انتهى كل شىء ، الحمد لله •

وهبطنا السلم ، واستيقظ البواب ، ففتح لنا الباب وهو ينظر الينا نظرة ارتياب • واجتاز أبى العتبة بسرعة كبيرة ، تحاشيا لأسئلته ، ولم أستطع أن ألحق به الا بصعوبة • وبعد أن سرنا فى الشارع حتى آخره ، وقفنا عند ضفة القناة • كان الثلج ، خلال الليل ، قد غطى أرض الشارع ،

وكانت خطاى ترتعد ؛ وكنت أركض وراء أبى منهوكة ، متعلقة بأذيال ردائه • كان يحمل كمانه تحت ابطه ، ينوفف فى كل لحظه ليرفعه ، وهو يوشك أن يسقط من الانزلاق •

مشينا هكذا قرابة ربع ساعة • وأخيرا هبط أبى على الرصيف المنحدر ، فلما وصل الى ضفه الماء ، جلس على حافه ، فكان الماء يهدر على خطوتين منا ، وليس حولنا أى مخلوق • ان الذعر الذى تملكنى فى تلك اللحظة سيبقى منقوشا فى نفسى الى الأبد ! •• ان ما حلمت به خلال السنه الماضية قد تحقق • ها نحن قد هجرنا منزلنا الحقير • ولكن أين هذا مما كنت أتوقعه ، مما كنت آمله ، مما صوره لى خيال الطفلة ، من أجل سعادة هذا الانسان الذى كنت أحبه حبا عنيفا كل هذا العنف ، عميقا كل هذا العمق ؟ •• ثم ان ذكرى أمى كانت تلاحقنى ، فكنت أتساءل : « لماذا تركناها هنالك وحدها ؟ لماذا تركنا جثمانها كما يترك شيء لا فائدة فيه ؟ » • كان هذا التفكير يعذبنى •

ولم أستطع أن أحتفظ لنفسى بهذه الأفكار التى تشغل بالى ، فناديت أبى :

ـ أبت • أبت الحبيب ••

ـ ماذا ؟ (قال ذلك بلهجة صارمة) •

ـ أبت الحبيب ، لماذا تركنا أمى هناك ، لماذا تركناها ؟ أبت الحبيب• لنعد الى البيت ، فندعو أحدا يبقى الى جانبها !

فصرخ فجأة وهو ينهض مرتعدا ، كمن واتته فكرة تحل جميع مشاكله :

ـ نعم يا نيتوتشكا • لا يمكن أن نفعل هكذا • يجب الرجوع الى جوار ماما • ان الجو بارد عليها هناك • اذهبى اليها يا نيتوتشكا ، اذهبى اليها • ليست الغرفة مظلمة • فهناك شمعة مشتعلة • لا تخافى • ادعى اليها أحدا ، وارجعى • اذهبى وحدك • انى منتظرك • لن اتحرك من هذا المكان قبل أن ترجعى •

ومضيت فورا ، الا اننى لم أكد أصل الى الرصيف حتى شعرت كأن ضربة تصيب قلبى ، فالتفت الى الوراء ، فاذا آنا أرى أبى يهرب فى الجهة الأخرى • لقد تركنى • تركنى فى لحظة كهذه ! •• فصرخت بكل قواى ، وأخذت أعدو وراءه عدوا سريعا ،وقد تملكنى خوف مجنون ••الا انه كان أسرع منى ركضاً فما لبث أن غاب عن بصرى ، وأنا ألهث مهدوده القوى خائرة •• ووجدت قبعته فى الطريق • لقد سقطت عن رأسه وهو يركض • فحملت القبعة ، وتابعت عدوى • شعرت بأنفاسى تتقطع ، وبساقىَّ تترنحان تحتى • أحسست أن ما يقع لى الآن ليس أمرا طبيعيا ، وأنه لا بد أن يكون أضغاث أحلام •• ان ما أعانيه لشبيه جدا بما يشعر به الحالم ، حين يريد الافلات من شخص يلاحقه ، فتأبى أقدامه السير ، وينتهى به الامر الى الاغماء • كانت تمزقنى مشاعر فظيعة • كنت أشفق على أبى : كان صدرى يختنق اذ أتذكر أنه بلا معطف ، وبلا قبعة، بعيدا عنى ، بعيدا عن طفلته الحبيبة • كنت أود أن أدركه ، حتى أستطيع أن أعانقه ، مرة واحدة على الاقل ، عناقا قويا ، وحتى أستطيع أن أقول له أن لا يخاف منى •• حتى أستطيع أن أطمئنه •• حتى أستطيع أن أؤكد له اننى لن أعدو وراءه اذا كان يريد ذلك ، واننى عائدة وحدى الى جانب أمى • ولمحته من بعيد يدخل فى أحد الشوارع • وحين دخلت فى هذا الشارع فى أعقابه كنت أراه أمامى • الا أن قواى خانتنى عندئذ فأخذت أجهش بالبكاء وأصرخ • وما زلت أذكر اننى ، أثناء ركضى ، اصطدمت

بشخصين ، وقفا في وسط الرصيف ، وأخذا ينظران الينا ، أنا وأبي ، دهشين • وصرخت مرة أخيرة :

ـ بابا • بابا •

الا أن قدمي زلت على الرصيف ، فسقطت أمام عتبة أحد البيوت • وأحسست بالدمِ يسيل على وجهي •• ثم أغمى على ، فلم أشعر بعد ذلك بشيء •

• • •

وحين فتحت عيني ، وجدتني على سرير دافيء جميل ، ورأيت الى جانبي وجوها لطيفه أفرحتهـا يقظتي • ورأيت سيدة مسنة على عينيهـا نظارتان ، وسيدا طويلا ينظر الىَّ وقد ظهرت على وجهه امارات شـفقة عميقة ، ورأيت امرأة شابة جميلة ، ورأيت كذلك عجوزا أشيب يمسك بيدي وهو ينظر في ساعة • لقد بعثت الىَّ حياة جديدة •

ان أحد الأشخاص الذين صادفتهم في طريقي أثناء ركضي المسعور كان هو الامير «ك» ، وقد سقطت على عتبة منزله • فقرر هذا الامير الذي أرسل الى أبي تذكرة حضور الحفلة التي أقامها الموسيقي «س» ، قـرر ـ حين عرف من أنا ، بعد بحث طويل متعب ـ أن يسكنني في بيته ، وأن يربيني مع أبنائه ، متأثرا من هذه المصادفة العجيبة •.وبحثوا عن المصـير الذي آل اليه أبي ، فعرفوا أنه عـُثر عليـه في ركن من أركان احـدى الضواحي ، وهو في نوبة هذيان شديد فقادوه الى أحد المستشفيات ، حيث مات بعد يومين •

الموت ! مثل هذه النهاية نتيجة طبيعية ، حتمية ، للحياة التي عاشها• كان لا بد أن يموت هكذا ، حين غاب عنه ـ في طرفة عين ، كما يغيب

سراب مبهم فارغ ـ كل ما كان يشـــده الى الحياة •• حين تبـدد أمله العظيم ، حين أدرك ادراكا واضحا باهرا انه قد خدع فى حقيقة قيمته ، خلال حياته كلها • لقد تجلت له الحقيقة ساطعة تظهره على مدى ضلاله • لقد سمع ، فى ساعته الاخيرة ، عبقرية رائعة فتحت عينيه وأعلنت له أنه لا شيء ، فحكمت عليه هكذا بالموت •• حين سمع أبى اللحن الاخير الذى فجره « س » من أوتاره ، أدرك ما هو الفن الرائع ، الغنى دائما ، الصادق القوى أبدا ، وعرف ما هى العبقرية • ان كل ما كان يقلقــه فى غياهب نفسه ، خلال حياته كلها ، كل ما لم يكن حتى هذه اللحظة الا رؤى غائمة وخيالات متهربة ، كل ما أوجسه فى بعض اللحظات ثم دفعه عن نفسه خائفا ، كل ما لفع به حياته من كذب عنيد ، كل ما كان يراه مقبلا، ويخشى أن يراه ، كل ذلك بدا أمام عينيه الآن فجأة ، أمام عينيه اللتين كانتا تصران على أن لا تريا أن النور نور ، وأن الظلمات ظلمات • الا أن الحقيقة كانت أقوى من أن يحتملها نظره : انه مضطر ، لأول مرة ، أن ينظر الى الأمور ، على حقيقتها ، وجهـا لوجه ؛ وأن يرى المصير الذى رسمه لنفسه • فلما رأى ذلك كله بلغ من الاضطراب حداً أفقده عقله ، لقد وقعت الحقيقة على عقله موقع الصاعقة •• على أن الحقيقة التى أدركها كان ينتظرها ، بالرغم منه ، خلال حياته كلها ، وهو يرتعد من الخوف • كأن فأسا كانت مسلطة على رأسه خلال حياته كلها ، فكان ينتظر الضربة القاضية فى كل لحظة ، وها هى ذى الضربة القاضية قد أتت ! نعم انهـا ضربة قاضية • كان يريد أن يهرب من محكمة ضميره ولكنه أصبح الآن لا يستطيع أن يجد ملجأ يهرب اليه • زال آخر أمل له ، وتبددت آخر حجة يمكن أن يتعلل بها •• ان تلك التى ضاق بوجودها ذرعا خلال مدة طويلة ، تلك التى كانت تسمم حياته ، والتى كان يعتقد أن من حقه أن

يتمنى موتها منقذا له ، قد ماتت أخيرا •• ها هو ذا الآن حر ، لا يزعجه أحد ؛ وقد زالت عماوته ؛ وتملكه حزن مهـلك • أراد أن يحـكم على نفسه بقسوة لا ترحم ، بقسوة من يحـكم حكما لا تحيز فيـه • الا أن قوسه الضعيف لم يستطع أن يفعل شيئا غير أن يردد النغمات الاخيرة التى عزفها الموسيقى العبقرى «س» •• !

لقد كان الجنون يتربص به منذ عشر سـنين •• وها هـو ذا الآن ينقض عليه بغتة !

الفصل الرابع

لم استرد صحتى الا بعد مدة طـــويلة • وحـــين استطعت أن أترك سريرى نهائيا ، كانت ذاكرتى ما تزال من الوهن بحيث ظللت مدة طويلة لاأفهم ما صرت اليه • كنت فى بعض اللحظات أحسب أننى فى حلم ، وتمنيت أن يكون كل ما وقع لى حلما من الأحلام • كنت، اذا جاء المساء ، وهممت أن أنام ، آمل أن أستيقظ فجأة فاذا أنا فى مسكننا البائس ، بين أمى وأبى •• الا أننى أدركت شـيئا فشيئا اننى وحـدى ، واننى أعيش عند غرباء •

شعرت أخيرا اننى يتيمة •

وأخذت أتأمل ، فى كثير من الشراهة ، ما يحيط بى من أشـــياء جديدة علىّ كل الجدة ، فبدا لى كل شىء ، فى أول الأمر ، غريبا عجيبا محيرا : هذه الوجوه الجديدة ، هذه العادات الجديدة ، هذه الحجرات الفخمة فى قصر قديم من قصور الامراء • ما زلت أرى هذه الحجـرات

واسعه ، عالية ، مترفه ، وما زلت أراها كذلك حزينة ، كئيبة ، يتملكني الخوف حين أجتاز احداها ؛ وأشعر انني لا بد ضائعة فيها • لم أكن قد شفيت تماما بعد • كان خوفي المستتر منسجما تمام الانسجام مع هذا المسكن الحزين ، على روعته وجلاله • ثم ان حنينا قويا عنيفا كان ما ينى ينفذ عميقاً الى قلبي الفتي • كنت أتسمر خائفة أمام لوحة من اللوحات ، أو مرآة من المرايا ، أو مدفأة من المدافىء الأنيقة الصنع ، أو تمثال يخيل اليّ أنهم دفعوه خصيصا الى قاع ركن من الاركان ليحسن التحديق الى تخويفا لى • كنت أتسمر ، ثم أنسى فجأة لم وقفت وماذا أريد ، وفيم أفكر ، حتى اذا عادت اليّ ذاكرتي رأيتني من الخوف بحيث يخفق قلبي خفقانا عنيفا •

بين الذين كانوا يعودونني أيام كنت مريضة جدا ، فيما عدا الطبيب العجوز ، كان هنالك شخص أثر وجهه في نفسي تأثيرا كبيرا • كان وجهه رصينا وطيبا ، وكان ينظر الى في كثير من الشفقة والمحبة • كنت أوثر وجهه على جميع الوجوه الاخرى ، وكنت أشعر برغبة قوية في مخاطبته، الا انني لم أجرؤ على ذلك • كان يبدو دائما حزينا جدا ، وكان يتحدث قليلا ، وبصوت متقطع ، دون أن تطوف في شفتيه يوما أضعف ابتسامة • كان ذلك الشخص هو الامير «ك» نفسه ، الذي حملني من الشارع وأسكنني في بيته • كانت زياراته تقل شيئا فشيئا مع تقدمي في مرحلة النقاهة • وفي آخر مرة زارني فيها حمل اليّ حلوى وكتاب صور • ثم قبلني ، ورسم عليّ اشارة الصليب ، وطلب مني أن أحاول المرح، وأنبأني ـ على سبيل التشجيع ـ انه سيكون لى بعد قليل صديقة من سني ، هي ابنته « كاتيا » التي كانت يومئذ في موسكو • ثم التفت الى فرنسية متقدمة في السن هي مربية أبنائه ، والى فتاة تعنى بشئوني ، فأوصاهما بشيء يتعلق بي • ثم خرج ، ولم أره الا بعد ثلاثة أسابيع من تلك اللحظة •

كان الامير يعيش حياة خاصة ، فى عزلة تامة عن الناس • وكانت الاميرة تشغل نصف القصر ، وكانت هى نفسها ، خلال أسابيع طويلة ، لا ترى زوجها • ولاحظت بعد ذلك آن سكان هذا المنزل لا يتحدثون عن الامير كثيرا ، كانما هو غائب • الا آن كلا منهم كان يحترمه • ان المرء ليشعر أنهم يحبونه ، ولكنهم يعدونه انسانا شاذا بعض الشيء • وكأنما كان يدرك هو نفسه انه ليس كغيره ، فكان لهذا السبب لا يظهر الا نادرا • (ولسوف اتحدث عنه تفصيلا فيما بعد) •

وفى ذات صباح ، جاءونى بملابس داخلية بيضاء جميلة ثم بثوب من الصوف الاسود مزين ، اخذت ارمقه دهشة فلقة ، ثم أنزلونى ، بعد ان اتموا زينتى ، الى جناح الاميرة • طاش لبى حين رأيتنى امامها • لم يسبق لى فى حياتى أن رأيت نفسى فى جو مترف رائع الى هذا الحد • غير ان انشداهى لم يدم طويلا • سمعت الاميرة تطلب الى آن أقترب ، وامتقع لونى • لقد قدرت ، وهم يلبسوننى ، أنهم انما يهيئوننى لامتحان خطير • لا أدرى كيف راودتنى فكرة كهذه ، على أننى كنت قد دخلت حياتى الجديدة وفى نفسى حذر غريب من كل من يحيطون بى • ولاطفتنى الاميرة كثيرا ، بل قبلتنى ، فتجاسرت عندئذ أن أنظر اليها • كانت هى السيدة الجميلة التى رأيتها واقفة الى سريرى حين أفقت من الاغماء • وارتعش جسمى كله وأنا أقبل يدها ، ولم أستطع أن أجد فى نفسى من القوة ما يكفى للاجابة على أسئلتها بشىء • وأجلستنى قريبا منها على مقعد صغير ، وكأن هذا المكان قد أعد لى خصيصا • كان واضحا ان الاميرة كان يسعدها أن تحبنى حبا صادقا ، وأن تغمرنى بالقبل ، وأن تكون لى أما ، غير أننى لم أفهم هذه السعادة التى تهبط على ، فلم أحظ بتقدير الاميرة كثيرا • وأعطيت كتابا جميلا من صور ، أمرت أن أنظر

فيه ، بينما أخذت الاميرة تكتب ، وكانت تترك قلمها من حين الى حين ، لتحدثنى ، فكنت أضطرب وأجيب اجابات طائشة •

والخلاصة : اننى تصرفت تصرف طفل تافه ، مذعور ، خائف ، بل غبى • وان غباوتى خاصة هى التى ساءت الاميرة ، ولئن ضاقت بى ذرعا بعد مدة قصيرة ، فلا شك أننى مسئوله وحدى عن ذلك •

وفى نحـــو الساعة النــــالثة بدأت الزيارات ، ولم تلبث الاميرة أن أصبحت أكثر عنايه بى ، وأكثر رقة معى من ذى قبـــل • وأجابت على أسئلة الزوار عنى بأن قصتى قصه غريبة جدا، ثم أخذت تتحدث بالفرنسية حالا • فكان الزائرون أثناء حديثها ينظرون الىّ وهم يهزون رءوسهم ، ويطلقون من أفواههم صرخات التعجب • حتى ان شابا من الحاضرين آدار نظارته ليحدق فى • وحاول عجوز أشيب أن يقبلنى • وكنت أنا أرتجف، واصفر، واحمر ، وظللت قابعة فى مكانى مطرقه ، لا أجرؤ على القيام بحركه • وكان قلبى منقبضا يؤلمنى • أخذت أفكر فى منزلنا البائس •• فى أبى •• فى سهراتنا الطويلة الصامتة •• فى أمى •• فلمـــا تذكرت أمى فاضت عينـــاى بالدموع ، وانقبض حلقى ، ووددت لو أهرب ، لو أختفى ، لو أختبىء •• وما ان انتهت الزيارات حتى استعاد وجـــه الاميرة قسوته • فكانت لا تنظر الىّ نظرة رقيقة ، بل تخاطبنى بخشونة • الا أن ما كان يرعبنى أكثر من ذلك انما هـــو شفتاها المشـــدودتان ، وعيناها السوداوان اللتان تحملقان فى أحيانا ، خلال ربع ساعة •

ولما أتى المساء ، أعادونى الى فوق • وعند منتصف الليل استيقظت محمومة ، وأخذت أبكى مذعورة من أحلامى المخيفة • وفى صباح اليوم التالى ، تكررت الحفلة نفسها ، وقادونى مرة أخرى الى جناح الاميرة • ولعل الاميرة قد ملت قص مغـــامراتى لزوارها ، واستنفـد الزوار ، من

جهتهم ، اهتمامهم بى وعطفهم على • ثم اننى طفلة عاديه جدا ، ليس فى شىء من « براءة الطفولة » (هكذا قالت الاميرة ذات يوم لسـيدة مسنة سالتها هل يمكن آن لا يزعجها وجودى) •• وفى ذات مساء ، ارجعونى الى فوق مرة آخيرة ، ولم يقودونى بعد ذلك الىالاميرة فط • انتهى الامر • لم يبق لى من حظوة لديها • الا انه كان يسمح لى آن أطوف حيث اشاء من آرجاء البيت • ولما كنت لا أستطيع أن أسـتقر فى مكان ، لفـرط اضطرابى وفلقى ، فقد كنت أشعر أننى من أسعد الناس طرا حين كنت أستطيع ان أنعزل فى الطابق الأدنى ، فى أعماق الحجرات الواسـعة • وأذكر أننى شعرت برغبة قوية فى أن أكلم سكان البيت ، ولكنى كنت من خوفى أن أزعجهم أوثر تجنبهم • والذى كنت أحبه أكثر من كل شىء آخر هو أن أنطوى فى ركن من الاركان لا يرانى فيه أحد ، وراء قطعة من الاثاث مثلا ، غارقة فى ذكرى ما وقع لى • ولكن العجيب فى الأمر اننى كنت كأنما نسيت النهاية الفظيعة لما وقع فى بيت أبوى • كانت تخطر أمامى صور ووقائع •• والحق اننى كنت أتذكر كل شىء ، كنت أتذكر الليلة الاخيرة ، والكمان ، وأبى • كنت أتذكر كيف دبرت له المال •• أما التفكير فى هذه الاشياء ، أما تحليل هذه الاشياء ، فقد كنت عاجزة عنه كل العجز • لقد كانت هذه الذكريات تقبض صدرى ، وحين كنت أصل منها الى ذكرى أمى ، الى اللحظة التى ركعت فيها أمام جثمانها أصلى ، كانت تسرى فى ظهرى قشـعريرة باردة كالثلج ، فأرتجف ، وأطلق صرخة ضعيفة ، وتختنق أنفاسى ؛ ويبلغ انقباض صدرى ، وخفقان قلبى ، وذعرى ، حدا لا يسعنى معه الا أن أهرب من مخبئى •

لقد أسأت التعبير حين قلت انهم كانوا يتركوننى وحدى ، فالحق أنهم كانوا يراقبوننى مراقبة دقيقة ، دون أن يظهر عليهم ذلك • لقـد

كانوا ينفذون فى هذا وصايا الامير ، الذى أمر أن لا يزعجونى فى شىء وأمر مع ذلك ان لا أغيب عن بصرهم دقيقة واحدة .. فكنت ، من حين الى حين ، أرى أحد سكان البيت أو احد الخدم ، يلقى نظرة على الغرفه التى أكون فيها ، ثم ينسحب دون أن يقول كلمة واحدة . ولقد أدهشنى هذا الانتباه وأقلقنى ، ولم أستطع ان أفهم له سببا ، كنت أعتقد انهم يراقبوننى لقصد خفى مبيت ، يريدون أن يصنعوا بى شيئا فيما بعد ، لذلك كنت أجهد أن أكتشف فى المنزل ركنا مخبأً أختفى فيه عند الضرورة . وفى ذات مرة غامرت فصعدت السلم الكبير . انه سلم واسع من رخام فرش بالسجاد ، وزين بالازهار ، وبروائع الخزف . وفى نهايه كل طبقة منه جلس حارسان طويلان ، يرتديان ثيابا موشاة وقفازات بيضاء ، وربطه عنق ناصعه البياض . نظرت اليهما قلقة ، ولم أستطع أن أفهم لم يجلسان هنالك ، ينظر أحدهما الى الآخر ، دون أن يقولا شيئا ، ودون أن يعملا شيئا !

وكنت أزداد سرورا ، يوما بعد يوم ، بهذا الطواف وحدى . ثم ان هناك سببا آخر كان يحدونى الى الهرب من الطابق الأعلى . كانت تعيش هنالك عمة للاميرة عجوز ، انقطعت عن الخروج ، ولا تقابل أحدا. لقد تركت هذه المرأة العجوز فى نفسى أثرا واضحا جدا . وشعرت أنها ان لم تكن أهم شخصيات المنزل، فهى قريبة من ذلك . كان جميع من فى الدار يخضعون فى صلاتهم بها لمراسم فخمة ، بل ان الاميرة نفسها ، ذات النظرة الشامخة الآمرة ، كانت مضطرة أن تصعد فى زيارة خاصة لعمتها مرتين فى الاسبوع ، فى يومين معينين . كانت تزورها عادة فى الصباح ، فيدور بين السيدتين حديث رصين كثيرا ما تقطعه فترات من الصمت ، تملؤها العجوز بدمدمة صلواتها ، أو عد أورادها على سبحتها . وكانت الزيارات تطول أو تقصر وفقا لمشيئة العمة ، اذ كانت العمة ،

تنهض فجأة ، فتقبل الاميرة على شفتيها ، مشيرة بذلك الى أن الزيارة قد انتهت • ولقد كان على الاميرة فى أول الأمر ، أن تزور عمتها مرة كل يوم ، الا أن هذه المراسم قد تراخت بعد ذلك بموافقة السيدة العجوز ، وصار يكتفى من الاميرة أن ترسل أحدا فى كل صباح يستفسر عن أنباء العمة • ثم ان العمة ، وقد طعنت فى السن كثيرا ، كانت تعيش منزوية • لقد كانت عذراء • وقد أرادت فى الخامسة والثلاثين من عمرها أن تدخل الدير ، الا أنها بعد أن قضت فيه سبعة عشر عاما دون أن تقطع عهد الترهب ، تركت الدير وعادت الى موسكو • أرادت أن تعيش هنالك مع أختها ، أرملة الكونت «ل» ، التى كانت صحتها تسوء سنة بعد سنة ، وأن تتصالح مع أختها الأخرى ، الاميرة «ك» ، بعد خصومة بينهما دامت عشرين عاما على أقل تقدير : الا أن هاته العجائز لم يستطعن ، فيما يقال، أن يتفاهمن يوما واحدا ، وأردن ألف مرة أن ينفصلن دون أن ينفذن ذلك ، اذ كن فى كل مرة يشعرن فى آخر لحظة بحاجة بعضهن الى بعض ، لدفع الملل ومزعجات الشيخوخة • ورغم أن حياتهن العائلية هذه لم تكن جميلة ، ورغم الضجر الوقور الذى كان يخيم على مسكنهن النسوى بموسكو ، فقد كان المجتمع الراقى كله فى المدينة يشعر بأنه مضطر الى زيارة المنزويات الثلاث • كان الناس يعتبرونهن حارسات التقاليد الارستقراطية كلها ، ويرون فيهن الصورة الحية للنبالة القديمة • كانت الكونتة امرأة ممتازة ، خلّفت كثيرا من الذكريات الجميلة • كان جميع الذين يصلون من بطرسبرج يُخصون السيدات بأولى زياراتهم • وكان جميع الذين يستقبلون فى منزلهن يستقبلون بعد ذلك فى كل مكان • الا أن الأختين انفصلتا ، بعد موت الكونتة • أما الاميرة «ك» ، وهى الكبرى ، فقد بقيت فى موسكو ، لكى تصفى حساب نصيبها من تركة الكونتة التى توفيت عن غير ولد • وأما الصغرى ، المترهبة ، فقد مضت

الى بطرسبرج تقيم عند ابن أخيها ، الامير «ك» • وبسبب هذا الحداد ، يقيم ولدا الأمير ، كاتيا والكسندر ، عند عمتهما الكبيرة بموسكو ، يواسيانها فى وحدتها • ورغم أن الاميرة كانت تحب ولديها حبا هائما ، فانهـــا لم تسمح لنفسها بأن تعترض على انفصالهما عنها طوال مدة الحداد • نسيت أن أقول ان الحداد كان ما يزال قائما يوم دخلت منزل الامير ، الا انه كان مشرفا على الانتهاء •

وكانت الاميرة العجوز ترتدى دائما ثوبا من صوف أسود تزينـه ياقة صغيرة بيضاء تضفى عليها حقا هيئة راهبة • ولم تكن تترك سبحتها، وكانت تمضى الى الصـلاة فى كثير من الفخامة والجـلال ، وتصوم كل يوم ، وتستقبل رجالا من أهل الوقار ، وسدنة الكنيسة ، وتقـرأ الكتب المقدسة ، أى كانت على الجملة تعيش حقا حياة رهبنة • وكان الصـمت فى الطابق الأعلى رهيبا • كان لا يمكن أن يسمع فيه صرير باب يفتح أو أى صوت آخر ضئيل دون أن ترسل الآنسـة العجوز أحد الخـدم تسأل عن سبب هذه الضجة (كانت أذنها مرهفة السمع كأذن صـبية فى الخامسة عشرة !) • وكان الجميع يتحدثون هنالك همسا ، ويمشـون على رءوس الاصابع • وحتى الفرنسية المسكينة اضـطرت ، رغم سنها ، أن تتنازل عن حذائها المفضل ، ذى الكعب : ان الاحذية ذات الكعب ممنوعه فى الطابق العلوى • وقد أرسلت الاميرة ، بعد دخولى البيت بأسبوعين ، تسأل عن أمرى : من أنا ؟ وما وجودى فى البيت ؟ الخ •• فأسرعوا فى الاجابة على سؤالها باحترام عظيم • عندئذ أرسلت تسـأل الفرنسية مرة أخرى عن السبب فى انها لم ترنى بعد • فأدى ذلك الى حركة كبيرة فى البيت : أخذوا يسرحون شعرى ، ويغسلون وجهى ويدى ، دون ما داع الى ذلك ، ويعلموننى كيف أمشى ، وكيف أقدم لها احترامى واجلالى ؛ وأوصـونى بأن أكـون ألطـف وأرق ، وكالوا لى كل أنواع التـأنيب

والتقريع • ثم أرسلوا رســـولا يسأل الاميرة العجوز هل تود أن ترى اليتيمة • فقيل للرسول كلا ، وأُمر بأن أحضر اليها في الغد بعد الصلاة• لم يغمض لى جفن طوال الليلة كلها ، وقيل لى فيما بعـد انني هذيت • كنت أراني أصلي بلا انقطاع ، أمام السـيدة ، استرحم عفـوها وألتمس غفرانها !

وأخيرا ، جاءت لحظة المثول بين يديها •• فرأيتني أمام عجوز نحيلة قصيرة ، غارقة في مقعد كبير • أشارت الىّ أن أتقدم ، ووضعت نظارتيها على عينيها ، لتراني من كثب • أذكر أنني لم أفز باعجابها أبدا • وتفضلت فقالت انني متوحشة حقا ، لا أعرف كيف أركع ولا كيف أقبل اليد • وانهالت علىّ بأسئلتها ، فكنت لاأكاد أجيب ، حتى اذا سألتني عن أبوى ، انفجرت باكية • وساء السيدة العجوز أن تراني حساسة الى هذا الحد • وظنت مع ذلك أنها تواسيني اذ أمرتني أن أفوض أمري الى الله ، وأن أضع أملي فيه • ثم سألتني عن آخر مرة ذهبت فيها الى الكنيسة ، فلما لم أكد أعرف ما معنى هذا ، لأن تربيتي الدينية كانت مهملة جدا ، ظهـــر على العجوز امتعاض لا يوصف • واستُدعيت الاميرة الشابة ، وعُقـد اجتماع قرروا فيه أن يقودوني الى الكنيسة في يوم الاحد القادم، وتعهدت الاميرة العجوز بأن تدعو لى في صلواتها • الا أنها أمرت في الوقت نفسه بأن أنصرف ، لأن رؤيتي ، فيما قالت ، تؤلمها كثيرا • لم أر في كل هذا شيئا خارقا ، وأنا فيما أنا فيه • الا أن الشيء المحقق الذي لا ريب فيــه هو أنها كرهتني جدا • وفي هذا اليوم نفسه أرسلت تقول انني أكثر من الحركة ، وان حركتي مسموعة من أول البيت الى آخره ، مع انني في الواقع ظللت طيلة اليوم قابعة في مكاني لم أتحرك • لقد خلقت السـيدة العجوز هذه الفكرة من خيالها ، وثبت ذلك في اليوم التالي حين أرسـلت تبدى هذه الملاحظة عينها • الا انني في ذلك اليوم نفسه سقط من يدى

فنجان ، فتحطم على الارض ، فذعرت الفرنسيه وجميع الوصيفات ذعرا شديدا ، وأقصينني فورا الى أبعد غرفه ، ولحقن بي مذعورتين ذعرا هائلا .

لا أتذكر الآن كيف انتهت هذه القضية . ولكنني سعدت جدا بالنزول الى الحجرات الكبيرة السفلى ، والطواف فيها وحدي ، مطمئنة الى أنني لا أزعج أحدا .

وفي ذات مرة ، كنت جالسة في احدى هذه الحجرات السفلى ، مطرقة الرأس ، مسندة وجهي الى يدي ، منذ ساعات ، أفكر ، وأفكر . لم يكن عقلي من النضج ولا من القوة بحيث أستطيع أن أعرف حزني ، الذي كان مع ذلك يزداد حتى ليخنقني خنقا . وفجأة سمعت صوتا رقيقا ينبعث أمامي :

ـ ما بك ، أيتها الصغيرة المسكينة ؟

كان ذلك الصوت هو صوت الامير . وكان وجهه يعبر عن رحمة عميقة . فلما رفعت اليه بصري ، ولمح في نظرتي الهلاك والبؤس ، ترقرقت في عينيه الزرقاوين دمعة .

قال وهو يداعب رأسي :

ـ مسكينة أيتها اليتيمة !

فصرخت وأنا أشهق :

ـ كلا . كلا . كلا . لست يتيمة .

ونهضت ، ووثبت اليه فأمسكت بيده ، وأخذت أغرقها بالقبل والدموع ، وأنا أقول :

ـ كلا . كلا . لست يتيمة .

ـ ولكن ماذا بك ؟ ماذا بك يا عزيزتي الصغيرة ؟ يانيتوتشكا المسكينة ؟ ماذا بك ؟

صرخت وقد ازداد شهيقي :

ـ أين أمي ؟ أين أمي ؟

ولم أستطع أن أخفي حزني ، فهويت على ركبتيه ، وأنا أقول :

ـ أين أمي ؟ قل لي أين هي !

ـ سامحيني يا صغيرتي ! آه • يا بنيتي المسكينة •• فيها اذن كنت تفكرين •• ماذا صنعت ! تعالي معي ، يا نيتوتشكا ، اسرعي •

وأمسك بيدي ، وجرني بخطى سريعة • كان متأثرا الى أعماق نفسه • ودخل بي أخيرا في غرفة لم أكن أعرفها بعد •

كانت تلك الغرفة هي غرفة المصلى • انها مظلمة ، فيما عدا القناديل الصغيرة تنعكس أضواؤها الخفيفة على الاطر المذهبة ، وعلى الاحجار الكريمة في الايقونات • وكان القديسون ، من قلب الاطر اللامعة ، ينظرون الي في غموض • لا شيء في هذا المكان يشبه الحجرات الأخرى• ان جوها جو سري ، وقور ، حتى ان نفسي تملكها شعور قريب من الخوف • وهذا ، على كل حال ، أمر طبيعي في الحالة الصحية التي كنت فيها • وبادر الامير فأركعني أمام صورة للعذراء ، وركع هو الى جانبي ، وهو يقول بصوت ناعم متهدج :

ـ صلي ، يا صغيرتي ، صلي ، سنصلي معا •

ولكن لم يسعفني أي دعاء • كنت منفعلة جدا ، خائفة جدا كذلك• تذكرت كلمات أبي ، في تلك الليلة الاخيرة ، أمام جثمان أمي ، وانتابتني أخيرا نوبة عصبية • ورجعت الى السرير مريضة • وكدت أموت أثناء هذه النكسة • واليكم كيف جرت الامور :

في ذات صباح فرع سمعي اسم معروف هو اسم «س» ، لفظه أحد الى جانب سريري ، فارتعدت • وهاجمتني الذكريات تترى ، وقضيت ساعات من الهـذيان أبحث في ذاكـرتي ، وأحلم ، وأتعـذب • وحين استيقظت ، بعد مدة طويله ، كان الظلام يخيم في الغرفه • كان القنديل قد انطفأ ، وكانت الخادمات قد مضين ، مع أن العادة أن يبقين الى جانبي • وفجأة سمعت أصوات موسيقى آتية من بعيد • كانت هذه الاصوات تخف أحيانا حتى لا تسمع ، وتدوى أحيانا أخرى كأنها تأتي الىّ • لا أدرى أي شعور اجتاحني في تلك اللحظة ، ولا أفهم هذا القرار الذى انبجس في دماغي المريض على حين غرة : رأيتني أنهض من سريري ، وأرتدي ثوبي الاسود ، ثوب الحداد ، بسرعة ، دون أن أملك القوة لذلك ، ثم أترك الغرفه وأنا أتحسس طريقي • لم ألق أحدا ، لا في الغرفة المجاورة ، ولا في الغرفه التي دخلتها بعد ذلك • ووجدتني أخيرا في الممر • اقتربت الاصوات • في وسط الدهليز كان يقع السلم الذى اعتدت أن أهبط عليه الى القاعات الكبيرة • ان الأنوار تتلألا فيه ساطعة • وسمعت وقع أقـدام في أسفل ، فلطوت في ركن حتى أرى • ولم أدخل في الدهليز الا حين اعتقدت أن أحدا لن يراني • كانت الموسيقى تنبعث من حجرة مجاورة • وكانت ضجة الاصوات هنالك تنبيء بوجود عدد من الناس كبير • كان أحد أبواب القاعة ، وهو الباب المطل على الدهليز ، مغطى بستار مزدوج من مخمل قرمزي • رفعت أحد ذيول الستار الاول ، واختبأت وراءه • كان قلبي يخفق خفقانا قويا ، وكنت لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي • غير انني استطعت ، بعد بضع دقائق ، أن أملك زمام انفعالي ، وجازفت فرفعت ذيل الستار الثاني • يا الهي ! تلك القاعة الواسـعة المظلمة التي كنت أخاف أن أدخلها ، تسطع الآن بألوف المصابيح ! بحر من النـور أغرقني • وعشيت عيناي من شدة النور ، فقد تعودتا على الضوء الخفيف •

وهب على وجهى هواء عطر ، دافىء • كان الناس فى داخل الحجرة يذهبون ويجيئون ، وكان الفرح باديا فى وجوههم جميعا • والنساء يرتدين أثوابا ناصعة منرفة • لم أر الا نظرات مشرقة بالسرور• وتجمدت فى مكانى من فرط الدهشة • كان يبدو لى مع ذلك أن قد سبقت لى رؤية هذا كله ، فى مكان ما ، فى الحلم •• وتراءى لى بيتنا الحقير ، عند المساء ، والنافذة العاليه ، والشارع العميق بفوانيسه المتلألئة ، والنوافد المقابلة بستائرها الحمر ، والعربات المصطفة أمام درجات الباب ، والخيول الشامخة تكدف وتصهل ، والطيوف على النوافذ •• وسمعت صراخا ، وضوضاء ، والموسيقى خافته لبعدها • قلت فى نفسى : « آه • هذه هى الجنة • هنا الجنة اذن • هذا هو المكان الذى كنت أريد أن أمضى اليه مع أبى المسكين • لم يكن ذلك حلما ! •• لقد رأيته هكذا تماما ، فى الماضى، فى خيالى ، فى أضغاثى • » وازدادت نفسى التهابا ، على التهابها بحمى المرض •• وتفجرت من عينى دموع حماسة لا توصف •• وطفقت أبحث بنظرى عن أبى • قلت فى نفسى ، وقد وثب قلبى ، وتقطعت أنفاسى : « لا بد أن أبى هنا •• انه هنا حتما • » وفجأة سكتت الموسيقى ، وماجت القاعة • وسمعت همسا من كل صوب • وأخذت أحدق فى كل الوجوه التى كانت تمر أمامى ، جاهدة أن أعرف أحدا • وفجأة اجتاح القاعه اضطراب شديد جدا•فلمحت على المنبر شيخا نحيلا طويلا يمسك بكمان• كان وجهه الشاحب يبتسم ، وكان ينحنى الى جميع الجهات فى تحية لطيفة • وعاد الصمت • انه صمت عميق ، حتى لكأن الناس قد حبسوا أنفاسهم • كل واحد ينظر الى الشيخ ، كل واحد ينتظر • تناول الشيخ كمانه ، وهز الأوتار بقوسه • بدأت الموسيقى • ولكنى لم ألبث أن شعرت بأننى أختنق • ان هذه الاصوات تزيد اضطرابى الى حد لا يوصف • أصبحت لا أستطيع أن أتنفس • اننى أعرف هذه الاصوات • لقد سمعتها

من قبل • ان فيها انذارا ، انذارا بشيء رهيب ، غريب ، يتضح الآن في أعماق نفسي • وانطلقت الاصوات أسرع وأعنف • ثم جاءت الآهات والزفرات وشهقات النحيب • انها صلاة تهوي الى اليأس •

كان كل ذلك يصبح مألوفا لدي أكثر فأكثر • الا أن قلبي كان يأبى أن يصدق • وسددت أسناني بعضها الى بعض حتى لا أعول من الالم ، وتمسكت بالباب حتى لا أقع • وكنت في بعض الاحيان أغمض عيني ثم أفتحهما ، آملة انني سأخرج من حلم لأجد نفسي في منزلنا ، حيث سمعت هذه الموسيقى ، في تلك الليلة الفظيعة • وكنت اذا فتحت عيني ، أحدق في الجمهور لأتيقن • كلا • هؤلاء أناس آخرون ، هذه وجوه أخرى • وبدا لي أن كل واحد من الجمهور ينتظر — مثلي — حدثا ، وانهم جميعا ، مثلي ، غارقون في غم عميق • بدا لي انهم جميعا يودون لو يصرخون مع هذه الآهات ، وهذه الأنات ، ليخففوا العبء عن نفوسهم • الا ان الآهات والأنات تزداد حدة ، وألما ، وعمقا • وفجأة ، انفجر الصوت الاخير ، صرخة طويلة ملحة ، فانتفضت • لم يبق من شك • انها تلك الصرخة عينها • انني أعرفها • لقد سمعتها • هي الصرخة التي صعقتني في تلك الليلة • ومر برأسي خاطر كالبرق : « بابا • بابا • انه هنا • هو الذي يدعوني • وهذا كمانه ! » •• وأطلق الجمهور زفرة طويلة واسعة • وانطلق التصفيق محموما يهز القاعة هزا • وانشق صدري عن شهقة قويه صارخة • لم أطق أن أحبس نفسي ، فرفعت الستار ، وانطلقت في الصالة مسرعة ، وأنا أصرخ :

— بابا • بابا • أهذا أنت ؟ أين أنت ؟

لا أدري كيف وصلت الى الشيخ الطويل • لقد تركوني أمر ، وأفسحوا الطريق أمامي • وارتميت عليه بصرخة هائلة • كنت أعتقد

اننى أقبل أبى • وفجأة شعرت بيــدين نحيلتين طـويلتين تمسكان بى • ورأيت عينين سوداوين تحـدقان فى عينى ، كأنهما تحرقانى بلهيبهما • نظرت الى الشيخ ، فاذا بى أقول فى نفسى فجأة : « كلا • ليس هــذا بابا • هذا قاتله ! » وتملكتنى حميا هائلة • وخيل الى أننى أسمع ضحكا فوق رأسى ، وان هــذا الضحك يترجع فى القاعة كلها • ثم لم أشعر بشىء ! •

الفصل الخامس

كانت تلك نكستى الثانية والاخيرة .

حين فتحت عينى رأيت وجه طفلة منحنية علىّ ، وجه صبية فى سنى ، فما ان رأيتها حتى مددت لها ذراعى . منذ أول نظرة شاعت فى نفسى كلها عاطفة رقيقة فرحة . تصور وجه طفلة هى فى الجمال آية . جمال مشرق يأسر البصر . وجه من تلك الوجوه التى تنفعل أمامها اعجابا ، من تلك الوجوه التى اذا رأيتها وقفت مشدوها لا تستطيع حراكا من فرط افتتانك. ذلك هو وجه «كاتيا» ابنة الامير التى عادت من موسكو . فلما مددت اليها ذراعى طافت على ثغرها ابتسامة ، فشعرت بارتياح كبير ينفذ الى أعماق كيانى .

ونادت الاميرة الصغيرة أباها ، وكان على بعد خطوتين يتحدث مع الطبيب .

قال ، وقد أمسك بيدى ، وأشرق وجهه اشراقة الفرح الصادق :

ـ الحمد لله !

ثم أردف يقول بكلمات سريعة ، على عادته :

ـ انني سعيد ، سعيد جدا ، جدا ، هذه كاتيا ابنتي ، لتتعرف كل منكما الى الاخرى ، هل ترين ؟ ستكون هذه صديقتك ! هيا استعيدي صحتك بسرعه ، يا نيتوتشكا ، أيتها الصغيرة الشيطانة التي أخافتني كل ذلك الخوف !

تحسنت صحتي بسرعة كبيرة ، وما انقضت أيام قليلة حتى استطعت أن أنهض ، وكانت كاتيا تأتي الى قرب سريري ، كل صباح ، باسمة مرحة ، كان الضحك لا يستطيع أن يهجر ثغرها ، وكان ظهورها هو السعادة عينها لي ، آه ! كم وددت لو أقبلها ، الا أن هذه الشيطانة الصغيرة لم تكن تبقى أكثر من دقائق ، انها لا تستطيع أن تستقر في مكان ، لا بد أن تتحرك ، أن تركض ، أن تثب ، أن تحدث صخبا ، أن ترجّع الاصداء في البيت كله، كان ذلك حاجة لها ملحة، لذلك أوضحت لي منذ زيارتها الأولى أنها لا شيء يزعجها كالجلوس الى جانب سريري ، وانها لهذا لن تأتي الا نادرا ، وانها ستأتي مع ذلك لأنها تشعر نحوي بالشفقة ، وانني سأرى ، على كل حال ، حين أبل من مرضي ، اننا سنتفاهم تفاهما أعمق وأكمل ، كانت الكلمة الاولى التي توجهها اليّ كل صباح هي هذا السؤال السريع :

ـ هيه ؟ شفيت ؟

ولما كنت شاحبة نحيلة رغم كل شيء ، وكانت الابتسامة لا تجد سبيلها الى وجهي الحزين الا بصعوبة ، فسرعان ما كانت الاميرة تقطب حاجبيها ، وتهز رأسها ، وتضرب الارض بقدميها ، مستاءة مغتاظة ،

ـ غريب • مع انني قلت لك بالامس أن تبلى من مرضك • فلماذا لم تشفى ؟ لعلهم لا يطعمونك كثيرا ؟

فأجبت أجاريها ، لأننى كنت أشعر أمامها بخجل شديد :

ـ كلا • لا يطعموننى كثيرا •

لم يكن بى الا رغبة واحدة ، هى أن أفوز برضاها • لذلك كنت أخشى كل كلمة ، وكل حركة •• وكان افتتانى بوصولها يزداد قوة وعنفا ، يوما بعد يوم • فاذا جاءت لم يفارقها نظرى لحظة ، بل لقد كان يتفق لى ـ حين تمضى الى سبيلها ـ أن أظل أتأمل الجهة التى غابت فيها ، مشدوهة مفتونة ! •• كنت أثناء غيابها أتحدث اليها طويلا ، أتصور أنها صديقى ، فألعب معها وأخاتلها ، ونبكى معا اذا أنبنا أحد على خطيئة ما • الخلاصة : كنت أحلم بها حلم العاشق بمعشوقه • وكنت أرغب رغبة جنونية فى أن أعافى وأن أسمن بأقصى سرعة ممكنة ، عملا بنصيحتها ونزولا على أمرها ••

حين كانت كاتيا تصل عند الصباح لتصرخ قبل كل شىء : « مازلت مريضة ؟ ما زلت نحيلة ؟ » كنت أرتاع كأننى مجرمة • كانت كاتيا تشعر بدهشة صادقة حين ترى أن يوما كاملا من أربع وعشرين ساعة لم يكن كافيا لشفائى •• حتى لقد انفجرت غاضبة أخيرا :

ـ هل تريدين أن آتيك بفطيرة ؟ ستأكلينها ، فتسمنى بسرعة !

أجبت ، وقد ملأنى سرورا أنها ستعود مرة ثانية :

ـ نعم • هاتى •

وكانت الاميرة الصغيرة بعـد أن تسألنى عن صـحتى ، تجلس الى جانبى وتأخـذ تحـدق فىَّ بعينيها السـوداوين • وفى أول الأمر كانت تمحصنى هكذا فى كل لحظة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، وقد بدت على وجهها دهشة ساذجة • الا أن حديثنا لم يكن يجرى متصـلا هينا • فقد كنت أظل وجلة خجلة ، وكنت رغم تحرقى شوقا الى التحدث معها ، أخاف تأنيبها •• فكانت بعد فترة من الصمت ، تبادرنى قائلة :

ـ لمـاذا لا تقولين شيئا ؟

فأجيب ، سعيدة جدا بوجود عبارة يمكن دائما أن يُبدأ بها الحديث:

ـ وأبوك ، كيف حاله ؟

ـ حاله حسـنة • شربت اليوم فنجانين من الشـاى بدلا من فنجان واحد • وأنت ؟

ـ فنجاناً واحداً •

ويعود الصمت •

ـ اليوم أراد « فالستاف » أن يعضنى •

ـ أهو كلب ؟

ـ نعم • كلب •• أما رأيته ؟؟

ـ بلى • رأيته ؟

ـ اذن لمـاذا تسألين هل هو كلب ؟

ولا أعرف بم أجيب ، فتنظر الىَّ الاميرة الصغيرة دهشة :

ـ قولى هل تسرين حين أكلمك ؟

ـ جدا • أكثرى مجيئك !

ـ قالوا لى ان مجيئى يسرك • ولكن غادرى فراشك بسرعة • سآتيك اليوم بفطيرة • هذا وعد أكيد • ولكن ماذا بك حتى تصمتى هكذا ؟

ـ لا أعرف •

ـ ألا تنقطعين عن التفكير ؟

ـ أفكر فى أشياء كثيرة •

ـ أما أنا فيقولون عنى اننى أتكلم كثيرا ولا أفكر فى شىء • هل الكلام اساءة ؟

ـ أبدا • أبدا • اننى أسر حين تتكلمين •

ـ يجب أن نسأل عن هذا مدام ليوتار • انها تعرف كل شىء • ولكن فيم تفكرين ؟

قلت بعد صمت :

ـ فيك أنت •

ـ هل يسرك هذا ؟

ـ نعم •

ـ اذن فأنت تحبيننى !

ـ نعم •

ـ أما أنا فلا أحبك بعد • انك نحيلة جدا • انتظرى ، سآتيك بفطيرة • الى اللقاء • الى اللقاء •

وبعد أن قبلتنى الاميرة الصغيرة ، تقبيلا خاطفا ، غابت عن الغرفة •

ومع ذلك فقد أتتنى بعد الغداء بالفطيرة التى وعدتنى بها • جاءت الىّ كالمجنونة ، تضحك من شدة الفرح ، لأنها تطعمنى طعاما مُنع عنى •

ــ كلى • انه طعامى احتفظت به لك • والآن الى اللقاء •

وغابت بمثل السرعة التى أتت بها !

وفى مرة أخرى ، وثبت الى جانبى ، فى ساعة غير منتظرة أيضا ، بعد الغداء • كان شعرها منفوشا ، وخداها محمرين ، وعيناها تضيئان ببريق قوى • لا شك أنها كانت تركض وتقفز منذ ساعة أو ساعتين •

صرخت بسرعة ، وهى تلهث ، وقد بدت عليها الرغبة فى العودة الى ألعابها على الفور :

ــ هل تحسنين اللعب بالكرة الطائرة ؟

ــ كلا •

قلت ذلك وأنا أشعر بأسف مر على اننى لا أستطيع أن أقول نعم •

ــ طفلة عجيبة حقا ! هيا • ابلى من مرضك ، وسأعلمك • جئت لأسألك هذا فحسب • اننى ألعب الآن مع مدام ليوتار • الى اللقاء • انها تنتظرنى •

واستطعت أخيرا أن أترك سريرى رغم ضعفى • فكانت أول فكرة راودتنى عندئذ هى أننى لن أنفصل بعد الآن أبدا عن كاتيا • ان عاطفة لا تقاوَم تدفعنى نحوها • كنت ألتهمها بعينى التهاما ، وكان هذا يثير دهشتها كثيرا • كان انجذابى اليها من القوة بحيث اننى استسلمت لعاطفتى الجديدة هذه فى حماسة لم تخف أخيرا على كاتيا • وبدا لها ذلك فى أول الأمر شيئا غريبا بل عجيبا • وأذكر أننى ، ذات مرة ، وكنا

نلعب معا ، رأيتني أرتمي على عنقها وأقبلها دون أن أستطيع كبح هـــذه الرغبة الجامحة ، فما كان الا أن تخلصت مني وأمسكت بيدي ، وقطبت حاجبيها كأنني أهنتها ، وسألتني :

ـ ما بك ؟ لماذا تقبلينني هكذا ؟

وانتفضت لهذا السـؤال المباغت ، وخجلت خجـلا شـديدا ، ولم أستطع أن أجيب بكلمة • فهزت الاميرة الصـغيرة كتفيها علامة الحيرة والدهشة (وكانت هذه حركة مألوفة فيها) وعضت شفتيها الممتلئتين ، في جـد ، وانقطعت عن اللعب ، ثم مضت الى ركن من الاركان فجلست على أحد المقاعد • وظلت في ركنها ذاك مدة طـويلة تتأملني ، وتفكر ، كأنها تحل لغزا عرض لفكرها فجأة • وهذا أيضا كان عادة من عاداتهـا في اللحظات الحرجة ، بحيث لم أستطع خلال مدة طويلة أن أتلاءم مع وثبات طبعها المفاجئة •

واعتقدت أنني أخطأت ، وأيقنت على كل حال ان هذا لا بد أن يبدو غريبا • على انني ظللت أتعذب ، فكنت أتساءل : لماذا لم أستطع أن أفوز منذ اللحظة الاولى ، والى الأبد ، برضى كاتيا •• وأن أصبح صديقتها •

كان اخفاقي هذا يحرقني حرقا ، وكنت أشعر أنني على وشك أن أجهش باكية كلما وجهت الى كلمة قاسية ، أو كلما نظرت الى نظـــرة حذرة • وكان حـــزني يزداد يوما بعـــد يوم بل ساعة بعد ساعة ، لأن الأمور لا تجري مع كاتيا سهلة يسيرة • وشعرت بعد قليل من الوقت أنها بدلا من أن تحبني أخذت تكرهني • ان كل شيء ، لدى هذه البنية، يتم بصورة سريعة ، مفاجئة ، بل كان يمكن أن نقول وحشية ، لولا أن لطفا مفطورا كان يثوي وراء هذه الاندفاعات السريعة البارقة التي تصدر عن طبع متحمس صادق •

والواقع ان ما شعرت به نحوى فى أول الامر كان نوعا من الشك لم يلبث ان انقلب الى احتقار ، والسبب فى هذا الاحتقار ، فيما يخيل الى، هو أننى لم أستطع أن أشاركها ألعابها المختلفة • كانت الاميرة الصغيرة تحب الحركة والركض ، كانت صحتها قوية ، وكانت نشيطة ، حاذقة ، بينما كنت أنا نقيض هذا تماما • لقد ظللت بعد مرض ضعيفة ، هادئة ، غارقة فى التفكير والصمت• لم يكن يشوقنى أى نوع من أنواع اللعب•• أى لم أكن أملك أى شىء يتيح لى الفوز بقلب كاتيا • ثم اننى بطبيعتى لا أطيق أن أشعر أن أحدا غير راض عنى • واذا شعرت بشىء من ذلك فسرعان ما ينتابنى حزن شديد ، وسرعان ما أفقد كل شجاعة ، وتخوننى قواى ، فما أستطيع أن أصلح أخطائى وأن أبدل الأثر السىء الذى تركته فى نفس غيرى بأثر حسن • ومعنى هذا أنه متى كرهنى أحد ، كان كرهه الى غير رجعة •• وهذا ما لم تستطع كاتيا أن تفهمه !

وحين لاحظتْ ، بعد أن ظلت ساعة طويلة تشرح لى لعبة الكرة الطائرة بغية أن تعلمنيها ، حين لاحظت أننى لم أفهم شيئا البتة ، أدهشها ذلك الى حد الخوف ، وأخذت تنظر الىّ على عادتها نظرة استغراب• أما أنا فشعرت أننى أوشك أن أجهش فى البكاء • وبعد أن فكرت فى أمرى مرتين أو ثلاثا دون أن تصل الى نتيجة ، هجرتنى تماما ، وأصبحت تلعب وحدها ، دون أن تدعونى الى مشاركتها أبدا ، ودون أن توجه الىّ كلمة واحدة خلال أيام طويلة ! •• وكان تأثير ذلك فى نفسى قويا لا أكاد أطيق احتماله • وثقلت علىّ وحدتى الجديدة أكثر من وحدتى القديمة• ثم لم ألبث أن عدت الى حزنى ، واجتاحتنى أفكار سود •••

ولاحظتْ مدام ليوتار ، وكانت تراقبنا ، هذا التغير الذى طرأ على علاقتنا ، وانتبهت خاصة الى صد كاتيا وهجرها اياى • لذلك اتجهت اليها

رأسا ، فأنبتها على ذلك ، وطلبت اليها أن تحسن سلوكها معى • الا أن الاميرة الصغيرة قطبت حاجبيها ، وهزت كتفيها ، وصرحت بأنها لا تعرف ماذا تصنع بى ، وقالت اننى أظل طوال الوقت أفكر ، وأن الأفضل لها أن تنتظر أخاها « ساشا » الذى سيعود من موسكو قريبا ، وأن الحياة معه ستكون أحفل بالسرور وأمتع •

غير أن مدام ليوتار لم تقنع بهذا الجواب • فنبهت كاتيا الى اننى ما زلت مريضة ، واننى لا استطيع ان اكون فى مثل مرحها وصخبها • بل اضافت الى ذلك أن هدوئى خير من حركتها ، لان كاتيا تتجاوز الحدود : أليست ترتكب كثيرا من الحماقات ؟ الم توشك ، اول امس ، ان يفترسها الكلب ؟ الخلاصة أن مدام ليوتار قرعت الاميرة الصغيرة بلا رحمه ، وارسلتها الى لمصالحتى فورا •

أصغت كاتيا الى مدام ليوتار فى انتباه شديد ، كأنما هى تدرك شيئا جديدا وصحيحا من وراء هذا التأنيب • ثم ما لبثت أن تركت العجلة التى كانت تجرى وراءها فى القاعه ، واقتربت منى ، وسألتنى دهشه ، وهى تنظر الى نظرة رصينة :

ـ هل تريدين حقا أن تلعبى ؟

ـ لا ••

قلت ذلك من فرط خوفى عليها وعلىّ من تأنيبات مدام ليوتار •

ـ اذن ماذا تريدين ؟

ـ أفضل أن أظل جالسه • اننى لا أستطيع أن أركض • ولكن لا تغضبى يا كاتيا ، اننى أحبك كثيرا •

ـ حسنا ، اذن سألعب وحدى ..

قالت ذلك في رقة ونعومة ، وفى لهجة من يكتشف ، دهشا ، انه ليس بمذنب . ثم أضافت :

ـ والآن ، الى اللقاء . ولن أغضب منك .

فأجبت وأنا أنهض وأمد لها يدى :

ـ الى اللقاء .

ـ لعلك تريدين أن تقبليني ؟

قالت ذلك بعد لحظة من تفكير ، لعلهـا تذكرت فيها المشـكلة التى قامت بيننا بصدد ذلك . وكان واضحا أنها تريد أن تفعل كل ما تستطيع فعله لادخال السرور الى نفسى ، بغية أن تتخلص منى بأقصى سرعه ممكنة وعلى أحسن نحو .

قلت فى رجاء خجول :

ـ اذا شئت .

فاقتربت منى ، وقد اكتسى وجهها طابع الجد ، ولم تختلج شـفتاها بابتسامة ، ومنحتنى قبلة . فلما أنهت هكذا كل ما طلب منها ، بل أكثر مما طلب منها ؟ اسعادا لهـــذه البنية الصغيرة التى أرسلت اليها ، هربت راضية مطمئنة . وسرعان ما أخذت تدوى من جديد فى أرجاء الغـرف جميعا ضحكاتها الصاخبة وصرخاتها . ودام الأمر على هذا الحال الى أن عادت من لعبها لاهثة ، وارتمت على أحد المقاعد تستريح وتستجمع قواها الغضة . وظلت طوال السهرة تنظر الىّ فى ارتياب وحذر . كان واضحا اننى أبدو لها طفـــلة عجيبة شاذة ، وكان واضـحا انها تود أن تسـألنى مستوضحة أمرى . ولكن لا أدرى لم أمسكت فى هذه المرة !

وكانت دروس كاتيا عادة تتم فى الصـــباح • وكانت مدام ليوتار تعلمها الفرنسية • على أن تعليم الفرنسية هذا كان لايعدو تكرار قواعـد النحو ، وقراءة أقاصيص لافونتين • ولم تتعلم كاتيا شيئا كثيرا ، اذ كان من الصعوبة بمكان حملها على الجلوس والقراءة ساعتين فى كل يوم • لكنها قررت أخيرا أن تتعلم نزولا على رغبة أبيها ، واطاعة لأوامر أمها : كانت اذا قطعت على نفسها عهدا تلتزمه وتحققه بدقة • وقد أوتيت كاتيا مواهب ممتازة ، فكانت تفهم سريعا ، غير انه كان لها ، مع ذلك ، بعض العيوب : كانت اذا استعصى عليها فهم أمر من الأمور ، تحاول أن تفهمه وحدها ، ولا تطيق أن تسأل أحدا شرحا ، لانها تشعر أن السؤال عار !•• وقيل انها كانت فى بعض الاحيـــان تظل أياما بأكملهـــا تصارع سؤالا لا تستطيع حله •• وكان يغضـــبها أن لا تقدر على حله وحدها ، دون الاستعانة بأحد ، لكنها لم تكن تمضى الى مدام ليوتار لتستنجد بها ، الا فى أحوال نادرة ، حين تعجز عجزا تاما • وكان أمرها يجرى على هذا النحو فى كل ما تصنع : تفكر وتتأمل أكثر مما يظن فيها لأول وهلة • ولكنها فى الوقت نفسه مسرفة فى السذاجة بالنسبة الى سنها • وكانت فى بعض الاحيان تطرح أسئلة غبية حقا ، وفى أحيان أخرى كانت اجاباتها لا تخلو من براعة وفطنة ••

وأخيرا أصبحت صحتى تســمح لى بأن أتعلم شـيئا أنا الاخرى ، فامتحنتنى مدام ليوتار لتعرف مقدرتى ، فاكتشفت اننى أقرأ قراءة حسنة جدا ، لكنى أكتب كتابة سيئة جدا ، وان من الضرورة بمكان أن تعلمنى الفرنسية حالا •

لم أحتج على ذلك •• وذات صباح ، رأيتنى جالسة مع كاتيا جنبا الى جنب ، الى منضدة الدرس • وأظهرت كاتيا ، فى هذه المرة ، كأنما عن

قصد ، كسلا وغباء ، حتى أنكرتها مدام ليوتار ! •• أما أنا فقد تعلمت الألفباء الفرنسية في هذه الجلسة وحدها ، وجهدت أن أرضي معلمتي بكل ما أوتيت من قوة • وفي نهاية الدرس كانت مدام ليوتار غاضبه جدا من كاتيا ، فقالت لها وهي تشير الي :

ـ انها مريضة تدرس لأول مرة ، ومع ذلك فقد بذلت عشرة أضعاف ما بذلت أنت • ألا تشعرين بالخجل لهذا ؟

فسألتها كاتيا دهشة :

ـ اذن فهي تعرف أكثر مما أعرف ! ولكن كيف ؟ انها ما زالت تتعلم الألفباء ••

ـ كم درسا استغرقت انت في تعلمها ؟

ـ ثلاثة ••

ـ أما هي فقد استغرقت درسا واحدا • معنى هذا انها أسرع منك في التعلم ثلاث مرات ، وانها ستتفوق عليك بعد قليل • أليس كذلك ؟

ففكرت كاتيا لحظة ، ثم احمر وجهها احمرارا شديدا حين أدركت أن مدام ليوتار على حق • هكذا كان حالها دائما : حين تؤنب ، سواء لذنب اقترفته أو لاخفاق في الدرس أصابته ، فانها تحمر ، ويحرقها الشعور بالعار ، أو الحزن ، أو الكبرياء الجريحة • وفي هذه المرة كادت الدموع تنفجر من عينيها ، غير أنها حبستها ، ونظرت الي كأنها تريد أن تصعقني ••

وفهمت فورا ما بها : لقد كان كبرياء الطفلة المسكينة عظيما • وحين

بعدنا عن عينى مدام ليوتار أردت أن أسرع فأقول لها ، تخفيفا عنها ، انه ليس ذنبى ان الفرنسية خاطبتها بهذه اللهجة ، غير أن كاتيا تظاهرت بأنها لا تسمع ما أقول ، وظلت صامته •

وبعد ذلك بساعة ، دخلت الى الغرفه التى كنت جالسة فيها أقرأ ، ولا ينصرف تفكيرى الا اليها • كان يعذبنى ويخيفنى أن أتصور أنها ، مرة أخرى ، لا تريد أن تكلمنى • ونظرت الىّ ساهمة ، وجلست على الديوان كعادتها ، ولم تحول نظرها عنى خلال نصف ساعة • ثم لم أتمالك نفسى ، فأرسلت اليها نظرة مستفهمة •

فسألتنى كاتيا :

ـ هل تحسنين الرقص ؟

ـ كلا •

ـ أنا أحسنه ••

صمت ••

ـ هل تحسنين العزف على البيانو ؟

ـ كلا ••

ـ أنا أحسنه • والواقع أن تعلمه عسير ••

صمت ••

ـ تقول مدام ليوتار انك أذكى منى •

ـ كانت مدام ليوتار مستاءة منك ، فقالت ذلك •

ـ وبابا هل يستاء أيضا ؟

ـ لا أدرى •

صمت جديد ••

وضربت الاميرة الصغيرة الارض بقدمها الصغيرة ، وقد فرغ صبرها .. ثم لم تستطع أن تخفي مضضها ، فسألت :

ـ اذن ستهزئين بي لأنك أسرع فهما مني !

فصرخت وأنا أثب من مكاني لأسرع اليها وأقبلها :

ـ أبدا . أبدا .

وفجأة ، قالت مدام ليوتار ، وكانت تصغي الى حديثنا منذ خمس دقائق ، مخاطبة كاتيا :

ـ ألا تخجلين من هذا القول ، ومن طرح أسئلة كهذه ؟ .. أسفي عليك يا آنسة . تحسدين هذه الطفلة البائسة وتدلين عليها بأنك تحسنين الرقص والعزف على البيانو . أسفي عليك يا آنسة . سأروي هذا لأبيك !

والتهب خد الأميرة الصغيرة بحمرة قانية . بينما استطردت المربية :

ـ هذا لا يليق . انك تعذبينها بأسئلتك هذه . كان أهلها أناسا فقراء ، فلم يستطيعوا أن يستأجروا لها مربية تعنى بتعليمها . وما تعرفه انما تعلمته وحدها لأن لها قلبا نبيلا وفؤاداً ذكياً . يجب عليك أن تحبيها بدلا من أن تحقدي عليها . عيب . عيب . اذكري أنها يتيمة ، وان ليس لها أحد في هذا العالم . لم يبق الا أن تدلي عليها بأنك أميرة ، وانها ليست بشيء ، سأتركك وحدك . فكري فيما قلته لك ، وأصلحي نفسك .

وفكرت الاميرة الصغيرة ، يومين كاملين ! .. خلال يومين كاملين لم تدوّ قهقهاتها وصرخاتها في البيت . وكنت اذا استيقظت في الليل ، أسمعها تتم في المنام حديثنا مع مدام ليوتار . لقد ضعفت خلال هذين

اليومين ، وفقد وجهها الزاهر شيئا من ألوانه • وأخيرا ، في اليوم الثالث ، التقينا فى القاعة الكبرى ، فى أسفل • كانت الاميرة الصغيرة خارجة من غرفة أمها ، فلما رأتنى ، توقفت ، ثم جلست أمامى ، قريبـــة منى : وانتظرت ما سيقع ، مرتاعة ، مرتجفة ، وأخيرا سألتنى :

ـ نيتوتشكا ، لماذا أنبونى بسببك ؟

فأجبت أبرىء نفسى :

ـ لم يكن ذلك بسببى •

ـ ألم تقل مدام ليوتار اننى أسأت اليك ؟

ـ كلا يا كاتيا ، كلا ، لم تسيئى الى •

فهزت الاميرة الصغيرة كتفيها ، علامة الشك فيما أقول • ثم سألت بعد لحظة من الصمت :

ـ ولماذا تبكين طوال الوقت ؟

فأجبت من خلال دموعى :

ـ لن أبكى اذا شئت •

ومرة أخرى هزت كتفيها •

ـ ولكن هل كنت تبكين فى بيتكم دائما مثلما تفعلين الآن ؟

لم أجب •

ثم سألتنى فجأة ، بعد صمت جديد :

ـ ولماذا أنت فى بيتنا ؟

فنظرت اليها دهشة ، وكأن طعنة نفذت فى قلبى • ولم أستطع أن أجيب الا بعد أن استعدت أنفاسى • قلت :

ـ لأننى يتيمة •

ـ وكان لك بابا وماما ؟

ـ نعم •

ـ وكانا لا يحبانك ؟

ـ بلى • كانا يحبانى •

قلت ذلك بصعوبة •

ـ وكانا فقيرين ؟

ـ نعم •

ـ فقيرين جدا ؟

ـ نعم •

ـ ولم يعلماك شيئا ؟

ـ بلى • علمانى القراءة •

ـ هل عندك لعب ؟

ـ لا •

ـ هل كنت تأكلين فطائر ؟

ـ لا •

ـ ما عدد حجرات بيتكم ؟

ـ حجرة واحدة •

ـ حجرة واحدة ؟

ـ واحدة •

ـ والخدم ، هل كان عندكم خدم ؟

ـ لا •

ـ ومن كان يخدمكم اذن ؟

ـ كنت أنا أشترى الاسياء من السوق •

كانت أسئله كاتيا تؤلمنى أكثر فأكثر • ثم ان هـــذه الذكريات ، ووحدتى ، ودهشة الاميرة الصغيرة ، كل ذلك كان يبـــدو لى انه رتب خصيصا ليجرحنى ، ليدمى قلبى ، كنت أرتعش من أخمص قدمى الى قمة رأسى ، واختنقت بدموعى •

ـ اذن فأنت سعيدة بوجودك في بيتنا •

لم أجب •

ـ وهل كان لك ملابس جميلة ؟

ـ لا •

ـ كانت ملابسك بشعة ؟

ـ نعم •

ـ لقد رأيت فستانك •

فما ان سمعت هذا حتى رأيتنى أنهض من مكانى تحت تأثيراحساس غريب ، وأقول :

ـ لماذا تسألينني اذن كل هذه الاسئلة ؟

ثم أضفت وقد احمر وجهى حنقا :

ـ لماذا تستجوبينني هكذا ؟ لماذا تسخرين منى ؟

وتخضب وجه الاميرة بحمرة قانيـة ، ونهضت من مكانهـــا هى الاخرى ، الا انها لم تلبث أن سيطرت على انفعالها ، وقالت :

ـ كلا لست أسخر منك • وانما أردت أن أعرف هل كان أبواك حقا فقيرين •

فقلت وأنا أبكي ألما :

ـ لماذا تسألينني عن أبي وأمي ؟ لماذا تسألينني عنهما على هذا النحو ؟ فيم أساءا اليك يا كاتيا ؟

واضطربت كاتيا اضطرابا شديدا ، ولم تعرف بم تجيب • وفي هذه اللحظة دخل الامير •

فلما رآني أبكي ، قال :

ـ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟

ثم التفت الى كاتيا ، وكانت بلون الجمر احمرارا ، وكرر عليّ سؤاله :

ـ ماذا بك ؟ ماذا هنالك ؟ لماذا اختصمتما يا نيتوتشكا ؟ فيم تشاجرتما ؟

ولكنني لم أكن أستطيع جوابا ، ورأيتني أرتمي على يده أقبلها باكية •

ـ كاتيا ، لا تكذبي • قولي ماذا جرى !

ولم تكن كاتيا تعرف الكذب فقالت :

ـ قلت لها انني رأيت فستانها الرديء الذي كانت تلبسه يوم كانت تعيش مع أبيها وأمها •

ـ من أراك الفستان ؟ من ذا الذي سمح لنفسه بأن يريك اياه ؟

فأجابت كاتيا بلهجة جازمة :

ــ رأيته بنفسي ، لم يرنيه أحد •

ــ حسن ، حسن • لا تريدين أن تشي بأحد • أنا أعرفك • اكملي كلامك •

ــ أخذت تبكي وسألتني لماذا أسخر من أبيها ومن أمها •

ــ اذن فقد سخرت منهما •

لئن لم تسخر كاتيا من أبوي ، لقد كان ذلك في نيتها قطعا ، كما شعرت •

لهذا لم تجب على سؤال أبيها بكلمة ، ومعنى صمتها انها تقر بخطئها فقال لها الامير مشيرا الي :

ــ ستعتذرين لها حالا •

الا ان الاميرة الصغيرة ، وقد امتقع لونها ، لم تقم بأية حركة • فقال الأمير :

ــ انني أنتظر •

فما كان منها الا أن صرخت فجأة ، وقد التمعت عيناها بالشر ، وضربت برجلها الارض :

ــ كلا • لا أريد • لا أريد • لا أريد أن أعتذر لها • يا بابا • انني لا أحبها • ولا أحب أن أبقى معها بعد الآن • ليس ذنبي أنها تظل تبكي طوال النهار • لا أريد • لا أريد !

ــ تعالي معي •

قال الامير ذلك ، ثم أخذ يدها ، وقادها نحو حجرته •

والتفت الىّ قائلا :

ـ اصعدى ، يا نيتوتشكا •

وددت لو أرتمى على الامير أطلب اليه أن يغفر لكاتيا ، الا أنه كرر أمره بلهجه صارمه ، فصعدت الى الجناح الاعلى من المنزل ، وأنا أشبه بالميتة • فما ان بلغت غرفتنا حتى سقطت على « الديوان » مخفية وجهى بين ذراعى • وأخذت أعد الدقائق • كنت أنتظر كاتيا بفارغ صبر ، لارتمى على قدميها • وأخيرا عادت كاتيا • ولكنها مرت بجانبى دون أن تقول كلمة واحدة ، ومضت الى ركن من أركان الغرفة تجلس فيه • كانت عيناها حمراوين ، وكان خداها مبللين بالدموع • فما ان رأيتها على هذه الحال حتى خارت قواى وفقدت كل شجاعة ، وأخذت أنظر اليها فى رعب لم أستطع من فرطه أن أتحرك •

واتهمت نفسى بكل قواى ، وبكل قواى جهدت أن أقنع نفسى بأننى وحدى المذنبة • وهممت ، ألف مرة ، أن أقترب من كاتيا ، ولكننى كنت أتوقف ، خشية أن تسىء استقبالى •

وفى مساء اليوم التالى لاحت كاتيا أكثر مرحا ، وطفقت تطارد عجلتها فى الغرفة ، ولكنها لم تلبث أن تركت لعبها ، وعادت تجلس فى ركنها وحيدة • وقبل أن تمضى الى سريرها بلحظة واحدة ، التفتت الىّ ، بل تقدمت نحوى خطوتين ، وانفرجت شفتاها تريد أن تكلمنى ، الا انها توقفت فجأة ، وأشاحت بوجهها عنى ، ومضت الى سريرها •

وانقضى على هذا يوم آخر ، واستغربت مدام ليوتار حالة كاتيا ، وبدا لها أن تسألها : ماذا بها ؟ هل هى مريضة حتى تغدو هادئة كل هذا

الهدوء ؟ فأجابتها كاتيا ببضع كلمات ، ثم تناولت كرتها الطائرة • ولكن ما ان انصرفت مدام ليوتار حتى انفجرت باكية ، وهربت من الغـرفة ، بعيدة عن أنظارى • وأخيرا حزمت كاتيا أمرها • فهاهى ذات مســاء ، بعد مشاجرتنا بثلاثة أيام ، تصل الى غرفتنا على حين غرة ، وتقترب منى خجلة ، وتقول :

ـ أمرنى بابا أن أعتذر لك • هل تريدين أن تصفحى عنى ؟

وأمسكتْ كاتيا بكلتا يدىّ ، فقلت لهـا ، وأنا ألهث من شـــدة الانفعال :

ـ نعم ، نعم •

ـ وأمرنى بابا بأن أقبلك • هل تريدين أن تقبلينى !

وكان جوابى على هذا انى أخذت أقبل يديها وأغرقهما بالدموع • وحين رفعت بصرى الى كاتيا ، لاحظت أنها لم تكن فى حالتها المعتادة : ان عينيها مبللتان بالدموع ، وان شفتيها لترتجفان ، الا انها سرعان ما كبتت انفعالها ، وعادت الابتسامة فجأة الى ثغرها •

قالت فى هدوء ، كأنما هى تحدث نفسها :

ـ سأمضى أقول لبابا اننى اعتذرت لك واننى قبلتك •

وأردفت ، بعد لحظة من الصمت :

ـ منذ ثلاثة أيام لم أره • لقد منعنى من المجىء اليه قبل أن أنفذ أمره •

ثم نزلت الى لقاء أبيها ساهمة وجلة •

وما انقضت على ذلك ساعة حتى دوى فى البيت ، فجأة ، الصراخ والصخب والضحك وعواء « فالستاف » • وسمعت شيئا يندحرج وينحطم •• وطارت كتب الى الارض • وانطلقت العجـــلة تدور من غــرفة الى أخرى • ففهمت أن الصلح قد تم بين الاب وابنته ، ووثب قلبى من مكانه فرحا بذلك •

الا أن كاتيا لم تقترب منى • كان واضحا أنها تجهد أن لا تكلمنى • على انها كانت تستغرب أمرى استغرابا شديدا ، وتتحرق شوقا الى فهمى ، فكان ذلك يربكنى ويؤلمنى • أصبح جلوسها أمامى متفرسة ، يزداد يوما بعد يوم • وأصبحت الملاحظات التى تبديها بصددى أكثر سذاجة ممـــا كانت ! ان الشىء الذى لم تستطع آن تفهمه هذه الطفلة الرقيقه التى كان كل من فى البيت يدللها ، ويعبدها ويحتضـــنها ككنز جميل ، هو انها لقيتنى فى طريقها عدة مرات فى وقت لم تكن تحرص فيه على آن ترانى أبدا • على أنه كان لها قلب صغير رائع يعرف بغريزته ، دوما ، كيف يجد الطريق القويم • كان أبوها أكثر الناس تأثيرا فيها ، وكانت هى تحبـه حبا عظيما ، كما كانت أمها تحبها حبا جنونيا • غير أنها كانت تعاملها فى قسوة شديدة • ولقد ورثت كاتيا عن أمها الزهو والكبرياء والعناد وقــوة الارادة • الا أن هذا لم يكن يمنعها من احتمال جميع نزوات أمها التى تبلغ أحيانا حد الاستبداد والتعذيب الروحى • وكانت الاميرة الأم تفهــم التربية فهما غريبا : كانت تربيتها لكاتيا مزيجا عجيبا من دلال لا حد له ومن قسوة لا يشفى لها غليل ! •• فما كان مسموحا به أمس ، يصـــبح اليوم ممنوعا ••• وهكذا كان الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع • على اننى سأعود الى هذا فيما بعد • وانما أحب أن أذكر الآن أن كاتيا عرفت كيف تنظم علاقتها بأبويها : اما مع أبيها فكانت تبقى عــلى طبيعتها حرة منطلقة لا تلف ولا تدور • وأما مع أمها فكانت منطوية على

نفسها ، حذرة ، مطواعة • غير أن هذه الطاعة لم تكن تجرى على سجيتها صادقة منطلقة ، وانما كانت مبدأ وخطة • وسأشرح هذا أيضا فيما بعد • على انه لا بد من القول ــ وذلك أمر يشرف كاتيا ــ انها انتهت أخيرا الى فهم أمها : فلئن كانت تطيعها ، فلأنها شعرت شعورا قويا بما تكنه لها أمها من حب لا حد له ، من حب يبلغ أحيانا حد الهوى المرضى ! •• لقد كانت الاميرة الصغيرة التى لا يعوزها نبل النفس تحسب حساب هذه الناحية • الا أن هذا الحساب ، وا أسفاه ، لم يسعف رأسها الصغير ، فيما بعد ، الا قليلا •

وكنت أنا لا أفهم ماذا بنفسى • كان كيانى يجيش باحساس جديد لا سبيل الى فهمه ، ولست أبالغ اذا قلت ان ذلك كان يعذبنى كثيرا • والأفضل أن أعترف بأن عاطفنى نحو كاتيا كانت هى العشق •• اغفروا لى استعمال هذه الكلمة • نعم كانت هى العشق بعينه ، بدموعه ، وأفراحه، العشق الهائم الجامح • ما الذى كان يجذبنى اليها ؟ لماذا نشأ فى نفسى هذا الحب ؟ لقد بدأ من النظرة الأولى ، لقد اهتزت جميع عواطفى اهتزازا لذيذا حين رأيت ، فجأة ، هذه البنية الجميلة جمال الملائكة • كل شىء فيها جميل ، ما من عيب من عيوبها أصيل فيها ، جميع عيوبها دخيلة عليها ، لا تنفك تصطرع مع نفسها الاصيلة • كل شىء فيها يلتمع برجاء مشرق ، كل شىء فيها يبشر بمستقبل رائع •

ولم أكن أحبها وحدى • كان كل انسان يحبها • كان يتفق لنا أن نخرج فى نحو الساعة الثالثة فى نزهة ، فما ان تقع علينا أبصار المارة حتى يتوقفوا فى أماكنهم متجمدين • وكثيرا ما كانت صرخات الاعجاب تنطلق وراء هذه الصبية السعيدة متلاحقة : « لقد خلقت للسعادة ، وهى تعيش لها •• » • ذلك كان لسان حال كل من يراها • أما أنا فلعل الاحساس الجمالى هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شىء آخر • لعل الشعور بالجمال

هو الذى أثر فى نفسى قبل كل شيء آخر فما ينبغى أن نبحث عن غيره علةً لحبى كاتيا .

.. على أن آفتها الأساسية كانت هى الزهو .. هذا الزهو الـذى يدفع بصاحبه دفعا الى الرجوع الى طبيعته الخاصة ، ويجعله بذلك مقاتلا . كان الزهو يتجلى حتى فى سذاجات صبيانية ، ويختلط بالانانية اختلاطا يبلغ من القوة ان أى معارضة ، مهما تكن صورنها ، كانت تدهشها أكثر مما كانت تسوءها أو تغضبها . كانت لا تستطيع أن تقبل أن يتم أمر من الأمور لم ترده . ومع ذلك كان احساسها بالعدل يسيطر على كل شيء . فما ان تدرك أنها كانت على خطأ ، حتى تذعن لتأنيب ضميرها دون مواربة أو تعلل . ولئن ساء سلوكها معى حتى تلك اللحظة ، فاننى أسند ذلك الى نفور كانت تشعر به نحوى ، دون أن تستطيع له دفعا ! .. كان سلوكها هذا أمراً لا مفر منه . كانت تستسلم لاندفاعاتها فى كثير من الجموح ، وكان لا بد لها ، دوما ، من أمثلة ومن تجارب حتى تعـود الى الطريق القويم . ورغم أن نتائج كل ما تقوم به من أعمال كانت نتائج جميـلة وصادقة فانها لم تكن تصل الى هذه النتائج الجميلة الصادقة الا بعد انحرافات مستمرة ، وأخطاء متواصلة .

ولم تلبث كاتيا أن شبعت من ملاحظتى والتفرس فى ، وقررت أخيرا أن تدعنى وشأنى .. وأصبح سلوكها سلوك من لا يشعر بوجودى ، فما من كلمة توجهها الى ، الا فيما مست اليه ضرورة .. وأبعـدتنى عن ألعابها ، ولكن بدون قسـوة . اقصتنى عنها ببراعة ، حتى لكأن هـذا الاقصاء تم بارادتى !

وكانت الدروس تسير فى مجراها . ولكننى فقدت شرف الاساءة الى كبريائها باتخاذى مثلاً يضربونه لها على الذكاء والرقة ، مع أن هذه

الكبرياء كانت من سرعه التأثر بحيث أنه كان لـكلبنا ، « سير جـــون فالسناف » ، سلطان كبير عليها • كان فالستاف ذا مزاج بارد ، الا أنه كان شريرا كنمر • فاذا اهتاج ، أصبح وحشا كاسرا ، فلم تستطع كاتيا أن تملك زمامه • وأكثر من ذلك انه كان لا يحب أحدا • الا آن عـدوه الأول ، عدوه الطبيعى ، كان هو الاميرة العجوز من غير ريب ــ وسوف تأتى قصة ذلك فى حينها ــ أما كاتيا المتكبرة فكانت تستعمل كل الوسائل للتغلب على عداوة فالستاف • كانت لا تطيق أن يكون هذا الحيوان الكائن الحى الوحيد الذى يستطيع ، فى هذا المنزل ، أن يتجاهل سلطتها وقوتها، فلا يخضع لها ، ولا يحبها ! •• لذلك قررت أن تهاجم الكلب • ان كاتيا تريد الآن أن تفرض سيطرتها على هذا الحيوان • كيف يجرؤ فالستاف ان يقاومها ؟

غير أن الكلب العاصى لم يخضع •• ففى ذات مرة ، بعد العشاء ، بينما كنا جالسين فى القاعة الكبرى ، فى الطابق الاســفل ، جاء الكلب واســتقر فى وسط القاعة ، ليستمتع بقيلولته • عنــدئذ قررت الاميرة الصغيرة أن تشرع فى تنفيذ خطتها • فتركت لعبها ، واقتربت منه ، حذرة ••• على رءوس الأصابع ، وهى تناديه بأرق الأسماء ، وتدعوه اليها بألطف الحركات والاشارات • الا أن « فالستاف » كشر عن أنيابه الفظيعة ، من بعد ، فتوقفت الاميرة الصغيرة • ان ما كانت تريده هو أن تأتى اليه ، أن تداعبه ، أن تحمله على اللحاق بها ، وهذا ما لم يكن يسمح به لأحد غير الاميرة الأم ، التى كان أثيرا لديها •

وكانت الخطة عسيرة ، تقتضى كثيرا من البراعة ، بل تشتمل عــلى خطر كبير ، لأن فالستاف لن يزعجه أن يعض يدها ، ولا أن يمزق يدها اربا ، اذا بدا له ذلك • انه قوى ، كالدب •

وكنت أرقب محاولة كاتيا ، قلقة ، خائفة • الا ان صرفها عن فكرة بدت لها لم يكن بالامر السهل • ان الأنياب التى كشر عنها فالستاف لم تستطع أن تحولها عن عزمها ، فلما أدركت أنها لا تستطيع أن تقترب من عدوها على خط مستقيم ، أخذت تدور حوله ، محاذرة • ولم يتحـرك فالستاف • وبعد أن أنهت دورتها الأولى ، دارت دورة أضيق ، وما زالت تضيق دورتها حتى أصبحت من فالستاف على المسافة التى يراها معقولة ، فلما همت أن تتجاوزها كشر عن أنيابه مرة أخرى ، فما كان من الاميرة الا أن ضربت الارض بقدميها ، وابتعدت ساخطة ، وجلست على «الديوان» تفكر •

وما هى الا عشر دقائق حتى اهتدت الى وسيلة للاغراء جـديدة : فاذا هى تخرج من الغرفة ثم تعود وفى يدها مكسرات وحلوى • لقـد غيرت سلاحها • الا أن فالستاف لم يبال هذا الاغراء الجديد ، ربما لأنه لم ينظر الى قطعة الحلوى التى رمتها اليه • ولكن حين دخلت الاميرة الصغيرة حدود الدائرة التى يعدها أرضه ، أظهر الكلب معارضة أبلغ وأقوى من معارضته فى المرة الاولى ، فرفع رأسه ، وكشر عن أنيابه ، وأخذ يهمهم ، وهمّ بحركة تدل على أنه مستعد لأن يثب من مكانه • فالتهب وجه كاتيـا غضبا ، ورمت قطعه الحلوى التى كانت تمسكها ، وعادت تجلس فى مكانها ••

انها مضطربة أشد الاضطراب ، ان خديها كالجمر احمرارا ، بل ان دموعها لتتفجر من عينيها • ولما رأت اننى أنظر اليها ، غلى الدم فى رأسها ، فاذا هى تثب من مكانها فجأة فى اتجاه الحيوان الكاسر !

ولعل فالستاف قد تجمد فى هذه المرة من الدهشة ، فترك عـدوته تجتاز الحدود ، ولم يحىّ البنت الطائشة بهمهمة مخيفـة الا حـين رآها

قريبة جدا منه • فتوقفت كاتيا ثانيةً أو أقل من ثانية ، ثم تابعت سيرها بخطى ثابتة • تجمد الدم في عروقي من شــدة الذعر • كانت الاميرة الصغيرة في حالة من الهياج ما رأيتها في مثلها يوما • لقد كان اليقين من الانتصار يلهب عينيها • لم تحول نظرها عن الكلب الكاسر وهو يرمقها بنظرات غاضبه ، ولم ترتجف أبدا أمام أنيابه المهـددة •• بينما انتصب الكلب • وانطلق من صدره الكثيف هدير رهيب ، فقلت في نفسي : لن تنقضي دقيقة واحدة الا ويمزقها اربا ! •• الا ان الاميرة الصغيرة وضعت يدها الصغيرة عليه فجأة في اعتزاز ، وداعبت ظهره ثلاث مرات وقد بدت عليها خيلاء الظفر • وظهر على الكلب نوع من التردد • كانت تلك أسوأ اللحظات • لكن الكلب لم يلبث أن نهض متثاقلا ، وتمطى ، ولعله قال في نفسه انه لا يليق به أن يقتتل مع طفلة ، ثم ترك الغرفة في هدوء ووقار• وبقيت الاميرة الصغيرة سيدة المكان ، فرمقتني بنظرة خاصة ، نظرة مفعمة بالنشوة ، نظرة من أسكرها الشعور بالنصر • وكنت أنا شـاحبة شحوبا كبيرا • ولاحظت هي ذلك فابتسمت • الا أن وجنتيها أخذتا تشحبان ، وما استطاعت أن تعود الى « الديوان » الا في كثير من العناء • فتهالكت عليه فاقدة الوعي تقريبا •

منذ ذلك اليوم أصبح هواي لا يعرف الحدود • أصبحت أخاف على كاتيا خوفا شديدا ، وأصبح الحزن يحرقني حرقا • ألفَ مرة أوشكت أن أرتمي على عنقها وسـمرني الوجـل في مكاني • وكنت أحاول أن أتحاشاها حتى لا ترى انفعالي ، فاذا اتفق أن دخلت الغرفة التي كنت أظن أنني مختبئة فيها ، أخذ قلبي يدق دقا قويا حتى لأرى الاشياء أمامي تدور! ••• وأعتقد أن هذه البنية الشيطانة لاحظت الأمر ،لأنها ظلت خلال يومين بادية التململ • الا انها لم تلبث أن اعتادت على ذلك •

وانقضى شهر . كنت أتعذب فى سرى . ويجب أن أذكر أننا ، أنا وكاتيا ، لم نتبادل خلال هذه المدة كلها خمس كلمات ! . الا انني أدركت شيئا فشيئا ، من بعض القرائن الصغيرة ، ان سلوك كاتيا نحوى لا يمليه عليها أنها نسيتنى أو انها لا تحفل بأمرى ، وانما يمليه عليها قرار ارادى ، كأنما هى آلت على نفسها أن لا تدعني أتجاوز بعض الحدود ، ومع ذلك بلغت من العذاب أننى أصبحت لا أستطيع أن أنام ، وأصبحت لا أستطيع أن أخفى انفعالى حتى عن مدام ليوتار . أصبح حبى لكاتيا مرضا ! .. اذكر اننى ذات مرة سرقت أحد مناديلها خلسة ، وفى مرة أخرى سرقت أحد أشرطة شعرها ، وقضيت ليالى برمتها أقبلهما باكية !

الفصل السادس

كان اعراض كاتيا عنى فى أول الامر قد أرهفنى ، الا ان كل شىء قد اختلط الآن فى أعماق نفسى ، حتى صرت لا أعرف ما أسعر به • وهكذا أخذت مشاعرى الجديدة تمحو مشاعرى القديمة ، وأصبحت ذكرى ماضى الحزين تفقد من قوتها ومن ألمها ، لتحل محلها آلام حياتى الجديدة •

كان يتفق لى أن أستيقظ فى الليل ، فانهض من سريرى ، وأقترب من سرير الاميرة الصغيرة على رءوس الاصابع ، ثم أظل الى جانب سريرها ساعات طويلة أنظر اليها على ضوء المصباح الشاحب • وكنت فى بعض الأحيان أجلس على حافة سريرها ، وأنحنى على وجهها أتنسم أنفاسها الدافئة • وفى رفق ، وأنا أرتعد خوفا ، أقبل يديها ، وكتفيها ، وشعرها ، وقدميها ــ حين تبرز قدماها من تحت الغطاء ــ ولاحظت شيئا فشيئا (وكان نظرى لا يفارقها منذ شهر !) ان كاتيا تزداد وجوما ، يوما بعد يوم ، وان مزاجها يزداد تقلبا ساعة بعد ساعة ، فها هى اليوم تقضى النهار كله

لا يسمع لها صوت ، وهاهي في الغد تحدث صخبا أقوى من كل ماأحدثت قبل ذلك من صخب ! •• وهى الآن سريعة الاهتياج ، كثيرة المطالب ، تحمر وتغضب فى كل لحظة ، ولا يخلو سلوكها نحوى من شراسة وقسوة • وفجأة ، أصبحت ترفض أن تتناول الطعام معى ، وأن تجلس الى جانبى ، كأنما هى تشمئز منى !

ثم صار يتفق لها أن تمضى الى غرفة أمها تقضى معها النهار كله ، ربما لانها تشعر اننى أتحطم حزنا فى غيابها • وفجأة ، أصبحت تحدق فىّ ساعات طويلة ، فيصرعنى الاضطراب صرعا ، وأحمر وأصفر ، ثم لا أدرى ماذا أصنع بنفسى ، ولا أجرؤ أن أدع الغرفة •

وانتابت الحمّى كاتيا مرتين ، وهى التى لم تمرض قبل ذلك أبدا ! وأخيرا ، ذات صباح ، انتهت الى قرار لم يكن فى الحسبان : قررت كاتيا ، على حين غرة ، أن تقيم فى الطابق الاسفل مع أمها • وكادت امها تموت خوفا حين علمت أن ابنتها مريضة تنتابها الحمى • وينبغى أن أذكر أن الأم كانت حانقة علىّ ، فهى تعزو الىّ جميع التغيرات التى لاحظتها فى سلوك ابنتها ، وترى أن مزاجى الحزين الكئيب قد انعكس على مزاج ابنتها • ولئن لم تفصل احداهما عن الاخرى منذ زمان طويل فما ذلك الا تحاشيا لما قد يقوم بينها وبين زوجها من نقاش بهذا الصدد • كان زوجها يسايرها عادة فى كل أمر ، الا انه كان فى بعض الاحيان صلبا عنيدا لا سبيل الى صرفه عن رأيه •• وكانت الاميرة تفهم الامير حق الفهم •

وهكذا كان لانتقال كاتيا الى الطابق الاسفل مثل وقع الصاعقة على نفسى ، فقضيت أسبوعا كاملا فى لوعة مبرحة • وأخذت أحطم رأسى بحثا عن سبب الكره الذى تحمله كاتيا لى ! ••

كان الحزن يمزقنى تمزيقا ، ثم أخذت فكرة العدالة تذر قرنها فى نفسى الجريحة ، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستياء والاستنكار • وخالجنى

فجأة نوع من العزة • حتى اذا خرجت مع كاتيا في ساعة نزهتنا ، رأيتني أنظر اليها فى كبرياء وجد لم تعهدهما فى من قبل ، فأدهشها ذلك أشد الدهشة • طبيعى أن هذا التبدل لم يكن يظهر الا ليزول ، فسرعان ما كان قلبى يخفق خفقانا شديدا ، فاذا أنا أشد ضعفا وخجلا منى فى أى وقت مضى !

وأخيرا ، ذات صباح ، ظهرت كاتيا فى الطابق الأعلى ، فأذهلنى ظهورها هذا ، وأشاع فى نفسى اضطرابا فرحا • انها تسرع الى التعلق برقبه مدام ليوتار ، وهى تضحك ضحكا صاخبا ، وتنبئها بأنها عائدة الينا • ثم ترجوها أن تعفيها من الدراسة فى هذا الصباح ، وتنطلق تركض وتلعب •• لم أرها يوما فى مثل هذا الفرح والمرح •

غير أنها هدأت في المساء ، فاذا هي واجمة تفكر ، ثم اذا بالحزن يلقى ظله على وجهها الجميل • وحين صعدت الاميرة تريد أن تراها ، لاحظت أن كاتيا تحاول جهدها أن تظهر مرحة • وما ان مضت أمها ، حتى انفجرت باكية • وتأثرت أنا بمنظرها تأثرا شديدا ، واذ لاحظت كاتيا تأثرى ، انصرفت • ان آزمة لم تكن فى الحسبان تتهيأ فى نفسها • واستدعت الاميرة الطبيب ، وطلبت الى مدام ليوتار أن توافيها بتقرير يومى عن كل ما يتصل بابنتها تفصيلا • وأمرت بأن تراقب كاتيا مراقبة دقيقة !

لكنى كنت أنا وحدى التى أوجست الحقيقة ، وقلبى ينبض أملا ورجاء • ان روايتنا الصغيرة تشارف على نهايتها •• فبعد ثلاثة أيام من عودة كاتيا الى جناحها ، رأيتها تنظر الى طويلا بعينيها الرائعتين • والتقى بصرى ببصرها عدة مرات ، فكنا فى كل مرة نحمر خجلا ، كأن كلاً منا يشعر بأنه مذنب فى حق الآخر • وأخيرا انصرفت كاتيا ، وهى تضحك •

ودقت الساعة الثالثة ، وألبسونا ثياب النزهة ، فاذا بكاتيا تقترب مني فجأة وتقول :

ــ لم يُربط حذاؤك جيدا • دعيني أربطه ••

فاحمر وجهي احمرارا شديدا ، لأن كاتيا كلمتني أخيرا ، وأردت ان أنحني لأتولى ربط حذائي بنفسي ، فقالت كاتيا وهي تضحك :

ــ دعيني أربطه ••

ثم انحنت ، وأمسكت قدمي رغما عني، فوضعتهما على ركبتها وأخذت تربط الحذاء •• فاجتاحني خوف عذب ، جعلني ألهث ، ولا أستطيع لانفعالي حبسا •• فلما نهضت كاتيا بعد أن فرغت من ربط الحذاء ، أخذت تنظر الي من الرأس الى القدمين •

ثم قالت وهي تلمسني بأطراف أصابعها :

ــ والعنق غير مغطى • دعيني أصلح ربط الوشاح ••

ولم أحتج ، فحلت كاتيا وشاحي ، ثم لفت به عنقي على طريقتها ، واعادت ربطه •• ولم تلبث أن استطردت :

ــ والا فقد تصابين بزكام •

قالت ذلك وهي تبتسم ، وتنظر الي بعينين سوداوين مغرورقتين •

أما أنا فكنت في حالة اضطراب شديد ، لا أفهم شيئا مما يقع لي ، ولا أفهم شيئا مما يجيش في نفس كاتيا • وكانت نزهتنا قصيرة لحسن الحظ ، والا لما استطعت أن أمنع نفسي عن الارتماء على عنقها وتقبيلها في عرض الشارع ! •• واستطعت مع ذلك ، ونحن نصعد السلم ، أن أختلس قبلة على كتفها • ولاحظت هي ذلك فارتعشت ، الا انها لم تقل شيئا • ولما أتى المساء ألبسوها أجمل حلة • وأنزلوها الى جناح الاميرة أمها ، لتشترك في استقبال الزائرين •

غير أن البيت انقلب رأسا على عقب أثناء الاستقبال • ذلك أن نوبة عصبيه ألمت بكاتيا ، فاضطربت الاميرة اضطرابا شـــديدا ، واستدعت الطبيب • وظهرت على الطبيب علائم الحيرة والارتباك ، وأرجع هـــذه النوبه ، طبعا ، الى اضطراب السن ، الا انني كنت أعلم أن حالة كاتيـا ترجع الى سبب آخر • وعادت كاتيا فى صباح اليوم التالى الى طبيعتهـا ، متورده الخدين ، مرحه المزاج ، تفيض صحه ونشاطا ونزوات •

ورفضت كاتيا طوال فترة الصباح أن تطيع مدام ليوتار ، ثم أرادت فجأة أن تزور الاميرة العجوز • ووافقت الاميرة العجوز أن تأتي اليهـا كاتيا ، على خلاف عادتهـا ــ فقد كانت العجـوز لا تطيق كاتيا ، وكانت تشاجرها بلا انقطاع وترفض أن تراها ! ــ وبدا الانسجام بين العجـوز وكاتيا على أحسن ما يرام ، خلال الساعه الاولى من لقائهما ، فان الشيطانة الصغيرة أخذت تستغفر العجوز عن أخطائها ، عن كثرة حركتها وصخبها، عن تعـكيرها صفاء الآنســة عمتها • فترقرقت الدموع فى عينى الاميرة العجوز ، وغفرت لها أخطاءها فى لهجة رصينه ووقورة • ومضت كاتيـا الى أبعد من هذا (وكانت تعتز بشقاوتها) فزعمت للعجوز أنها نادمة على خطاياها ، تريد أن تصـلى وأن تصـــوم وأن تضرع الى الله • فارتاحت الاميرة التقية لهـذه التوبة ، وشعرت فى أعماقها بكثير من الزهو • لقـد استطاعت أن تسيطر على هذه الطفلة التى هى كنز البيت ومعبودته ، هذه الطفلة التى كانت أمها نفســـها ترضخ لجـميع نزواتهـا وتحقق كل رغباتها !

عندئذ اعترفت الشيطانة الخبيثة أنها كانت تنوى أن تعلق بطاقة على ثوب السيدة العجوز ، وأن تسكن الكلب « فالستاف » تحت سريرها ، وأن تكسر لها نظاراتها ، وأن تأخذ جميـع كتبها لتضـع فى مكانهـا روايات

فرنسية من مكتبة أمها ، وأن تشترى متفجرات ترميها على أرض غرفتها، وان تدس فى جيبها مجموعة من ورق اللعب •• اعترفت بأنها كانت تنوى القيام بسلسلة من الاعمال الخبيثة • فما ان سمعت الانسة العجوز هذا الكلام حتى خرجت عن طورها ، واصفرت واحمرت سخطا وغضبا، ولم تستطع كاتيا أن تمتنع عن اظهار فرحها ، فهربت وهى تنفجر ضاحكة• ولم تلبث العجوز أن استدعت ابنة أخيها على الفور • وكانت قصة • ظلت الاميرة ، خلال ساعتين ، تتوسل الى عمنها ، والدموع فى عينيها ، أن تصفح عن كاتيا ، وأن لا تأمر بمعاقبتها ، وأن تنظر بعين الاعتبار الى أن الطفلة مريضة • غير أن الاميرة العجوز لم تشأ فى أول الامر أن تسمع شيئا ، وصرحت أنها ستغادر البيت فى الغداة ، ولم تهدأ الا حين قطعت الاميرة عهدا على نفسها أن تنزل بكاتيا العقاب الشديد الذى تستحقه ، متى ابلت من مرضها • وفى انتظار ذلك أُنبت كاتيا تأنيبا شديدا ، واقتيدت الى تحت ، الى جناح أمها • غير أن المذنبة الصغيرة استطاعت أن تفر بعد العشاء • فقد لقيتها على السلم بينما كنت أهبط ، ورأيتها تشق الباب ، وتدعو « فالستاف » • ففهمت على الفور أنها تدبر انتقاما فظيعا • واليكم التفاصيل :

لم يكن للاميرة العجوز من عدو ألد من « فالستاف » • وكان فالستاف لا يسمح لأحد بمداعبته ، ولا يحب أحدا • انه حيوان مغرور صلف الى أبعد حدود الغرور والصلف • كان اذن لا يحب أحدا ، ولكنه كان يقتضى الجميع احتراما يراه من حقه • والواقع ان كل من فى البيت كان يوفيه حقه هذا من الاحترام ، خوفا ورهبة • ولكن الوضع اختلف كل الاختلاف حين وصلت الاميرة العجوز • لقد أهين فالستاف عندئذ أفظع اهانة ، اذ منع من الوصول الى الجناح الأعلى !

وغضب فالستاف فى أول الامر غضبا شديدا ، وظل أسبوعا كاملا

يخدش باب السلم المؤدى الى مدخل الجناح الأعلى ، الا انه لم يلبث أن فهم سبب افصائه ، حتى اذا جاء يوم الاحد ، ورأى العجوز خارجة الى الكنيسة ، هجم عليها وهو يهمهم ويعوى ، ولم يمكن تخليصها من انتقامه الا بشق الأنفس • وأصبحوا لا يمنعونه منعا باتا من الصعود الى الجناح الأعلى فحسب ، بل أصبحوا كلما نزلت الاميرة العجوز يقصونه الى أبعد مكان ممكن • لقد صدرت للخدم أوامر قاسية بهذا الصدد • ومع ذلك استطاع الحيوان الحاقد الحانق أن يصعد الى الجناح الاعلى ثلاث مرات، وكان فى كل مرة يعدو خلال الحجرات انسلالا حتى يصل الى مخدع الاميرة العجوز ، دون أن يقدر أحد على وقفه ، الا أن الباب يكون مغلقا لحسن الحظ ، فما يستطيع فالستاف أن يزيد على الزئير وراءه زئيرا مرعبا، الى أن يسارع الخدم فينزلوه الى أسفل • أما الاميرة العجوز فكانت ، طوال زيارته الوقحة ، تصرخ صراخ من يسلخ جلده ، ثم تقع مريضة من شدة الذعر • وأرسلت العجوز عدة مرات انذارا الى ابنة أخيها تقول فيه ان هذه هى المرة الاخيرة ، وان على فالستاف أن يخرج من البيت أو تخرج هى منه ، الا أن الاميرة لم تقرر أن تنفصل عن كلبها •

ذلك أن فالستاف كان أحب سكان البيت الى قلب الاميرة بعد أبنائها، واليكم السبب :

ذات يوم ، منذ ست سنين ، جاء الامير الى البيت ، فى عودته من نزهته ، بكلب قذر مريض يرثى لحاله ، وان كان ينتمى الى فصيلة ممتازة من فصائل الكلاب • لقد أنقذ الامير هذا الكلب من الموت • ولما كان القادم الجديد شرس الطبع فظا ، فقد أمرت الاميرة بأن يربط فى فناء المنزل • ولم يعترض الامير على ذلك ••

وبعد سنتين ، بينما كانت الاسرة كلها فى الريف ، سقط «ساشا»

ـ أخو كاتيا ـ فى نهر (نيفا) على حين غرة • فاخذت الاميرة تصرخ ، ورمت بنفسها فى النهر • ولم ينقذوها من موت عاجل محقق الا بعد كبير من العناء • أما الطفل ، وقد جرفه تيار النهر السريع ، ففد ظل عائما على سطح الماء بفضل ثيابه الطافية • وأسرعوا الى قارب ففكوه محاولين أن يمضوا به الى الطفل • ولكن كان لا بد من معجزة للعودة بالطفل حيا •• وفيما هم كذلك اذا بكلب ضخم يرتمي فى الماء ، ويمضى قدما نحو الامير الصغير الذى يوشك أن يغرق ، فيقبض عليه بأسنانه ، ويعدو به الى الشاطىء ظافرا • وترتمى الاميرة على الكلب المبلل تقبله ، الا أن فالستاف (وكانوا يطلقون عليه حتى ذلك الحين اسما شعبيا هو «فريسكا») كان فى ذلك الحين لا يطيق المداعبات ، فرد على مداعبات الاميرة وعلى قبلاتها بعضة فى كتفها عميقة جدا • وقد ظلت الاميرة تحس هـذا الجرح خلال حياتها كلها ، الا ان ذلك لم يقلل من شعورها نحو الكلب بعواطف الشكر والامتنان • وبعد هذه الحادثة أصبح يسمح لفالستاف بالتجول فى أجنحة المنزل ، ويعتنى بنظافته ويزين جيده بعقد من فضة جميل • وصار يحق له أن يستقر فى حجرة الاميره على جلد فاخر من جلود الدببة ، وما لبثت الاميرة أن توصلت الى مداعبته دون أن تخشى عضه سريعة قاسية ، وحين علمت أن أثيرها هذا يدعى «فريسكا» استاءت استياء شديدا وبحثت له ، فورا ، عن اسم جديد ، حرصت على أن يكون من أسماء الاقدمين ، ما أمكن ذلك • الا أن أسماء مثل اسم « هكتور » أو « سربير » كانت شائعة مبتذلة ، وكان لا بد من ايجاد اسم أليق • واقترح الامير أخيرا ، لما يتصف به فريسكا من شراهة قوية ، أن يسميه «فالستاف» • وسرت الاميرة بهذا الاسم بل تحمست له • وكان سلوك فالستاف سلوكا لا غبار عليه • كان صامتا وقورا كانجليزى حقيقى ، لا يتقدم أول المتقدمين أبدا ، ولا يطلب من الجميع الا أن يخلوا له مكانه

على جلد الدب ، وأن يحيطوه بالاحترام اللازم • وكأن ذكريات كانت توافيه فى بعض الأحيان ، فيتملكه نوع من الكآبة : كان فى تلك اللحظات يفكر فى الثأر من عدوته اللدود التى جرؤت أن تفتئت على حقوقه ، ولم يستطع أن ينتقم منها حتى الآن •• فكان اذا ألفى الباب مغلقا ، فبع فى ركن قريب ينتظر ـ مختالا ـ مجىء أحد يدع الباب من ذهوله مشقوقا • وأحيانا كان هذا الحيوان الماكر يظل ينتظر هكذا ثلاثة أيام طوالا !

ـ فالستاف ، فالستاف •

هكذا نادته الاميرة الصغيرة « كاتيا » وقد فتحت الباب وأشارت اليه ، فى رقة ولطف ، أن يتبعنا على السلم •

وكان فالستاف قد شعر بأن الباب يفتح ، فتهيأ لاجتياز العتبة • غير أن نداء الاميرة الصغيرة بدا له من الغرابة بحيث أنه رفض فى أول الامر أن يصدق أذنيه • انه ماكر كالهرة : فلكى لا يظهر انه لاحظ ترك الباب مفتوحا ، مضى الى النافذة ، ووضع قائمتيه الجبارتين على حافتها ، وجعل يتأمل البيت المقابل ، كما يفعل شخص غريب يتوقف أثناء نزهة ليتأمل جمال عمارة قريبة •

كان الترفب يملأ قلبه بشرا ورجاء • تصوروا اذن أية دهشة كبيرة ، وأى فرح طافح ، وأية حماسة شديدة لا بد أنه شعر بها حين لم يفتح الباب فحسب ، بل نودى عليه ودُعى الى الدخول ، بل ضُرع اليه أن يصعد ويأخذ ثأره المشروع على الفور !

زأر فالستاف زئير الفرح ، وشمر شفتيه ، ثم مرق كالسهم بوثبة رهيبة ظافرة •

وكانت وثبته من القوة بحيث قلبت كرسيا اعترض فالستاف فى

طريقه ، فطار الكرسي حتى وقع على بعد مترين من مكانه ، بعد أن دار كما يدور الخذروف • كان فالستاف يمرق مروق قنبلة خرجت من مدفع • وصرخت مدام لوتار مذعورة ، الا أن فالستاف كان قد بلغ الباب الحرام ، وأخذ يضربه بقدميه • ولم يستطع أن يفتحه ، فجعل يعول عويلا يهز أركان البيت ، وسرعان ما أجابته العجوز بعويل كعويله • ولكن فرق الانقاذ ما لبثت أن تقاطرت من كل صوب ، اذ سارع الخدم جميعا الى فوق ، واستطاعوا أن يلقوا على فكّي الكلب كمامة ، وأن يكبلوا قوائمه الاربع ، وأن يربطوا طوقه بحبل ، فاضطر فالستاف ، فالستاف الرهيب ، أن يترك ساحة المعركة ، وأن يعود الى أسفل ، على حال من الهوان يرثى لها •

واستدعيت الاميرة •

ولم تكن المسألة فى هذه المرة مسألة تعلل أو اعتذار • ولكن من ذا الذى يجب أن يعاقب ؟ فهمت الاميرة حقيقة الامر من أول نظرة ألقتها على ابنتها • لا مجال للشك • ورأيت كاتيا ممتقعة اللون ترتعد خوفا • فى تلك اللحظة أدركت الصغيرة المسكينة هول مزحتها • كان يمكن أن تقع الشبهات على الخدم ، على أبرياء ، ولكن كاتيا كانت على استعداد لأن تعترف بالحقيقة كلها •

سألتها أمها فى صرامة :

ـ هل أنت الفاعلة ؟

ونظرت الى كاتيا فهالتنى صفرتها ، فما رأيتنى الا وأنا أتقدم الى أمام ، وأقول بصوت جازم :

ـ أنا التى تركت « فالستاف » يمر !

ثم أضفت ، وقد تبددت شجاعتى بتأثير النظرة المتوعدة التى ألقتها علىّ الأميرة :

ـ ولكنى لم أفعل ذلك عن عمد ..

فاتجهت الاميرة الى مدام ليوتار ، وأمرتها قائلة :

ـ مدام ليوتار ، انزلى بها العقاب الشديد الذى تستحقه !

ثم تركت الغرفة .

نظرت الىّ كاتيا . كانت واقفة كأنها متجمدة ، وقد أسبلت ذراعيها، وأحنت رأسها الشاحب .

كانت العقوبه الوحيدة التى تنزل باولاد الامير هى أن يحبسوا فى غرفة خالية . ولم يكن البقاء فى مثل هذه الغرفة ساعتين بأمر ذى بال ، فى ذاته . ولكن حين يوضع الطفل فيها برغم ارادته ، وحين يقال له ، زيادة على ذلك ، انه سجين محروم من الحرية ، فالعقاب عندئذ لا يخلو من شدة . اذن فقد جرت العادة أن تحبس كاتيا أو أن يحبس أخوها خلال ساعتين . أما أنا فقد جُعلت عقوبتى أربع ساعات ، لمداحه ذنبى !

لكنى دخلت الى السجن فرحه مسرورة . كنت أفكر فى الاميرة الصغيرة ، واعلم ان النصر لى ، ولكننى بدلا من أن أبقى أربع ساعات ، بقيت حتى الساعة الرابعة من الصباح . واليكم السبب :

بعد دخولى السجن بساعتين علمت مدام ليوتار أن ابنتها مرضت فجأة لدى وصولها من موسكو ، وأنها تريد أن تراها . فتركت البيت دون أن تفطن الى وجودى فى السجن . وظنت الوصيفة التى كانت تهتم بأمرنا أنه قد أُطلق سراحي ، كما أن كاتيا استدعيت الى أسفل ، وظلت

الى جانب أمها حتى الساعة الحادية عشرة مساء • وذهبت كاتيا حين عادت فوجدت سريرى خاليا • وجردتها الوصيفة من ثيابها واضجعتها فى سريرها ، ولم تشا الاميرة الصغيرة ان تسأل عنى ، وكانت واثقة على كل حال من أن خادمتنا « ناستيا » ستعيدنى متى انتهت ساعاتى الاربع فى السجن • الا ناستيا كانت قد نسيتنى ، لا سيما وأننى أتولى خلع ملابسى دائما بنفسى • وهكذا قضى على أن أقضى الليل فى السجن !

وفى الساعة الرابعة من الصباح سمعت قرعا على الباب ، ولاحظت أنهم يحاولون فتحه عنوة • كنت نائمه على ارض العرفه ، فصرخت جزعه ، الا اننى لم ألبث أن سمعت صوت كاتيا ، وكان يعلو جميع الاصوات ، ثم سمعت صوت مدام ليوتار ، فصوت ناستيا مذعورة ، ثم أصواتا أخرى • وفتح الباب أخيرا ، ورأيت مدام ليوتار تبكى ، ثم تقبلنى ، وتطلب الىّ ان اغفر لها أنها نسيتنى ، فالقيت ذراعى على عنقها باكيه ، وكنت أرتجف من البرد بعد أن قضيت هذا الوقت كله نائمة على الارض ، وشعرت بألم ينفذ الى عظامى • ونظرت أبحث عن كاتيا ، الا انها كانت قد هربت الى غرفتها وقفزت الى سريرها • وحين عدت الى الغرفة كانت قد نامت أو تظاهرت بالنوم • لقد غفت فى المساء بالرغم منها وهى تنتظرنى ، ولم تستيقظ الا فى الساعة الرابعة من الصباح ، فلما لم ترنى فى سريرى جُنّ جنونها فأيقظت مدام ليوتار التى عادت الى البيت فى ساعة متأخرة ، وأيقظت الخادمة ، والوصيفات ، لاطلاق سراحى •

وفى الضحى كان جميع من فى البيت يعرف أمر حبسى ، حتى أن الاميرة نفسها وجدت أن العقوبة قد تجاوزت الحدود • أما الامير فقد رأيته ، لأول مرة فى حياتى ، غاضبا : فقد صعد فى نحو الساعة العاشرة وهو أشد ما يكون اهتياجا ، وتوجه الى مدام ليوتار صارخا :

ـ ماذا صنعت ؟ كيف عاملت هـذه الصغيره البائسه ؟ هـذا عمل وحشى ، هذا عمل غير انسانى . طفله ضعيفه مريضه ، خياليه الى هـذا الحد ، جزعة الى هذا الحد ، تحبسيها فى غرفه مظلمه طوال الليل كله ! أتريدين اذن قتلها ! هذه وحشية هائلة ، هذه قسوة فظيعة ، أقول لك هذا بلا مواربة ، وكيف تسمحون لانفسكم بانزال مثل هـذه العقوبه ؟ من ذا الذى جرؤ على اختراع هذه العقوبة ؟ من ؟

وحاولت مدام ليوتار المسكينه ـ وقد أخذ الاضطراب منها مأخذه ، وفاضت عيناها بالدموع ـ أن تشرح القضـية من أولها الى آخـرها ، فاعترفت انها نسيتنى بسبب وصول ابنتها من موسكو ، ثم قالت ان هـذه العقوبة حسنة فى حد ذاتها ، اذا لم تدم طويلا ، لأن جان جاك روسـو نفسه قد دعا الى شىء من هذا القبيل .

ـ جان جاك روسو ؟ .. جان جاك روسو لم يقبل شيئا من هذا . وجان جاك روسو ليس حجة ، يا سيدتى . جان جاك روسو لا يحق له أن يتكلم فى التربية ، كلا ، لا يحق له . جان جاك روسو أهمل أبنـاءه أنفسهم ، يا سيدتى . جان جاك روسو حقير ، يا سيدتى .

ـ جان جاك ، جان جاك حقير ! ماذا تقول يا سيدى الامير ؟

واحمر وجه مدام ليوتار حتى صار بلون الدم .

كانت مدام ليـوتار امرأة طيبـة ممتـازة ، تكره أن تغضب أكثر ما تكره . ولكن حين يُمسُّ أحد الأثيرين الى قلبها بسوء ، حين يطعن أحد فى « كورنى » أو « راسين » ، حين يقدح أحد فى « فولتير » ، أو حين يُعدّ « جان جاك روسو » حقيرا ، فان الكيل عندئذ يطفح !

وتفجرت الدموع من عيني مدام ليوتار سخينة سخيه ، وأخذت ترتجف من شدة الانفعال •

ثم قالت وقد عجزت عن كبح استيائها :

ـ انك تنسى نفسك ، يا سيدى الامير •

وسرعان ما توقف الامير عن الكلام ، ثم اعتذر لمدام ليوتار ، واقترب منى فقبلنى قبلة تفيض بحنان عميق ، وحرك يده باشارة الصليب ، ثم انصرف •

ـ مسكين أيها الامير !

قالت مدام ليوتار ذلك ، وهى أشد ما تكون تأثرا • ثم جلسنا الى الدرس •

الا أن الاميرة الصغيرة كانت تدرس بغير حماسة • وقبيل الذهاب الى المائدة بلحظة واحدة ، جاءت الىّ وقد امتلأت نفسها حمية وارتسمت على ثغرها ابتسامة ، فأمسكتنى من كتفى ، وقالت بلهجة متعجلة ، خجلى بعض الشىء :

ـ اذن فأنت قد تحملت العقاب من أجلى ؟ اسمعى • سنلعب بعد العشاء فى القاعة الكبيرة •

ومر شخص بجانبنا ، فابتعدت الاميرة الصغيرة مسرعة •

•••

وبعد العشاء ، عند الغسق ، نزلنا معا الى القاعة الكبرى ، وقد أمسكت كل منا بيد الاخرى • كانت الاميرة تعانى انفعالا بلغ من العمق

انها بدت تغص بأنفاسها • وشعرت أنا بفرح وسعادة يندر أن أشعر بمثلهما •

فلما وصلنا الى القاعة قالت :

ـ هل تحبين أن تلعبى بالكرة ؟ قفى هنا •

وأوقفتنى فى احدى زوايا الصالة • الا انها بدلا من أن تبتعد ، وترمى الىّ بالكرة ، توقفت على بعد ثلاث خطوات منى ، ونظرت الىّ ، فاحمر وجهى ، ثم اندفعت نحو الديوان فجلست عليه جاعلة وجهها بين يديها • وتحركت نحوها • فظنت اننى أهم أن أمضى فقالت :

ـ لا تذهبى يا نيتوتشكا • ابقى معى •

ثم ما لبثت أن وثبت من مكانها ، وقد احمر خدّاها ونرقرق الدمع فى عينيها ، فارتمت على عنقى مسرعة • كانت وجنتاها كالنار حرارة ، وكانت شفتاها كالخوخ حمرة وتورما ، وكانت خصلات شعرها مضطربة•• وأخذت تغمرنى بقبل محمومة مجنونة : على الوجه ، على العين ، على الشفتين ، على الخدين ، على اليدين • كانت تشهق وتنتحب كأنها فى نوبة عصبية • وضممتها الى صدرى ضما قويا ، ثم ظللنا متعانقتين فى حنان ، كصديقين ، بل كعشيقين يلتقيان بعد طول بعاد • وكان قلب كاتيا يخفق خفقانا شديدا ، حتى سمعت ضرباته •

وفيما نحن كذلك ، اذا بصوت يدوى فى الغرفة المجاورة • ان الاميرة أرسلت تستدعى كاتيا •

ـ آه ، نيتوتشكا • الى اللقاء فى هذا المساء ، فى هذه الليلة • اصعدى • انتظرينى فى الطابق الأعلى •

وقبلتني قبلة أخيرة ، عذبة قوية ، وخرجت تستجيب لنداء «ناستيا» •
صعدت مسرعه كمن بعث الى الحياة بعد موت • فارتميت على « الديوان » وأغرقت رأسي في وسادة ، وأخذت أسهق من شدة الفرح • كاد قلبي يشق صدري من شدة الخفقان • لا اتذكر الان كيف استطعت التذرع بالصبر الى الليل • وأخيرا دقت الساعه الحاديه عشرة ، واضطجعت في سريري •• ولم تعد كاتيا الا في منتصف الليل • فتبسمت لي من بعيد ، دون أن تنبس بكلمة ، وكانت ناستيا كأنها تتعمد البطء في تجريدها من ثيابها ، فدمدمت كاتيا تقول :

ـ عجلي ، يا ناستيا ، عجلي •

ـ ماذا بك ، يا أميرة ؟ ان قلبك يخفق خفقانا قويا • لا شك انك صعدت السلم عدوا •

ـ هوه ! ناستيا • انك تزعجينني • عجلي • قلت لك عجلي •

وضربت برجلها الارض مغتاظة •

قالت ناستيا وهي تقبل قدم الاميرة الصغيرة بعد أن جردتها من حذائها :

ـ هذا القلب الذي يخفق !

وانتهى أخيرا كل شيء : اضطجعت كاتيا على سريرها ، وخرجت ناستيا من الغرفة • وفي طرفة عين ، رأيت كاتيا تخرج من سريرها ، وتثب اليّ ، فما ان لمستني حتى انطلقت من صدري صرخة •

ـ هلمي • تعالي • تعالي الى سريري • أسرعي •

أمرتني بذلك وهي تنهضني • وما هي الا لحظة حتى كنا في

سريرها متعانقتين أضمها وتضمني ضما قويا • كانت قبلات كاتيا تخــرج من أعماق روحها •

قالت قد احمر وجهها حتى أصبح بلون الدم :

ـ هل تعلمين انني رأيتك حين قبلتني في الليل ؟

فطفقت أشهق • بينما همست كاتيا ، من خلال دموعها تقول :

ـ نيتوتشكا ، عزيزتي ، انني أحبك منذ زمان طويل ، هل تعلمين ؟ هل تريدين أن أقول لك منذ أي يوم ؟

ـ منذ أي يوم ؟

ـ منذ اليوم الذي أمرني فيه أبي أن أعتذر اليك •• منذ ذلك اليوم الذي أردت فيه أن تدافعي عن أبيك ، يا نيتوتشكا ••

وأردفت تقول وهي تغمرني بالقبل ، وتضحك في آن واحد :

ـ يتيمتي العزيزة ••

ـ كاتيا !

ـ ماذا ؟

ـ لماذا ظللنا طوال هذه المدة •• طوال هذه المدة ••

ولم أستطع أن أتم كلامي • وتعانقنا • وخيم الصمت ثلاث دقائق
ـ ما كان رأيك فيّ يا نيتوتشكا ؟

ـ آه ، يا كاتيا • كنت لا أفعل شيئا غير أن أفكر فيك ، ليل نهار •

ـ وكنت في الليل تتكلمين عني • سمعتك •

ـ مستحيل •

ـ بلى ! ما أكثر ما بكيت •

ـ اذن لماذا كنت قاسية كل هذه القسوة ؟

ـ كنت حمقاء ، يا نيتوتشكا • هذه الحماقة تتملكنى أحيانا • ولا أستطيع لها دفعا • كنت حاقدة عليك ، هذا كل ما فى الأمر •

ـ لماذا كنت حاقدة على ؟

ـ لا لسبب • لأننى شريرة • ثم لأنك أحسن منى • ثم لأن أبى يحبك كثيرا • ان أبى انسان طيب جدا ، ألا ترين معى هذا يا نيتوتشكا ؟

ـ أوه • بلى • بلى •

قلت ذلك ، وقد ترقرق الدمع فى عينى ، على ذكر الامير •

وأضافت كاتيا ، فى لهجة رصينة :

ـ انه انسان طيب جدا •• ثم اننى حين طلبت اليك الصفح ، كنت على وشك أن أبكى •• وبسبب هذا أيضا حقدت عليك •

ـ نعم • لاحظت ذلك • لاحظت أنك تودين لو تبكين •

فصرخت كاتيا وقد وضعت يدها على فمى :

ـ أسكتى • أنت نفسك تميلين للبكاء • اسمعى • آه • لقد أحببتك حبا قويا • ولكن ، فجأة ، رأيتنى أكرهك ، أكرهك كرها ، هل تسمعين ؟

ـ لماذا ؟

ـ لا لسبب • كنت حاقدة عليك ، لا أدرى لماذا ! ولاحظت انك لا تستطيعين أن تعيشى بدونى • قلت فى نفسى : فلأعذبها قليلا ••

ـ آه • كاتيا •

وأردفت كاتيا تقول ، وهى تقبل يدى :

ـ حبيبتى •• ثم قررت أن لا أكلمك أبدا • هل تذكرين يوم داعبت فالستاف ؟

ـ آه • لشد ما أخفتنى !

ـ ولشد ما خفت أنا أيضا • هل تعلمين لماذا أقدمت على مداعبته ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تنظرين الىّ • حين رأيت انك تنظرين الىّ •• قلت فى نفسى : ليكن ما يكون •• وجازفت •• ألم تخافى خوفا شديدا ؟

ـ خوفا فظيعا !

ـ لاحظت • لو تعلمين كم سررت حين انسحب فالستاف • رباه ! •• ولشد ما ارتعدت خوفا ، بعد ذلك ، حين ابتعد •• هذا الغول !

ثم انطلقت من صدر الاميرة الصغيرة ضحكة عصبية • وفجأة ، رفعت رأسها المحموم ، وأخذت تحدق فى • كانت دموع كاللؤلو ترتجف على حافة أهدابها الطويلة •

ـ ولكن علام أحبك كل هذا الحب ؟ انك شاحبة • وشعرك الزاهى قبيح • وأنت غبية •• وبكاءة • نعم يا يتيمتى الصغيرة العزيزة !

وعادت كاتيا تغرقنى بقبلاتها ، وسالت قطرات دموعها على عنقى • انها مضطربة أعمق الاضطراب •

ـ نعم أحببتك كثيرا • ولكننى قلت فى نفسى : كلا ، كلا ، ثم كلا• لن أصارحها • وأصررت على عنادى • لماذا كنت خائفة ؟ لماذا كنت خجلة ؟ آه ، هل ترين كم نحن سعيدتان الآن ؟

قلت فى غمرة من الفرح الطافح :

ـ اننى أشعر بألم فى كل موضع من جسمى • ان قلبى يوشك أن يتحطم !

ـ نيتوتشكا • اسمعى • نعم اسمعى • ولكن قولى : من أسماك نيتوتشكا ؟

ـ أمى •

ـ ستروين لى كل شىء عن أمك ، أليس كذلك ؟

فأجبت فى حماسة :

ـ نعم • كل شىء ، كل شىء •

ـ وأين المنديلان اللذان سرقتهما منى • وأين شريط شعرى ؟ لماذا أخذت شريطى ؟ ألا تخجلين ؟ اننى أعرف كل شىء ، هل ترين ؟

وأخذت أضحك ، واحمر وجهى حتى طفرت من عينى الدموع •

واستأنفت كاتيا كلامها :

ـ قلت فى نفسى • كلا • فلتنتظر • يجب أن أعذبها أولا • وكنت أقول لنفسى فى بعض الأحيان : كلا ، اننى لا أحبها ، لا أحبها أبدا ولا أطيق رؤيتها • وبقيت أنت لطيفة وديعة مثل حمل • آه ! لشد ما كنت

أخشى أن تعدينى بليدة ! ذلك أنك ذكية يانيتوتشكا ! أنت ذكية جدا ، أليس كذلك ؟

قلت ، وقد كادت كرامتى تجرح :

ـ لماذا تتكلمين هكذا ، يا كاتيا ؟

فأجابت كاتيا فى لهجة رصينة جازمة :

ـ بل أنت ذكية ، هذا أمر لا شك فيه . وفى ذات صباح ، استيقظت من نومى وأنا أشد ما أكون حبا ولوعه . لم أطق ذلك ، وكنت قد حلمت بك الليل كله . عندئذ قررت أن أمضى الى أمى أرجوها أن تقبلنى فى غرفتها . كنت أريد أن لا أحبك ، نعم ، كنت أريد أن لا أحبك . وفى الليلة التالية ، رأيتنى أقول لنفسى وقد اضطجعت فى سريرى : آه ... ليتها تأتى كما أتت فى تلك الليلة ! لقد عرفت كيف أتظاهر بالنوم فى تلك الليلة . أليس كذلك ؟ لكم يستطيع الانسان أن يكون خبيثا ، يا نيتوتشكا !

ـ ولماذا كنت تمنعين نفسك من حبى ؟

ـ لغير ما سبب . هى فكرة راودتنى . ولكن ماذا أقول ؟ لقد أحببتك يا نيتوتشكا ، أحببتك دائما . وكنت أقول لنفسى : سأخنقها بالقبل ، وسأظل أعضها وأقرصها حتى أفجر الدم من جسمها ، وسيسرها ذلك ، هذه الحمقاء الصغيرة !

وتوقفت قليلا ، ثم قالت :

ـ هل تذكرين ، يوم ربطت لك حذاءك ؟

ـ أذكر .

ـ كنت مسرورة جدا ، أليس كذلك ؟ نظرت يومئذ اليك ، وأنا أقول فى نفسى : ما ألطفها ! •• سأربط لها حذاءها ، لأرى ما وقع ذلك فى نفسها ! وكنت أنا فرحة • هل تذكرين ؟ واشتهيت لو أقبلك • ولكننى لم أقبلك • وما أكثر ما ضحكت فى سرى بعد ذلك ! ، نعم ، ما أكثر ما ضحكت فى سرى ! طوال النزهة لم أفعل شيئا غير أن أحبس نفسى عن الضحك ، حتى اننى لم أستطع أن أنظر اليك ! آه • وما كان أشد سرورى حين كنت فى السجن ! لشد ما أسعدنى أن أشعر انك فى السجن من أجلى • هل فزعت ؟

ـ فزعا فظيعا •

ـ لم يسعدنى انك اتهمت نفسك ، وانما أسعدنى انك فى السجن نيابة عنى • هل تفهمين ؟ قلت فى نفسى : انها تبكى بينما أحبها أنا كل هذا الحب ! غدا سأقبلها ، نعم سأقبلها كثيرا • والحق اننى لم أشفق عليك ، لم أشفق عليك أبدا ، أبدا • ومع ذلك فقد بكيت •

ـ اما انا فما بكيت • كنت سعيدة جدا !

ـ ما بكيت ؟ آه منك أيتها المفسدة الصغيرة !

قالت كاتيا ذلك وهى تقبلنى قبلة عنيفة •

ـ كاتيا ، كاتيا • انك لطيفة جدا •

ـ أليس كذلك ؟ نعم • والآن تستطيعين أن تصنعى بى ما تشائين• تستطيعين أن تعذبينى • أن تقرصينى • أرجوك • اقرصينى بقوة •

ـ عفريتة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ حمقاء صغيرة !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ قبلينى •

وتبادلنا القبل ، وبكينا ، وأخذنا نضحك •• وتورمت شفتانا من قوة القبل •

ـ نيتوتشكا ! ستنامين دائما معى • ثم ، هل تحبين القبل ؟ اذن أقبلك وتقبلينني • ثم انني لا أريد أن تكونى حزينة هكذا ! لم أنت حزينة ؟ ستقولين لى كل شيء ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، سأقول لك كل شيء • ولكنني لست حزينة الآن ، انني فرحه •

ـ كلا ، يجب أن تكون وجنتاك متوردتين ، مثلى ! آه • لا أحب أن يأتى الغد • هل أنت تعسة يا نيتوتشكا ؟

ـ كلا •

ـ اذن فلنتحدث • هيا نتحدث •

وتحدثنا ساعتين ، لا أدرى فيم تحدثنا ! شرحت لى كاتيا خططها للمستقبل ، وشرحت لى الوضع الحاضر • علمت أنها تحب أباها أكثر من أى انسان آخر ، أكثر مما تحبني تقريبا • واتفقنا كلتانا على ان مدام ليوتار امرأة طيبة ممتازة ، غير قاسية البتة • ثم تخيلنا ما سنفعله غدا ، وما سنفعله بعد غد ، بل رسمنا برنامجا يمتد الى عشرين سنة ، على أقل تقدير ! •• وارتأت كاتيا أن تجرى الامور هكذا : يوما تأمر وأطيع ،

ويوما امر وتطيع ، ويوما نامر كلتانا وتتعمد احدانا ان لا تطيع فنتظاهر بالمخاصمة ثم نسارع الى المصالحة • الخلاصة : ان سعادة كبرى انفتح طريقها امامنا • واخذ منا التعب مأخذه ، من فرط ما ثرثرنا ، واطبقت أجفاننا • ونامت كاتيا قبلى ، مع انها هزئت بى لأننى كنت أتثاءب • وفى الصباح استيقظنا فى وقت واحد ، فتبادلنا قبلة على عجل ، لأننا سمعنا وقع خطوات تقترب من الباب ، وسارعت الى سريرى •

وطوال النهار كنا من شدة الفرح كمن طاش عقله • وحرصنا على أن نختبىء دائما فى أقصى مكان ممكن خشيه أن يرانا أحد • وبدأت اخيرا اروى لكاتيا قصتى ، فكانت تصغى الىّ مضطربة الى حد البكاء •

ــ لماذا لم تقصى علىّ كل هذا من قبل ، ايتها الخبيثة ؟ لو قد قصصته علىّ لكنت أحببتك ، لكنت أحببتك كثيرا ! أكان يعذبك كثيرا هؤلاء الصبية الذين كانوا يضربونك فى الشارع ؟

ــ جدا • وكنت أخاف ، أكاد أموت من الخوف !

ــ آه ، من هؤلاء الاشقياء ! رأيت مرة فى الشارع صبيا يضرب صبيا آخر • غدا سآخذ سوط فالستاف خفية ، وأمضى الى الشارع ، فاذا رأيت صبيا من هذا النوع ، جلدته ، جلدته جلدا • سترين !

والتهبت عيناها حنقا وسخطا ••

كنا نرتجف اذا دخل علينا أحد ، كنا نرتعد خوفا من أن يباغتونا متعانقتين • وتعانقنا فى ذلك اليوم مائة مرة على أقل تقدير • هكذا انقضى اليوم الاول ،فاليوم التالى •

الا ان سعادتنا لم تدم طويلا !

كان على مدام ليوتار أن تنقل الى الاميرة كل حركة من حركات ابنتها وكل سكنة من سكناتها ، فراقبتنا خلال ثلاثه ايام ، وجمعت فى هذه المدة كثيرا مما يمكن أن يقال . واخيرا ذهبت الى الاميرة ، وقصت عليها كل ما لاحظته : ذكرت لها اننا فى نشوة عظيمه ، اننا لا نفترق لحظة من اللحظات ، اننا نتعانق فى كل دقيقة ، أو نبكى ، أو نضحك كالمجانين ، اننا لا ننقطع عن الحديث لحظه ، وهذا امر لم يقع قط من قبل .. وأنها لاتعرف كيف تعلل هذه الامور ، وان أغلب الظن عندها ان الأميرةالصغيرة تعانى أزمة مرضية ، وان من الافضل على كل حال أن لا نلتقى كثيرا .

وقالت الاميرة :

ـ اننى أفكر فى هذا منذ زمان طويل . كنت أعرف أن هذه اليتيمه العجيبة ستسبب لنا كثيرا من المتاعب . ان ما قصوه علىَّ عن حياتها أمر فظيع ، فظيع جدا . ولا شك انها تؤثر فى كاتيا تأثيرا سيئا . تقولين ان كاتيا تحبها كثيرا ؟

ـ حبا لا يعرف الحدود !

واحمرت الاميرة من الغيظ . ان هذه العاطفة التى تشعر بها ابنتها نحوى تثير غيرتها !

وقالت الاميرة متعجبة :

ـ عجيب . لقد ظلتا غريبتين احداهما عن الاخرى مدة طويلة ، ويجب أن أعترف بأن ذلك قد سرنى كثيرا . ان هذه اليتيمة ما زالت صغيرة ، غير أنها لا توحى الىَّ بالثقة . هل تفهمين ؟ لقد رضعت مع الحليب تربية خاصة ، وعادات خاصة ، ولعلها رضعت كذلك سلوكا

مشبوها • لا أفهم تعلق الامير بها • لقد حاولت ألف مرة أن أرسلها الى مدرسة داخلية ، فكان الامير يرفض ذلك •

وودت مدام ليوتار لو تتشفع لى ، لكن الاميرة كانت قد عزمت على التفريق بيننا عزما لا يتزعزع •• فما لبثت أن استدعت كاتيا ، وأبلغتها أنها لن ترانى قبل يوم الاحد القادم ، أى قبل انقضاء أسبوع كامل !

وقد بلغنى ذلك متأخرا ، فى المساء ، فصعقت للنبأ ، واعتقدت أن كاتيا لن تتحمل هذه القطيعة أبدا ، وبلغ منى القلق المبرح اننى مرضت أثناء الليل • وجاءنى الامير فى الصباح يهمس فى أذنى أن لا أقطع الرجاء ، وكان قد حاول فعلا أن يثنى الاميرة عن عزمها ، الا انه لم يظفر بطائل ، فان الاميرة لم تتزحزح عن رأيها قيد شعرة ، واجتاحنى اليأس شيئا فشيئا حتى خنق أنفاسى ••

وفى صباح اليوم الثالث جاءتنى ناستيا بكلمة كتبتها كاتيا بالقلم الرصاص بأحرف كبيرة ركيكة :

« أحبك كثيرا • اننى أبقى الى جانب ماما ، ولكننى لا أفكر الا فى شىء واحد ، هو أن أهرب اليك ، وسأتوصل الى ذلك • أعدك وعدا قاطعا • يجب اذن ألا تبكى • أكتبى الىّ انك تحبيننى • ظللت طوال الليل أحلم بك وأقبلك • لقد تألمت كثيرا ، يانيتوتشكا • أرسل اليك بعض الحلوى • الى اللقاء • • »

وأجبت على رسالة كاتيا برسالة من نوعها • وظللت طوال النهار أغرق رسالتها بالدموع • وألحت مدام ليوتار فى مواساتى • وبلغنى فى المساء انها ذهبت تقول للامير انها نادمة على الوشاية بنا للاميرة ، واننى سأمرض مرة ثالثة ، ما فى ذلك ريب ، اذا أنا لم أر كاتيا •• وسألت

ناستيا عن كاتيا ، فذكرت لى ان الاميرة الصغيرة لا تبكى ، ولكنها شاحبة شحوبا رهيبا .

وجاءتنى ناستيا فى صباح اليوم التالى تهمس فى أذنى :

ـ اصعدى الى حجرة سعادة الامير ، على السلم الايمن .

شعرت أن سعادة تنتظرنى ، فانتعشت روحى ، وأسرعت أعدو على السلم لاهثة ، حتى بلغت باب حجرة الامير ، ففتحته . لم تكن كاتيا هنالك . ولكن سرعان ما شعرت بها تعانقنى من خلف ، وتأخذ تقبلنى فى عنف وحرارة . وكانت ضحكات ، وكانت دموع .. ثم اذا بكاتيا تنتزع نفسها منى فجأة ، وتتجه الى أبيها تتسلق كتفيه ، ثم تفقد توازنها فتتدحرج على « الديوان » هى وأبوها . كانت كاتيا تبكى من شدة الفرح.

ـ أبت . أبت . كم أنت طيب ! كم أنت نبيل !

ـ أيتها الشيطانتان الصغيرتان ! ماذا حل بكما ؟ ما هذه الصداقة ؟ ما هذا الحب ؟

ـ اسكت يا أبت . انك لا تعرف شيئا من هذا !

وغرقنا فى القبل مرة اخرى .

وتفرست عندئذ فى كاتيا : لقد نحلت فى هذه المدة : ذهبت ألوان وجهها فى هذه الايام الثلاثه ، وأصبحت شاحبه . وحزنت لهذا حتى بكيت .

وأخيرا جاءت ناستيا تقرع الباب ، وكان معنى ذلك أنهم يستدعون كاتيا .. فامتقع لونها امتقاعا شديدا .

وقال الامير :

ـ كفى ، أيتها الصغيرتان • سنلتقى معا فى كل يوم • فلتودع كل منكما الاخرى الآن • وليبارككما الله •

لقد أثر فيه منظرنا تأثيرا كبيرا • الا أن الامير قال ما قال دون أن يحسب حساب المفاجآت • ففى مساء ذلك اليوم نفسه جاء نبأ من موسكو يقول ان « ساشا » مرض فجأة ، وان حياته فى خطر • فقررت الاميرة أن تسافر الاسرة الى موسكو فى الغداة • وتم تنفيذ القرار بسرعة عظيمة ، حتى اننى لم أعلم بشىء الا لحظة الوداع • وقد أصر الامير على أن انزل مودعة ، ووافقت الاميرة على مضض • أما كاتيا فكانت كأنما صعقها نبأ السفر صعقا • وقد عدوت الى أسفل كالمجنونة وارتميت على عنق كاتيا • كانت العربة تنتظر أمام الباب • ولما رأتنى كاتيا انطلقت من صدرها صرخة ، وسقطت بلا وعى • أغرقتها بالقبل • الا أن الاميرة أمرت بأن تُردّ كاتيا اليها • وانتعشت أخيرا ، فطوقتنى بذراعيها • ثم قالت وهى تنفجر فى ضحكة مباغتة ، ويرتسم على وجهها تعبير لا يمكن وصفه :

ـ الى اللقاء يا نيتوتشكا • لا تنظرى الىّ هكذا • لست مريضة • بعد شهر أعود • ولا فراق بعد ذلك أبدا •

فقالت الاميرة فى لهجة باردة جافة :

ـ كفى • هيا بنا •

الا أن كاتيا التفتت الىّ مرة أخرى لتضمنى بذراعيها • وهمست وهى تقبلنى :

ـ أنت حياتى كلها • الى اللقاء •

وبعد هذه القبلة الاخيرة ، غابت الاميرة الصغيرة ، مدة طويلة جدا • لم ألقها الا بعد ثمانى سنين !

لقد أسهبت ــ عن عمد ــ في قص تلك الفترة من طفولتي ، أعني فترة ظهور كاتيا في حياتي • ذلك أن تاريخينا لا ينفصل أحدهما عن الآخر • ان روايتها هي روايتي • لكأن القــدر قد شاء أن تجــد احدانا الاخرى • لذلك لم أستطع أن أمتنع عن لذة التوقف على ذكريات هــذه الفترة من طفولتي • وسأسرع في سرد ما بقي مما أريد سرده •

أصبحت حياتي بعد سفر كاتيا حياة هادئة ساكنة ملازمة للبيت •• (لم أستيقظ منها الا في نحو السنة السادسة عشرة من عمري ، ان صح التعبير ، كما سيجيء بيان ذلك ••)

ولكن لا بد من بضع كلمات عما صرت اليه بعد سفر أسرة الاميرة الى موسكو •

بقينا أنا ومدام ليوتار وحدنا •

وبعد خمسة عشر يوما جاء رسول من الامير يبلغنا ان عودة الاسرة قد أرجئت الى حين • ولــا كانت مدام ليــوتار لا تســتطيع أن تذهب الى موسكو ، لأسباب عائلية ، فقد اضطرت الى ترك خدمة بيت الامير • الا أنها ظلت في خدمة هــذه العائلة نفســها ، اذ انتقلت الى منزل الابنة الكبرى للاميرة ، « الكسندرين ميخائيلوفنا » •

وأنا لم أتحدث بعد عن الكسندرين ميخائيلوفنا ــ وكنت لم أرها ، على كل حال ، الا مرة واحدة ــ وهي ابنة الاميرة من زواج أول • ولم يكن محتد الاميرة بالمحتد الرفيع ، ولا كان أهلهــا من وجوه النــاس في المجتمع ، وكذلك لم يكن زوجهـــا الاول سوى تاجر خمور • وحين تزوجت مرة أخرى لم تعرف ماذا تصنع بابنتها من الزوج الاول• لم تكن تأمل لها زواجا ممتــازا ، لأن المهــر الذي يخصها كان ضئيلا • وأخــيرا

استطاعت الاميرة منذ أربع سنين أن تزوجها رجلا غنيا ذا مكانة رفيعة، فدخلت الكسندرين ميخائيلوفنا ، بهذا الزواج ، حلقة من المجتمع غير حلقة أمها ، وأصبحت تلقى أناسا يختلفون كل الاختلاف عمن تلقاهم أمها • وكانت الاميرة تزورها مرتين في السنه ، كما كان الامير ، زوج أمها ، يأتيها بكاتيا مرة كل أسبوع • ولكن الاميرة أصبحت في المدة الاخيرة لا تحب أن ترسل كاتيا الى أختها ، فكان الامير يأخذها اليها خفية • وكانت كاتيا تحب أختها حبا عظيما ، رغم أن طبع كل من الاختين كان نقيض طبع الاخرى •

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا شابة في الثانية والعشرين من عمرها، ناعمة رقيقة ودوداً ، يظلل وجهها نوع من الألم الخبيء • على أن الوقار والرصانة لم يكونا يوافقان ملامحها الملائكية الجميلة أكثر مما توافق الطفلةَ ثيابُ الحداد ، فلم تكن تستطيع أن تراها دون أن تشعر نحوها بحب عميق • ومن فرط شحوبها قيل يوم رأيتها لأول مرة ان بها استعدادا للاصابة بمرض السل •

وهي لا تحب أن تزار أو تزور ، بل تعيش حياة عزلة وانزواء • وأذكر انني حين جئت لأرى مدام ليوتار اقتربت مني وقبلتني في كثير من العطف والحنان • وكان في صحبتها رجل نحيل ، مشرف على الهرم، فما ان رآني حتى أخذ يبكي • انه العازف على الكمان «ب» • وطوقتني الكسندرين ميخائيلوفنا بذراعيها ، وسألتني هل أحب أن أعيش في بيتها وان أصبح ابنتها ، فتأملتها لحظة وعرفت فيها أخت كاتيا ، حبيبتي ، فاذا بي أرتمي على عنقها ، منقبضة القلب ، كأن أحدا دعاني مرة أخرى بكلمة « يتيمة » • وعندئذ أرتني الكسندرين ميخائيلوفنا رسالة من الامير تضم بضعة أسطر ، موجهة اليّ ، قرأتها وأنا أجهش ببكاء عميق • كان الامير

يباركنى فيها ويتمنى لى حياة مديدة سعيدة ، ويطلب الىّ أن أحب ابنته الكبرى • وقد كتبت كاتيا بضع كلمات أيضا فى حاشية الرسالة ، تذكر فيها انها الآن لا تفارق أمها •

وهكذا وجدتنى ، فى ذلك المساء ، فى كنف أسرة أخرى ، فى منزل آخر ، بين وجوه جديدة ! •• وانتُزع من قلبى ، مرة ثانية ، كل ما كان عزيزا على ، كل ما كان قريبا الى • لقد وصلت الى هذا المأوى الجديد وفى نفسى غم عميق ••

والآن تبدأ قصة جديدة •

الفصل السابع

سارت حياتى الجديدة بلا صدمات ولا عثرات ، فى جو من الصمت والسكون ، كأنه جو دير من الأديرة ! .. فقضيت بين أحضان هذه الاسرة الجديدة ثمانى سنين لا أذكر أنه أقيمت خلالها حفلة ساهرة ، أو دعى ضيف الى مأدبة ، أو عقد اجتماع يضم أقارب أو أصدقاء أو معارف ، اللهم الا مرة أو مرتين ! .. وفيما عدا شخصين أو ثلاثة كانوا يترددون على المنزل زائرين ، وفيما عدا الموسيقى «ب» صديق الاسرة ، وفيما عدا الاشخاص الذين تدعوهم أعمالهم الى لقاء زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، لم يكن يغشى المنزل أحد . وكان هذا الذى أسميته زوج الكسندرين ميخائيلوفنا مشغولا بأعماله دائما لا ينعم الا بقليل من أوقات الفراغ يوزعها بين أسرته وبين علاقاته فى خارج البيت . وكانت علاقاته هذه كثيرة هامة لا يستطيع اهمالها ، وتضطره الى الظهور فى المجتمع الراقى . ولئن كان يوصف عامة بأنه ذو طموح لا حد له ، فقد كان يُعرف الى جانب ذلك بأنه امرؤ جدى رصين ، سيما وانه يحتل

مكانة مرموقة جداً • كان الحظ والنجاح يبتسمان له ، فكان رأى الناس فيه حسنا ، بل كان جميع الناس يحبونه ، ولكنهم كانوا فى مقابل ذلك يضنون بهذا الحب على امرأته • لقد كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تعيش فى عزلة تامة ، وكانت تجد فى هذه العزلة راحة ولذة ؛ كان طبعهـــا الهادىء قد فطر على حب الانزواء •

وقد تعلقت بى تعلقا قويا صادقا ، وأحبتنى كأننى ابنتها • أما أنا فقد ارتميت فى أحضان هذه الأم الرءوم على ظمأ شديد ، عاجزةً عن حبس دموعى بعد فراق كاتيا •• ولم يفتر هذا الحب العنيف الذى منحتها اياه لحظة واحدة بعد ذلك • كانت لى أما وأختا وصديقة ، أو كانت بمثـــابة مصب لجميع ما أشعر به من عواطف الحب • وقد عنيت بى ودللتنى طوال مرحلة المراهقة التى قضيتها فى كنفها • ثم اننى أدركت منـــذ البــداية ، بنوع من الغريزة أو الحدس ، أن حظ هذه المخلوقة ليس لامعا الى الحد الذى يمكن أن توحى به هذه الطمأنينة الهادئة فى حياتها ، وهــذه الحرية الظاهرة ، وهذه الابتسامة الرائقة الصافية التى تضىء وجهها فى غالب الاحيان • وكنت فى كل يوم أزداد فهما للمصير الحزين الذى تعيشــه (وقد نفذ قلبى الحزين الى هذا فى بطء ومشقة) ، فكانت عاطفتى نحوها تزداد فى كل يوم قوة ••

كانت « الكسندرين » ضعيفة الارادة • وكان وجهها يضىء بطمأنينة هادئة ، اذا رآها الرائى لأول مرة لم يحسب أن فى وسع أى نوع من أنواع المتاعب ، مهما ضؤل ، أن ينفذ الى هذه النفس المطمئنة ! •• ثم انك اذا رأيتها أدركت أنها لا يمكن أن تكره أحدا مهما يكن شأنه : ان عواطف الرحمة تتغلب فى نفســها على مشــاعر الكره • ومع ذلك كان أصدقاؤها قلة ، وكانت تعيش فى عزلة تامة ••

وعلى أنها قوية العواطف شديدة التأثر ، فقد كان يبدو أنها تخشى مشاعرها وتراقب قلبها ، ولا تسمح له بأى انحراف ، ولو فى الحلم ! •• وكنت فى بعض الاحيان آرى دموعا فى عينيها ، كأن ذكرى ثقيلة خانقة تعذب ضميرها ، وتحز فى نفسها •• كأن شرا مستطيرا يهوم فوق سعادتها ، ويهم أن ينقض عليها ! •• كلما بدت أسعد ، وكلما لاحت حياتها أهدأ وأقرب الى الطمأنينة ، كانت نوبة القلق أدنى الى موافاتها • وكانت الدموع أسرع الى التفجر من عينيها على حين غرة • وكان ذلك يراودها نوبات قاسية ، فما أذكر أن شهرا واحدا قد انقضى خلال هذه السنين الثمانى دون أن ينتابها شىء من ذلك ! ••

وكان يلوح على زوجها انه يحبها حبا جما ، وكانت هى من جهتها تكن له حبا يقارب العبادة ! •• ومع ذلك ، كان يخيل الى الرائى ، من أول نظرة ، أن بين الزوجين أمورا خفية • كأن ثمة سرا يحوم فوق حياة هذه المرأة •• أو ذلك على الاقل ما قدرته فورا !

•••

وقد أوحى الىّ زوج الكسندرين ميخائيلوفنا من أول نظرة بشعور مؤلم لم تزده السنون الا تفاقما• كان رجلا نحيلا طويلا، خيّل الىّ كأنه يخفى عينيه ، عمدا ، بنظارتين خضراوين ضخمتين • وكان فاتر المزاج ، قليل الكلام ، لا يجد موضوعا للحديث حتى حين يخلو الى زوجته • كان كأنما يزعجه وجود شخص آخر الى جانبه !

وكان لا يلتفت الىّ البتة ، وكنت مع ذلك أشعر من وجوده بكثير من الضيق والحرج ، حين يتفق أن نحتسى الشاى جميعا فى صالة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فكنت أضطرب وأغتم ، وأختلس النظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأشعر انها ترتجف • كانت ازاءه تراقب كل

حركة من حركاتها ، وكان لونها يمتقع اذا رأته أكثر كآبة وصمتا مما عهدت فيه من كآبة وصمت ، وكانت فى بعض الاحيـــان تحمر فجأة ، كأنما هى تدرك فى كلامه غمزا أو تلميحا ! •• وأدركت أن حياتها مع مثل هذا الرجل حياة شاقة مرهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه دقيقة واحدة •

ولشد ما أدهشني انتباه هـــذه المرأة العجيب الى زوجها ، الى كل كلمة من كلماته ، الى كل حـــركة من حـــركاته ! •• كانت تحاول أن تجاريه وترضيه فى كل أمر ، كأنما هى ترى نفسها عاجزة عن تحقيـــق ما يحب • كانت كأنها تســـتجدى رضاه استجداء : تكفيها ابتسامة باهتـــة تطوف فى وجهه ، أو كلمة عاطفية صغيرة تخرج من بين شفتيه ، حتى تفيض نفســـها بشرا وغبطة وســـعادة •• فكأنها ترتد عنـــدئذ الى الدقائق الأولى من حب لما يزل خجولا ، ولما يزل بلا رجاء ••

وكانت تحيط زوجها بجميع أنواع الرعاية والعناية التى يحاط بها مريض من المـــرضى • ومع ذلك كانت ، متى عاد الى حجـــرته بعـــد أن يصافحها وينظر اليها نظرة متلطفة شـــاقة ، تتبدل تبدلا كبـــيرا ، فتصبح حـــركاتها وأقوالها أكثر مرحا وأكثر انطـــلاقا •• غـــير أن ذلك لم يكن يحدث فورا ، فانها فى كل مرة بعد لقاء زوجها كانت تظل مضطربة بعض الوقت ، وتأخذ تتذكر وتزن كل كلمة من الكلمات التى وجهها اليهـــا ، وكثـــيرا ما كانت تلتفت الىّ وتســـألنى : هل هـــذا ما قاله بطـــرس الكسندروفتش ؟ •• كان واضحا انها تبحث فى أقوال زوجها عن معنى آخر ، وكان لا بد لها من ساعة كاملة حتى تستعيد هدوءها ورباطة جأشها تماما ، وحتى تثق كل الثقة من أنه لا يحقد عليها البتة ، وأنها قلقت بغير

داع الى القلق ، فاذا هى بعدئذ مرحة سعيدة ، واذا هى تقبلني وتضاحكني أو تجلس الى البيانو فتظل تعزف ــ ارتجالا ــ قرابة ساعتين ..

وفى بعض الاحيان كان يتبدد فرحها دفعة واحدة فتطفق تبكي على حين غرة ، حتى اذا نظرت اليها قلقة ، جزعة ، أسرعت تفنعنى همسا ، مخافة أن يسمعها أحد ، بأن دموعها لا سبب لها ، وانها فرحة جدا ، وان عليّ أن لا أقلق .

وفى أحيان أخــرى ، أثناء غياب زوجها ، كانت تقلق عليه أشــد القلق ، فترسل احدى الخادمات تسأل عما يفعــل : كانت فى حاجة لأن تعرف لماذا أمر باعداد العربة ، وهلم جرا .. كانت كأنما لا تجرؤ أن تفاتحه فى موضوع أعماله ومشاغله ؛ وكان اذا أسدى اليها نصيحة أو طلب منها شيئاً ، تصغى اليه فى خضوع وذل ، كأنهــا خادم أو عبــد . وما أشد فرحها حين يجود عليها بثناء يسير ، بصدد كتاب قرأته ، أو شيء صنعته بيديها ، أو ما الى ذلك . كان ذلك يرفع رأسها ويغرقها فى بحر من السعادة !

وكان فرحها يتجاوز كل الحدود حين يبدو له ــ وذلك أمر نادر ــ أن يداعب أحد طفليها الصغيرين : كان وجهها يتبدل عندئذ تبدلا كبــيرا ، فيشرق بســعادة عظيمة ، تتجــاوز فى تلك اللحظات حدود المــرح التى تسمح لنفسها بها أمام زوجها ، فاذا هى مثلا تجرؤ أن تعرض عليه (دون أن يشجعها هو على ذلك ، وبصوت وجل مرتجف طبعا) أن يسمع قطعة موسيقية جديدة وصلتها مؤخرا ، أو تبدى رأيها فى كتاب جديد قرأته ، أو تمضى الى أبعد من ذلك فتحب أن تقرأ له صفحة أو صفحتين لمــؤلف أعجبها اعجابا شديدا . وكان زوجها يذعن لرغبتها أحيانا ، بل لقد يمضى الى أبعد من ذلك فيبتسم لها ابتسامة كريمة سمحة !

غير أن هذه الابتسامة كانت تزعجني حتى أعماق نفسي ــ لا أدرى لماذا ــ كما كانت تزعجني بدورها أوضاع الانقياد والذل من جهة الزوجة •• كان يزعجني فقدان المساواة في العلاقات بين هذين الزوجين• ولكنني كنت أسكت ، واضبط نفسي ، واكتفي بأن ألاحظ هذا الرجل ، بدهشة الصغار وعقل الكبار في آن معا ! •• وكنت ألاحظ في أحيان أخرى ذكرى تطوف بخاطره فجأة ، ذكرى شيء مؤلم ، رهيب ــ لا يُلأم صدعه ولا يُرتق فتقه ــ يوافيه رغم ارادته ، ورغم عقله ، فاذا هو يتجلد ويتحامل على نفسه ، ثم تزول الابتسامة السمحة عن ثغرة في طرفة عين، وينظر الى امرأته الفزعة ، على حين غرة ، نظرة تعبر عن الرحمة والشفقة فأرتعد أنا ــ كأن هذه الشفقة تنصب على ، وكأن شعورا بالعار يغشاني أنا أيضا ! ــ ويبارح الفرح وجه الكسندرين ميخائيلوفنا ، وتنقطع الموسيقى أو تنقطع القراءة ، وتمسك المرأة المسكينة عن الكلام ، وقد امتقع لونها امتقاعا شديدا ، وتعقب ذلك دقائق من الغم الممض والألم الكاوى ، أحسبها دهرا ! ••

وكان الزوج ــ أخيرا ــ يضع لهذا الموقف حدا ، اذ ينهض من مكانه ، ويبدو كأنه يحاول أن يخنق في نفسه كل حنق وكل انفعال ، ثم ، بعد أن يدور في الغرفة عدة مرات ، في صمت حزين ، يصافح زوجته ، ويزفر زفرة عميقة ، ويقول بضع كلمات موجزة ، مضطربة ، كأنه يحاول أن يواسي زوجته ، ثم يترك الغرفة •• فتنفجر الكسندرين ميخائيلوفنا عندئذ في بكاء سخين ، أو تغرق في حزن رهيب لا ينتهي • وكان في بعض الاحيان يدعو لها ، وهو يرسم اشارة الصليب ، كما يفعل المرء مع طفل قبيل أن ينام ، وكانت هي تقبل دعواته في احترام واجلال، بل كان الدمع يترفرق في عينيها اعترافا بالجميل •

ولكنى لن أنسى تلك الامسيات (أمسيتين أو ثلاثا لا أكثر ، طوال هذه السنين الثمانى !) التى تبدلت فيها الكسندرين ميخائيلوفنا تبدلا تاما على حين فجأة ، حتى لكأنها شخص آخر .. فاذا بنوع من الكره ، نوع من الغيظ والحنق ، يشع فجأة فى وجهها الذى ألف الهدوء والنعومة ، طاردا ذلك الذل الأبدى الذى تشعر به ازاء زوجها ، وتلك العبادة الخاضعة التى تمنحه اياها . كانت العاصفة تتجمع أحيانا خلال ساعة طويلة ، فيبدو الزوج أكثر صمتا وحزنا ووجوما ؛ ويطفح قلب المرأة المسكينة أخيرا ، فتأخذ تتكلم بصوت متهدج من شدة الانفعال ، وبألفاظ متقطعة مفككة مشحونة غمزا ولوما مرا ، ثم لا نستطيع أن تكبح ألمها فتنفجر باكية ، ويصل بها اليأس الى غايته فتطفق تتفجع ، وهى تجهش فى نحيب مؤلم كالمحمومة . ليتكم ترون زوجها فى تلك اللحظات : ليتكم ترون صبره فى الاستماع اليها ، ولطفه فى محاولة تهدئتها . لقد كان يبلغ من ذلك أنه يأخذ يقبل يديها ، ثم يطفق أخيرا يبكى معها . الا انها كانت تنتفض فجأة ، انتفاضة من نيقظ ضميره وشعر أن ليس من حقه أن يُغتفر له ذنبه : كانت تهولها دموع زوجها ، فاذا هى تزداد لوعة واضطرابا ونحيبا ، فترتمى على قدميه تسأله الغفران ، وسرعان ما يجود عليها به ..

وكان ضميرها يعذبها مدة طويلة بعد هذه الأزمات ، فتظل شهورا برمتها لا تنقطع عن البكاء ، ولا تكف عن طلب الغفران ، وتقف أمام زوجها أكثر خجلا ووجلا وارتعادا منها فى أى وقت مضى . وكنت لا أستطيع أن أفهم شيئاً من هذه الأزمات ، سيما وقد كنت أُحمل أثناء ذلك على ترك الغرفة ، فى غير لطف أو رفق ! .. على انه كان يستحيل عليهما أن يخفيا عنى كل شىء . كنت ألاحظ وأحزر ، وكان

قد استقر فى ذهني شيء من الارتياب الغامض منذ البداية : لا بد أن في أعماق هذه الامور سرا • ان هذه الازمات المفاجئة التي تعصف بهـــذا القلب الطافح ألما مرا لا يمكن أن تكون بلا سبب ، لا يمكن أن تنشأ عن حالة عصبية فحسب ••• ثم ان تجهم وجه الزوج ، وهذه الشفقة الملتبسة التي يشعر بها نحو زوجته المريضة ، وهذا الخجل الأبدى ، وهذا القلق الذليل من جانب الكسندرين ميخائيلوفنا ازاء زوجها ، كل ذلك لا يمكن أن يكون بدون علة ، لا ولا هـــذا الحب الغريب الصامت الذى تحمله ولا تجرؤ أن تظهره ، وهذه الوحدة ، هذه الحياة المنزوية التى تعيشها هذه المرأة ، هذا الاحمرار المفاجيء وهـــذا الاصفرار المفاجيء اللذين يغشيان وجهها متى لقيت زوجها ، كل هذا لا بد أن يكون له سبب !

ولكن لما كانت هـــذه الأزمات بين الزوجين نادرةً جدا ، وكانت حياتنا تجرى رتيبة على نسق واحد ، وكنت أعرف جميع تفاصيلها تقريبا، ولما كنت أنمو بسرعة ، وكانت هنالك أشياء أخرى تثير انتباهي وتشـغل اهتمامى رغما عني ، فسرعان ما ألفت هذه الحياة ، وهذه العادات ، وهذه الطباع التى تحيط بى • صحيح اننى كنت فى بعض اللحظات لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير والتأمل ، حين أنظر الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، ولكن تأملاتى لم تكن تخلص الى أية نتيجـة • كنت أحب ألكسندرين ميخائيلوفنا حبا قويا ، وأحترم الحزن الذى يكتنفها ، وأخشى أن أزعجها باستطلاع فى غير محله • على انها كانت تفهمنى •• وكم من مرة شكرت لى تعلقى بها !

وكانت اذا لاحظت قلقى عليها، ابتسمت من خلال دموعها ، وأخذت تتندر على كثرة بكائها ، أو أخذت ـ فى أحيان أخرى ـ تقول لى ، فجأة، انها على أحسن حال من الفرح والمرح ، وانها سعيدة الى أقصى حـدود

السعادة ، وان جميع الناس يغمرونها طيبا وكرما ، وان جميع من عرفتهم حتى الآن يحبونها ، وان الامر الوحيد الذى يعذبها هو ان ترى بطرس الكسندروفتش قلقا بسببها ، بسبب حالات الكرب التى تراودها ، مع أنها سعيدة جدا ، جدا جدا • وكانت تعانقنى عندئذ فى كثير من الحنان ، ويشرق وجهها عندئذ بحب عميق ، حتى لينخلع قلبى شفقة ان صح التعبير •

رباه ! لن تمحى قسمات وجهها من ذاكرتى يوما • انها قسمات قويمة يزيدها النحول والشحوب جمالا وفتنة• أما شعرها الاسود المسدول على جيدها فانه يلقى على جنبات وجنتيها ظلا ظاهرا قاسيا ، يزيد ـ بحكم منطق الاضطداد ـ من لطف نظرتها ، وجمال عينيها الزرقاوين الناصعتين اللتين تشبهان عينى طفل ، ورقه بسمتها الخجلى ، وفتنة ملامحها الرقيقة التى يطوف فيها فجأة كل هذا الصدق وكل هذا الخفر ، ويزيد من روعة وجهها الأعزل المنقاد لكل اندفاعة من اندفاعات قلبها : وهى الفرح السريع فى بعض الأحيان والكآبة الناعمة فى معظم الأحيان •• ففى بعض ساعات سعادتها الهادئة الراضية تصبح نظرتها النافذة العميقة من الصفاء والاشراق والطمأنينة ، وتصبح عيناها الناصعتان نصوع زرقة السماء من قوة التعبير عن الحب والحنان والصبوة الى كل ما هو نبيل ، والى كل ما يستثير الشفقة ويذكى الألم ، بحيث لا يسع المرء الا أن يستسلم لها رغم أنفه ، والا أن ينجذب اليها رغم أنفه ، ليجنى قليـــلا من هذا الصـفاء ، من هـذه الطمأنينة ، من هذا السلام الروحى ، من هذا الحب الذى ينبع من أعماق وجودها •

ان المرء حين ينظر الى زرقة السماء يشعر أحيانا انه قادر على أن يظل مدة طويلة فى تأمل متعبد حار تتحرر فيه النفس من عقالها ، وتصبح أشبه بصفحة ماء هادىء تنعكس عليها فجأة قبة السماء العالية • وقد كانت

الكسندرين ميخائيلوفنا حين ترى الجمال تبلغ من شدة الحميا ، فى كثير من الأحيان ، أن وجهها يتخضب ، وصدرها ينفر ، وتلتمع فى عينيهـا بروق ، بل تنطلق من عينيها شرارات ، كأن روحها تتجه عفيفة نحو شعلة صافية تريد أن تنصب فيها وان تتحد بها ! •• وكانت فى تلك اللحظات تبدو ملهمة حقا ، فاذا بوثباتها المفـاجئة ، واندفاعاتهـا المباغتة تنقلها من الخجل الرقيق الى الانفعال الرفيـع والحماسـة الجريئة • ولـكن ما أكثر ما كانت تظهر عندئذ من سذاجة ، ومن تعجـل كتعجـل الاطفال ، ومن سرعة الى التصديق كسرعة المراهقين ! لست أشـك فى أن مصـورا من المصورين مستعد لأن يهب نصف حياته ، فى سبيل أن يرسم على قماشه لحظة من وجد فى مثل هذه الروعة ، على وجه انتابه مثل هذا التحول ••

•••

وقد أدركت فى الأيام الأولى من اقامتى فى هذا البيت أن الكسندرين ميخائيلوفنا التى تعيش فى هذه العزلة التامة ، سعيدة بوجودى الى قربها • لم يكن لها عندئذ الا طفل واحد ، لم تكن قد أصبحت أماً الا منذ سنة واحدة فأصبحت أنا ابنتها • كانت لا تستطيع أن تفرق بينى وبين طفلها • ليتكم ترون حماستها الشـديدة فى الانكباب على تربيتى ! لم تكن مدام ليوتار تستطيع أن تمتنع عن الابتسام حين تراها مندفعة هـذا الاندفاع ، متعجلة هذا التعجل • والحق اننا اندفعنا كلتانا الى كل شىء فى آن واحد ، حتى لم تعد تفهم شيئا ، لا هى ولا أنا • كانت تعلمنى أشياء كثيرة وافرة ، دفعة واحدة ، فكان ذلك يدل من جانبها على حماسـة حارة ، وعلى صبر جميل ، أكثر مما يدل على حس عملى • وقد ساءها طيشها هذا فى أول الامر ، الا اننا قررنا بعد ذلك أن نضحك منه ، واستأنفنا كل شىء من جديد •

ذلك أن ألكسندرين ميخائيلوفنا ، رغم هذه البداية السيئة ، كانت

تحب أن تنهج فى التربية نهجا مخالفا كل المخالفة لنهج مدام ليوتار ، وكانتا تتناقشان فى هذا الموضوع بسرور ومرح ، فكانت مربيتى الجديدة تعلن فى لهجة قاطعة انها تناهض كل منهج محدد ، وتؤكد اننا بالتلمس والمحاولة سنجد الطريق الصحيحة ، وانه ليس من الضرورى أن تحشو رأسى بمعلومات عقيمة ، وأن نجاحى فى الدراسه يجب أن يعتمد على مواهبى الطبيعية ، على البراعة فى ايقاظ ارادتى الحسنة •

ولقد كانت على حق فيما قالت ، ما دامت قد نجحت نجاحا تاما • لقد زال من بيننا دور التلميذة ودور المعلمة ، فكنا معا كصديقتين ، حتى لقد كانت من البراعة فى هذا بحيث كان يبدو فى بعض الاحيان اننى انا التى أعلمها ! •• وكثيرا ما كانت تدور بيننا مناقشات حادة ، فأحاول أن أبرهن بحرارة على صحة آرائى ، دون أن أدرك أن الكسندرين ميخائيلوفنا هى التى تقود خطاى فى هذا السبيل • وكنت أدرك حيلتها هذه فجأة بعد أن نفرغ من المناقشة ، وبعد أن تتضح المسألة اتضاحا كافيا، فأقدر عندئذ الجهد الذى تحملته ساعات طويلة فى بعض الاحيان ، والتضحية التى بذلتها من أجلى ، فأرتمى على عنقها ، وأقبلها بقوة وعنف ••

كان كل درس من الدروس ينتهى على هذا النحو •• وكانت حساسيتى تدهشها ، بل تهيجها الى حد القلق • وأخذت تسألنى عن ماضىّ فى كثير من الاهتمام ، تريد أن تعرفه منى ، فكلما قصصت عليها بعض ذكرياتى رأيتها تغدو أكثر رقة معى ، وأكثر جدا فى معاملتى ، أقول « أكثر جدا » لأن طفولتى البائسة كانت توقظ فى نفسها ، فضلا عن الشفقة ، نوعا من الاحترام • وكنا ، بعد أن أفضى اليها بذكرياتى ، نغرق عادة فى مناقشات طويلة ، فكانت تشرح لى ماضىّ شرحا يتراءى لى معه

اننى أعيشه مرة أخرى فى الواقع ، وأعرف عنه أمورا كثيرة من جديد !

وكانت مدام ليوتار ترى أن هذه المناقشات مسرفة فى الجد ، بل كانت ترى أنها فى غير محلها ـ حين تلاحظ انهمار دموعى بالرغم منى ـ أما أنا فكنت أرى نقيض رأيها تماما • لقد كنت ، بعد هذه « الدروس » أتخفف من آلامى تخففا كبيرا فما أعود أرى فى قدرى شيئا محزنا • والذى أحمده لالكسندرين ميخائيلوفنا ، فوق كل شيء ، هو اننى كنت مضطرة الى أن أزداد حبا لها يوما بعد يوم • ان مدام ليوتار لم تكن تعلم أن كل ما قد أثار فى نفسى ، فى الماضى ، عواطف مضطربة مبكرة ، كان بهذه الطريقة يفقد حدته شيئا بعد شيء • وينصهر فى انسجام متماسك قوى ؛ ولم تكن مدام ليوتار لتتصور الى أى حد قد تسممت نفسى بما قاسيت •• الى أى حد أرهقتنى قسوة القدر الغاشم •• الى أى حد بكيت دون أن أعلم من أين تأتينى الضربة التى تهوى على رأسى !

• • •

وكنا فى أول الصباح نجتمع فى حجرة الأطفال ، فنوقظ الطفل ، ونعنى بهندامه وطعامه ، ونضحكه ، ونكلمه ، ثم نتركه لنمضى الى العمل• كنا ندرس كثيرا جدا ، ولكن •• الله أعلم بقيمة هذه الدراسة التى تشتمل على كل شيء ، ولا تشتمل فى حقيقة الأمر على أى شيء محدد !•• كنا نقرأ معا ، ونتبادل الآراء ، ثم نترك الكتب وننصرف الى الموسيقى ، فكانت الساعات تنقضى سريعة لا نحس انقضاءها •• وفى المساء كثيرا ما كان «ب» ، صديق ألكسندرين ميخائيلوفنا ، يأتى زائرا ، وكانت مدام ليوتار تأتى أيضا ، فتدور بيننا فى بعض الاحيان مناقشات حادة عن الفن ، وعن الحياة (التى لا نعرفها فى حلقتنا الصغيرة الا عن طريق السماع) ، وعن الواقع والمثل الأعلى ، وعن الماضى والمستقبل ، ونقضى نصف الليل

فى مثل هذه الأحاديث • وكنت أصغى الى الحديث ملء اذنى ، وأتحمس حين يتحمس الآخرون ، واضحك معهم ، أو تهيجنى الشجون حين أعلم فجأة بعض ما يتصل بأبى وبطفولتى الاولى •

وكنت أثناء ذلك أتقدم فى السن ، وفى الوعى • وعهدوا الى بعض الاساتذة بتعليمى ، ولـكننى ما كنت لأتعلم منهم شيئا لولا ألكسندرين ميخائيلوفنا • ما كنت لولاها لأزيد ، مع أستاذ الجغرافيا ، على أن تعمى عيناى فى البحث عن مواقع المدن والانهار على الخريطه • أما الكسندرين ميخائيلوفنا فكانت تقوم معى برحلات على الارض ، فنزور البلدان ونرى العجائب ونعيش هذا كله فى حماسة وحميا ، ساعات طوالا ، حتى أصبحت كتب الكسندرين ميخائيلوفنا لا تروى ظمأنا ، وحتى أصبحنا فى حاجة الى النهام كتب أخرى ، وحتى صرت قادرة على أن أنصح أستاذى بقراءة بعضها !

على انه لا بد لى من انصاف أستاذى : فقد ظل الى آخر لحظة يفوقنى فى معرفة خطى الطول والعرض اللذين تقع عليهما مدينة من المدن ، وفى معرفة عدد سكان هذه المدينة محددا بالألوف ، وبالمئات ، بل وبالعشرات • وكان أستاذ التاريخ يتقاضى أجرا حسنا هو الآخر • الا اننا أخذنا ، بعد ذهابه ، نتعلم التاريخ ـ وأنا والكسندرين ميخائيلوفنا ـ على طريقتنا الخاصة ، فكنا نأخذ كتبنا ، ونظل نقرأ أحيانا الى ساعة متأخرة من الليل ، والأصح أن ألكسندرين ميخائيلوفنا هى التى كانت تقرأ ، لأنها كانت تراقب ما نقرأ ••

وأذكر أننى لم أشعر فى حياتى بحماسة كالتى كنت أشعر بها بعد هذه القراءات • كنا نتحمس كأننا أبطال ما نقرأ • وكنا نقرأ ، عدا السطور ، ما بين السطور • وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا تجوّد القراءة

حتى لكأن كل ما تقرؤه قد وقع لها • ولـكن يجب أن أعترف أن ثمـة شيئا مضحكا في هذه الحماسة التي كانت تحرمنا من النوم نصف الليل : أنا الطفلة ، وهي القلب الجريح الذي يحتمل الحياة في مشـقة وعناء ! (وكنت أعلم أن ألكسندرين ميخائيلوفنا تجد الى جانبي عزاء وسلوى)• وأذكر انني كنت في بعض اللحظات أفكر تفكيرا غريبا وأنا أنظر اليها • كنت من فرط محاولتي الفهم قد فهمت كثيرا عن أمور الحياة ، قبل أن أبدأ الحياة !

•••

وبلغت الثالثة عشرة من عمـري • وازدادت صـحة الكسـندرين ميخائيلوفنا أثناء ذلك سوءا على سوء • أصبحت أسرع الى الاهتياج ممـا كانت ، وازدادت حدة الحزن الذي يغشاها من حين الى حين دون ماسبب، وكثرت زيارات زوجها لها • وأصبح يبقى الى جانبها مدة أطول ، الا أنه ظل على عادته حزينا كئيباً لا يكاد ينبس بكلمة • وأخذ مصير الكسندرين ميخائيلوفنا يشغلني على نحو أقوى وأعنف • ان مشاعر جديدة تتكون الآن في نفسي ، وأنا أخرج من مرحلة الطفولة • صرت أبحث ، وأفترض وأستنتج ، وأصبح السر الذي أحسه مرفرفا في جو هذه الاسرة يقلقني مزيداً من القلق •

وكنت في بعض اللحظات أحسب انني فهمت هذا السر بعض الفهم• وفي لحظات أخرى يضعف شعوري بذلك ويقـل اهتمامي بالأمر ، بل أحس بالملل والضجر ، فأنسى ما كنت أحب أن أعرفه ، ولا أعود أحفل به • وكنت في أحيان أخرى أجد لذة كبيرة في أن أبقى وحدي ، غارقة في أفكاري • وكانت تلك الايام تشبه فترة من حياتي الماضية بين أبوي ، تلك التي أحببت فيها أبي ، فظللت سنة كاملة أفكر بغير انقطاع، وأتخيل،

وأحلم ، وأنا قابعة في ركني .. تلك الفترة التي كنت فيها أشبه بمتوحشة غارقة في ضروب من الاوهام يلفقها خيالي من هنا ومن هناك . الا أن ثمة فرقا بين الفترتين : فصبري الآن أفرغ ، وقلقي أقوى ، واندفاعاتي الجديدة أوثق اتصالا باللاشعور ، وظمئي الى الحركة أشد ، فكنت لا أستطيع أن أتركز على نقطة واحدة كما كنت في الماضي .

وكانت ألكسندرين ميخائيلوفنا كأنما تحب أن تبتعد عني هي نفسها، فانني ، في هذه السن ، لا أكاد أصلح صديقة لها . لست الآن طفلة ، وان أسئلتي الآن لكثيرة ، واني لأنظر اليها أحيانا ، فما يسعها الا أن تغض طرفها . كانت هنالك لحظات غريبة . وما كنت أستطيع أن أراها تبكي ، وكثيرا ما كانت دموعي تتدفق من عيني غزيرة حين أراها كذلك ، ثم أرتمي على عنقها أقبلها في حرارة . ماذا عساها تقول لي ؟ كنت أشعر أنني عبء عليها !

وفي لحظات أخرى - هي أكثر اللحظات قسوة وحزنا - كانت تعانقني هي نفسها عناقا قويا ، كأنما تملكها يأس شديد .. فكانت في تلك اللحظات كأنها تستدر حبي ، كأنها لم تعد تطيق وحدتها ، كأنها تشعر أنني قادرة على أن أفهمها وعلى أن أشاركها ألمها ! .. على أن هذا كله لا يمنع ان ثمة سرا كان ما يزال قائما بيننا . كان ذلك من الوضوح بحيث كنت أراني في بعض الاحيان أبتعد عنها فجأة ، اذ يؤلمني أن أبقى الى جانبها . ثم انه لم يبق هنالك الا قليل مما يقرب بيننا ، فيما عدا الموسيقى . على أن الاطباء انتهوا أخيرا الى الحيلولة بينها وبين الموسيقى.. أما الكتب فقد أصبح أمرها أعوص وأعسر . ان الكسندرين ميخائيلوفنا لا تدري الآن ماذا ينبغي أن تقرأ معي . فمن الممكن أن نتوقف الآن عند الصفحة الاولى من كل كتاب نقرؤه : كل كلمة يمكن أن تكون تلميحا

الى شيء ، وكل جملة يمكن أن تكون لغزا • وحاولنا كلتانا ان نتحاشى أحاديثنا القديمة ، الملتهبة ، التى تنفذ الى صميم الاشياء ••

فى هذه اللحظة شاء القدر ، ارتجالا ، ودون أن يكون ذلك فى الحسبان ، أن يفرض على حياتى مجرى آخر ، فاذا انتباهى ، وعواطفى ، وقلبى ، ورأسى ، ووجودى كله ، اذا كل ذلك يتجه اتجاها جديدا ، يكتنفه التوتر الحماسى القوى • رأيتنى فجأة ، دون أن ألاحظ ذلك ، أنتقل الى عالم جديد • ولم أستطع أن أرتد الى الوراء ، ولا أن أنظر حولى ، ولا أن أفكر • كنت معرضة للضياع ، وكنت أشعر بذلك ، الا أن الاغراء كان أقوى من الخوف ، فانطلقت على غير هدى ، مغمضة العينين • أهملت الامور التى كانت تقلقنى ، والتى كنت أبحث فيها عن مخرج دون أن أظفر بطائل ، وأنا أشد ما أكون ظمأ الى معرفتها ، أهملت هذه الأمور مدة طويلة • واليكم كيف تطورت الامور :

•••

كان لقاعة الطعام ثلاثة أبواب ، يؤدى أحدهما الى الأجنحة الكبرى ويؤدى الثانى الى غرفة الاطفال ، ويؤدى الثالث الى المكتبة • وكان للمكتبة باب آخر يؤدى الى حجرة العمل ، المتصلة بغرفتى • فى هذه الحجرة كان يستقر عادة سكرتير بطرس الكسندروفتش ، الذى كان يعمل ناسخا وقيماً على البيت فى آن واحد • وكان مفتاح المكتبة فى عهدته • وفى ذات يوم ، بعد العشاء ، بينما كان السكرتير غائبا عن البيت ، عثرت بهذا المفتاح على أرض الحجرة • كان حب الاستطلاع أقوى من أى شيء آخر ، فانتهزت الفرصة ودخلت المكتبة • انها حجرة واسعة ، مضاءة أحسن اضاءة ، تحتوى على ثمانى خزائن مملوءة كتبا • من هذه الكتب عدد كبير انتقل الى يدى بطرس الكسندروفتش بطريق الوراثة ، الا أن

قسما كبيرا منها انما جمعته الكسندرين ميخائيلوفنا التى كانت لا تنقطع عن شراء الكتب .

ولم يكونوا يسمحون لى بالقراءة حتى ذلك الحين الا فى كثير من الحذر .. فلم يكن صعبا علىّ أن أعتقد أن هذه الكتب الممنــوعة عنى تنطوى على سر . لهذا السبب رأيتنى ـ وقد عصف بى ظمأ الى الاطلاع لا يقاوم ، وتملكنى خوف شديد ، وفرح عظيم ، وحماسة كبيرة حقا ـ رأينى أفتح الخــزانة الاولى وأخــرج منهــا كتابا . كانت تلك خــزانه الروايات . ثم أغلقت الخزانة ، وحملت كتابى وفى نفسى شعور غريب ، وفى قلبى خفقان شديد ، حتى لكأننى أوجس التغير الكبير الذى ستحدثه القــراءه فى حياتى . فلمــا عدت الى غرفتى ، أغلقتهــا على ، وفتحت الروايه ..

غير أننى كنت عاجزة عن القراءة . كان يشغلنى أمر آخر ، هو أن أطمئن اطمئنانا نهائيا الى أننى أستطيع دخول المكتبة دون أن ينتبه أحد الى أننى آخذ منها الكتب التى أهواها . وهكذا أرجأت لذة القراءة الى فرصة أخرى ، ومضيت فأعدت الكتاب الى مكانه ، وخبأت المفتاح . كان ذلك أول عمل سيء أقترفه . وانتظرت النتائج !

ولكن الأمور سارت على أحسن ما يرام ، فان سكرتير بطــرس ألكسندروفتش ظل طوال المساء وجزءا من الليــل يبحث عن المفتاح فى أرض الغرفه على ضوء شمعة دون أن يظفر بطائل ، حتى اذا جاء الصباح استقدم قفالا ، ووجد القفال فى جعبته مفتاحا يناسب قفل باب المكتبــة ، فانتهى بذلك كل شيء ، ولم يتحدث أحد بعد ذلك عن المفتاح الضائع . واتخذت من جهتى جميع الاحتياطات ، فى غير قليل من المكر ، فقررت أن لا أجازف فأدخل المكتبة الا بعد انقضاء أسبوع على ذلك ، أى بعد أن

أتيقن من زوال كل شبهة ، وكل خطر • واخترت وقتا كان فيه السكرتير غائبا عن البيت ، فدخلت قاعة الطعام • وينبغى أن أذكر أن السكرتير كان يحتفظ بالمفتاح فى جيبه ، ولكنه لم يكن يذهب الى أبعد من ذلك فيتصل بالكتب ، بل لقد كان لا يدخل حجرة المكتبة أبدا •

ومنذ تلك اللحظة أخـــذت أقرأ فى كـثير من الشره ، وسرعان ما أصبحت القراءة هوى قـويا يملك علىَّ نفسى ، فاذا جميـع حاجاتى الجديدة ، وصبواتى الحديثة ، وجميع اندفاعات مراهقتى ، هذه الاندفاعات التى ما زالت غامضة والتى كانت تقلقنى وتشيع فى نفسى الاضـطراب ، وكل ما قد أثار عقلى المبكر اثارة قوية ودفعه فى اتجاه آخر ، اذا كل هذا يجد مخرجا غير منتظـــر ، فيندفع فيه الى مدى بعيد • كنت كأننى شبعت من ذلك الغذاء الجـــديد شبعا تاما ، ثم وجـــدت الآن طـريقى الصحيحة • وسرعان ما أصبح قلبى من النشوة وأصبح عقلى من الافتتان وأصبح خيالى من قوة التحليق بحيث نسيت كل ما قد أحاط بى حتى ذلك الحين • كأن القدر نفسه سمرنى على عتبة الحيـــاة الجـديدة التى كنت أتحرق شوقا الى الاندفاع فيها ، تلك الحياة التى كنت أحلم بها ليل نهار بلا انقطاع • كأن القدر ، قبل أن يدفعنى فى الطريق المجهولة رفعنى الى قمة عالية ، حتى يرينى مستقبلى فى صورة رائعة أطل عليها من فوق ، صورة تفيض بالآمال الســـاحرة • ان الحظ يتيح لى الآن أن أجـرب مستقبلى ، بقراءته فى أول الامر فى الكتب ، فى أحلامى ، فى آمالى ، فى وثباتى الجامحة ، فى جميع العواطف العـذبة التى تفيض بهـــا روحى الشابة •

وقرأت فى أول الامر الكتب التى تقع بين يدى ، دون تخير ، غير أن ما كنت قد تعلمته وقاسيته حتى ذلك الحين كان من النبل والرفعـة

بحيث كنت لا أستطيع أن أجـــد أية متعة فى قراءة صفحات اباحية أو بذيئة • كانت غريزتى الطفولية ونموى المبكر وماضى كله ، كان هذا كله يحمينى ويحرسنى • وأصبح شعورى الآن ينير كل ما قد وقع لى فى الماضى ، حتى لقد كانت كل صفحة أقرؤها تبدو لى شيئاً أعرفه منذ مدة طويلة : هذه الأهواء ، هذه الحيوات المختلفة المعروضة أمامى فى صور غير منتظرة ، فى لوحات جذابة ، اننى أعرفها من قبل !

وكيف لا أصل الى نسيان الحاضر ، بل والى نسيان الواقع تقريبا ، وأنا أجد فى كل كتاب أقرؤه ثمرات قدر واحد بعينه ، وأجد فيه قانونا تفرضه على الحياة الانسانية روح واحدة هى روح المغامرة ، قانونا مشتقا من قانون أساسى آخر هو شرط السلامة والخلاص والسعادة ؟ لقد كنت أتحسس هذا القانون ، وكنت أحاول أن أحذره بكل ما أوتيت من قوة ، بكل الغرائز التى كان يوقظها فى نفسى الشعور بنوع من الحماية • كنت أشعر اننى معصومة مقدما ، كأن هناك شخصا يرشـدنى ويطلب الىّ أن أكون ساهرة ويقظة ••

والى جانب اندفاعاتى التى كانت تشتد وتقوى يوما بعد يوم ، كانت تضطرم فى نفسى نبوءة حقيقية تجعلنى أؤمن بمستقبلى ، وأؤمن بأن حياتى ستكون حياة فنان تهزه شاعرية جامحه • الا أن خيالى ، كما قلت ، كان يغلب اندفاعى • فكانت جرأتى ، فى الواقع ، لا تتعدى أحلامى • وكانت الغريزة ، ازاء الوقائع الحقيقية ، تردنى الى الخجل • وكأنما أردت أن أكون على اتفاق مع نفسى ، فقررت ــ على غير شعور منى ــ أن أكتفى فى أول الامر بعالم الخيال ، هذا العالم الذى ملكت ناصيته ، هذا العالم الذى ليس فيه الا متعة وفرح ، هذا العالم الذى ليس للشقاء فيه ــ ان وجد ــ الا دور سلبى ، دور موقت ، دور لا بد منه للتناقضات الممتعة ، لتبدلات

القدر التي تمد رواياتي بخواتيمها السعيدة • أو هكذا على الأقل ما أفهمه الآن من حياتي النفسية في ذلك الوقت !

هذه الحياة ، التي ليس فيها شيء غير الخيال ، هذه الحياة الغريبة كل الغرابة عن حياة الاشخاص الذين يحيطون بي ، قد استمرت ثلاث سنوات طوال ••

•••

وكانت هذه الحياة سري المكنون ، الخفي ، أخشى عليه أن يتكشف •• حتى لقد صرت أخشى أية نظرة يلقيها عليّ أحد ، مخافة أن ينفذ الى أعماقي ويكشف عن سري • وعشت حياة داخليـة غنية ، فكنت أرخي العنان لخيالي •• سيما وقد كان كل من في البيت يعيش في عزلة تامة ، بعيدا عن الآخرين ، في صمت كصمت الأديرة ، فكان كل منا يميل الى الانطواء على نفسه والاكتفاء بنفسه ، أو هذا ما حدث لي على كل حال ، فما من شيء تغير من حولي ، خلال هذه السنين الثلاث ، بل احتفظ كل شيء بطابعه المألوف ومظهره المعتاد • فكانت العلاقات بيننا رتيبة ، متشابهة، مملة •• ولولا أن سري كان يواسيني ، ولولا أن نشاطي كان يسليني (أدرك ذلك اليوم) لبلغ بي الضجر مبلغا كان يمكن أن يدفعني الى أي تطرف ، هربا من هذه البيئة الثقيلة الحزينة •• وكان يمكن أن يؤدي ذلك الى هلاكي •

كانت مدام ليوتار قد بدأت تشيخ وتهرم ، فأصبحت لا تكاد تترك غرفتها • وكان الولدان ما يزالان صغيرين ؛ أما «ب» فكان لا يخرج عن سلوكه التي يجري على وتيرة واحدة ، وأما زوج ألكسندرين ميخائيلوفنا فكان محتفظا بعبوسه ، وكبريائه ، ووجهه المقطب ، وكان السر الخفي بينه وبين زوجته ما يزال قائما ، بل كان هذا السر يزداد في نظري خطرا

وتهديدا ، وكنت أزداد خوفا على ألكسندرين ميخائيلوفنا • كانت حياتها الخالية من الفرح ، حياتها العقيمة ، تذوى امام بصرى يوما بعد يوم ، وكانت صحتها تسوء مزيداً من السوء •• وكأن نوعا من اليأس قد سيطر على روحها آخر الامر ، فكان المرء يحس انها ترزح تحت وطأة شيء مجهول ، لا يمكن ادراكه أو تعليله •• شيء فظيع رهيب •• غير انها كانت راضية به رضى من حكم عليه بالصلب فلا مفر !

وقسا قلبها أخيرا بتأثير هذا العذاب الأصم ، بل ازدادت روحها ظلاما وحزنا • وثمة شيء كان يسترعى انتباهي أكثر من أى شيء آخر: كان يلوح لى أنها تبتعد عنى بقدر ابتعادى عن الطفولة ، حتى تطور حذرها منى الى تبرم ثقيل ، وحتى كدت أعتقد في بعض اللحظات أنها أصبحت لا تحبنى البته ، كأنما أنا أزعجها • سبق أن قلت اننى قد ابتعدت عنها فى أول الامر بارادتى ، الا اننى حين فعلت ، شعرت كأن الجانب السرى من طبعها قد سرت عدواه الىّ ، ولهذا السبب فان جميع ما فكرت فيه خلال هذه السنين الثلاث ، وجميع ما نبت فى نفسى من أحلام ومشاعر وآمال وأهواء وحماسات ، قد احتفظت به سرا لنفسى ، لم أطلع عليه أحدا • فلما أصبحنا سرين ، لم نتقارب بعد ذلك أبدا ، رغم أن عاطفتى نحوها قد اشتدت وقويت أكثر من أى وقت مضى •

•••

لا أستطيع أن أتذكر ـ دون أن أبكى ـ كم كان تعلقى بها شديدا ، وكم أغدقت علىّ من كنوز حبها ، هذا الحب الذى شاء أن يقوم بوظيفته نحوى الى آخر درجاته ، الى درجة حب الأم • والحق أن تباريحها الكامنة كانت تجعلها تهملنى فى بعض الاحيان حتى لكأنها نسيت وجودى، وحاولت جهدى أن لا ألفت انتباهها ، حتى استطعت أن أبلغ السادسة

عشرة من عمـــرى دون أن يفطن أحد الى ذلك • الا أن الكســندرين ميخائيلوفنا كانت فى لحظات تيقظ الضمير تلقى على من حولهــا نظرات صافية جدا ، فاذا هي فجأة ، وقد تملكها قلق علىّ ، تدعونى الى غرفتها ، وتنتزعنى من دروسى أو مشاغلى ، وتغمرنى بوابل من الاسئلة ، كأنهـا ظمأى الى معرفتى على أكمـل نحو ، ثم لا تتركنى خـلال أيام برمتها ، محاولةً آن تحزر كل ما يسهوينى ، وان تدرك جميع رغباتى ، لا يعنيها شىء غير نموى وتطـــورى ، غير حالتى الراهنـة ومســتقبلى ، مبديه استعدادها لأن تساعدنى بكل ما فى قلبها من مشاعر الاعجاب وعواطف المودة والحب •

غير أنها وقد كانت بعيدة عنى في تلك الفترة ، كانت تعمد في سبيل ذلك الى وســائل ساذجة مسرفة في الســذاجة ، وكنت أدرك نياتهـا ومقاصدها بسهوله • وفدرت هى فجأه اننى ما تعـدين فى قراءاتى كتب الأطفال الذين لم يتجاوزوا الثانيه عشرة من العمر ، فهالها ذلك كثـيرا ، وحزرت أنا سبب شعورها ذاك ، ولاحظته في كثير من الانتباه ؛ ولقـد ظلت بعد ذلك أسبوعين كاملين كأنما هى « تختبرنى » ، لتقف على درجة نموى ، ومدى كفاءاتى ، ثم عزمت أمرها أخيرا ، فظهر على طاولتنا كتاب (ايفانويه) ، الذى كنت قد قـرأته قبـل ذلك ثلاث مرات على الاقل ، فكانت تراقب انفعالاتى فى خجل يقظ ، كأنما هى تخشى هذه الانفعالات• وأخيرا زال من بيننا هذا التوتر ــ وكان بالنسبة الىّ ظاهريا ــ وتحمسنا كلتانا للرواية ، وبلغت من فرحى اننى كدت أعترف لها بكل شيء••وحين وصلنا الى النقطة التى تنحل فيها عقدة الرواية كانت حماستها قد بلغت أوجها • وكانت كل ملاحظة من المـلاحظات التى أبديهـا أثناء القـراءة صائبة ، وكل رأى أسوقه صادقا ، فأدركت « ألكسندرين ، أن نمـوى سريع مبكر ، وهزت هذه الفكرة عاطفتها ، بل أثارت اعتزازها ، فأخذت

تتابع تربيتي مرة أخرى في كثير من الحماسة ، وانتوت أن لا تتركني لنفسي بعد الآن أبدا •• غير أن ذلك لم يكن في مقدورها ، فقـــد تكفل القدر بالتفريق بيننا ، وبالحيلولة دون تقاربنا من جديد •• فها هي تصاب بنكسة في صحتها ، وها هو حزنها الابدى يعـود فيـلازمها ، وها نحن نتباعد ، ثم تزول الألفة ، ويحل محلها الحذر والتهكم ، وربما الاهمال والبغض !

• • •

غير أن ثمة دقائق كانت ، حتى في تلك الفترة ، تفلت من رقابتنا ، فكانت القراءة المشتركة أحيانا ، وبعض كلمات التودد التي ترسلها احدانا فجأة ، والموسيقى ، تجعلنا ننسى كل شيء •• بل تجعلنا نفرط في النسيان أحيانا ، حتى لتلبث احدانا بعدئذ كأنها خجلى من الاخرى •• وما هي الا لحظات من التفكير حتى تنظر كل منا الى صاحبتها في استطلاع حذر هو الى الخوف أدنى ، وتشعر كل منا أن ثمة حاجزا يقف عنده تقاربنا ، واننا لا نستطيع أن نجتاز هذا الحاجز رغم رغبتنا في ذلك •• !

وذات مسـاء ، سـاعةَ الغسـق ، كنت في مخـدع الكسـندرين ميخائيلوفنا ، أقرأ في كتاب من الكتب ذاهـلة • وكانت هي تعـزف على البيانو ألحانا مرتجلة مستلهمة من لحن ايطالي تؤثره ، حتى اذا وصلت الى مقطع معين من هذا اللحن ، رأيتني وقد دبت حماسة الموسيقى في قلبي آخذ في الغناء بصوت خافت خجول ، ثم لا ألبث وقد ازدادت حماستي أن أنهض من مكاني وأقترب من البيانو •• وكأن الكسندرين ميخائيلوفنا أدركت اهتمامي هذا ، فأخذت تصاحب بعزفها كل نغمة من النغمات التي كنت أغنيها ، وهي أشد ما تكون دهشة ••

لقد فاجأها صوتي مفاجأة كبيرة • لم أكن قد غنيت أمامها أبدا قبل

تلك اللحظة . ثم اننى كنت أجهل ـ أنا نفسى ـ مقدرتى فى الغناء . وأخذنا الآن نتبارى ، صرت أرفع صوتى أكثر فأكثر ، وهى تتابع غنائى بعزفها ارتجالا ، وتزداد دهشة وحماسة ، ويزيد ذلك فى حماستى أنا الأخرى .. حتى فرغنا ، فاذا هى من اعجابها تمسك يدى فى تأثر قوى، وتنظر الىّ فرحة وهى تقول :

ـ آنيت .. آنيت . ان لك صوتا رائعا ! رباه ! كيف أمكن أن لا ألحظ ذلك ؟

فأجبت وقد غمرنى فرح شديد :

ـ لم أكن أعرف ذلك أنا الاخرى .

ـ ليباركك الله ، أيتها البنية التى لا تعرف الكبرياء ولا الزهو ! اشكرى الله على ما أودع فيك من مواهب . من يدرى ... آه ، رباه ! رباه !

كانت من شدة التأثر لهذا الاكتشاف غير المنتظر ، وكان فرحها من شدة الفيض ، بحيث لم تعرف ماذا تقول ولا كيف تداعبنى . كانت تلك لحظةً من صراحة تامة ، ومودة متبادلة ، وتقاربٍ بَعُدَ عهدنا به كثيرا، وما هى الا ساعة حتى كان البيت كله فى عيد ، وأرسلوا يستدعون «ب» على الفور !

وفى انتظار وصوله ، فتحنا على غير هدى دفترا موسيقيا آخر أعرفه معرفة أتم ، لنجرب لحنا ثانيا . وكنت فى هذه المرة أرتعد خجلا ووجلا. كنت أخاف أن أخفق فأفسد الأثر الأول .. لكن جرس صوتى سرعان ما طمأننى ورد الىّ شجاعتى ، وازدادت حيرتى ودهشتى من هذه القوة التى أملكها ، ولم يبق بعد هذه التجربة الثانية من شك . وطفح فرح

الكسندرين ميخائيلوفنا ، فاستدعت ولديها ، بل واستدعت خادمتها • ثم طفحت حماستها أكثر من ذلك فمضت الى زوجها في حجرة عمله تستدعيه ـ وهو أمر ما كان لها أن تسمح لنفسها به في الاحوال العادية !ـ وأحسن بطرس الكسندروفتش استقبال النبأ ، وهنأني ، وكان اول من قال ان عليّ أن أتلقى دروسا ، فشعرت الكسندرين ميخائيلوفنا من اقتراحه هذا بسعادة كبيرة ، بل قبلت يديه عرفانا بالجميل ، كما لو كان ينعم عليها هي بشيء !

وأخيرا وصل «ب» ، وكان يحبني كثيرا ، فصرح بأنه سعيد بالنبأ ، وتحدث عن أبي وعن الماضي ، ثم بعد أن غنيت أمامه مرتين أو ثلاثا أعلن وقد لاحت في وجهه علائم الهم أني مؤهلة للغناء من غير شك ، وانني قد أكون موهوبة ، وان من الضروري أن يثقف صوتي على كل حال • ثم كأن «ب» والكسندرين ميخائيلوفنا شعرا بأنهما أسرفا في الثناء فبادرا الى القول بأن امتداحي على هذا النحو خطر جدا ، ورأيتهما في الوقت نفسه يتغامزان خلسة ، فيفضحان بذلك تآمرهما علي ، وهو تآمر مسرف في السذاجة ، مسرف في الخراقة على كل حال ، وظللت أتسلى بالنظر اليهما طوال السهرة ، وكانا بعد كل لحن جديد أغنيه يحاولان أن يحبسا فرحهما ، ويتعمدان أن يعلنا جهارا بعض الملاحظات عن أخطائي•

لكنهما لم يستطيعا أن يلتزما هذا الموقف مدة طويلة ، وكان « ب » أول من فضح نفسه من فرط ما ظهر عليه من بشر وحبور ـ ولم أكن أتصور أنه يحمل لي كل هذه العاطفة ـ وجرى الحديث خلال السهرة كلها وديا حارا • وقص علينا «ب» حياة بعض المغنين المشهورين ، فكان يقصها في حماسة الفنان وقوة حبه وعمق عاطفته •• ثم ارتد الى أبي ، وتحدثنا عني ، وعن طفولتي ، وعن الامير وعن أسرة الامير ، التي لم

أسمع أحدا يتحدث عنها الا قليلا منذ مدة طويله • ولم تكن الكسندرين ميخائيلوفنا نفسها تعرف من أنبائها الا النزر اليسير • وكان « ب » أكثر اطلاعا على شئونها لانه سافر الى موسكو عدة مرات • لكننا حين وصلنا من حديثنا الى هذا الموضع تلفع الكلام بأسرار وأحاج فلم أفهمه ، ولا سيما ملاحظتان أو ثلاث تتعلق بالامير ، لم أستطع أن أدرك كنهها البتة ! •• واستفهمت الكسندرين ميخائيلوفنا عن « كاتيا » أيضا ، غير أن « ب » لم يستطع أن يقول بصددها أي شيء واضح ، حتى لقد بدا أنه يؤثر أن لا يقول شيئا !

وفجأني ذلك كثيرا • انني لم أنس حبي لكاتيا ، حتى لقد كنت لا أستطيع أن أتصور — لحظة واحدة — أن قد طرأ على كاتيا أي تغير مهما يكن شأنه • لقد غاب عني حتى تلك اللحظة كل شيء : فراقنا ، والسنوات الطويلة التي قضيناها بعيدتين احدانا عن الاخرى دون أن نتكاتب ، واختلاف التربية ، واختلاف الطبع •• ولم تكن كاتيا قد بارحت خيالي أبدا • كانت لا تزال تعيش الى جانبي ، ففي أحلامي ، في رواياتي ، في مغامراتي الخيالية ، كنا نسير دائما جنبا الى جنب ، وقد تأبطت كل منا ذراع الاخرى • كنت اذا تخيلت نفسي بطله الكتاب الذي أقرؤه سرعان ما أفسح لصديقتي الاميرة مكانا الى جانبي ، وسرعان ما تنقسم الرواية قسمين ، أحدهما من اختراعي !

والخلاصة : لقد قرر مجلس الاسرة استدعاء أستاذ يعلمني الغناء ، وأوصى « ب » بأستاذ هو أشهر الأساتذة وأقدرهم ، فما ان أتى اليوم التالي حتى حضر الينا الايطالي « د » ، فسمع غنائي ووافق على رأي صديقه «ب» ، ثم أضاف الى ذلك انني اذا ذهبت الى حضور دروسه مع تلامذته الأخرين كان ذلك أعود بالنفع علي ، لأن التنافس هنالك سيحملني

على زيادة العناية بتثقيف صـــوتى ، كما ان المقـارنة بين أصوات كثيرة ستفيدنى فى اثراء صوتى • ووافقت السكندرين ميخائيلوفنا عــلى ذلك ، وصرت منذ ذلك الحــين أذهب ثلاث مرات فى الاســبوع الى دروس (الكونسرفاتوار) ، تصحبنى وصيفة •

والآن أريد أن أقص حادثا غريبا كان له فى نفسى تأثير كبير ، بل كان فاتحة حياة جديدة • كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمرى ، وقد أصبت فجأة فى ذلك الحين بنوع من تبلد الحس وخمود العاطفة ، لاسبيل الى دفعه • كنت أعانى ضربا من فراغ النفس رهيبا ، لا يطاق ولا يفهم • كان خيالى قد كبا ، وكانت وثباتى قد انطفأت ، وكانت أحلامى قد تبددت حتى لكأننى لا أستطيع أن أحلم ! وحل محل الحماسـة القديمـة فتور شديد ، حتى ان موهبتى التى كان يعترف بها الجميع والتى كنت فخورة بها قد فقدت كل بريق ، وصرت أهملها دون أن أشعر من هذا الاهمـال بأى ندم • لم يبق ثمة شىء يشوقنى أو يجـــذبنى ، حتى ان السكندرين ميخائيلوفنا أصبحت لا تثير فىّ الا البرودة ، وكنت ألوم نفسى على ذلك ، سيما واننى لم أكن أستطيع الا أن ألاحظه • وكان تبلد شعورى مشـوبا بحزن لا علة له ، ونوبات من البكاء مفاجئة • وصرت أنشـد الخلوة والوحدة •

فى تلك الفترة هزنى هذا الحادث الغريب الذى سأقصــه الآن ، وقلب نفسى رأسا على عقب ، وأحال الخدر الى عاصفة • لقد جرح قلبى جرحا هائلا •• واليكم كيف تم ذلك :

الفصل الثامن

دخلت المكتبة ذات يوم (وتلك لحظة لن أنساها ماحييت) فتناولت رواية من تأليف « والتر سكوت » هي (مياه سان رونان) • انها الكتاب الوحيد الذي لم أقرأه بعد• مازلت أذكر أن نوعا من القلق المر كان كأنما يجعلني أوجس أمرا • كانت بي رغبة في البكاء • وكان النور في الغرفة ساطعا بأشعة الشمس الغاربة التي تتدفق في أرجاء الغرفة من النافذة العالية وتنعكس على البلاط المتلألئ •• وكان يسود ثمة سكون تام • ما من مخلوق في الغرف المجاورة •• كان بطرس الكسندروفتش غائبا عن البيت ، والسكندرين ميخائيلوفنا تعاني من آلام مرضها ، فهي تستريح في سريرها •

وطفقت أبكي دون أن أستطيع حبس دموعي ، ثم فتحت الكتاب من نصفه الثاني وقلبت بضع صفحات على غير هدى ، كأنما أريد أن أحزر شيئا ما ، من نهايات الجمل التي تخطر أمام عيني • كنت كأنني أفتش عن نبوءة أو فأل ، كما يفعل بعض الناس حين يفتحون كتابا من الكتب على

غير هدى • ثمة لحظات يريد فيها المرء أن يوتر عقــله وقواه الى أقصى حدود الالم ، حتى تنبجس المعرفة كشرارة ، فاذا بطيــوف من النبــوءة تجتاح النفس المرتعشة ، النفس القلقة لتنبؤها بالمصير الذى ينتظرها • ان كياننا كله ، وقد جرفه الظمأ الى الحياة بأى ثمن ، يستسلم عندئذ للأمل ، مهما يكن هذا الأمل أعمى ومهما يكن عنيفا ، وينادى المستقبل بكل مافيه من مجهول ومن سر ، يناديه أن يأتى ان صح التعبير ، يناديه ولو كان مشحونا بالعواصف والزوابع ، حسبه منه انه الحياة ••• كنت أجتاز لحظة من تلك اللحظات •

وطويت الكتاب ، ثم فتحته مرة أخرى مؤمّلة أن أقرأ مستقبلى فى الصفحة التالية التى تقع تحت بصرى عرضا •• فاذا أنا أرى فى داخله رسالة مطوية أربع طيات يظهر من شدة انضغاط حوافيها أنها ُنسيت فى هذا الكتاب منذ مدة طويلة • نظرت الى الرســالة فى كثــير من حب الاستطلاع • كانت بلا عنوان ، مذيلة بهذا التوقيع : « س • و » ••• واشتد انتباهى • نشرت طيات الرسالة ، وكانت أشبه بالملتصقة ، مصفرةً ، متهرئة ، وكان واضحا أن صــاحبها قد قرأها وأعاد قراءتها مرارا ، ثم حفظها فى هذا المكان كما يحفظ كنز من الكنوز !

وكان الحبر قد شحب ، من ُبعد عهد الكتابة ••• وقفزت الى عينى بضع كلمات ، فأخذ قلبى يخفق خفقانا قويا من شدة الانفعال • واضطربت اضطرابا شديدا ، فصرت أقلب الرسالة بين يدى دون أن أصمم على البدء بقراءتها • ونظرت اليها فجأة من خلال النور: نعم ! ان دموعا قد جفت على وريقاتها ••• وما زالت بقعهــا فوق الورق ، بل ان بعض الكلمات قد أمحت بتأثيرها أو تشوهت • من عسى أن يكون ساكب هــذه الدموع ؟ وأخيرا قرأت نصف الصفحة الأولى ، فصعقت من فرط الدهشة وانطلقت

من صدرى صرخة • أعدت الكتاب الى مكانه • وأغلقت المكتبة ، ودسست الرسالة فى صدرى ، وعدوت الى غرفتى ألوذ بها لأستأنف القراءة • كان قلبى يدق دقا عنيفا حتى لقد كانت الكلمات تترنح وتتراقص أمام عينى • ولم أستطع أن أفهم الا بعد مدة طويله •

ان هذه الرسالة تكشف لى عن السر الذى كان يقلقنى كثيرا •• ووقعت الرسالة من نفسى موقع الصاعقة ، لأننى حزرت صاحبها الذى وجهت اليه • كنت أعلم اننى بقراءة هذه الرسالة اقترف عملا سيئا ، الا أن الامر كان أقوى منى ، فلم أستطع أن أمنع نفسى عن قراءتها • كانت الرسالة موجهة الى ••• الكسندرين ميخائيلوفنا •

لسوف أنسخ لكم هذه الرسالة • كنت قد فهمت موضوعها فهما غامضا ، وبعد أن قرأتها ثم أعدت قراءتها لازمت فكرى بل حاصرته حصارا شديدا ، وكأن حياتى قد تحطمت منذ تلك اللحظة ، لأن هذه الرسالة كانت نبوءة حقا ، أدخلت الى قلبى الذعر والثورة الى أمد بعيد ، ان لم يكن الى الابد • لقد تطيرت من مستقبلى !

انها رسالة وداع ، رسالة تمزق القلب تمزيقا • وانقبض صدرى بعد أن قرأتها كأننى فقدت كل شىء ، كأنما انتُزع منى كل شىء ، حتى الحلم والرجاء ، كأنما لم يبق لى شىء على الاطلاق ، الا حياة عقيمة غير ذات جدوى !

تُرى من كاتبُ هذه الرسالة ؟ ان الرسالة تشتمل على تلميحات كثيرة ، على وقائع كثيرة ، فلا يمكن أن يُخدع المرء فى أمرها ، ولكنها تشتمل فى الوقت نفسه على ألغاز كثيرة ، حتى ليضيع المرء بصددها فى ظنون وتخمينات ! •• على اننى فهمتها فهما صائبا • كان الاسلوب وحده

يقول أشياء كثيرة عن قيمة العلاقات التي تحطمت فسحقت قلبين • انأفكار كاتب هذه الرسالة وعواطفه معروضة عرضا واضحا ، انها أفكار وعواطف شخصيه ، وهي كما قلت كافية لتكشف لى عن السر • ولكن اليكم نص هذه الرسالة ، نسخته كلمة كلمة :

« قلت انك لن تنسيني • وأنا أصدقك ، وسأعيش بعد الآن بهـذا القول • يجب أن نفترق • لقـد دقت ساعتنا ! ولقد كنت ، يا عزيزتي الرقيقية الحزينة ، أعرف ذلك منذ زمان طويل ، غير انني لم أفهمه الا اليوم • طوال العهد الذى أحببتني فيه ، كان قلبي ، رغم حبك ، قلقـا معذبا في كل لحظة • هل تصدقين انني من شدة ما تألمت في سبيل حبنـا أشعر الآن بشيء من الراحة ؟ كنت أعرف منذ زمان طويل ان علاقاتنـا ستنتهي لا محالة ، وان القطيعة قد كتبت علينا منذ البداية ! ذلك قـدر محتوم •• اسمعي ، ياألكسندرين، اننا لم نكن متكافئين، لقد شعرتبذلك دائما ، دائما • لم أكن جديرا بك ، فعليّ أن أتحمل وحدى اذن جزاء سعادتي الذاهبة ! قولي ، ماذا كنت قبل أن أعرفك ؟ رباه ! هاتان سنتـان تنقضيان ، وما زلت الى الآن لا أستطيع أن أفهم لمـاذا أحببتني أنت ! لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يقع شيء كهذا ؟!

« ما أنا اذا قورنت بك ؟ هل كنت جديرا بك ، حتى تلتفتي اليّ ، وحتى تختاريني ؟ لقد كنت رجلا فظا ، غليظا ، أخرق ، عبوسـا • ولم أكن أصبو الى حياة أخرى ، لم تكن بي حاجة لا الى معرفة حياة أخرى ، ولا الى نداء حياة أخرى • كان كل شيء قد اختنـق في نفسي حتى كنت لا أرى في الدنيا ما هو أهم شأنا من عملي اليومي الموحش •

« وكان قد بقي لي شاغل واحد ، هو الغد ، بل كنت لا أحفل حتى بهذا الأمر • وقبل ذلك الحين ، قبل ذلك الحـين بمدة طويلة ، كنت استشف بعض الاشياء وأحلم كما يحلم غبي من الاغبياء • ولكن كان قد

انقضى على ذلك زمان طويل ، طويل جدا ، وأصبحت من الاستقرار فى حياتى المنزويه الكالحة الهادئه بحيث لا أشعر حتى بالصقيع الذى يجلد قلبى . كان قلبى يغط فى نوم عميق . ثم قلت لنفسى انه لن تشرق على قلبى شمس .. كنت أؤمن بذلك ، ولا أتمرد عليه ، لعلمى بأن الأمر يجب أن يكون على هذا النحو . وحين مررت بى ، لم أستطع أن أفهم أن فى وسعى أن أجرؤ على رفع بصرى اليك : كنت أمامك عبدا . ولم يخفق قلبى ، ولا انقبض ، ولا انجذب . لم تزد دقات قلبى قوة . ولم تعرف روحى روحك ، وان أحست بهذا الضوء الناعم يشع من أختها الرائعة .

« على ان احساسى هذا كان غامضا أصم . كنت قادرا على الشعور به لأن آخر حشرة من الحشرات التى يغرقها نور الشمس تشعر بالدفء والدغدغة مثلما تشعر به الزهرة المتألقة التى تحتمى بها الحشرة ! ... وحين فهمت كل شىء فى ذلك المساء ، بعد الاقوال التى هزت أعمق أعماق نفسى ، عميت عيناى ، وطاش صوابى ، هل تذكرين ؟ ودار فى نفسى كل شىء ، وبلغ انفعالى من القوة أن اعتقدت أننى لا أفهم ، هل تعلمين ؟ لم أحدثك عن شىء من هذا فى يوم من الايام ، ولم تعرفى عنه شيئا البتة . لست الآن ماكنته قبل أن أعرفك . ولو قد استطعت أن أحدثك ، لو قد جرؤت أن أحدثك ، لاعترفت لك بهذا كله منذ زمان طويل . غير اننى سكت ، واذا كنت أقول لك ذلك الآن ، فلكى تعرفى من هذا الذى تتركين ، من هذا الرجل الذى تفارقين !

« هل تعلمين متى بدأت أفهمك ؟ لقد ألهبنى الهوى كالنار ، نفذ الى دمى كالسهم ، وهز قلبى ورأسى جميعا . كنت سكرانا ، كنت مشلولا ، كنت مخدرا ، فلم أزد على أن أستجيب لحبك النقى ، لحبك الرءوف الحنون الرحيم ، دون أن أشعر أننى كفء لك ، دون أن أكون جديرا

بك • كنت لا أعـرفك ، وأستجيب لك اسـتجابني لمن كانت في نظـرى تهبط الى ، لا استجابتى لمن كانت تريد أن ترتفع بى اليها • هل تعلمين ماذا ظننت فيك ، وماذا تعني هذه الكلمة : الهبوط الى ؟ ولكن لا ، لا أريد أن أسيء اليك باعتراف كهذا • على أننى أحب أن أؤكد لك شيئا : لقـد خدعت في أمرى كثيرا ، فما كان يمكن أن أرقى اليك فى يوم من الأيام• وبعـد أن فهمتك ، أصـبحت لا أستطيع الا أن أتأملك ، أنت التى كنت لا أستطيع أن أرتفع اليك ، والتى أحببتنى هذا الحب القوى •

« غير أن ذلك لا يكفر عن خطئى • ان حبى الذى شرف بك لم يكن حبا • كنت أخشى الحب ، وما كان لى أن أبيح لنفسى أن أحبك • لأن الحب يقوم على وصال روحي لست جديرا به ، وعلى مساواة لست أهلا لها ! •• كنت أجهل ما بنفسى ! أواه ! كيف أقول هـذه الأشياء ، كيف أفهمك اياها ؟ فى أول الامر لم أستطع أن أصدق ••• آه ! هـل تذكرين ، بعد هدأة الانفعال الاول ، حين استطاعت عيناى المضطربتان ان تريا رؤية واضحة • هل تذكرين كيف ان شعورى الاول عنـدئذ كان دهشة وحيرة وهلعا ، وكيف اننى ارتميت على قدميك أشهق وأنتحب ؟ هل تذكرين كيف انك سألتنى ، مرتاعة ، عما بى ؟ لقد سكت يومئـذ ، لأننى كنت لا أستطيع أن أجيبك • كانت السعادة قد مزقت نفسى • كانت السعادة تسحقنى سحقا كحمل ثقيل • وكانت دموعى تقول لى : « عـلام وهب لى كل هذا ؟ فيم أستحقه ؟ كيف أكون أهلا لمثل هذه السعادة ؟

« أختاه •• يا أختى العزيزة ، يا أختى الحبيبة ••• آه •• كم مرة قلبت ثوبك خفية ، دون أن يدور ذلك فى خلدك ، لعلمى بأننى غـير خليق بك ! وكانت أنفاسى تختنق ، وكان قلبى يأخذ فى خفقان بطىء • كان يدق دقات قوية صماء ، كأنه يوشك أن يتوقف الى الابد • وكنت

حين أمسك يديك ، أشحب وأرتجف ، لأن صفاء روحك كان يخجلني ويرهبني ! أواه • اننى عاجز عن أن أقول لك كل ما تجمع فى قلبى ، كل ما كنت أود أن أعبر لك عنه • هل تعلمين أن حنانك ورقتك الدائمة كانا يؤلمانى ؟ حين قبلتنى (ولقد حدث هذا مرة لن أنساها ما حييت) شعرت بضباب يغشى عينى ، وشعرت بنفسى كلها تذوب دفعة واحدة ! •• لماذا لم أمت في تلك اللحظة على قدميك ؟ ترين أننى أخاطبك الآن بصيغة المفرد ، لأول مرة ، رغم أنك طلبت الىّ ذلك منذ زمان طويل • هل تفهمين ماذا أعنى بذلك ؟ •• اننى أريد أن أقول لك كل شيء ، وسأقول لك كل شيء : نعم ، انك تحبيننى كثيرا ، تحبيننى كما تحب أخت أخاها ، وتحبيننى كما يحب خالق مخلوقه ، لأنك أحييت قلبى : لأنك أنقذت روحى من خدرها ، لأنك غرست فى صدرى أملا عذبا ، أما أنا فلم أستطع ، لم أجرؤ • اننى حتى الآن لم أستطع أن أناديك يا أختاه ، لأننى لا أقدر أن أكون أخاك ، لأننى لست كفئا لك ، لأنك خدعت فى أمرى !

« ترين اننى لا أتحدث الا عن نفسى • حتى فى هذه اللحظة التى أعانى فيها شقاء فظيعا ، لا أفكر الا فى نفسى ، رغم علمى بأنك تتعذبين قلقةً على مصيرى • آه • لا تتعذبى من أجلى ، يا صديقتى الحنون • هل تعلمين الى أى حد أشعر بالصغار فى نظر نفسى ؟ لقد اكتُشف كل شيء وأثير حوله صخب كثير ! •• ولسوف ينبذونك بسببى ، لسوف يغرقونك بالاحتقار ، لسوف يسخرون منك ، لأننى فى نظرهم مخلوق حقير جدا ! •• أواه ! •• ما أكبر جريمتى لأننى لم أكن جديرا بك ! •• لو قد كنت أخطر منزلة ، لو قد استحققت الاحترام على نحو ما يفهمونه ، لو قد كنت شخصية فى نظرهم ، اذن لغفروا لك ! ••• ولكننى امرؤ نكرة لا قيمة له البتة ، امرؤ مضحك ، وهل أسوأ من أن يكون المرء مضحكا ؟

« وفى الواقع ، من هم الذين استنكروا ونادوا بالويل والثبور ؟ •• ولان أمثال هؤلاء الناس استنكروا ، فقدت أنا صوابى • لقد كنت دائما رجلا ضعيفا • هل تعلمين فى أية حال أنا الآن ؟ •• اننى أسخر من نفسى ، ويلوح لى انهم على حق ، اذ لا يمكن الا أن أكون مضحكا وكريها •• اننى أشعر بذلك • اننى أكره وجهى ، أكره كيانى كله ، أكره عاداتى التى ليس فيها شىء من اللباقة واللطف • ولقد كرهتها دائما • أواه ! اغفرى لى يأسى الفظ • لقد علمتنى أن أقول لك كل شىء • ولقد فقدتك الآن ، وجلبت لك السخط والقهقهات الساخرة • لأننى لم أكن جديرا بك •

« ان هذه الفكرة تعذبنى • انها تدور فى رأسى بلا توقف ، انها تضنينى وتسمم قلبى • يتراءى لى دائما انك لم تحبى الا الرجل الذى حسبت انك ترينه فىّ •• يتراءى لى دائما انك ُخدعت فى أمرى • ذلك ما يؤلمنى ، ذلك ما يعذبنى حتى ليكاد يميتنى ، ذلك ما ُيطيش لبى ويفقدنى عقلى ، ويجعلنى أشبه بمجنون !

« وداعا ، اذن • وداعا • الآن وقد عرفوا كل شىء •• الآن وقد صرخوا ما شاء لهم الصراخ ، وأنبوا ما شاء لهم التأنيب (سمعتهم يفعلون !) •• الآن وقد صغرت فى نظر نفسى •• الآن وقد شعرت بالعار يجللنى ، وشعرت بالعار يلطخك أيضا لأنك اخترتنى •• الآن وقد لعنت نفسى ، فقد وجب علىّ أن أهرب ، أن أختفى ، لأوفر لك الهدوء • لن ترينى بعد الآن أبدا ، أبدا • يجب أن أختفى ، ان القدر يأمر بذلك ! •• لقد وهب لى القدر أكثر مما أستحق • لقد أخطأ القدر ، وها هو يتلافى الآن خطيئته ويسترد كل شىء • لقد تقاربنا وعرف كل منا الآخر ، وها نحن الآن ننفصل الى لقاء آتٍ •• ُترى أين يكون هذا اللقاء الآتى ، ومتى يكون ؟

•• آه ! قولى لى ، يا حبيبة ، أين عسانا نلتقى ؟ •• أين ينبغى أن أمضى باحثا عنك ، وهل أعرفك اذا لقيتك ، وهل تعرفيننى اذا لقيتنى ؟ •• ان روحى كلها ملآى بك ، أواه ! لم هذا العقاب ؟ •• لماذا ننفصل ؟ قولى لى ـ فانى لا أفهم لأننى أصبحت لا أدرك شيئا ـ قولى لى كيف يمزق المرء حياته جزئين ؟ •• كيف ينتزع قلبه من صدره ، كيف يعيش بلا قلب ؟ آه •• لا أستطيع أن أتصور اننى لن أراك بعد اليوم أبدا ، أبدا أبدا !

« رباه •• ما أشد ما صرخوا ! •• لكم أخاف عليك الآن ! •• لقد لقيت زوجك منذ قليل • اننا كلينا غير جديرين به ، رغم اننا لم نجرم فى حقه • انه يعرف كل شىء • لقد رآنا ، وانه ليفهم كل شىء • منذ مدة طويله أصبح كل شىء واضحا أمام باصرته وضوح النهار • لقد دافع عنك دفاع البطل ، وسينقذك • سيخلصك من هذه المناقشات ومن هذه الصرخات ، انه يحبك كبيرا ويقدرك كبيرا • هو ينقذك وأنا أهرب ! •• لقد ارتميت عليه أريد أن أقبل يده •• فطلب الىّ أن أمضى على الفور ، ونفذت الأمر • يقال انه قد تخاصم معهم بسببك • جميعهم هناك ضدّك • حتى لقد اتهموه بالمجاراة والضعف • يا الهى ! ما عساهم قائلين أيضا ؟ انهم لا يعرفون ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا ، انهم عاجزون عن الفهم ! سامحيهم يا عزيزتى المسكينة ، كما أسامحهم أنا ، انهم قد اضطهدونى أكثر منك بكثير ••

« لم أعد أفهم ، لم أعد أعرف ماذا أكتب اليك • ماذا قلت لك أمس مودّعا ؟ •• لقد نسيت • كنت خارجا عن طورى •• وكنت تبكين ••• اغفرى لى هذه الدموع •• اننى ضعيف • اننى جبان !

« كنت أريد أن أقول لك شيئا آخر أيضا • آه ! ليتنى أستطيع مرة أخرى أن أغرق يديك بالدموع كما أغرق هذه الرسالة فى هذه اللحظة !

.. ليتنى أستطيع أن أجثو مرة أخرى عند قدميك . آه ! .. ليتهم يعلمون شيئا عن جمال عاطفتك ! .. لكنهم عمى وليس فى قلوبهم الا الزهـــو والـكبرياء .. انهم لا يرون ، ولن يروا ابدا ! .. انهم عاجـزون عن ذلك ! لن يصدقوا انك بريئة طاهرة ولو أنى أهل الارض جميعا يعلنون ذلك أمام محكمتهم ، انهم لا يستطيعون أن يفهموا شـــيئا . أية أحجار سيرجمونك بها أيضا ؟ .. أية ذراع سترفع حجرا قبل الجميع ؟ ... آه ، انهم لن يخجلوا ، سيرفعون ألف حجر ! .. سيجرؤون عـلى رفع الاحجار ، لأنهم يعرفون معنى ذلك : سيرفعون أحجارهم جميعا فى وقت واحد ، وسيقولون انهم يتحملون تبعة ذلك لأنهم بلا خطيئة ! .. آه ليتهم علمـوا ماذا يفعـلون ! .. ليت في الامـكان أن يروى لهم كل شىء بلا اكراه ، عسى أن يروا ويسمعوا ويفهموا ويصدقوا ! ولكن لا ، انهم ليسوا أشرارا الى هذا الحد .. لعلنى أقول فيهم سوءا لأننى فى حالة من الانهيار واليأس . ولعل مخاوفى أن تولد فيك شيئًا من الهلع .. فلا تخشـــهم ، ولا تخشى شيئا ، يا حبيبتى . سيفهمونك . ألم يفهمك واحد منهم ؟ نعم. انه زوجك فلا تقطعى الرجاء .

« وداعا ، وداعا . ولا أقول لك شكرا ، وانما أقول لك وداعا .. الى الأبد .

س . و

◆ ◆ ◆

بلغت من الاضطراب ــ على اثر قراءتى الرسالة ــ اننى ظللت مدة طويلة لا أعى ما حدث لى . كنت مذعـورة منهـارة فى آن واحد . ان الواقع يدخل فجأة فى هذه الحياة الغنية الحالمه التى عشتها منـــذ ثلاث سنوات . أدركت هلعـة اننى أقبض على سر خطير ، وان هـــذا السر

يربط منــذ الآن كل وجــودى •• كيف ؟ لا أدرى ، ولكننى كنت على يقين من ان مستقبلى يبدأ بهده اللحظة نفسها • أصبح لا بد لى الآن ، رغما عنى ، من أن أشارك مشاركة وثيقة فى حياة وعلاقات هؤلاء الذين كانوا الى ذلك الحين عالمى كله •

وتملكنى الخوف : كيف أدحل فى صميم حياتهم ، أنا التى لم أدع الى ذلك ، أنا الغريبة ؟ •• ماذا عسى أن أحمل لهم ؟ •• وكيف يمكن أن تنحل هذه الروابط التى ربطتنى بسرّ غيرى على حين فجأة ؟ •• أين السبيل الى معرفة ذلك ؟ •• لعل دورى الجديد أن يربكنى ويربكهم معا؟ •• لست أستطيع أن أسكت ، وأن أمتنع عن الدور الذى عين لى ، وأن أحبس ما اكتشفته فى أعماق قلبى الى الأبد • وما مصيرى فى هذا كله ؟ •• ماذا أعمل ؟ •• ثم ماذا يعنى هذا الذى اكتشفته ؟ •• ألف سـؤال غامض مبهم انتصب أيضا أمام عينى ، وألقى بثقله الرهيب على صدرى ، حتى أصبحت كالتائهة •

وأذكر أن قد مرت بى لحظات أخرى تحمل الىّ احساسات جديدة، غريبة ، لا عهد لى بها من قبل • ان شيئا ما قد انتزع من صدرى : زال قلقى القديم دفعة واحدة ، ليحل محله قلق آخر لا أعرف معناه • كنت لا أدرى هل ينبغى أن يحزننى ذلك أم ينبغى أن يسرنى • كنت فى تلك اللحظة أشعر شعور من يهجر بيته الى الابد ، شعور من يدع حياة كانت الى ذلك الحين هادئة مطمئنة ، ليغامر فى رحلة بعيدة الى بلد مجهـول ، فاذا هو ، وقد انقبض صدره قلقا واستشعر أن مستقبله فى هذه الطـريق التى يتوغل فيها قد يكون سيئا ، يلقى نظرة أخيرة على ما حوله ويودع فى فكره ماضيه الذى كان• وأخيرا مزقت صدرى شهقات عنيفة متشنجة،

وبلغت من انقباض القلب انني شعرت بحاجة قوية الى أن أرى أحدا ، الى أن أسمع أحدا ، الى أن أقبّل أحدا قبلة عنيفة ..

لم أعد أستطيع أن أبقى وحيدة ، لم أعد أريد أن أبقى وحيدة . فهرعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وقضيت الى جانبها السهرة كلها . كنا وحدنا . ورجوتها أن لا تجلس الى البيانو ، وأن لا تطلب الىّ الغناء . كان كل شيء يشق على نفسى . وكنت عاجزة عن تركيز فكرى فى أى شيء . واظن اننا بكينا معا . الا انني أذكر انني أخفتها كثيرا . فكانت تتوسل الىّ أن أهدىء روعى وأن لاأكون مضطربه هذا الاضطراب كله .. وكانت تراقبنى فى قلق هائل ، وهى تردد انني مريضة من غيرشك ، وانني لا أعتنى بنفسى . وأخيرا تركتها وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، كنت فى حالة من الهذيان الحقيقى ، ثم نمت بعد أن انتابتني حمى شديدة .

◆◆◆

وانقضت أيام عديدة قبل أن أصبح قادرة على أن أسترد هدوئى ، وعلى أن أنظر الى الموقف نظرة واضحة . كنا نعيش عندئذ ، أنا والكسندرين ميخائيلوفنا ، فى عزلة تامة . ذلك أن بطرس الكسندروفتش لم يكن فى بطرسبرج ، فقد سافر الى موسكو استجابةً لنداء أعماله، وكان عليه أن يقضى هناك ثلاثه أسابيع . ورغم أن هذا البعاد كان قصيرا جدا ، فقد حزنت له الكسندرين ميخائيلوفنا حزنا هائلا .. وكانت تهدأ فى بعض الاحيان ، ولكنها تعتزلنى ، كأن وجودى أصبح عبئا عليها ! .. ثم انني كنت أنشد العزلة أنا الاخرى . كان ذهنى يعمل فى نوع من الضباب الخانق ، وهو متوتر توترا مرضيا . كان يتفق لى أن أبقى ساعتين طويلتين فى هذا الهمّ المؤلم ، وكان يخيل الىّ أثناء ذلك كأننى أسمع أحدا يسخر منى بصوت خافت ، وأشعر باضطراب ينفذ الى نفسى ويشوش كل

أفكارى • وأصبحت لا أستطيع خلاصا من صور تحاصر شعورى ولا تدع لى راحة ••

كنت أتصور هذا الألم الطويل الذى لا مخرج منه ولا نهايه له • كنت أتصور هذا الخوف ، وهذا القلق ، وهذه التضحية تقبلها الكسندرين ميخائيلوفنا ذليله" دون أن تحرك ساكنا ، ودون أن تنبس بكلمة ! ••• وكنت أرى أن هذه التضحية عبث لا طائل تحته ولا جدوى منه • كان يبدو لى أن الشخص الدى تتألم الكسندرين ميخائيلوفنا من أجله يحتقرها ويصب عليها اللعنات •• كنت أرى مجرما يغفـر خطـايا برىء ، وكان ذلك يمزق قلبى تمزيقا ! وكنت أود فى الوقت نفسه ، من أعماق قلبى ، لو أستطيع أن أتحاشى هذه الشكوك •• كنت ألعن هذا الرجل ، وأمقت نفسى ، لأن افتراضاتى لم تكن الا تخمينا ، ولأن ضميرى كان لا يستطيع أن يبرر مشاعرى • ثم أخذت أحلل بعض عبارات الرســالة ، وهــذه الصرخات الواعية الرهيبة • وأخذت أتصور ذلك الرجل الذى لم يكن كفئا • حاولت أن أحزر كل ما فى هذه الكلمة من معنى فظـيع • وكان هذا الوداع اليائس يعذبنى : « شعرت بالعار يجللنى، وشعرت بعار يلطخك أيضا ، لأنك اخترتنى ! » •• من كان ذلك الرجل ؟ •• ومم كان يتألم هذان المخلوقان ؟ •• ماذا كان يعذبهما ؟ •• ماذا فقدا ؟ •• وكنت أهدىء من روعى وأعود فأقرأ الرسالة فى انتباه ، فتتمزق نفسى يأسا • وأحار فى فهمها ، ثم تسقط الرسالة من بين يدى ، وقد تقبض قلبى أكثر فأكثـر ، وتملكنى انفعال خانق •• والخلاصة : كان لا بد لهذا كله من أن ينحـل على نحو من الأنحاء ، ولكننى لم أر منه مخرجا ، فكان ذلك يخيفنى !

وذات يوم ، وكنت مريضة جدا ، جلجلت فى مدخل البيت أصوات عربة بطرس الكسندروفتش ـ وكان عائدا من رحلته الى موســكو ـ

فانطلقت من صدر الكسندرين ميخائيلوفنا صرخة فرح ، وبقيت أنا في مكاني كالمتجمدة • أذكر انني دهشت الى حد الذعر من انفعالي المباغت • ولم أستطع أن أملك زمام نفسي ، فهرعت الى غرفتي • لم أفهم شيئا من هذا الخوف الذي غشيني فجأة ، ولكنني كنت خائفة من هذا الخوف ! • وبعد ربع ساعة استدعوني ، وسلموني رساله من الامير • ورأيت في القاعة رجلا لا أعرفه جاء مع بطرس الكسندروفتش من موسكو ، وعرفت من بضع كلمات أدركنها ادراكا خاطفا انه سيقيم بيننا مدة طويلة •

كان ذلك الشخص هو وكيل الامير ، جاء الى بطرسبرج لينهي بعض الاعمال الهامة التي تتعلق بالاسرة والتي كان يسعى فيها بطرس الكسندروفتش منذ مدة طويلة • أعطاني الوكيل الرسالة وذكر لي أن الاميرة الصغيرة ــ كاتيا ــ كانت تنوي أن تكتب اليّ أيضا ، وانها ظلت تؤكد له حتى آخر دقيقة انها تهيىء هذه الرسالة ، الا انها تركته يمضي أخيرا خالي اليدين ، وهي ترجوه أن يبلغني أنه ليس هناك في الواقع أي شيء تريد أن تكتبه اليّ ، وان كتابة رساله لا تعني شيئا ، وانها سوّدت خمس صفحات ثم مزقتها ، وانه لا بد أولا من أن تنعقد صداقتنا مرة أخرى حتى نستطيع أن نتكاتب • ثم كلفته أن يعدني بأنني سألقاها في القريب !

وأجاب هذا الشخص المجهول على أسئلتي الملحاحة بأن نبأ اللقاء القريب نبأ صحيح في الواقع ، لأن أسرة الامير تنوي العودة الى بطرسبرج • وقد بلغت من فرحي لسماع هذا الكلام انني لم أستطع أن أملك نفسي ، فهرعت الى غرفتي ، وأغلقت عليّ الباب ، ثم فضضت كتاب الامير والدموع تنهمر من عيني • ان الامير يبشرني في رسالته هذه بأنه سيراني قريبا مع كاتيا ، وهو يهنئني على موهبتي تهنئة حارة ، ويثني على

المستقبل اللامع الذى ينتظرنى ، ويؤكد لى رعايته وحمايته • وقد بكيت وأنا أقرأ هذه الرساله ، الا أن عذوبة دموعى هذه كانت مشوبة دائما بمرارة القلق الهائل الذى يثوى فى قرارة نفسى • لم أكن أفهم من حالتى هذه شيئا ، عدا اننى خائفة من نفسى !

◆◆◆

وانقضت على ذلك أيام • وفى الغرفه التى تجاور غرفتى ، أعنى الغرفة التى كان يقيم فيها سابقا سكرتير بطرس الكسندروفتش ، كان القادم الجديد يعمل فى كل صباح ، وكثيرا ما كان يعمل أيضا فى المساء الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل • وكان فى كثير من الاحيان ينتقل الى حجرة بطرس الكسندروفتش ، فيخلو الاثنان يعملان معا ••

وذات مساء ، بعد العشاء ، رجتنى الكسندرين ميخائيلوفنا أن أمضى الى زوجها فى حجرة عمله أسأله هل يجب أن يتناول الشاى معنا • فلما لم أجد أحدا فى هذه الحجرة اعتقدت أن بطرس الكسندروفتش لا بد عائد اليها من دقيقة الى أخرى ، فلبثت هنالك أنتظر أوبته • كانت صورته معلقه على الحائط • وأذكر اننى ارتعدت فجأة حين نظرت الى الصورة ، ثم حدقت فيها طويلا وقد تملكنى انفعال لا أفهم كنهه • كانت الصورة عالية • ولما كانت الغرفة مظلمة بعض الشىء ، وكنت أود أن أرى الصورة عن كثب ، فقد اعتليت من أجل ذلك ظهر كرسى • كنت فى حاجة لأن أنعم النظر فى هذه الصورة وأن أفحصها فحصا ، كأنما كنت آمل أن أجد فيها جوابا على شكوكى ، والواقع أن العينين فى هذه الصورة قد هزتانى فجأة ، ولم أكن قد رأيتهما من قبل ، لأنهما كانتا مختبئتين دائما وراء النظارتين •

أذكر اننى لم أكن أحب نظرة هذا الرجل منذ كنت طفلة ، يحملنى

على ذلك نوع من التنبؤ الغريب لا يُفهم • وقد جاء الواقع الآن يؤيد نبوءتى ويبررها • وأخذ خيـــالى يسرح ويمرح ، فاذا أنا أرى عينى الصورة تشيحان عن نظرتى الحادة وجلتين ، تحاولان أن تهربا منها ، وخيل الى أننى لا أرى فيهما الا الـكذب والخـــداع ، وبلغت من قوة اعتقادى بأننى أنفذ الى سرهما أنه تملكنى فرح عظيم لا يمكن وصفه • وانطلقت من صدرى صرخه • وفىهذه اللحظة سمعتضجة خفيفه ورائى •• فالتفت فاذا أنا أمام بطرس الكسندروفتش وجها لوجه ، وكان يتأملنى فى انتباه شديد • وخيل الىّ انه احمر فجأة ، فاحمررت أنا أيضـــا ، وقفزت أهبط من فوق الكرسى •

سألنى بلهجة قاسية :

ــ ماذا تفعلين هنا ؟ لماذا ارتقيت الكرسى ؟

ولم أعرف فى أول الامر ماذا أقول • ولكننى ثبت الى نفسى ونقلت اليه ــ على نحو ما استطعت ــ دعوة الكسندرين ميخائيلوفنا • لا أذكر الآن بم أجاب ، ولا كيف خرجت من حجرة عمله ، وانما أذكر اننى حـين رجعت الى الكسندرين ميخائيلوفنا كنت قد نسيت تماما الجـواب الـذى تنتظره ، فقلت لها على غير هدى ان زوجها آت •

فهتفت قائلة :

ــ ماذا بك يا نيتوتشكا ؟ ما لوجهك أحمر شديد الحمرة ؟ انظرى الى وجهك فى المرآة • ماذا بك ؟

فدمدمت :

ــ لا أدرى •• لقد جريت مسرعة جدا ••

واستأنفت كلامها قلقة :

ـ ماذا قال لك بطرس الكسندروفتش ؟

لم أجب • وفى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام بطرس الكسندروفتش فهرولت خارجة من الغرفة • وانتظرت ساعتين طويلتين وأنا أشد ماأكون قلقا • وأخيرا جاءنى من يقول ان الكســـندرين ميخائيليوفنا تطلبنى • فمضيت اليها ، فألفيتها صامتة قد لاح على محياها انشغال البال • وحــين دخلت ، غرست فىَّ نظرة سريعه ، فاحصة ، ثم لم تلبث أن غضت من طرفها • كان نوع من الانزعاج يشع فى وجهها • وسرعان ما أدركت أنها معكرة المزاج جدا ، فهى تتكلم قليـــلا ، وتتحاشى أن تنظر الىَّ ، وتجيب على الاسئلة الرقيقة التى يوجهها اليها « ب » ، وكان مظهرها يوحى بأنها تشعر بصداع • وكان بطرس الكسندروفتش أكثر انطلاقا ممـــا عهدت فيه ، الا انه كان لا يتجه بالكلام الا الى « ب » •

ونهضت الكسندرين ميخائيلوفنا الى البيانو ذاهلة ، وقالت وقد سرت كثيرا لهذه التسلية التى خطرت على بالها :

ـ نعم ، يا آنيت ، غنى لنا أغنيتك الجديدة •

نظرت اليها ، فاذا هى تتأملنى فى انتباه قلق •

ولكننى لم أستطع أن أضبط نفسى ، فبدلا من أن أقترب من البيانو ، وأن أغنى ، ظللت واقفه فى مكانى ، مضطربة ، مرتبكة ؛ لا أدرى كيف أخرج من هذا الموقف • ثم ازداد حرجى ، فرفضت أن أغنى رفضـــا باتا !

فسألتنى ألكسندرين ميخائيلوفنا ، وهى تحدق فى ، ثم تلقى عــلى زوجها نظرة مختلسة :

ـ لماذا لا تريدين ؟

وضاعفت هذه النظرة المزدوجة اضطرابَ أعصابي ، فنهضت عن الطاوله وقد اعترتني هزة شديدة لم أستطع كتمانها • كنت أرتعد ارتعادا شديدا • وضاق صدري حتى لم أعد أطيق الاحتمال ، فأجبت بصوت متهدج بأنني لا أريد أن أغني لأنني لا أستطيع الغناء • وقلت انني أسعر بأنني مريضة ، قلت ذلك ونظرت الى عيونهم جميعا • يعلم الله ما كان أشد رغبتي حينذاك في أن أكون وحيدة ، بعيدة عنهم ، في غياهب غرفتي ••

ولاحت في وجه « ب » دهشة شديدة • أما ألكسندرين ميخائيلوفنا فقد بدا عليها الاضطراب ، غير انها لم تحتج • وأما بطرس الكسندروفتش فقد تجهم وجهه ، ونهض فجأة عن كرسيه قائلا انه نسي أمرا مستعجلا من أمور أعماله ، وخرج مسرعا وهو يعد بأن يرجع بعد قليل ان استطاع • الا انه صافح « ب » مودعا على سبيل الاحتياط ، خشية أن لا يستطيع الرجوع !

وسرعان ما سألني « ب » :

ـ ولكن ماذا بك ؟ ان المرض يلوح في وجهك حقا !

قلت وقد فرغ صبري :

ـ انني متعبة جدا ، انني مريضة جدا •

ـ أصدقك • ان وجهك شاحب ، ومنذ هنيهة كان أحمر شديد الحمرة •

قالت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ، ثم صمتت فجأة فهتفت وأنا أتقدم نحوها وأرمقها بنظرة ثاقبة :

ـ أوه ! كفى ••

لم تستطع المسكينة أن تحتمل نظرتى ، فغضت طرفها كمن ضُبط متلبسا بالخطيئه ، بينما تخضبت وجنتاها الشاحبتان ببقع حمراء خفيفة •• فتناولت يدها وقبلتها •• وتركتنى أفعل ذلك وهى تنظر الىّ بفرح صادق ساذج :

ـ اغفرى لى اننى كنت اليوم طفلة صغيرة سيئة • ولكننى أؤكد لك اننى مريضة • لا تغضبى • دعينى أذهب •

قلت ذلك منفعلة •

فأجابت قائلة :

ـ اننا جميعا أطفال !

ثم همست فى أذنى :

ـ أنا أيضا طفلة ، طفلة أكثر منك بكثير • الى اللقاء • وأتمنى لك الابلال من مرضك • ولكننى أناشدك الله أن لا تؤاخذينى •

فقلت وقد هزنى رجاؤها الساذج هزا قويا :

ـ أؤاخذك ؟ لماذا ؟

فتملكها اضطراب رهيب ، كأنما هى تخاف نفسها فجأة ، وكررت سؤالى قائلة :

ـ لماذا ؟

ثم أضافت :

ـ انك ترين حالتى يا نيتوتشكا ! ماذا قلت لك ؟ الى اللقاء • أنت أذكى منى • اننى أقل فطنة من طفلة صغيرة !

فقلت وقد تأثرت تأثرا شديدا ، دون أن أعرف ماذا أقول :

ـ أوه • بربك اصمتي !

ثم قبلت يدها مرة أخرى وانسحبت •

• • •

وتملكني أسف شديد وقلق عنيف ، وأنا أؤاخذ نفسي على انني لم أكن حكيمة حذرة ولم أحسن التصرف • كنت أشعر بخجل شديد يغريني بالبكاء • ثم نمت وأنا فيما أنا فيه من حزن مبرح ••

وحين استيقظت في صباح اليوم التالي كان أول ما تبادر الى ذهني هو أن ليلة البارحة كانت حلما مزعجا ، كانت سرابا •• لقد تهالكنا على أمور تافهة فأخذناها مأخذ الجد ، وذلك كله يرجع الى خراقتنا ، الى اننا لم نتعود التغلب على المؤثرات الخارجية • قلت لنفسي ان الآفة كلها ترجع الى تلك الرسالة ، انها تحتل من فكري مكانا كبيرا جدا ، وترهق خيالي الى حد الافراط ، فرأيت من الأفضل أن أدعها جانبا • وما ان عزمت أمري على ذلك حتى شعرت بقلقي يخف ؛ وحين أيقنت أن في وسعي أن التزم قراري بسهولة ، مضيت الى حضور درس الغناء في طمأنينة وفرح •

وأعانت طراوة الصباح على تهدئة أعصابي • كنت أحب كثيرا هذه الرحلة الصباحية الى أستاذي • لقد كان يمتعني جدا أن أجتاز المدينة وهي تستعيد نشاطها المألوف في تلك الساعة ، الساعة التاسعة من الصباح • كنا نمر عادة بشوارع صاخبة جدا ، وكان مظهر هذه الشوارع يلفت نظري ، ولا سيما هذا التناقض الذي أحسه بين تفاصيل الحياة اليومية وبين الفن الذي ينتظرني على بعد خطوتين ، في الطابق الثاني من بناية كبيرة ،

يشغلها من أسفلها الى أعلاها سكان لعلهم لا يهتمون البتة بالموسيقى. كنت أمضي الى درسي مارة بين هؤلاء الناس المنهمكين في أعمالهم ، متأبطة دفتر الموسيقى ، بينما كانت « ناتاليا » العجوز التي تصحبني تحملني ، دون أن تشعر بذلك ، على أن أتساءل : ترى فيم تفكر ؟ وكنت أطرح هذا السؤال على نفسي بصدد أستاذي أيضا ، وهو رجل طيب ، بسيط ، لا هو بالايطالي ولا هو بالفرنسي ، بل هو بين بين ، ترفعه أجنحة الحماسة في بعض اللحظات ، ولكنه في الأغلب دعي ، وهو قبل هذا بخيل . وكان ذلك كله يسليني : يضحكني تارة ، ويحملني على التأمل والتفكير تارة أخرى . وكنت من جهة أخرى أحب فني ، أحبه في خجل ، وأحبه في رجاء قوي يجعلني « أبني آلاف القصور في أسبانيا » ، وأتخيل لنفسي مستقبلا رائعا مشرق الألوان ، فكنت أعود الى البيت دائما وقد امتلأت نفسي حماسة ونشاطا ..

وقد كنت في مثل هذه الحالة من الحماسة حين رجعت من درسي الى البيت في الساعة العاشرة . كنت قد نسيت همي ، واسترسلت في أحلام فرحة . الا انني انتفضت فجأة على السلم انتفاضة من لدغته نار ، اذ سمعت صوت بطرس الكسندروفتش الذي يهبط السلم يرن من فوقي. فانتابني لدى سماع هذا الصوت شعور مزعج .. وعادت ذكرى حوادث البارحة الى نفسي قوية واضحة ، حتى لم أستطع أن أخفي قلقي ، وانحنيت له انحناءة خفيفة .. لا شك أن وجهي كان في تلك اللحظة معبرا جدا ، اذ توقف بطرس الكسندروفتش دهشا ، فاحمر وجهي من الانفعال ، وتابعت صعودي وأنا أكاد أركض .. بينما دمدم هو ببضع كلمات ورائي، ثم استأنف هبوطه ..

كنت على وشك أن أبكي من شدة الاضطراب ، وأنا لا أفهم ماذا

اعترانى ، وظللت طوال فترة الصباح أنكر نفسى من فرط التغير الذى أصابنى .. لا أدرى على أى أمر أعزم ، ولا كيف أخرج من هذه الدوامة . وأقسمت ألف مرة أن أهدىء من روعى ، ثم عاد الخوف ألف مره يلم بى من جديد . كنت أشعر اننى أبغض زوج الكسندرين ميخائيلوفنا ، وكان ذلك فى الوقت نفسه يسلمنى ليأس شديد ، وشعور بالحقد على الناس جميعا ! .. لم أبرح غرفتى لحظة واحدة ، حتى اننى لم أذهب الى الكسندرين ميخائيلوفنا . فاذا هى تأتى الىّ . فما ان ألقت ببصرها علىّ حتى أوشكت أن تصرخ . كنت من فرط الاصفرار بحيث اننى حين نظرت الى وجهى فى المرآة ذعرت ذعرا شديدا . وظلت الكسندرين ميخائيلوفنا الى جانبى ساعة طويلة تعتنى بى عنايتها بطفله .

غير ان عنايتها هذه كانت تحزننى ، وكانت مداعباتها تشق على نفسى . كنت من شدة الشعور بالخجل حين أنظر اليها بحيث رجوتها أخيرا أن تدعنى وحدى . فانسحبت وهى أشد ما تكون قلقا . وأخيرا انفجر اضطرابى بكاء شديداً . وعند المساء رأيتنى أحسن حالا .

رأيتنى أحسن حالا لأننى قررت أن أمضى الى الكسندرين ميخائيلوفنا أرتمى على ركبتيها وأرد اليها الرسالة التى أدخلت الى نفسى كل هذا الاضطراب ، وأن أعترف لها بكل شيء ! .. أردت أن أعترف لها بالعذاب الذى كابدته ، بالشكوك التى راودتنى ، وأن أقبلها قبلة تحمل كل الحب القلق الذى أشعر به نحوها . أردت أن أذكر لها عذابى الشديد ، وأن أقول لها اننى ابنتها وصديقتها ، واننى أفتح لها قلبى رحبا واسعا ، وان عليها أن تنظر الى نفسى فتجد فيها العاطفة المشبوبة الراسخة التى أحملها لها .

رباه ! كنت أعلم ، كنت أشعر اننى آخر من يمكن أن تفتح له

قلبها ، ولكن خيِّل الىَّ اننى أستطيع أن أرد السلام الى قلبها ، بما يمكن أن أسوفه من كلام رزين معقـــول • كنت أفهم قلقها ـ ولو فهما غامضا ـ وكنت كلما تصورت أن من الممكن أن تحمر خجلا منى ، وأن تخشى حكمى عليها ، أثور نورة قوية •• يا عـــزيزتى ، يا عـزيزتى المسكينة ، فيم أنت مذنبه ؟ ذلك ما سأقوله لها وأنا أبكي بين قدميهـا •• كان الشعور بأنها مظلومه يثيرنى اثارة عنيفة حتى لكأننى مجنونه • والحق اننى لم أكن أدرى ماذا أفعل •• ولم أدرك ذلك الا فيما بعــد ، حين تدخلت مصادفه من المصادفات فأنقذتنا كلتينا من الهلاك ، اذ أوقفتنى عند الخطوة الاولى • وكان الذعر يتملكنى أيضا • هل كان يمكن أن ينبعث الرجاء مرة أخرى فى هذا القلب الموات ، قلب الكسندرين ميخائيلوفنا ؟ •• هل أستطيع أن أنهضها من عثرتها ؟

ولكن اليكم ما وقع : لم يكن قد بقى علىَّ الا أن أجتاز غرفتين حتى أصل الى غرفتها •• فاذا ببطرس الكسندروفتش يخرج من باب جانبى، ويمر أمامى دون أن يرانى • كان ذاهبا اليها هـو الآخـر ، فوقفت فى مكانى مشدوهة ، ذلك انه آخر من كان يحتمل أن أصادفه فى مثل هذه اللحظـة ! وكنت على وشك أن أعـــود أدراجى ، حين ســـمرنى حب الاستطلاع فى مكانى فجأة اذ رأيته يتوقف أمام مرآة ، ليصلح من شعره ويدندن ـ يا للدهشة ! ـ بأغنية ما !

وفى طرفة عين رجعت الى ذاكرتى ذكرى بعيدة من أيام الطفولة•• سأذكر لكم هذه الذكرى البعيدة ، حتى تفهموا الشعور الذى اجتاحنى :

خلال السنه الاولى التى عشتها فى هذا البيت لفتت نظـرى وأثرت فى نفسى ظاهرة غريبة تعود الى ذاكرتى الآن واضحةً جلية •• ظاهرة لم تكتسب دلالة ومعنى الا فى هذه اللحظة ، ولقد كانت هـــذه الظاهرة أصل الكره الذى أشعر به نحو بطرس الكسندروفتش دون أن أجد له

تعليلا • سبق أن قلت انني ما شعرت يوما بشيء من الارتياح ازاء هذا الرجل • وسبق أن ذكرت أن تعبير وجهه الكالح، المقطب، المهموم، يبث في نفسي الخوف والقلق • وذكرت أيضا أن الساعات التي قضيتها معه على مائدة الشاي في حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا كانت شاقة على نفسي مؤلمة، ووصفت ما انتابني من انقباض الصدر حين شهدت — مرتين أو ثلاثا — أزمات عنيفة حزينة قامت بينه وبين زوجته ••

ولقد كان يتفق لي أن أصادفه، كما أصادفه الآن، في هذه الغرفة نفسها، في هذه الساعة عينها، ذاهبا مثلي الى حجرة الكسندرين ميخائيلوفنا، فكنت أشعر بخجل كالذي يشعر به الاطفال، فأنزوي في زاوية كأنني مذنبة، ادعو الله ألا يراني أبدا ! •• كان يتوقف أحيانا أمام المرآة، كما يفعل الان تماما، فأرتعد عندئذ من شعور لا أستطيع وصفه ولا تحديده • كنت أشعر انه « يصنع » لنفسه وجها ! •• كنت على الاقل أرى ابتسامة واضحة في محياه قبل أن يقف أمام المرآة، وكان ذلك يدهشني كثيرا، ولا سيما انه كان لا يبتسم أبدا أمام الكسندرين ميخائيلوفنا • فما ان يقف أمام المرآة حتى تتبدل سحنته فجأة، فاذا شفتاه تكتسيان، بارادته، تعبيرا مرا صادرا من قلب مقروح، تعبيرا يستحيل اخفاؤه، يستحيل كبته، مهما كان لديه من الرغبة القوية — التي تفوق طاقة الانسان — في ألا يُظهر من هذا التعبير شيء البتة •• فالعذاب الحبيس يغضن الجبين، ويقطب الحاجبين، ويصوّح النظرة من تحت النظارتين !

هكذا كان بطرس الكسندروفتش يستحيل الى شخص آخر في طرفة عين ! •• وكنت أنا أرتجف خوفا، وكنت أخشى أن « أفهم » هذا المنظر الذي أرى، والذي ترك في نفسي — الى الأبد — شعورا مؤلما ممضا • وكان بعد أن يتأمل نفسه لحظة في المرآة، يدلّي رأسه ويتخذ

وضع الانحناء الذى يلازمه متى كان مع زوجته ، ثم يدخل الى الكسندرين ميخائيلوفنا سائرا على أطراف الاصابع •

هذه الذكرى •• هى التى تعودنى الآن !

كان ، فى ذلك الوقت ، يحسب نفسه وحيدا ، فيقف أمام المرآة ، كما يفعل الآن • والآن ـ كما فى ذلك الوقت ـ لقيته على هذا الحال وأنا أشعر نحوه بالكره والعداوة ، على غير ارادة منى ! •• غير اننى حين سمعته يغنى (وكان ذلك فى ذاته أمرا لا يمكن أن ينتظر منه !) بلغت من فرط الدهشة اننى تسمرت فى مكانى لا أستطيع حراكا • كانت حالتى فى تلك اللحظه شبيهة بحالات طفولتى • كان قلبى منقبضا انقباضا رهيبا لا أستطيع له وصفا ، فان أعصابى كلها ارتجفت لدى سماع هذا الغناء الذى لم أكن أتوقعه •• فاذا أنا أنفجر فجأة فى ضحكة عصبية ، بالرغم منى !

اذ ذاك انطلقت من المغنى المسكين صرخة ، ووثب خطوتين الى وراء، بعيدا عن المرآة ، وامتقع وجهه حتى أصبح كالميت ، كأنه مجرم يقبض عليه متلبسا بالجرم !•• ونظر الىّ مشدوها ، ساخطا ، غاضبا غضبا جنونيا •• فما زادتنى نظرته الا كرها له واحتقارا ، وأجبت عليه بمضاعفة ضحكى دون أن أغض بصرى ! •• ثم مررت الى جانبه وأنا ما زلت أضحك ، ودخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أعرف انه وراء الباب ، يتردد هل يدخل ، أو لايدخل ، وقد تسمر فى مكانه من الغضب والخشية •• وأخذت أرقب ما سيفعل ، فى صبر فارغ مثير : كنت على شبه يقين من انه لن يدخل ! •• ولم يخطىء ظنى ، فانه لم يأت الا بعد انقضاء نصف ساعة على ذلك • وحين دخلت الى الكسندرين ميخائيلوفنا، نظرت الىّ فى شىء من الدهشة ، ولكنها حاولت عبثا أن تفهم منى

ما هنالك ، فانني لم أجب بكلمة ، لأنني كنت كمن يختنق ! •• وفهمت هي أخيرا ان أعصابي مضطربة لا أستطيع ضبطها ، فقلقت لذلك أسد القلق • وحين استطعت أن أهدئ من روعي ، أمسكتُ بيدها وقبلتها • وفي تلك اللحظة فقط فكرت فيما عزمت عليه وشرعت فيه ، فأدركت ان الفكرة التي راودتني كان يمكن أن تقتلها ، لولا انني صادفت زوجها في الوقت المناسب !

• • •

وحين دخل بطرس الكسندروفتش ، لاحظت أنها كمن بعث الى الحياة من جديد ••

واختلستُ نظرةً سريعة اليه ، فلاحظت انه على ما عهدت فيه من هيئة كالحة رصينة حزينة • ولكنني أدركت من صفرة وجهه – ومن رجفة خفيفة في زاوية شفته – انه لا يخفي اضطرابه الا في كثير من المشقة والعناء • وقد حيا الكسندرين ميخائيلوفنا تحية باردة ، ثم جلس صامتا • كانت يداه ترتجفان حين تناول قدح الشاي • كنت أتوقع انفجارا ، وكان ذعري يزداد قوة • الا انني قررت أن أنسحب ، وأن أترك الكسندرين ميخائيلوفنا وحدها ، وقد تغير وجهها حين رأت زوجها • لقد كانت هي الاخرى توجس شيئا غير مألوف !

وأخيرا وقع ما كنت أتوقعه في كثير من الخوف !

فبينما نحن في صمت عميق ، رفعتُ بصري فرأيت نظارتي بطرس الكسندروفتش تحدقان فيَّ ! •• وكنت لا أنتظر هذا ، فأوشكت أن أصرخ ، وغضضت عيني ••

ولاحظت الكسندرين ميخائيلوفنا ذلك ••

أما بطرس الكسندروفتش فقال فجأة ، بصوت قاطع خشن :

ـ ماذا بك ؟ لماذا احمر وجهك ؟

لم أجب ، فقد كان قلبي من شدة الخفقان بحيث لاأستطيع أن أنبس بحرف •

ـ ما لها احمرت ؟ ما لها تحمر بلا انقطاع ؟

قال ذلك منجها بالسؤال في هذه المرة الى الكسندرين ميخائيلوفنا ، وهو يشير الىّ بيده اشاره وقحة •

وانقطعت أنفاسي من فـــرط الاستياء ، فأرسلتُ الى الكســـندرين ميخائيلوفنا نظرة متوسله ، ففهمتني •• واذ ذاك تضرج خداها الشاحبان، وقالت لى بصوت جازم لم أكن أتوقعه منها :

ـ اذهبى الى غرفتك • سألحق بك بعد قليل ، وسنقضى السهرة معا•

واستأنف بطرس الكسندروفتش يسألنى بصـــوت أعلى ، كأنه لم يسمع ما قالته امرأته :

ـ هل سمعت ما أقول ؟ أريد أن أعرف لماذا تحمرين كلما لقيتنى • أجيبى على سؤالى !

فقالت الكسندرين ميخائيلوفنا تجيبه بصوت يهدجه الانفعال :

ـ أنت تجعلها تحمر ، وتجعلنى أحمر أنا أيضا •

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فى كثير من الدهشة ، والحيرة ، والتعجب ••

ـ أنا ؟ أنا أجعلك تحمرين ؟ أنا ؟

قالها بطرس الكسندروفتش ، وقد ظهرت عليه الدهشة هو الآخر ، وألح على « أنا » •• ثم أردف :

ـ تحمـــرين أنت بسببي أنا ؟ ولـكن كيف يمـكن أن أجعـلك تحمرين ، الأولى أن تجعليني أنت أحمر ، ما رأيك ؟

كان معنى هذه العبارة واضحا جدا فى ذهنى ، وقد قالها بطـرس الكسندروفتش بلهجة قاسية ساخرة ، فاذا أنا أطلق من صدرى صرخة ، وأهرع نحو الكسندرين ميخائيلوفنا ، فأرى الدهشة ، والعذاب ، واللوم، والذعر ، تشع جميعـا من وجههـا الذى امتقع لونه حتى صـار كوجوه الموتى ! •• وأرسلتُ الى بطرس الكسندروفتش اشارة توسل •• وكان كأنما عاد اليه رشده ، لكن الغضب الذى أثارته كلماته لم يكن قد انقضى بعد •• وأدرك مع ذلك ضراعتى الخرساء فاضطرب • كان واضحا من اشارتى أننى فهمت كلماته كل الفهم ، واننى اذن على علمٍ ببعض الأمور التى ظلت حتى ذلك الحين سرا !

ـ آنيت ، اذهبى الى غرفتك ، اننى فى حاجة ملحة لأن أتحدث مع بطرس الكسندروفتش •

قالتها الكسندرين ميخائيلوفنا بصوت ضعيف لـكنه جازم ، وقد نهضت عن كرسيها •

كانت تبـــدو هادئة ، الا أن هــدوءها أخافني أكثر من أى انفعال ممكن ، ولبثت فى مكانى لا أستطيع حراكا ، كأنى لم أسمع ما قالته • كنت أحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أقرأ على صفحة وجههـا ما دار فجأة فى نفسها ، وكان يلوح لى أنها لم تفهم اشارتى ولا ضراعتى ••

وابتدرنى بطرس الكسندروفتش وهـــو يمسـك ذراعى ويرينى امرأته :

ـ كان لك ما أردت يا آنسة !

رباه ! لم أر في حيـــاتي يأسا كالذي أراه الآن في هـــذا الوجه المتشنج ، في هذا الوجه الميت ! •• وتناول بطرس الكسندروفتش يدي يدفعني الى خارج الغـرفه ، بينما كنت أنظر اليهما كليهما مرة أخـيرة • كانت الكسندرين ميخائيلوفنا واقفة ، مستندة الى المدفأة ، ممسكة برأسها بين يديها • كان وضعها كله ينبيء عن ألم لا سبيل الى وصفه • فأمسكت بيد بطرس الكسندروفتش وضغطت عليها بقوة محمومة ، وغمغمت بصوت مقطع متهدج أقول :

ـ حباً بالله ، حباً بالله ، ترفق بها ••

فأجاب وهو يلفني بنظرة غريبة :

ـ لا تخافي ، لا تخـافي ، ما من خطـــر • هي نوبة ثم تنقضي • اذهبي • اذهبي •

فلما وصلت الى غرفتي ، ارتميت على الديوان ، ووجهي بين ذراعي• ولبثت على هذه الحال ثلاث ساعات طوال في جحيم حقيقي • ثم لم أستطع صبرا فأرسلت أسأل هل تسمح لي الكسندرين ميخائيلوفنا بالمجيء اليها ؟ •• وجاءتني مدام ليوتار بالجواب : لقد طلب اليها بطرس الكسندروفتش أن تبلغني أن النوبة قد انقضت ، وأن الخطر قد زال ، غير أن الكسندرين ميخائيلوفنا في حاجة الى الراحة • ولبثت حتى الساعة الثالثة من الصباح لا أزيد على أن أذهب وأجيء في غـرفتي ، من شدة شـــعوري بحرج وضعي • ومع ذلك كنت أتخفف من قلقي مرددة انني المذنبة الأولى • ثم نمت أنتظر الغد بفارغ الصبر ••

لكنني لاحظت على الكسندرين ميخائيلوفنا في الغد شيئا من الفتور

تحوى ، فأدهشني ذلك وأحزنني • اعتقدت في أول الامر ان هذه المرأة ذات القلب النبيل الطاهر يؤلمها آن ترى نفسها معي بعد أن شهدتُ أزمة البارحة على غير ارادة مني ، وكنت أعلم انها قد تحمر خجلا كطفلة ، وآن تسألني ، كطفله أيضا ، أن أغفر لها ذلك المشهد الذى ربما ساءني • ولكن سرعان ما لاحظت أن أمرا آخر يسيطر على تفكيرها ، لا تستطيع من سذاجتها اخفاءه • فكانت تارة تجيبني بلهجة جافة باردة ، وتارة تقول كلاما ذا معنيين ، وتارة تستعيد لطفهـا وتداعبني كأنها تأسف فجأة على ما بدر منهـا من قسوة ، قسـوة لا يمكن آن تكون في قلبهـا •• وكانت كلماتها في هذه الحالة الاخيره تحتفظ ، على عذوبتها وهدوئها ، برنة من عتب • وأخيرا سألتُها صراحة عما بها ، وهـل تريد أن تقول لى شيئا بعينه ، فهزّها سـؤالى العنيف بعض الشيء ، الا أنهـا لم تلبث آن رفعت عينيها الواسعتين الرفيقتين ، ونظرت الى تقول في ابتسامة عذبة :

ـ ليس بى شيء ، يا نيتوتشكا ، الا أنك تعرفين أنني اضطرب حين يوجه الىّ سؤال مباغت • وهذا ما فعلته الآن •• أؤكد لك ذلك •• ولكن اسمعي يا بيتي وصارحيني بالحقيقة : هل في قلبك شيء يمكن أن يجعلك تضطربين هكذا اذا سئلتِ سؤالا مباغتا لا تتوقعينه ؟

ـ كلا •

قلت ذلك وأنا أنظر اليها دون مواربة •

ـ حسنا جدا • لو تعلمين يا عزيزتي كم أشكر لك هذا الجـواب الجميـل •• وليس معنى هذا انني أسـتطيع أن أظن فيك السوء ، أبدا ، انني لا أسمح لنفسي بفكرة كهذه • ولكن افهمي : حين ضممتك الى بيتي كنتِ طفلة صغيرة ، وأنت الآن في السابعة عشرة من عمرك ، وأنا الان مريضة ، فالطفلة الآن هي أنا ، وأنا التي يجب أن يُعتنى بها • لم أستطع

أن أكــون أملك كمــا كنت أحب أن أكــون ، على أن الحب ليس هــو ما أعوزني ، ولئن كنت قلقة عليك الآن ، فلست أنت المسئولة عن ذلك ، وانما هي خطيئتي • فاغفري لي السؤال الذي طرحته عليك • واغفري لي أيضا أنني لم أف بكل الوعود التي قطعتها لأبي حين ضممتك الى هــذا البيت ؟ وان هذا أيضا ليقلقني كثيرا ؟ وكثيرا ما عذبني ، يا عزيزتي •

ارتميت على عنقها باكية • ثم قلت وأنا أغرق يديها بدموعي :

ـ ليباركك الله ، ليباركك الله ، جزاء ما صنعت في سبيلي • لاتتكلمي هكذا ، انك تهصرين قلبي هصرا • لقد كنت لي أكثر من أم • نعم ، انني أسأل الله أن يجزيكما خيرا عن كل ما صنعتما ، أنت والأمير ، من أجلي ، أنا اليتيمة البائسة • آه ! أيتها الصديقة العزيزة ، أيتها الصديقة الرقيقة اللطيفة !

ـ كفي يا نيتوتشكا ، كفي ! قبليني قبلة أعنف ، قبلة أقوى • هل تريدين أن أقول لك ؟ انني أشعر أن قبلتك هذه هي الأخيرة ، لا أدري من أين يأتيني هذا الهاجس !

فاحتججت أقول ، وأنا أنتحب كما ينتحب الاطفال :

ـ كلا • كلا • لا تقولي هذا • ستعيشين أياما سـعيدة كثـيرة •• ستعيشين أياما جميلة • صدقيني • سنكون سعيدتين •

ـ شكرا ، شكرا لك على هذا الحب كله • ليس من حـولي الآن ناس كثيرون •• لقد هجروني •

ـ من هم الذين هجروك ؟ من هم هؤلاء الناس ؟

ـ كان من حولي في الماضي أشخاص آخرون • الا أنهـم هجروني

جميعا . لقد تبددوا كلهم كما يتبدد السراب . وانتظرتهم طويلا منذ ذلك الحين .. لم أفعل شيئا غير الانتظار ، طوال حياتي كلها .. ليباركهم الله ! هل ترين يا نيتوتشكا ؟ ان الخريف يتقدم ، وقريبا يتساقط الثلج ، وسأموت أنا عند أول مرة يهطل فيها الثلج . نعم ، وان هذا ليحزن قلبي . وداعا .

كان وجهها شاحبا نحيلا ، وكان على كل خد من خديها بقعه حمراء ملتهبة ، وكانت شفتاها ترتجفان ، وقد جففتهما الحمى الداخلية .

واقتربت من البيانو تعزف بعض الألحان . فاذا بأحد الأوتار يقطع فجأة . فيدوي من انقطاعه صوت مباغت ، امتد ثم انطفأ في ارتجاف .

قالت بصوت ملهم وهي تشير الى البيانو :

ــ هل تسمعين يا نيتوتشكا ؟ هل تسمعين ؟ لقد كان هذا الوتر مشدودا أكثر مما ينبغي ان يشد ، فلم يستطع أن يحتمل فمات . لقد سمعت كيف توجع الصوت وهو يموت !

كانت تتكلم في عناء . وكان الالم الأصم الذي يضطرم في نفسها يشع في وجهها ، وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ولكن هيا يانيتوتشكا ، كفى كلاما في هذا الموضوع ، كفى يا عزيزتي ، كفى . هيا احضري الاولاد .

وأتيت بالطفلين .. ولاح عليها الارتياح وهي تنظر اليهما ، وصرفتهما بعد ربع ساعة .

ــ حين أموت ، لن تتركيهما ، يا نيتوتشكا ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك بصوت خافت ، كأنها تخشى أن يسمعها أحد غيري !

ــ اسكتي ، اسكتي ، انك تقتلينني قتلا بهذا الكلام !

ذلك كل ما استطعت أن أغمغم به •

فقالت وهي تبتسم بعد لحظة من صمت :

ـ انني أمزح • هل صدقت قولي ؟ ألا تعرفين انني في بعض الاحيان أهرف في الكلام هرفا • انني الآن طفلة ، طفلة ، وانني في حاجة الى أن يُغفر لي •

وألقت علي نظرةً خجلى ، كأنها تخشى أن تقول أكثر مما ينبغي أن تقول •

وانتظرت ••

وأخيرا قالت وقد أغضت بصرها ، وتضرج وجهها فجأة بحمرة خفيفة ، ولكن بصوت خافت لا يكاد يُسمع :

ـ حاذري أن تخيفيه •

ـ من ؟

كذلك سألتها في دهشة ظاهرة ، فقالت :

ـ زوجي • لا شك أنك ستقصين عليه كل شيء •

وازدادت دهشتي قوة ، فهتفت أسألها :

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ حسنا • قد لا تذكرين له شيئا على كل حال •

قالت ذلك وهي تحاول جهدها أن تنظر اليّ نظرة ماكرة ، الا أن ابتسامة شفتيها احتفظت بصراحتها ، وازدادت البقع الحمر في وجنتيها التهابا • وأردفت تقول :

ـ كفى كلاما فى هذا الموضـــوع • كنت أمزح • هذا كل ما فى الأمر •

وكان قلبى يزداد انقباضا •

وأردفت تقول بلهجة جدية ، ولكنها لهجة عجيبة •

ـ اسمعى مع ذلك • انك ستحبينهما بعد موتى ، اليس كـذلك ؟ ستحبينهما كأنهما ابناك ، أليس كذلك ؟ تذكرى ما أقول ، وتذكرى اننى أحببتك أنا الاخرى كأنك ابنتى ••

فهتفت ، دون أن أعرف ماذا أقول ، وأنا ألهث وأختنق بدموعى :

ـ نعم ، نعم •

وتناولت يدى بسرعة ، وطبعت عليها قبله محرقة قبل أن أستطيع سحبها ، فهزنى ذلك هزا قويا حتى لم أستطع أن أنبس بكلمة •

وتساءلت فجأة : « ترى ماذا بها ؟ فيم تفكر ؟ ما الذى وقع بينهما البارحة ؟ » •

وبعد دقيقة شكت من أنها متعبة ، وقالت :

ـ اننى مريضة منذ مدة طويلة ، غير اننى لم أشأ أن أخيفكما لأنكما تحبانى كلاكما ، أليس كذلك ؟ والآن هيا ، الى اللقاء يا نيتوتشكا ، دعينى الآن ، ولكن عودى فى المساء ، هل تريدين ؟ ستأتين ، أليس كذلك ؟

ووعدتها بأن أعود فى المساء • وكنت سعيدة بالرجوع الى غرفتى ، فاننى لم أعد أحتمل أكثر مما احتملت •

صرخت وأنا أشهق : « مسكينة أيتها البائسة ! أى شك يستحثك

الى القبر • آية لوعة جديدة تسممك وتعض قلبك دون أن تجرئى على ان تقولى عنها كلمه واحدة ؟ رباه ! هذا العذاب الطويل الذى اعرفه الان كله ، هذه الحياة القاتمة التى لم تعرف اشراق النور ، هذا الحب الخجول الذى لا يطلب شيئا ولا يريد شيئا ، هذا الذى تجفله الشكوى ويخيفه اللوم بلا انقطاع ، ما كل هذا ؟ •• وهذه المرأة الممزقه التى ترتعد كأنها مجرمة ، كيف تستطيع أن تصنع لنفسها ألما جديدا وتخضع له وتموت منه ؟! » •

• • •

وفى المساء ، عند الشفق ، انتهزت فرصه غياب اوفروف ــ سكرتير بطرس الكسندروفتش ــ فدخلت الى المكتبة وفتحت احدى خزائنها واخذت ابحثها لاجد كتابا أقرؤه بصوت عال على مسمع من الكسندرين ميخائيلوفنا • كنت أحب أن أصرفها عن خواطرها السود ، فكنت أبحث عن شىء سهل مفرح • ولبثت أبحث مدة طويله وأنا ذاهلة شاردة اللب• وتكاثف الشفق ، وأخذ الظلام ينتشر شيئا فشيئا ، وأخذ غمى يزداد قوة وعمقا • ووقع بين يدى مرة أخرى ذلك الكتاب الذى وجدت فيه الرسالة ، ورأيت آثار شكل الرساله على الموضع الذى كان يشتمل عليها من الكتاب ، وكنت أحتفظ بهذه الرسالة فى قميصى •• هذه الرسالة التى حملت الىَّ الصقيع ، والمجهول ، والسر ، والتى كانت تؤثر فى نفسى حتى الآن تأثيرا ينذر بالشر ! •• وساءلت نفسى : « ترى ما الذى سيقع لنا ؟ ان الركن الدافىء الذى كنت ألتجىء اليه سيتهدم •• ان النفس الصافية الرائقة التى رعت صباى وسهرت عليه ستهجرنى • ما الذى ينتظرنى ؟ » كنت كأنما نسيت ماضى ، رغم أنه عزيز على نفسى ، وأصبحت أفكر أكثر ما أفكر فى المستقبل الخطير الذى يملؤه السر والمجهول • اننى أستطيع

ان أعيش تلك اللحظه بكاملها مرة آخرى ، لأنها منقوشة في ذاكـرتي نقشا عميقا •

كنت أمسك بين يدى الكتاب والرساله ، وكنت غارفه في دموعي• وفجاه انتفضت مذعورة • ان صـــوتا أعرفه كل المعـرفه يرن فوقى • واحسست في الوقت نفسه بان الرسالة تنتزع من بين يدى • فصرخت وانتصبت واقفة ، فرأيت بطرس الكسندروفتش أمامى ! •• وامسكنى من يدى بقبضة قوية وسمرنى في مكانى ، بينما مد الرساله باليد الاخرى نحو النور محاولا أن يقرأها • وصرخت • كنت أفضل أن أموت على أن أدع له الرسالة ! •• ورأيت من بسمته الظافرة انه توصل الى قراءة سطورها الاولى • طاش لبى •• وما هى الا دقيقة واحدة حتى ارتميت عليه وأنا لا أكاد أعى ما أفعل فانتزعت الرسالة من بين يديه • وقـد تم ذلك بسرعه عظيمة حتى انني لا أفهم الى الآن كيف عادت الرسـالة الى يدى • لكنني وقد لاحظت انه يهم أن ينتزع مني الرســالة مرة ثانية ، دسستها بسرعة في قميصي ووثبت ثلاث خطوات الى الوراء !

ونظر كل منا الى الآخر لحظة في صمت • وكنت ما أزال أرتجف خوفا ، وبادر هو الى قطع الصمت ، وكانت شفتاه المرتجفتان قد ازرقتا من شدة الغضب ، فقال في صوت أصم :

ــ لا تضطريني الى استعمال القوة • اعطيني هذه الرسالة بارادتك !

ان الشعور بالعار والامتعاض قد قلب نفسي رأسا على عقب ، ان تلك الاهانة الفظة قد خنقت أنفاسي • فانهمرت سيول من دموع محـرقة على خدى الملتهبتين •

ولبثت مدة طويلة لا أستطيع من هول الاضطراب والارتجاف أن أنبس بكلمة •• فقال وهو يتقدم مني خطوتين :

ـ هل تسمعين ؟

فصرخت وأنا أبتعد عنه :

ـ دعنى ، دعنى • ان ما تفعله شر • ان ما تفعله لحقير خسيس • انك تنسى نفسك ! •• دعنى أمضى •

ـ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ آأنت تجرئين على مخاطبتى بهذه اللهجة •• بعد أن •• اننى آمرك بأن تعطينى هذه الرساله ، هل تسمعين ؟

ثم تقدم منى خطوة أخرى ، الا انه وقد لمح فى عينى قوة الاصرار والعناد ، توقف متحيرا • وقال أخيرا بلهجة جافة ، تنطوى على الاصرار وان يكن قد جاهد لكبح جماح نفسه :

ـ حسنا ! ندع هذا الآن الى حينه ومحله • ولكن قولى لى أولا من ذا الذى أدخلك المكتبة ؟ ولماذا أرى الخزانه مفتوحة ؟ من أين أخذت المفتاح ؟

قال ذلك بعد أن أجال بصره من حوله •• فانبريت له :

ـ لن أجيب على سؤالك • ولا أستطيع أن أتناقش معك • دعنى أمضى • دعنى !

واقتربت من الباب • فقال وهو يمسكنى من ذراعى :

ـ لا • لن تخرجى هكذا !

وانتزعت ذراعى منه دون أن أقول كلمة واحدة ، وتقدمت خطوة أخرى نحو الباب :

ـ اعلمى اننى لا أسمح لك بأن تتلقى فى بيتى رسائل غرام من عشاقك !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى صرخت مذعورة ، ورميته بنظـرات مجنونة •

ـ لذلك ••

ـ كفى •• لا أسمح لك بأن تخاطبني هكذا •• يا رب ، يا رب !

ـ هيه ؟ ماذا ؟ تهددينني ؟

صعقت من هول ما انتابني من ذعر ويأس • ان هذا المشهد قد بلغ من القسوة حدا لا أستطيع معه أن أفهم ولا أن أعي • فنظرت الى بطرس الكسندروفتش أتوسل اليه بعيني أن يسكت • كنت مستعدة لأن أغفر له ظنونه شريطة أن يتوقف عن الكلام • فحدق في وقد لاح في وجهه تردد ظاهر •

همست مذعورة :

ـ لا تخرجني عن طوري !

فهتف أخيرا كأنما هو قد عزم أمرا :

ـ كلا ، لن ينتهي الامر هكذا •

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ أعترف لك ان نظرتك كادت تردني عن ظنوني ، الا ان الاشياء تتحدث من تلقاء نفسها ، وا أسفاه • لقد استطعت أن أقرأ بداية هـــذه الرسالة • انها رسالة غرامية • لن تستطيعي أن تحوليني عن اقتناعي هذا• كلا ، انتزعي هذه الفكرة من رأسك • ولئن ترددت دقيقة أو بعض دقيقة فهذا لا يزيد على أن يدل على انني يجب أن أضيف الى مزاياك الرائعة مزية أخـــرى هي القدرة على الكذب في كثير من البراعة •• لذلك أكرر ••

وكان وجهه وهو يتكلم يزداد نضوحا بالبغض والكره • كان ممتقع اللون ، وكانت شفتاه المرتجفتان تكشران بقوة كبيرة حتى انه لم يستطع أن يلفظ الكلمات الاخيرة الا فى كثير من العناء •

كان الظلام قد خيم ، وكنت اشعر انني وحدي تحت رحمة هذا الرجل القادر على اهانه امرأة • ثم ان الدلائل كلها كانت تدينني ، ومع ذلك كنت أتساءل عن غضبه هذا ما مصدره وما سببه ، رغم ان الشعور بالعار والقلق كان يحطمني تحطيما • وهرعت كالمجنونة دون أن أجيب على كلامه ، فخرجت من المكتبة ، ولم يتنبه الي رشدي الا على باب الكسندرين ميخائيلوفنا ، فلما هممت أن أدخل عليها سمعت ورائى وقع خطوات الكسندروفتش ، فتسمرت فى مكاني كأن صاعقة وقعت على رأسى •

تساءلت فى سرعة البرق : « ترى ما الذي سيحدث ؟ ان كل شيء أفضل من هذه الضربة الاخيرة التى قد تتلقاها •• »

وتراجعت بسرعة ، ولكن الأوان كان قد فات، فها هو ذا الى جانبي• همست وأنا أمسك بذراعه :

ـ رحمةً بها • نذهب أين تشاء • لكن لا ندخل الى هنا • أعود الى المكتبة أو الى أى مكان آخر ، الى أى مكان تشاء • والا قتلتها !

فأجاب وهو يبعدنى عنه :

ـ أنت التى تقتلينها •

وتبدد من قلبى كل رجاء • شعرت ان ما يريده انما هو أن يقص على الكسندرين ميخائيلوفنا كل ما حدث •

فقلت وأنا أصده بكل ما أوتيت من قوة :

ـ حبا بالله ، ارحمها ..

ولكن في هذه اللحظه فُتح الباب وظهرت الكسندرين ميخائيلوفنا أمامنا .

نظرتْ الينا في دهشة ، وكان وجهها ممتقعا أكثر من امتقاعه في أي وقت مضى ، وكانت لا تكاد تقوى على الوقوف على ساقيها ، وكان واضحا انها وقد سمعت أصواتنا بذلت جهدا كبيرا للتحامل على نفسها .

سألتنا وهي تنظر الينا في غير قليل من الدهشة :

ـ ماذا هنالك ؟ فيم كنتما تتكلمان ؟

وخيم الصمت بضع لحظات ، وازداد وجهها امتقاعا ، فارتميت عليها وعانقتها وأدخلتها الى مخدعها ، ولحق بي بطرس الكسندروفتش ، ولبثت أعانق الكسندرين ميخائيلوفنا في قوة وعنف وقد أغرقت وجهي في صدرها الذي يخفق خفقانا عنيفا .

وسألت الكسندرين ميخائيلوفنا مرة أخرى :

ـ ماذا بك ؟ ماذا بكما كليكما ؟

ـ اسألي الآنسة . لقد دافعتِ عنها أمس .

قال بطرس الكسندروفتش ذلك ثم ارتمى على أحد المقاعد في ثقل وهدوء ، فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا تقول وقد لاحت على وجهها خشية غريبة :

ـ يا الهي ! ماذا وقع ؟ انك مضطرب ، وهي خائفة . انها تبكي . قولي لي يا آنيت ، ماذا كان بينكما ؟

فقال بطرس الكسندروفنش وقد اقترب منى وأمسك بكتفي وأبعدنى عن امرأته :

ــ كلا ، دعينى أتكلم قبلها •

ثم أضاف وهو يضعى فى وسط الغرفة :

ــ ابقى هنا ، سأحاكمك أمام تلك التى كانت لك أما !

وتوجه الى الكسندرين ميخائيلوفنا فأجلسها على مقعد وهو يقــول لها :

ــ وانت ، هدئى روعك ، يؤسفنى اننى لا أستطيع أن أجنِّبك شرح هذه المسألة البشعة ، ولكن لا بد من ذلك •

فرددت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى تنقِّل نظرتها القلقة الرهيبة بين زوجها وبينى :

ــ رباه ! ماذا هنالك ؟

وأخذت أقلب يدى وأفركهما فى انتظار الدقيقة الرهيبة • ان المرء لا يستطيع أن يأمل من هذا الرجل أى شعور بالرحمة •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ــ سأقول لك ذلك بايجاز ، والذى أريده هو أن تحكمى عليها معى• لقد كنت دائما تتحزبين لها وتدافعين عنها ــ لا أدرى لماذا ، فتلك نزوة من نزواتك ــ حتى لقـــد ناقشتنى بالأمس فى شأنها واستبسلت فى الدفاع عنها •• ولا أدرى الآن كيف أشرح لك الأمر • اننى لأحمر خجلا حين أفكر فيه •• الخلاصه انك قد دافعت عنها واغرقتنى باللوم واتهمتنى بقسوة لا محل لها ، حتى لقد ألمعت الى عاطفة أخرى لعلها هى التى تدفعنى الى

هذه القسوة التي لا محل لها • انك •• ولكنني أتساءل لماذا لا أتوصل الى خنق حمرة الخجل هذه التي تصعد الى وجهي حين أفكر فيما ذهبت اليه من افتراضات • لا أدرى لماذا لا أستطيع أن أتكلم عن ذلك بهدوء وصراحة أمامها •• الخلاصة انك ••

ففاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا وقد تملكها الانفعال والحمي والشعور بالخجل وقالت :

ـ كلا لن تفعل ، لن تقول ذلك ، ارحمها ، فما قلته بالأمس كان من بنات خيالى أنا ، أما الآن فلم يبق في نفسى ظل من شك • اغفر لى تلك الظنون التى راودتنى • نعم اغفرها لى ، انني مريضة ، ويجب أن يُغفر لى ، ويجب خاصة أن لا يقال لها شيء من ذلك البتة •

ثم قالت وهى تتجه نحوى :

ـ آنيت آنيت ، اذهبى من هنا بسرعة ، لقد أراد أن يمزح ، أنا المذنبة ، وتلك مزحة في غير محلها •

واستمر بطرس الكسندروفتش يقول دون أن يرحمها ودون أن يهتز لضراعاتها :

ـ الخلاصة : أنك كنت غيورة منها !

فانطلقت من صدرها صرخة وامتقع لونها امتقاعا شديدا وتهالكت ساقاها ، فتهافتت على أحد المقاعد ، ودمدمت أخيرا بصوت لا يكاد يسمع :

ـ سامحك الله ، سامحيني يا نيتوتشكا ، انه ذنبي • انني مريضة • انني مريضة ، انني ••

فصرخت أنا كالمجنونة ، وقد فهمت أخيرا لماذا يريد أن يحكم عليّ أمام امرأته :

ـ هذا ظلم • هذا عار • هذا جبن • هذه حقارة • هــذه خسة • انك ••

فصرخت الكسندرين ميخائيلوفنا وهي تأخذ يدي :

ـ آنيت !

فهتف بطرس الكسندروفتش يقول وهو يقترب منا مضطربا اضطرابا لا يوصف :

ـ هذه مهزلة ، لا أكثر ولا أقل !

واستمر يقول وهو يغرز في امرأته نظرة تفيض كرها وحقدا :

ـ هذه مهزلة ، وموضوع هذه المهزلة أنت ! •• أما نحن (قال ذلك لاهثا وهو يشير الىّ بيده) فثقى اننا لا نخشى شيئا من مثل هــذا الايضاح • ثقى اننا لم نعد من الكمال بحيث نمتعض أو نحمر أو نسد آذاننا حين نتحدث عن أمور من هذا النوع • معذرة ، انى أتكلم بلا لف ولا دوران ، وربما كان كلامى خشنا ولكن لا بد من ذلك • هل أنت واثقة يا سيدتى من طهارة هذه •• البنت !

فغمغمت الكسندرين ميخائيلوفنا كالميتة من شدة الخوف تقول :

ـ رباه ! ماذا بك ؟

فقاطعها بطرس الكسندروفتش يقول بلهجة متوعدة :

ـ لا تستعملى ألفاظا جوفاء • أرجوك • اننى لا أحب ذلك • نحن الآن أمام حادث لا تعقيد فيه ، حادث بسيط جدا ، مبتذل الى آخر حدود الابتذال • اننى أسأل عن سلوكها • هل تعلمين أن ••

ولكنني لم أدعه يتــابع كلامه ، بل أمسكت بذراعه وجررته بقوة وعنف الى ركن من أركان الغرفة ـ فلو قد انقضت على ذلك ثانية أخرى لأمكن أن يضيع كل شيء ـ وهمست في حماسة أقول لها :

ـ لا تتكلم عن الرسالة ، والا قتلتها على الفور • ان اتهامي اتهــام لها أيضا • انها لا تستطيع أن تحكم عليّ لأنني أعرف كل شيء •• كل شيء •• هل تسمع ؟

فرماني بنظرة ثابته وحشية وأخذ يضــحك ، وكان الدم قد صــعد الى وجهه ، فكررت أقول :

ـ أعلم كل شيء ، كل شيء ••

فظهرت عليه علائم التردد وطاف في شفتيه سؤال حزرته •

والتفت نحو الكسندرين ميخائيلوفنا بسرعة فرأيتها تنظر الينا قلقة وقد ظهر في محياها الوجل والخجل • قلت بصوت عال :

ـ أنا وحدى المذنبة • انني أخدعك منذ أربع سنين ! •• لقد أخذت مفتاح المكتبه وكنت أمضي اليها في كل يوم منذ أربع سنين آخذ كتبــا ، وقد فاجأني بطرس الكسندروفتش فوجد بين يدى كتابا ينبغي ألا أقرأه • وهو يخاف عليّ ويتصور الخطر كبيرا !

ثم أردفتُ أقول بحماسة ، وقد لاحظت انه يبتسم :

ـ على انني لا أحاول أن أبرر ذنبي • أنا وحدى المذنبة • لقد كان الاغراء أقوى مني • فلما وقعت في هــــذه الخطيئة لم أجرؤ على الاعتراف بها •• هذا كل شيء • نعم هذا كل ما كان بيننا •

ـ أوه ما أبرعك !

همس بطرس الكسندروفتش بذلك في أذني .

وكانت الكسندرين ميخائيلوفنا تصغي الي باتنباه عميق ، ولكن وجهها كله كان يعبر عن الارتياب فيما أقول . كانت تنقل بصرها بين زوجها وبيني بلا انقطاع . وخيم الصمت . كنت لا أستطع أن أتنفس الا في كثير من العناء . ومالت الكسندرين ميخائيلوفنا على صدرها وغطت عينيها بيديها كأنها تريد أن تفكر وأن نزن كل كلمه من الكلمات التي قلتها . ورفعت أخيرا رأسها وحدقت في قائلة :

ـ نيتوتشكا ، صغيرتي ، انني أعلم أنك لا تستطيعين الكذب . هل هذا كل ما حدث ؟ تماما ؟

فأجبت :

ـ نعم . هذا كل ما حدث .

فاتجهت الى زوجها تسأله :

ـ هل هذا كل ما حدث ؟

فغمغم بالرغم منه قائلا :

ـ نعم . هذا كل ما حدث ، كله .

ـ هل تقسمين على ذلك يا نيتوتشكا ؟

فأجبت بلا تردد :

ـ نعم . أقسم .

الا انني لم أستطع أن أحتمل نظرة بطرس الكسندروفتش ولا الابتسامة التي ارتسمت على فمه حين سمعني أقسم ، فاحمر وجهي فجأة .. ولم يخف ذلك على المسكينة الكسندرين ميخائيلوفنا ، فانطبعت على وجهها علائم قلق ساحق فظيع !

وقالت في حزن :

ـ كفى • أصدقكما • لا أستطيع الا أن أصدقكما •

واستأنف بطرس الكسندروفتش يقول :

ـ ان الاعتراف كافٍ فيما أرى • هل سمعت ما قالت ؟ فما رأيك اذن ؟

لم تجب الكسندرين ميخائيلوفنا • وكان المشـــهد يزداد قسوة على نفسى •

وصرخ بطرس الكسندروفتش قائلا :

ـ سأفتش غدا جميع الكتب ، لا أدرى ماذا عندنا منها فى المكتبة ، ثم •••

فقاطعته الكسندرين ميخائيلوفنا سائلة :

ـ أى كتاب كانت تقرأ ؟

فاتجه الىّ يقول ، وهو يبتسم ابتسامة واضحة :

ـ أى كتاب كنت تقرئين ؟ انك أقدر منى على توضيح هذا الامر •

ولم أستطع أن أجيب من شـــدة الانفعال ، واحمرت الكسندرين ميخائيلوفنا وغضت بصرها ، وأعقب ذلك صمت طويل •• فأخـــذ بطرس الكسندروفتش يذهب ويجىء فى طول الغرفة وعرضها وقد بدا على وجهه الانزعاج •

وأخيرا قالت الكسندرين ميخائيلوفنا بلهجة خجولة :

ـ اننى أجهل ما حدث بينكما ••

ثم أردفت تقول وهي تحاول أن تشدد على كلماتها وقد أوشكت أن تنفجر بتأثير تلك النظرة الثابتة التي كان يرميها بها زوجها ـ وكانت هي تحاول أن تتحاشاها ـ أردفت تقول :

ـ اذا كان هذا كل ما حدث فانني لا أفهم هـذا الغم الذى يسيطر علينا نحن الـثلاثة • ان الذى ينبغي أن يلام انما هـو أنا ، أنا وحدى ، وذلك ما يعذبني • لقد أهملت تربيتها ويجب أن أتحمل تبعة ذلك ، وعلى نيتوتشكا أن تسامحني • أما أنا فلا أشعر أن من حقي أن أحكم عليهـا • واني لأتساءل مرة أخرى : فيم هذا الغم واليأس ؟ ان الخطر قد انقضى • انظر اليها (قالت ذلك وقد ازدادت حماستها وهي ترمي زوجها بنظـرة فاحصة) أنظر اليها • هل ترك هذا الطيش من أثر فيها ؟ هل تغيرت ابنتي الصغيرة تغيرا كبيرا ؟ هل يمكن أن أجهل ما يشتمل عليه قلبها الطاهر من نبل ، وما يملكه رأسها الصغير من ذكاء ؟ (قالت ذلك وهي تجذبني اليها بحركة ملاطفة) • ان لها روحا صافية كالنهار ، وضـميرا لا يمكن أن يخطىء •• كفى يا عـزيزى ، كفى • لا شـك أنه قد اندس في كربنا المشترك عنصر جـديد • لعل ظلا من عـداوة قد مسنا لحظة ما ، ولكننا سنطرد هذا الظل بالحب وحسن التفاهم • سنطرد جميع شكوكنا • ربما كان هنالك حتى الآن أشياء كثيرة لم نوضحها فيمـا بيننا ، وأنا المسئولة الأولى عن ذلك • أنا المسئولة الأولى لأنني أول من خبأت نفسي عنكمـا ولأنني أول من سمحت لنوع من الشك السخيف بأن ينبت في نفسي ، وهذا كله يرجع الى رأسي البائس المريض • ولكن •• ولكن اذا نحن تصارحنا فلا بد أن تسامحاني ، لأن ما دار في خلدى من ظنون ليس فيه شر كبير على كل حال •

ونظرت مرة أخرى الى زوجها وقد احمر وجهها ، وانتظرت قلقة ما سيجيب به • وكانت ابتسامته تزداد وضوحا أثناء استماعه الى كلامها •

انقطع عن السير وتسمر أمام امرأته وقد عقد ذراعيه وراء ظهره • كان كأنه سرّ برؤية الاضطراب الذى يراه على وجهها • وزداد اضطرابها أمام هذه النظرة التى يرميها بها • وانتظر قليلا كانه يريد أن يتيح لها ان تتابع حديثها • فتضاعف اضطراب الكسندرين ميخائيلوفنا • وأخيرا قطع هذا الصمت الثقيل المؤلم وهتف في ضحكة ساخرة ، مرة ، متطاولة ، يقول :

ـ انني أرثى لحالك أيتها المرأة البائسه •

ثم كف عن الضحك وتابع كلامه بلهجة وفورة كالحه :

ـ لقد اضطلعت بدور يفوق ما تملكين من قوى • ماذا كنت تريدين من ذلك ؟ كنت تريدين أن تحمليني على الاجابه ، أن تغرقيني بشكوك جديدة ، أو على الأصح بشكوك قديمه لا تستطيع كلماتك أن تخفيها • ان معنى كلماتك هو انه ينبغي أن لا تؤاخذ نيتوتشكا ، لأنها كاملة ، حتى بعد قراءتها كتباً غير أخلاقيه ، هذه القـــراءة التى آتت أكلها منذ الآن ، اليس كذلك ؟ ألا أن في هذا الايضاح شيئا آخر ، ان فيه تلميحا ، فأنت تعتقدين أن ارتيابي وقسوتي ترجعان الى عاطفة أخرى • حتى لقد وصلت بالأمس الى اتهامي • أرجوك ، دعيني أتكلم ، انني أحب أن أتكلم بلا لف ولا دوران• نعم لقد أردت أن تقولى أمس ان الحب لدى بعض الاشخاص (ومن الملاحَظ ان هؤلاء الاشخاص يكونون فى رأيك بوجه عام ، ذوى طبع قاس ، صريح ، رصين ، ذكى ، قوى •• الى آخـــر ما هنالك من صفات أغدقها عليهم كرمك !) •• ان الحب لدى هؤلاء الاشخاص (يعلم الله لماذا لفقت هذا !) لا يمكن أن يعبر عن نفســه الا على نحو خطير ، محموم ، وحشى ، متشكك فى كثير من الاحيـان ، مســتعد للاضطهاد والتعذيب فى كثير من الاحيـــان أيضا • لا أذكر الآن على وجـه الدقة

الكلمات التي استعملتها أمس •• أرجوك ، دعيني أتكلم • انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، كل شيء ، اكرر ذلك للمرة المـــائة ، انها تستطيع أن تسمع كل شيء ، انك مخدوعه في امرها ، ولكنني لا أفهم لماذا يحلو لك ان تحشريني في زمرة هذا النوع من الاشخاص ! •• ليس في سني يقع المرء في عشق بنت كهذه ، وصدقيني آخيرا ، يا سيدتي ، اذا قلت لك انني أعرف واجبي ، ومهما تصدعي رأسي بسبل نفسك فسأظل أكرر لك ماسبق أن قلته ، وهو : ان الجريمه تبقي جريمة ، وان الخطيئة تبقي خطيئـة ، انها تظل حقيرة ، منحطه ، مثيرة للاسمئزاز ، رغم السمو الذي نحب أن نرفع اليه عاطفة الرذيله • ولكن كفي كفي ، لا أحب أن أســمع بعـد الآن شيئا عن هذه الحقارات •

كانت الكسندرين ميخائيلوفنا تبكي •

وقالت أخيرا وهي تشهق وتحيطني بذراعيها :

ـ انني أقبل أن أتحمل هذا كله وحدي • أتمني أن تكون ظنوني دنيئة وأن تنظر أنت الى هذه الظنون نظرة احتقـار • ولكن انت أيتهـا البائسة لماذا حكم عليك أن تسمعي هذه الاتهامات المهينة ؟ انني لا أستطيع أن أحميك • انني لا أملك حق الكلام ! رباه ! انني لا أستطيع مع ذلك أن أسكت يا سيدي • ان الامر أقوى مني •• ان ما تقوله جنون ••

فهمست في أذنها أحاول تهدئتها قائلة :

ـ كفي ، كفي •

كنت أخشي أن يزيد هذا الكلام القاسي الذي وجهته اليه ، أن يزيد غضبه وسخطه ، وكنت أرتعد خوفا عليها !

فاذا هو يهتف قائلا :

ـ ولكن أيتها المـرأة العميـاء ، أنت اذن لا تعلمـين ، أنت اذن لا ترين ..

وتوقف عن متابعة كلامه لحظة ، ثم استأنف كلامه وهو يتجه الىّ وينتزعنى من بين ذراعى امرأته :

ـ اذهبى من هنا . لا أسمح لك بأن تلمسيها . انك تلوثين زوجتى، ان وجودك اهانة لها !

ثم صرخ وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ ولكن فيم أحرص على السكوت حين لا يكون بدّ من الكلام ؟ .. سأقول كل شىء ، كل شىء . اننى لا أدرى ، يا آنسـة ، ما الذى تعرفينه ، ولا أعلم هذا الامر الذى تظنـين انك تهـدديننى به ، ثم اننى لا أحب أن أعلمه !

ثم التفت الى الكسندرين ميخائيلوفنا متابعا كلامه :

ـ اسمعى ، أقول لك اسمعى ..

فهتفت وقد هرعت أدخل بينها وبينه :

ـ اسكت !

ـ اسمعى !

ـ اسكت باسم ..

فقاطعنى بعنف وهو يرمقنى بنظرة متحدية :

ـ باسم ماذا ؟ باسم ماذا ؟ اسمعى يا سيدتى . لقد انتزعت من بين يديها رسالة من عشيقها ... هذا ما يجرى فى بيتك ، هذا ما تعمله هذه البنت بفضل حمايتك لها ، هذا ما لا ترينه ، ولا تحبين أن تريه !

وترنحت من شدة الذعر • ونظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا فاذا هى صفراء كالميتة ••

وقالت لاهثة بصوت لا يكاد يُسمع :

ـ مستحيل !

ـ لقد رأيت هده الرساله ، وأمسكتها بيدى ، وقرأت منها الاسطر الاولى ، ولم يبق بعد ذلك من شك • انها رسالة غرام ولقد انتزعتهـا من بين يدى ، وهي الآن معها • الامر واضح ، ولا يجوز الشك اطلاقا • وان كنت فى شك من الامر مع ذلك فما عليـــك الا أن ترى الرسالة ، فتحكمى بنفسك !

فهتفت الكسندرين ميخائيلوفنا وهى ترتمى نحوى :

ـ نيتوتشكا •• ولكن لا ، اسكتى ، اسكتى • يا الهى ! كيف يمكن أن يكون ذلك ، كيف يمكن أن يحدث ؟ يا الهى !

ودفنت وجهها في يديها وهى تنشج نشـيجا قويا ، ثم اسـتأنفت تقول :

ـ ولكن لا • هذا مستحيل ؛

ثم حدقت في زوجها قائلة :

ـ أنت مخطىء • لست أفهم ما معني هذا كله ! انك لم تخدعينى ، أليس كذلك يا نيتوتشكا ؟ قصى على كل شيء دون أن تخبئى شيئا ؟ لقد أخطأ الرؤية ، أليس كذلك ؟ أليس مخطئا ؟ لقد رأى شيئا آخر ، لقد أخطأ ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ اسمعى ، يا آنيت ، لماذا لا تقولين لى كل شيء ، لى أنا يا عزيزتى الصغيرة ، يا ابنتى الحبيبة !

فتهف بطرس الكسندروفتش من فوق رأسى قائلا :

ـ أجيبي . لمـــاذا لا تجيبين ؟ أجيبي : أرأيت بين يديك رسالة أم لا ؟

فقلت لاهثة :

ـ نعم .

ـ وهذه الرسالة كانت من عشيقك ؟

ـ نعم !

ـ ومازالت صلاتك بهذا العشيق قائمة ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم .

قلت ذلك دون أن يعنيني هل أنا أجيب على الأسئلة التي تطرح عليّ ، فقد كان كل همي أن أفرغ من هذا الامر بأقصى سرعة ممكنة .

فقال وهو يأخذ يد زوجته :

ـ هل سمعت قولها ؟ والآن ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ ان قلبك مسرف في النبل مسرف في حسن الظن ! صدقيني ، دعي هذه الافتراضات التي نبتت في دماغك المريض .. انك ترين الآن حقيقة هذه .. البنت.. لقد حرصت على أن أبين لك خطل ظنونك . لاحظت ذلك منذ زمان طويل . ويسعدني أخيرا أن أنتزع من ذهنك ما علق فيه من رأى حسن فيها . كان يؤلمني أن أراها الى جانبك ، وأن أراك تداعبينها ، وأن تجلس الى مائدتنا ، وأن أحس بوجودها في بيتنا ، كانت عماوتك تثيرني . ولهذا السبب ، لهذا السبب وحده انتبهت اليها ، وراقبتها . ولاحظت أنت ذلك فنسجت حوله ألف شيء وشيء ، الا أن كل شيء قد اتضح الآن ، وأصبح الشك غير جائز .

ثم التفت الى يختم كلامه قائلا :

ـ غدا يا آنسة تخرجين من هذا المنزل !

فنهضت السكندرين ميخائيلوفنا عن مقعدها وقالت :

ـ لا تتعجل • اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذه القصة كلها • لا تنظر الىّ هذه النظرة الفظيعة ، لا تسخر منى • سأجعلك حكما على رأيى • آنيت ، بنيتى ، تعالى الى جانبى ، ناولينى يدك ، هكذا !

ثم أضافت تقول فى صوت غارق فى الدموع وهى تنظر الى زوجها فى تواضع وذل :

ـ ما من أحد معصوم من الخطيئة • من ذا الذى يستطيع منا أن يرفض يد أحد ! هاتى يدك يا آنيت ، يا ابنتى • اننى لست أفضل منك ولا أحسن ، ان وجودك لا يمكن أن يسوءنى ، لأننى أنا أيضا خاطئة •

فصرخ بطرس الكسندروفتش دهشا :

ـ سيدتى ، سيدتى ، انك تنسين نفسك ، عودى الى صوابك !

ـ اننى لا أنسى نفسى : أرجوك أن لاتقاطعنى ، دعنى أتم كلامى حتى النهاية • لقد رأيت بين يديها رسالة ، بل لقد قرأت الرسالة • وأنت تزعم ـ وهى تعترف ـ ان هذه الرسالة من عشيقها ! •• اننى لا أدافع عن الرذيلة ، ولو أردت أن أفكر ، لفهمت أو لشعرت أن هذه الطفلة ربما كانت بريئة ! •• كلا ، اننى لا أحاول أن أغفر الرذيلة ! ها أنا ذا أبرىء نفسى من ذلك لأريحك • نعم ، لو كانت نيتوتشكا زوجه ، لو كانت أما نسيت واجباتها ، لوافقتك على رأيك • ها أنت ترى اذن اننى لا أستثنى نفسى •• انظر الى ذلك بعين الاعتبار بدلا من أن تؤاخذنى

وتحنق علي • لعلها اذن تلقت هذه الرساله دون أن تفكر في سوء • لعل عاطفه مفاجئة قد جرفتها دون ان يكون هنالك من يصدها ويأخذ بيدها ! •• واذا كان الامر كذلك فانا المذنبة الوحيدة لانني لم أراقب قلبهـــا • لعل هذه الرسالة هي الاولى ، ولعلك بظنونك الفظة قد دنست العاطفة المقدسة التي تمثلها ، ولعلك بملاحظاتك الشريرة قد دنست تفكير هـذه الطفلة ! •• انك اذن لم تر شيئا من هذا الخفر الذي يشع في وجههـا الطاهر ! لقد رأيت هذه الصغيرة المسكينة تجيب على أسئلتك كيفما اتفق لها ، لأنها في اضطراب شديد وارتباك عظيم ، ولأنها لا تريد أن تتخلص من عذاب هذه الاسئلة التي لا محل لها • نعم ، نعم ، ان هـذه الاسـئلة لا محل لها ، انها وحشيه ، خاليه من العاطفة الانسانيه • انني أسـتنكر تصرفك • لن أغفر لك هذا أبدا !

فصرخت وأنا أعانقها :

ـ نعم ، ارحميني ، ودافعي عني ، أتوسل اليك • لا تتركيني •

وسقطت على ركبتيها •

بينما تابعت هي كلامها تقول بصوت مخنوق :

ـ ولولا انني موجودة ، فلربما كنت أخفتها بكلامك الى حد اقناعها بأنها مجرمة ، لربما كنت خنقت ضميرها وحطمت قلبها •• يا الهي ! كنت تنوي أن تطردها ! ولكن هل تعلم أنك ان طردتها طردتني معها • نعم ، ان طردتنا كلتينا • هل سمعت ما أقول يا سيدي ؟

كانت عيناها تقدحان شررا ، وكانت تلهث بقوة ، وقد أوشك انفعالها المرضي أن يبلغ درجة التشنج •

فصرخ بطرس الكسندروفتش أخيرا يقول :

ـ يكفي هذا يا سيدتي • لقد سمعت ! كفي ، كفي • انني أعلم ان هنالك عواطف أفلاطونية ، أعرف ذلك على حساب شقائي ، يا سيدتي ، هل تسمعين ؟ •• نعم على حساب شقائي ، لأنني لست من أولئك الذين يمكن أن يغلف لهم العلقم بالسكر يا سيدتي • لست أحب هذا • لاتذرى الرماد في العيون ! •• اذا كنت تعتبرين نفسك مجرمة ، اذا كان قد بدا لك أن تتركي البيت •• فما عليّ الا أن أذكرك بأنك أخطأت في أنك لم تنفذي هذا المشروع في الوقت المناسب ، منذ ••• نعم ، أستطيع أن أحدد لك اليوم على وجه الدقة ان كنتِ قد نسيته !

نظرت الى الكسندرين ميخائيلوفنا • كانت عيناها شبه مغمضتين ، وكانت مستندة اليّ وقد خارت قواها من فرط ما حبست ألمها • ما هي الا دقيقة حتى يمكن أن تنهار مغشيا عليها !

فصرخت وأنا أرتمي على ركبتي بطرس الكسندروفتش :

ـ أوه • حباً بالله ، ارحمها ، ارحمها • لا تزد على ما قلت كلمة واحدة !

غير أن الاوان كان قد فات • فها أنا أسمع جواب كلماتي صرخة ضعيفة ، وها هي المرأة البائسة تهوى على الارض !

قلت :

ـ انتهى الامر • قتلتها • ادع الناس • انقذها • سأنتظرك في حجرة عملك • أريد أن أكلمك • سأقول لك كل شيء !••

ـ كل شيء ؟ عن ماذا ؟

ـ فيما بعد •

ودامت الأزمات العصبية بعـــد الاغماء ســاعتين ، واهتز البيت كله وانقلب رأسا على عقب • وهز الطبيب رأسه وقد ظهرت فى وجهه علائم القلق • وبعد ساعتين دخل بطـرس الـكسندروفتش الى حجرة عمله ، لقد ترك زوجته منذ لحظة • كان ممتقع اللون مضطربا ، فأخذ يمشى فى طول الغرفة وعرضها جيئة وذهابا ، ويقرض أظافره بقوة حتى ليخرج من أصابعه الدم • لم أره فى حياتى على مثل هذه الحال !

وأخيرا قال بصوت مبحوح خشن :

ـ ماذا تريدين أن تقولى لى ؟

ـ اليك الرسالة التي أردت أن تنتزعها منى • هذه هى ؟

ـ نعم •

ـ خذ •

فأخذ الرسالة وحملها الى النور • راقبته بانتباه شديد • وما هى الا ثوان حتى قلبها على الصفحة الرابعة ليقرأ التوقيع المذيل به •• ورأيت الدم يصعد الى وجهه !

سألنى وقد تجمد من فرط الدهشة :

ـ ما معنى هذا ؟

ـ وجدت هذه الرسالة منذ ثلاث سنين فى أحد الكتب ، ففهمت انها نُسيت فيه ، وقرأتها وحزرت كل شىء • وقد احتفظت بهـا منـذ ذلك الوقت وأنا لا أدرى لمن يجب أن أعطيها • كنت لا أســتطيع أن أردها اليها هى •• أما أنت ، فلم يكن يعقل انك تجهل مضمونها ، أو تجهل شيئا من هذه القصة الحزينة • لماذا كنت تمثل هذه المهزلة ؟ لا أدرى !

•• ان ذلك ما يزال غامضا في ذهني • انني لا أستطيع أن أنفذ الى خفايا نفسك • لعلك أردت أن تبرهن على تفوقك ، أن تسيطر على زوجتك • ولكن لماذا ؟ لكي تظفر على ما يسكن رأسها من أشباح ؟ •• لكي تسيطر على خيالها المريض ؟ •• لكي تبين لها انها متوهمة ، انك بلا خطيئة ، في حين أنها خاطئة ؟! •• ولقد كان لك ما أردت ، لأن ظنونها ما هي الا الفكرة الثابتة التي تستبد بنفس تذوى •• ما هي الا التوجع الاخير يصدر من قلب حطمه الظلم الانساني بحكمه عليه ، وقد شاركت أنت في هذا الحكم الظالم • « انك لا تحبني » ، هذا ما قالته • هذا ما أرادت أن تفهمك اياه • ولكن صلفك واثرتك المستبدة كانا بلا رحمة • وداعا • اعفني من ايضاحاتك • ولكن انتبه ، انني أعرف حق المعرفة ، انني أقرأ حقيقتك في نفسك ، لا تنس هذا !

واتجهت نحو غرفتي ، وأنا لا أكاد أعي ماذا أفعل • وفي اللحظة التي هممت فيها أن أفتح الباب ، استوقفني « أوفروف » ـ سكرتير بطرس الكسندروفتش ـ وهو يقول لي في كثير من الاحترام والتعظيم :

ـ أحب أن أكلمك •

فنظرت اليه دون أن أفهم ما يقول ، ثم أجبته وأنا أمر أمامه :

ـ فيما بعد • اعذرني الآن ، انني مريضة أتألم •

فقال وهو ينحني ويبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ حسنا • الى الغد !

الليالي البيضاء

١٨٤٨

« الليالى البيضاء » (Belyia notchi)
كتبت سنة ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة
« حوليات الوطن » ، فى شهر تشرين
الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٤٨ .

الليلة الأولى

كانت الليلة جميلة ، جميلة جمالا لا نراه الا حين نكون في ريعان الشباب أيها القراء الاحبة ! السماء تتلألأ فيها النجوم ، وهي تبلغ من الصفاء أن المرء يتساءل بالرغم منه حين ينظر اليها : « هل يمكن تحت مثل هذه السماء أن يعيش أناس يملأ قلوبهم البغض وتعبث بنفوسهم النزوات ؟ » السؤال ساذج ، ساذج جداً ، أيها القراء الاحبة ! ولكنني أسأل الله العلي القدير أن يبعثه في أنفسكم أحياناً كثيرة ! .. انني حين أحدثكم عن البشر اللذين تعبث بنفوسهم النزوات ويملأ قلوبهم البغض أتذكر سلوكي خلال ذلك اليوم كله . كانت نفسي تمتلىء حزناً منذ ذلك الصباح ، وكان يخيل الي أن العالم كله يهجرني ، وأن الناس جميعاً يهربون مني .

من حقكم أن تسألوني طبعاً : ولكن من هم « هؤلاء الناس ؟ » . ذلك أن ثماني سنين انقضت على اقامتي بمدينة بطرسبرج ثم لم أستطع أن أعقد مع أحد أواصر صداقة . ولكن فيم كان يمكن أن ينفعني الأصدقاء ؟ انني أعرف بطرسبرج كلها . لذلك خيل الي أن الناس جميعاً هجروني لأن المدينة كلها سافرت الى الريف . انه ليشق على نفسي

كثيرا أن أبقى وحيدا • وهأنذا منذ ثلاثة أيام ، أطوف في المدينة هائماً على وجهي لا أفهم ماذا يجري في نفسي • أجتاز شارع نفسكي ، أو اذهب الى حديقة الصيف ، أو انتزه على الارصفة * ، فلا أرى هنا ولا هناك أي وجه من وجوه أولئك الذين ألف أن ألقاهم طوال السنة ، في مواضع معينه وساعات محددة •

صحيح أنني في نظرهم غريب • ولكنني أعرفهم أنا جميعاً • لاشيء فيهم يفوتني • درست هيئاتهم • كنت اعجب بهم حين أراهم مرحين ، وأتألم حين أبصر انهم حزانى • ولقد انعقدت صلة بيني وبين شيخ قصير القامة كنت ألقاه في ساعة بعينها من جميع الأيام على نهر فونتانكا • في وجهه تعالٍ وكبر ، وفي عينيه أحلام • وهو يدمدم دائماً في لحيته ، محركا ذراعه اليسرى ، بينما تمسك يده اليمنى بعصا ذات قبضة من ذهب • لقد لاحظني هذا الرجل ، وهو يهتم بحالتي النفسيه • فاذا لم أكن في ساعة معينة في موضع معين من قناة فونتانكا أحزنه ذلك فيما أعتقد* • لذلك يحييى أحدنا الاخر أو يكاد يحييه ، لا سيما حين نكون كلانا في مزاج صاف رائق • فاذا اتفق أن انقضى يومان دون أن يرى أحدنا صاحبه ثم التقينا في اليوم الثالث ارتفعت يدانا الى قبعتينا عفواً ، ولكن كلاً منا مايلبث أن يثوب الى رشده فيمر بصاحبه على بشاشة متبادلة •

والمنازل صديقة لي أيضا • فحين أسير فكأن كل منزل من هذه المنازل يقبل عليّ وينظر اليّ من جميع نوافذه ويقول لي : « نعمت يوماً ! كيف حالك ؟ أنا بخير والحمد لله • في شهر آذار سيضاف اليّ طابق جديد » أو يقول لي : « كيف صحتك ؟ أما أنا فسيصلحونني غداً » أو يقول لي أيضاً : « لقد أوشكت أن أحترق وخفت خوفاً شديداً » • الخ • الخ •• وبين هذه المنازل منازل أوثرها ، فكأنها من رفاقي ، فمنها واحد

ينوى أن يعالج هذا الصيف لدى معمار ، فانا أتعمد أن أمر به في كل يوم حتى لا يسرفوا في افساده ، وأسأل الله أن يحرسه وأن يصونه ! ..

ولن أنسى ما حييت قصه ذلك البيت الجميل الصغير الوردى اللون ! لقد كان من حجر ، وكان أنيقا لطيفاً ، وكان يرمقني دائماً بنظرة محببة ويبلغ من الادلال والزهو بالنظر الى جيرانه أن قلبي كان يبتهج ابتهاجاً كبيرا كلما رأيته في نزهه من نزهاتي . فلما اجتزت الشـــارع فى الاسـبوع الأخير نظرت الى صديقي الصغير فسمعته يئن قائلا : « سيصبغونني بلون أزرق » ! يا للبرابرة الهمج المتوحشين ! انهم لا يشفقون على شيء ولا تأخذهم بشيء رحمة أو رأفه : لا الأعمدة ولا الأفاريز ! وأصبح صديقي أصفر كطائر الكناري . ثارت ثائرتي وكدت أصاب بنوبة عصبية ، وما زلت الى الآن أشعر بأنني لا أستطيع النظر مرة أخرى الى صديقي الصغير الذي شوهوه تشويهاً كاملا وصبغوه بألوان امبراطورية السماء . ★

لقد أصبحتم الآن لا تجهلون أيها القراء كيف أعرف بطرسبرج !

سبق أن قلت ان قلقاً قد عذبني خلال ثلاثة أيام الى أن عرفت سببه. كنت أشعر فى الشارع بغربة (هذا غائب ، وذاك مسافر ، وأين الآخر ؟) وفى بيتى أيضا أصبحت أنكر نفسى . تساءلت خـلال سهرتين كاملتين : « ما الذى ينقصنى فى غرفتى الصغيرة ؟ لماذا أشعر بوحشة هنا ؟ » وأمضى أنظر حائراً فى الجدران الخضراء التى غشيها الدخان ، وفى السقف المغطى بأنسجة العنكبوت التى كانت ماتريونا تنجح في الحفاظ عليها أيمـا نجاح ، وأعيد النظر الى جميع الأثاث ، فأدقق في كل كرسي من الكراسي علني أجد السبب فيما أشعر به من ضيق (ذلك أن قطعـــة من الأثاث تجعلنى مريضاً اذا هى لم تكن فى مكانها) . ونظرت من النافذة فلم أظفر بطائل .. لم تتحسن حـــالى . حتى لقـــد أردت أن أنادى ماتريونا ،

فاستدعيتها ولمتها على انها لم تطهر السقف من انسجه العنكبوت ، وآخذت عليها اهمالها عامة : ولكن عينيها أظهرتا دهشه ثم خرجت دون أن تنطق بكلمه ، وظل نسيج العنكبوت على حاله من الصحة والعافية حيث كان •

ولم احزر السبب الا اليوم فى آخر الامر • لقد « فلوا » جميعا الى الريف • اغفروا لى هذه الكلمة العامية ، ولكننى لست الان من صفاء المزاج بحيث أجيد تخير الالفاظ وانتقاء العبارات • ان بطرسبرج كلها قد سافرت الى الضواحى • وما من رجل مهيب المنظر وفور الطلعة آراه ينادى حوذياً فى الشارع الا وأتصوره رب أسرة يسافر ليستريح فى الريف مع ذويه بعد سنة قاسية من عمل قاس ، وما من عابر سبيل الا ونظرته تقول : « لن نمكث هنا يا سادتى الا برهة قصيرة ، وبعد ساعتين سنكون فى منزلنا الريفى » • وهذه نافذة تفتح ، وهذه أصابع صغيرة دقيقه ناعمة بيضاء كالسكر تضرب الزجاج ضربات خفيفة ، وهذا وجه نضير هو وجه فتاة تظهر من النافذة فتنادى بائع الازهار فيبدو لى ان هذه الازهار انما تشترى لتذهب فورا الى الريف وتختفى ، لا لتعطر مسكنا فى المدينة أو لتهب للأعين فرحة الربيع •

ولقد بلغت من التقدم فى هذا النوع من الاكتشافات ، أننى كنت أستطيع أن أعرف بنظرة واحدة أى بيت ريفى يسكنه أى واحد من هؤلاء المسافرين • ان الأسر التى تقيم فى جزر كامنى وآبتكارسكى وفى طريق بترهوف تتميز بما تتعمده من حركات أنيقة وآداب رفيعة وبما تملكه من ملابس غنية للصيف وعربات فخمة رائعة • وان سكان بارجولوفو وسكان القرى المجاورة يلفتون النظر بفخامة منظرهم وذكاء هيئاتهم * • ولا كذلك سكان جزيرة كريسكوفسكى فانهم أهل فرح ومرح لا ينطفئان •

فاذا التقيت بموكب طويل من المسافرين يتقدمون بخطى بطيئة

ممسكين أدلتهم بأيديهم قرب عرباتهم الملأى بالاثاث والموائد والكراسى والأرائك التركية وغير ذلك ، وفوقها طباخة نحيلة تحافظ على رزق مولاها محافظتها على بؤبؤ عينيها ، أو اذا رأيت قوارب تجرى على نهر نيفا أو نهر فونتانكا ملأى كذلك بأنواع الأمتعة — تكاثر ذلك كله في عينيّ وتضخم مسافرا الى الريف مواكب مواكب . ان بطرسبرج كلها تهدد بأن تصبح صحراء مقفرة . لذلك كنت أشعر بحزن وقلق يملكان عليّ نفسى . كنت لا أعرف أين أذهب . وما كان ثمه داعٍ يهيب بى الى السفر . كنت أتمنى أن أتبع كل عربة من العربات ، وأن أجرى وراء كل مسافر من المسافرين ، ولكن ما من أحد يدعونى فقد نسونى ، وكأننى غريب عنهم جميعا !

لبثت أسير زمناً طويلا هائما على وجهى لا أعرف الشوارع التى أقطعها ، فاذا أنا أجد نفسى آخر الامر فى ظاهر المدينة . اجتزت حدود المدينة وقطعت الحقول والسهول لا أصغى الى التعب ؛ ولكننى شعرت بأن حملا ثقيلا قد سقط عن كتفى ، وشعرت براحة تشيع فى نفسى وفرح يترقرق فى قلبى . المسافرون ينظرون اليّ نظرة محبة ومودة ، حتى لكأنهم يحيوننى . فى وجوههم يلوح الرضى والسرور وهم جميعا يدخنون السيكار . كنت أنا أيضا سعيدا كما لم أكن كذلك فى يوم من الأيام . حتى لقد حسبتنى فى ايطاليا ، فالى هذه الدرجة كانت الطبيعة جميلة . ان الطبيعة لتملؤنى الآن بشراً واعجابا أنا الساكن المسكين من سكان المنازل الخانقة في المدينة .

ان ثمة شيئا لا يمكن تحديده أو وصفه ، شيئاً يؤثر فى النفس أبلغ تأثير فى طبيعة بطرسبرج لحظة تفجّر كل قوتها عند اقتراب الربيع ، فاذا سماؤها تتلألأ جمالا ، واذا أزهارها تسطع بكل ما لها من سناء ...

ان طبيعة بطرسبرج تذكرك عندئذ بعذراء مريضة تنظر اليها أحياناً نظرة اشفاق ، وتنظر اليها أحيانا نظرة حب ، عذراء قد لا تلتفت اليها فى ساعات أخرى ولكنها تبلغ على حين فجأة من الجمال أنك تتســاءل وقد جننت اعجابا وافتتانا : « أيه قوة تحمـل هاتين العينين الحـزينتين الحالمتين على الاحتراق بنـار كهذه النار ؟ ما الذى نادى الدمع الى هـذين الخـدين الخاسفين الناحلين الشاحبين ؟ أية عاطفة آنهدت هذا الصدر ، وأى هوى جمّل القسمات الدقيقـة من هـذا الوجه ؟ ما الذى دعا القوه والحيـاة والحسن فجاة الى وجنتى هذه الفتاة المسكينة ؟ ما الذى أضاء هذا الثغر بمثل هذه البسمه ؟ ما الذى حرك الفم بمل هذه الضحكه الرنانة المشرقة ؟ ».. وتنظر أنت حولها باحثاً عن أحد فتحزر وتقدر ! . ولكن اللحظة تنقضى. ولعلك سترى فى الغداة تلك النظرة الزائغة نفسها ، وذلك الوجه الشاحب نفسه ، وآثار حزن قاتل يبكى هوى عارضا ... ويحزنك ان غاب ذلك الحسن الوامض الى الأبد ، ويحز فى نفسك أن الوقت لم يتسع حتى لأن تحبها ...

وكان ليلى أجمل من نهارى واليكم ما حدث لى :

رجعت الى المدينة فى ساعة متأخرة ، وحين قاربت أن أصل الى بيتى، كانت الساعة قد دقت العاشرة . كنت أسير على رصيف القناة الذى لا يلقى المرء عليه أحداً فى مثل هذه الساعة . اننى أقيم فى حى بعيد من المدينة. وكنت أسير وأنا أغنى كما يتفق لى ذلك حين أكون سعيداً . وتلك عادة مشــتركة بين جميع المعتزلة الذين ليس لهم أصـدقاء ثم يخطر لهم أن يفصحوا عن فرحهم ! وانى لكذلك اذا بطارىء لم يكن بالحسبان يمنعنى من العودة الى مسكنى .

لقد أبصرت امرأة متكئة بكوعيها على افريز الجسر . كان يبـــدو

عليها أنها تنعم النظر في ماء القناة العكر • ان على رأسها قبعة صفراء صغيرة جميلة ، وهي ترتدي خمارا أسود أنيقا • قلت لنفسي : هذه فتاة ، ولا شك أنها سمراء • لم تسمع وقع خطواتي وأنا أقترب منها ، ولا تحركت قط حين مررت بها حابساً أنفاسي • شعرت بقلبي يخفق خفقاناً قويا • قلت لنفسي : «غريب ! لا بد انها غارقة في تفكير عميق » ثم لم ألبث أن توقفت فجأة ، كأنني تسمرت في مكاني : لقد سمعت نشيجاً مكتوما ، بكاء مخنوقا • نعم لم يكذبني سمعي ! لقد كانت الفتاة تبكي ! رباه ! ما أشد ما انقبض صدري • صحيح أنني خجول مع النساء • ولكن اللحظة كانت تقضي ••• عدت أدراجي متجها نحـــوها وكدت ان أخاطبهـا هاتفـا : « يا مدموازيل » لولا انني تذكرت أن هذا الهتاف قد كتب آلاف المرات في جميع الروايات الروسية التي يقرؤها أبناء المجتمع الراقي • ذلك هو السبب الوحيد الذي منعني من مخاطبتها هاتفـــا بها « يا مدموازيل » • ولكن ، فيما كنت أبحث عن الكلمة المناسبة التي أخاطبها بها ، ثابت هي الى رشدها ، فانتصبت ، ونظرت حولها ، ثم اندفعت تجتاز رصيف النهر، فتبعتها فورا ، ولكنها حزرت أنني أتبعها فتركت رصيف النهر ، واجتازت أحد الشـــوارع ، ومضت تسير على رصـــيفه • لم أجرؤ بعـــد ذلك أن أتبعها ، فقد أخذ قلبي يخفق خفقان قلب عصفور سجين • غير أن ظرفا لم يكن في الحسبان قد خدمني في هذه اللحظة •

فعلى الجهة الأخرى من الرصيف ظهر فجأة ، غيرَ بعيدٍ من فتاتي المجهولة ، رجلٌ مسن قليلا يرتدي رداء فراك • كانت مشيته غير ثابتة ، فهو يترنح متسنداً على الحائط • والفتـــاة تمشي مسرعة تغـــذ الخطى ككل الفتيات اللواتي يرفضن سلفا أية دعوة الى اصطحابهن • وما كان لهـــذا السيد الذي لا يزال يترنح في مشيته أن يدركها ، لولا أن قـــدري قد أوحى اليه أن يعمد الى وسائل متعمدة ، فها هو ذا يسرع الخطو دون أن

يقول كلمة واحدة ، ويركض وراء الفتاة المجهولة • كانت الفتاة تسير مسرعة كالريح ، ولكن السيد الذى كان يمشى مشية سكران أصبح يزداد اقترابا منها شيئا بعد شيء حتى أدركها فأمسك بها فاذا هى تصرخ ••• بورك فى القدر الذى جعلنى فى تلك اللحظة حاملا عصاى الرائعة فى يدى اليمنى ، فما هي الا وثبة واحدة حتى كنت فى الجهة الاخرى من الرصيف • وسرعان ما فهم الرجل من ذا الذى يتصدى له ، فلم يلبث أن أذعن لحجتى التى لا سبيل الى مقاومتها ، وانسحب دون أن يقول كلمة واحدة • وكنا قد ابتعدنا أنا والفتاة حين سمعنا تهديدات قوية • ولكن أقواله أصبحت لا تبلغ سمعنا •

قلت للفتاة :

ـ ناولينى يدك فلا يجرؤ بعد ذلك على أن يقترب •

فلما مدت الىّ يدها صامتة شعرت بها ترتعش انفعالا وذعرا • ما أكثر ما باركت ذلك الرجل فى تلك اللحظة ! وألقيت نظرة سريعة على رفيقتى • انها جميلة سمراء • لقد حزرت ذلك • وكانت دموع صغيرة لا تزال تتلألأ على أهدابها الطويلة السوداء • أهو حزن ؟ أهو خوف ؟ لا أدرى ••• ولكن بسمة فد أخذت تنير وجهها منذ الآن ! وألقت علىّ نظرة مختلسة هي أيضا ، فاحمرت قليلا ولزمت الصمت •

قلت لها :

ـ لماذا صددتنى ؟ لو كنت معك لما وقع الذى وقع •

ـ ولكننى لم أكن أعرفك ، فقدرت أنك أنت أيضا •••

ـ والآن هل تعرفين من أنا ؟

ـ قليلا ! ولكن لماذا ترتجف ؟

ـ اذن لقد أدركت دفعة واحدة !

كذلك صحت فرحا • لقد سحرني أن أرى أنها ذكية • وذلك أمر لم يفسد جمالها • وتابعتُ أقول :

ـ نعم لقد أدركتِ فورا أي رجل أنا ! نعم انني خجول مع النساء • وأنا الآن مضطرب الحواس كاضطرابك أنت منذ لحظه حين أخافك ذلك الرجل ••• ان الرعب قد استبد بي حتى ليخيل الى أنني أحلم ! بل انني في أحلامي نفسها لم يدر في خلدي يوما أنني سأخاطب امرأة •

ـ كيف ؟ أهذا صحيح ؟

ـ نعم ! واذا ارتجفت يدي فلأنها لم تمسك في يوم من الأيام يداً لطيفة كيدك • لقد هجرت معاشرة النساء هجرا تاما ! أعني أنني لم أعاشرهن يوما ، فأنا أعيش وحدي ••• حتى أنني لا أعرف كيف أكلمك ، وما زلت الى هذه اللحظة نفسها لا أعرف ذلك • ألم أرتكب في حديثي حماقة من الحماقات ؟ أجيبيني بصراحة فلست سريع التأذي•

ـ لا •• لا •• بالعكس •• واذا شئت أن أصدقك القول اعترفت لك بأن هذا الخجل يعجب النساء ! واذا أحببت أن تعرف المزيد فاعلم أن هذا الخجل يعجبني أنا كثيرا • فأرجوك أن تصحبني الى النهاية •

ـ ولكنك ستجعلينني أفقد كل خجل فأفقد بذلك جميع ما أملك من مزايا •

قلت ذلك وأنا ألهث سعادة •

قالت :

ـ مزايا ؟ أية مزايا ؟ لماذا ؟ ذلك وحده نذير سوء •

ـ معذرة ! كان الامر أقوى مني ! وكيف أستطيع في لحظة كهذه ألا أتمنى أن أنال •••

ـ الاعجاب ؟ اليس كذلك ؟

ـ طبعا ! أرجو أن تترفقي بي ! احكمي في الامر بنفسك• لقدبلغت من العمر سته وعشرين عاما ولم ار في حياتي احدا ، فانى لى ان اجيد الكلام بحذق ولباقة • ولسوف يحسن حالك أنت نفسك حين اتخلص من بعض هذا الخجل ••• لا أستطيع أن أسكت حين يتكلم قلبي ••• لا ضير على كل حال ••• صدقي أو لا تصـــدقي ••• الحقيقة أنني لم أعرف امرأة في حياتي قط ، ولم تنعقد بيني وبين أحد صداقة حتى الآن ، وأملي في كل يوم أن ألتقي أخيرا بانسان ! ليتك تعلمين كم مرة تولهت حبا على هذا النحو •

ـ ولكن كيف هذا ؟ وبمن تولهت ؟

ـ لم أتوله بأحد ! وانما تولهت بالمثل الأعلى الذى أراه فى أحلامي• أنا أخلق في أحلامي روايات بأسرها ! انك لا تعرفينني ! صـحيح أنني التقيت بامرأتين أو ثلاث ، فليس يستطيع المرء أن يعيش بدون ذلك ••• ولكن من كانت هاته النسوة ! خادمات بيوت ••• سوف أضحكك قليلا، فأعترف لك بأنني أردت عدت مرات أن أشرع فى حديث رقيق فى الشارع مع امرأة ارستقراطية • كانت عندئذ وحدها طبعا ، فاقتربت منها بخجل واحترام وعاطفة قوية •

قلت لها انني أموت في عزلتي وسـألتها ألا تصـدني لأني لا أملك الوسائل اللازمة لامتـــلاك امرأة • برهنت لها على أن من واجبهـا أن تستجيب لرجاء رجل بائس كبؤسي • ولقد أفهمتها على كل حال أن كل

ما أطلبه منها هو أن تخاطبني بكلمتين ، ببضع كلمات أخوية ، أن تهتم بمصيري ، أن تثق بكلامي وألا تستخف بي (اذا حــلا لها ذلك) الا بعد أن تهب لي شيئا من أمل • كنت أرغب في كلمتــين منهــا ، كلمتين فحسب ، ثم نستطيع بعد ذلك أن نفترق الى الأبد ! ••• أراك تضحكين ! ••• على كل حال ، ذلك كان هدفي من سرد هذه القصة •

ـ لا تزعل : أنا أضـــحك لأنك عــدو نفســك ، ولو قد حاولت مغامرة ما فلربما أصبت نجاحا ••• ما من امرأة طيبة (اذا لم تكن حمقاء أو معتكرة المزاج) الا وكان يمكن أن تهب لك تينك الكلمتين الأخويتين اللتين ترغب فيهما تلك الرغبة القوية كلها ••• ولكن ماذا أقول ! لاشك أنها كانت ستحسبك مجنونا • ولقد حكمتُ على الأمر الآن على أســاس تفكيري أنا • لست أجهل كيف يعيش الرجال •

صحت أقول :

ـ شكراً •• شكرا •• انك لا تعرفين ما صنعته في سبيلي بهــذه الاقوال • لقد أحسنت الي كثيرا •••

ـ طيب ! ولكن كيف عرفت أنني امرأة ••• جديرة ••• بالاهتمام والصداقة ••• لماذا تعرضت لي ؟

ـ لماذا ؟ لأنك كنت وحدك • وقد أسرف الرجل في التجرؤ عليك، والوقت ليل ، ألم يكن من واجبي أن أتدخل ؟

ـ لا ، لا ••• قبل ذلك ••• على الجسر •• أردت أن تكلمني •• أليس كذلك ؟

ـ على الجسر ؟ الحق أنني لا أعرف كيف أجيبك ••• انني خائف

... لقد كنت اليوم سعيدا ... كنت أغنى وأنا أسير ... طوفت خارج المدينة . لم أعش في حياتي لحظات سعيدة كل هذه السعادة . وظهرت لى ... ولكن اعدريني اذا ذكرتك ... لقد تراءى لى انك كنت تبكين ، ولم أستطع آن أحتمل ما سمعت من نشيجك ... انقبض صدرى ... قلت لنفسى : رباه ! ألا أستطيع أن أقاسمها حزنها ؟ أكان خطيئه منى أن أشعر نحوك بعطف أخوى ... اغفرى لى استعمالى كلمة « العطف » . ولكن قولى لى هل كان يسوءك حقا أن أقترب منك فى تلك اللحظة ؟

ـ اسكت ... كف عن الكلام ...

قالت ذلك وهى تضغط يدى ضغطا قويا .

وتابعت تقول :

ـ أنا المخطئة في التحدث عن هذه الأمور . ولكن يسرنى أننى لم أخطىء فى حكمى عليك ... على كل حال هأنذا قد وصلت . سوف أنعطف فى هذا الممر ، فلا يبقى بينى وبين مسكنى الا ثلاث خطوات .. الى اللقاء وأشكرك .

ـ اذن لن نلتقى بعد الآن قط ؟ هل انتهى بنا الامر هنا ؟

قالت وهى تضحك :

ـ لم تكن تريد الا كلمتين ، والآن ... ثم اننا قد نلتقى .

قلت :

ـ سآتى الى هنا غدا . معذرة ... هأنذا أملى مطالب منذ الآن ..

ـ نعم أنت قليل الصبر تكاد تصدر أوامر ..

قاطعتها أقول :

ـ اسمعى ••• معذرة اذا قلت لك أيضا هذا •• لا أستطيع الا أن آتى الى هنا غدا • أنا امرؤ حالم يبلغ حظى من الحياة الواقعية من القلة والضآلة اننى لا بد لى أن أعيش مرة أخرى فى أحلامى اللحظات السعيدة التى تشبه هذه اللحظة • سأحلم بك طوال الليل ، الاسبوع كله ، السنه بأسرها • أعود فأقول لك اننى آت الى هنا غدا ، الى هذا المكان ، هذا المكان بعينه ؛ وسأكون سعيدا بأننى سأحيا الساعة الراهنة مرة أخرى • هذه الأماكن عزيزة فى نفسى • ان لى فى بطرسبرج مكانين أو ثلاثة من هذا النوع • لقد حدث لى مرة أن بكيت لذكرى ، كما حدث لك منذ برهة ••• لعل دموعك كانت تسيل أيضا بسبب ذكرى ••• ولكن معذرة ••• ما زلت أمضى بعيدا • لعلك كنت سعيدة هنا فى يوم من الايام !

قالت الفتاة :

ـ لك ما تريد ! سآتى الى هنا غداً فى الساعة العاشرة ، كاليوم ! هأنت ذا ترى أننى لا أستطيع أن أمنع عنك هذا •• ولكن لا بد لى أن أكون فى هذا المكان ! فلا يذهبن بك الظن الى أننى أضرب لك موعداً•• ها قد أبلغتك •• ان علىَّ أن أكون فى هذا المكان لشأن من شئونى أنا • على أننى أعترف لك صراحة بأننى لن أضيق بحضورك • فقد تحدث مزعجات كما حدث اليوم • ولكن كفانا كلاما عن هذا • الخلاصة أننى سأحب أن أراك • ولكن حذار أن تحكم علىَّ حكما قاسيا ، حذار أن تتخيل أننى أضرب مواعيد بمثل هذه السهولة ••• ما كان لى أن أطلب اليك المجىء لولا أن ••• ولكن دع هذا سراً لى !

ـ بل تكلمى ! قولى لى السر ! قوليه فورا ! اننى أوافق على كل

شيء ! أنا مسؤول عن نفسى ، وسأكون طيعا ، وسأكون فى غاية الأدب والاحترام .. أنت تعرفيننى .

كذلك صحت فرحا فأجابت وهى تبتسم :

ـ لأننى أعرفك انما أدعوك الى المجيء غدا ! أنا أعرفك حق المعرفة . ولكن حذار ! .. تعال بشرط .. بشرط عليك أن تتذكره دائما وأن يكون ماثلا فى ذهنك كل لحظة ! اياك ثم اياك أن تحبنى ... ذلك لا يمكن أن يكون ، أؤكد لك . أنا أنشد الصداقة ! فاليك يدى ولكن لا حب ! لا حب !

هتفت أقول وأنا أمسك يدها :

ـ يمينا لأتقيدن بهذا .

ـ دعك من اليمين ! أنا أعرف أن من الممكن أن تشتعل كالبارود . لا تسيء الظن فيّ اذا أنا قلت لك هذا الكلام . ليتك تعلم ! ... أنا أيضا ليس لى أحد أكلمه بقلب مفتوح ، وليس لى أحد أسأله نصحا ؛ ولا أستطيع أن أخاطب انسانا فى الشارع . أنت استثناء ! يخيل الى أننى أعرفك كما لو كنا صديقين منذ عشرين عاما ... انك لن تخوننى قط .. أليس كذلك ؟

ـ سوف ترين ! .. ولكننى لا أعرف كيف سأعيش هذا اليوم !

ـ نم جيدا ! سعدت ليلتك . وتذكر أنك نلت ثقتى منذ الآن ! وكما قلت أنت نفسك : ليس علينا أن نحلل عواطفنا حتى ولا عواطف المحبة الأخوية ! لقد عرفت كيف تخاطبني فسرعان ما خطر ببالى أن أثق بك وأن أفضى اليك بما فى نفسى .

ـ ولكن ما الذى تريدين أن تبوحي لى به ؟ قولى أرجوك •••

ـ الى الغد ، وليبق هذا سرا الآن • وذلك أفضل لك ، حتى يكون أشبه برواية • قد أقص عليك كل شيء غدا ، وقد لا أفعل ! ســنتحدث بادىء الامر ••• وسنصبح صديقين حميمين أكثر من الآن •••

ـ نعم سأقص عليك حياتى كلها ! ولكن ما هذا ؟ ان معجزة تتحقق فى نفسى ••• قولى : ألست نادمة على أنك لم تصدينى منذ البداية كما كان يمكن أن تفعل النساء الأخريات ؟ لقد جعلتنى سعيـــدا بلحظة من حديث : نعم جعلتنى سعيدا • صالحتنى مع نفسى ••• بددت شكوكى •• على كل حال سأقول لك كل شيء غدا ••• ستعرفين كل شيء •• كل شيء •••

ـ اتفقنا •• ستبدأ أنت •••

ـ موافق !

ـ الى اللقاء !

ـ الى اللقاء !

وافترقنا • ظللت الليل كله أطوف فى أرجاء المدينة ! لم أستطع أن أعود الى مسكنى ! كنت سعيدا غاية السعادة ! الى الغد !

الليلة الثانية

قالت لى ضاحكة وهى تشد على كلتا يدى :

— هه ... هل عشت يومك ؟

— أنا هنا منذ ساعتين . هل تعرفين كيف قضيت هذا اليوم ؟

— أعرف ، أعرف ... ولكن فلنتكلم فى أمور جدية . لماذا جئت الى هنا ؟ اننى لم أجىء لأقول سفاسف وترهات كما فعلت أمس . يجب علينا أن نتصرف تصرفا أذكى . لقد فكرت فى هذا كله !

— فى أى شىء يجب أن نكون أذكى ؟ على أننى مستعد .. ولكن الحقيقة هى أننى لم يقع لى فى حياتى أمر أذكى من لقائنا .

— حقا ؟ أرجوك أولا أن لا تضغط يدى كل هذا الضغط ، وأعلن لك ثانيا أننى فكرت فيك كثيرا أول الامر ...

— وماذا قررت ؟

ـ ماذا قررت ؟ قررت أن علينا أن نعود الى البداية ، أن نستأنف كل شيء من أوله ، لأنني لا أعرفك قط • لقد تصرفت أمس كطفلة ، كبنية صغيرة • طبعا ••• الذنب ذنب قلبي الطيب ••• لقد مدحت نفسي كما نفعل دائما حين نصدر رأيا في أنفسنا • لذلك سأصلح خطيئتي بأن أسألك عن أدق تفاصيل حياتك ، لأنني لا أستطيع أن أسأل أحدا عنك ، فقصّ عليّ اذن كل شيء بدون أي تكتم • أي رجـل أنت ؟ قصّ على تاريخك ! أسرع •

صحت مذعورا :

ـ تاريخي ! ولكن من قال لك ان لي تاريخا ! أنا ليس لي أي تاريخ •

قاطعتني ضاحكة تقول :

ـ كيف عشت اذا لم يكن لك تاريخ ؟

ـ عشت دون أي تاريخ ! عشت •• هكذا •• ببساطة •• وحدي دائما •• هل تفهمين ؟ عشت وحيدا •

ـ عشت وحيدا ؟ كيف هذا ؟ ألم تر انسانا قط ؟

ـ بلى ! انني أرى كثيرا من الناس ولكنني أظل وحيدا •

ـ كيف هذا ؟ ألست تكلم اذن أحدا ؟

ـ هذه هي الحقيقة خالصة • لست أكلم أحدا •

ـ ولكن من أنت اذن ؟ اسمع ! لقد حزرت •• لعل لك جدة مثلي أنا ؟ انها عمياء ، ولا تسمح لي بالخروج أبدا ، لذلك فقدت عادة الكلام

فقدانا تاما • ولما ارتكبت منذ سنتين بعض الحماقات أدركتُ أنها لن تستطيع أن تحبسنى عن الخروج ، فنادتنى وربطتنى إلى ثوبها بدبوس • هـكذا نعيش معا أيامنا كلها : هى تنسج جواربها رغم أنها عمياء ، وأنا أجلس الى جانبها أقرأ لها أو أخيط • عادة غريبة ، أليس كذلك ؟ نحن مشدودتان احدانا الى الأخرى بدبوس منذ سنتين •••

ـ رباه ! ما هذا الشقاء ! •• لا •• ليس لى جدة كهذه الجدة •

ـ فكيف تستطيع اذن أن تمكث فى بيتك ؟

ـ أراك تصرين على أن تعرفى من أنا !

ـ نعم •• نعم ••

ـ بأدق معانى هذه الكلمة ؟

ـ بأدق معانيها •

ـ لك ما تريدين ! فاعلمى اذن أننى مخلوق غريب •

ـ مخلوق غريب ؟

كذلك صاحت الفتاة وهى تنفجر ضاحكة بقهقهة مجنونة ، وتابعت تقول :

ـ حقا ان المرء لا يشعر معك بملل• اسمع ! هذا مقعد فلنجلس عليه • ما من أحد يجيء الى هنا ، ما من أحد سيسمع كلامنا • ابدأ سرد حكايتك •• اننى مقتنعة أن لك حكاية ! لا تخفها عنى ؟ اشرح لى أولا ماذا تعنيه بقولك « مخلوق غريب » •

مخلوق غريب ؟ المخلوق الغريب انسان شاذ ، انسان ••• مضحك•

كذلك أجبت وأنا أضحك اذ سمعتها تضحك ، وتابعت أقول :

ـ المخلوق الغريب طبع خاص ••• مزاج حالم ••• هل تعلمين ما هو الانسان الحالم ؟

ـ الانسان الحالم ؟ كيف لا أعرفه ؟ أنا نفسي أحلم دائما • حين أقضي أيامي كلها جالسة قرب جدتي ••• رباه ! ما أكثر ما يدور في نفسي حينذاك ! أحلام لا نهاية لها : أتزوج أميرا صينيا مثلا ••• انه ليسعد المرء كثيرا في بعض اللحظات أن يسترسل في الأحلام •

وأضافت تقول برزانة ورصانة :

ـ على كل حال ، من يدري ؟ لا بد أن يفكر المرء في أمور جدية أيضا •

ـ حسنا لسوف تفهمينني أيضا ما دمت تخيلت أنك تتزوجين امبراطور الصين • فاسمعي اذن ••• ولكن ••• معذرة لم أعرف اسمك الى الآن !

ـ هه ! الآن تفطن الى ذلك ؟

ـ لم يخطر ببالي هذا الامر • كنا على خير حال هكذا •••

ـ يسمونني ناستنكا •

ـ ناستنكا ؟ أهذا كل اسمك ؟

ـ ألا يكفيك هذا أيها الرجل الذي لا يشبع ؟

ـ بالعكس انه ليسعدني أن يكون اسمك عندي ناستنكا فقط •

ـ طيب •• طيب هأنذا أصغي الى حديثك الآن •

جلست قربها متجمعا على نفسى ، وأخذت أقص عليها كمن يقـرأ قراءة :

ـ ان فى بطرسبرج يا ناستنكا أركانا غريبة جدا • الشمس التى تسطع لجميع سكان المدينة لا تنفذ الى تلك الأماكن ، وانما تسطع فى تلك الأركان شمس أخرى ذات ضياء خاص كأنه خلق لهذه الزوايا التائهـة وحدها دون غيرها •البشر يحيون فى هذه الزوايا حياة لا تشبه الحيـاة التى تغلى وتفور حولنا مختلفة غريبه بعيدة • هذه الحياة مزيج من صفاء رائع خيالى مثالى ومن اسفاف تافه وابتذال رخيص •

ـ ألله الله ! ••• يا لها من مقدمة ! ما عسانى سامعة أيضا ؟

ـ ستسمعين يا ناستنكا •• (آه ما أسعدنى اذ أناديك بهذا الاسم !) ستسمعين أن هذه الأحياء يسكنها بشر يثيرون العجب والدهشة • انهـم الحالمون • والحالم اذا أردت أن أعرّفه لك ليس انسانا بل مخلوق ••• لا تحديد له ••• انه يؤثر الزوايا التى لا يمكن بلوغها والوصول اليها ، كأنه يهرب من ضـــوء النهار ، مثله كمثـــل تلك الحيـــوانات الغريبة ـ السلاحف ـ التى تحمل بيوتها معها • ترى لماذا يحبون كل هذا الحب جدرانهم الصغيرة الأربعة المدهونة دائما بلون أخضر ، التى يشيع فيهـا الحزن ويملؤها الدخان بغير انقطاع ؟ ترى لمـاذا حين يجىء الى أحدهم صديق (لاحظى أنه يفعل كل ما يحسن أن يفعله على خير وجه حتى يغيب عنه جميع الاصدقاء اخر الامر) ، ترى لماذا حين يجىء هذا الصديق يهب ذلك الانسان الشاذ الى استقباله خجولا كل الخجل وقد تغير وجهه كل ذلك التغير ، حتى لكأنه قارف بين جدرانه الاربعة الصغيرة جرما ، كأنه صنع أوراقا نقدية مزيفة ، أو نظم أبياتاً من الشـعر صغيرة ليرسـلها الى مجلة مع رسالة لا يذكر فيها اسمه قائلا ان ناظم هذا الشعر صديق له

قد مات وانه يرى أن من واجبه المقدس أن ينشر انتاجه • ولماذا ياناستنكا يخمد الحديث بين هذين الصديقين ؟ لماذا يضوى ويهن ، فلا ضحكة ، ولا كلمة جريئه ، ولا اشارة الى الجنس اللطيف ؟ لماذا يصبح الصديق نفسه (وهو لن يعود قط ولن يكون له خلف) لماذا يصبح الصديق نفسه مضطربا كل ذلك الاضطراب ؟ لماذا يفقد كل حس سليم (اذا كان له منه شيء) حين يلاحظ كيف تشعث وجه رب البيت الذى فقد صوابه هو أيضا فقدانا كاملا • ان رب البيت يحاول عبثا أن يظهر علمه بأداب المجتمع وأن يبعث فى الحديث شيئا من الحياة بالكلام على النساء ، وان يسلى صديقه الذى جاء يزوره خطأ • ولماذا يتناول هذا الصديق أخيرا قبعته ويهرع نحو الباب متذكرا على حين فجأة مهمة عاجلة لا وجود لها فى الواقع ؟ وفجأة يتحرر من العناق الحار ، عناق صاحبه الذى يجهد أن يعبر عن أسفه وأن يصلح ما أفسده فتوره ؟ لماذا ينفجر الصديق ضاحكا وراء الباب قاطعا على نفسه عهدا أن لا يضع قدميه بعد اليوم فى بيت هذا الانسان الشاذ الذى هو رجل طيب شهم على كل حال • انه يقارن فى ذكراه بين وضع هذا المسكين صاحب البيت وبين وضع قطه ضربها الاطفال فهربت مذعورة الى الظلام تحت المائدة ، وظلت ساعة بكاملها تسترد عافيتها شيئا فشيئا وتغسل فمها الجريح بقائمتيها الصغيرتين ، وتظل تنظر بعد ذلك نظرة عداء الى كل شيء وحتى الى الخادمة التى تأتيها بطعامها •

فاطعتنى ناستنكا تقول وعيناها تعبران عن الدهشة :

ـ اسمع ! اننى لا أفهم قط كيف يمكن أن يكون هذا الذى تقصه

قد وقع فعلا • ولماذا تلقى عليَّ أسئلة غريبة كل هذه الغرابة ؟ ولكنني أعلم أن هذه المغامرات كلها هي مغامراتك •

أجبتها في جد قائلا :

ـ بدون أدنى شك •

قالت ناستنكا :

ـ أكمل اذن ، فانني أحب أن أعرف كيف سينتهي هـذا كله •

قلت :

ـ انك تحبين أن تعرفي حياة بطلنا أو بالأحرى حياتي ، لأن بطـل قصتنا هذه هو أنا ، هو شخصي المتواضع الصغير • تريدين أن تعرفي لماذا اضطربت هذا الاضطراب كله من زيارة صديقي التي لم أكن أتوقعها ، لماذا انتفضت مذعورا واحمر وجهي احمرارا شديدا حين فُتح باب غرفتي، لماذا أنا عاجز عن استقبال ضيف ؟

أجابت ناستنكا :

ـ نعم •• نعم •• اسمع ! انك تجيد رواية قصتك اجادة رائعـة ولكن أليس في وسعك أن تتكلم بلغة أبسط من هذه اللغة وعبارات أبسط من هذه العبارات ؟ انه ليخيل الى أنك تقرأ في كتاب •

أجبتها بصوت رصين وقور محاولا أن لا أضحك :

ـ ناســتنكا ! أنا أعرف أنني أجيـد الحديث • ولكنني أستميحك عذرا ، فانني لا أستطيع أن أقص بغير هذه الطريقة • أنا أشبه الآن روح الملك سليمان التي يقال ان أختامها السبعة قـد فضت عنه بعـد أن ظلت

حبيسه سبعه آلاف عام . لقد التقينا يا ناستنكا بعد فراق طويل ... ذلك أننى أعرفك منذ زمن طويل جدا . آنا أبحث عن أحد منذ سنين . أنا أبحث عنك أنت منذ سنين . ولقد كتب علينا آن نلتقى ، فاذا ألوف العواطف التى ما تزال مكبوتة قد تفجرت فى نفسى . وهأنذا أدع لأمواج من الكلام أن تطفح وتفيض حتى لا أختنق . لذلك لاتقاطعينى يا ناستنكا والا اضطررت أن أسكت .

ـ تكلم اذن تكلم ! فلن أنطق بحرف واحد .

ـ هأنذا أتابع اذن . هناك ساعة من ساعات اليوم أحبها كثيرا : هى الساعة التى تنتهى فيها جميع الواجبات والاعمال فيهرع الناس الى منازلهم للعشاء ، ويستلقون نشدانا للراحة . هذه الساعة هى الساعة التى يفكر فيها الناس كيف يقضون السهرة بل الليلة مرحين . ان بطلنا أيضا (اسمحى لى أن أتحدث عن نفسى بصيغه الغائب) ان بطلنا الذى قضى النهار كله فى العمل ، يتبع الآخرين فى عودتهم الى منازلهم ، ولكن شعورا غريبا باللذة يلاحظ عندئذ على وجهه المتعب الشاحب . انه ينظر الى الغسق الذى يهبط على سماء بطرسبرج الباردة ، ينظر الى هذا الغسق لا نظرة من لا يبالى ، حتى انى لأكذب حين أقول انه ينظر ، فانما هو يتأمل تأملا ، ربما على غير شعور منه ، كانسان متعب تستغرقه أفكار أخرى ، موضوعات أقرب الى اهتمامه والصق بأشواقه . فهو لذلك لا يولى كل ما يحيط به الا انتباها قليلا . هو سعيد بأنه فرغ الى الغد من أعماله الحزينة ، مرح مرح التلميذ يخرج من المدرسة للعب والمتعة . لاحظيه يا ناستنكا تجدى فورا أن عاطفة الفرح التى يشعر بها قد أثرت فى أعصابه المريضة وخياله المحموم . انظرى ! لعله يفكر .. هل تظنين أنه يفكر فى العشاء ؟ فى السهرة التى تنتظره ؟ الى من هو ينظر هكذا ؟ أهو ينظر الى ذلك السيد

الوقور الذى حيا سيدة فى عربتها تحية احترام ؟ لا يا ناستنكا انه لا يحفل بهذه التفاصيل ! انه غنى بحياته الداخلية النفسية • وأشعة الشمس الغاربة لم تتلألأ عبثا أمامه ، بل غمـــرت روحه بطائفة من المشاعر الجـديدة • أصبح لا يلاحظ الطريق الذى كانت تفاصيله اليسيرة تفتنه قبل ذلك • ان « الهة الأحلام » (هل قرات جوكوفسكى يا عزيزتى ناستنكا) تنشر أمام بصره منذ تلك اللحظة النسيج الذهبى والصـــور الرائعة والتهاويل الفاتنة من حياة خيالية ساحرة لا يمكن تصورها • ومن يدرى ؟ لعل الهة الأحلام قد نقلته الى السماء السابعة البلوريه ، ولعلها تسير به على رصيف من رائق المرمر ! حاولى أن تستوقفيه وأن تسأليه فجأة : « الى أين أنت ذاهب وأىّ شارع قطعت ؟ » • انه لن يســـتطيع أن يجيبك ، وسيحمر خجلا ، ثم يلفق لك كذبة انقاذا للمظاهر • من أجل ذلك انمـا ارتعش وكاد يصرخ ونظر حواليه مذعورا حين اســـتوقفته تلك المـرأة العجوز القصيرة الطيبة تسأله عن طريقها الذى ضلته • لقـــد قطب حاجبيه وتابع طريقه دون أن يلاحظ المارة الذين ابتسموا ودمدموا بكلام لم يسمعه • وهذه بنية صغيرة قد اضطرت أن تنتحى لتفسح له مجالا ، فاذا هى تنفجر فى قهقهة صاخبة حين نظرت بكلتا عينيها الى ابتسامته العريضـة واشاراته البليغة • ولكن « الهة الأحلام » * تلك تصطاد فى شباكها المرأة العجوز أيضا والمارة المستغربين والبنية التى تضحك وحتى أولئك الرجال الذين يلتهمون طعامهم على قاربهم فى نهر فونتانكا • هؤلاء جميعا يحيون فىهذا الحلم الذى اختطفتهم اليه « الهة الأحلام » كما يختطف العنكبوت الذباب الى نسيجه • هؤلاء جميعا يحيون فى ذلك الحلم الذى يحلمه صديقنا حين يعود الى غرفته الصغيرة فرحا ، فيجلس الى مائدته ، ويتعشى ، ولا ينوب الى نفسه الا حين تحمل اليه ماتريونا غليونه ، فهو يستيقظ عندئذ ويتذكر مدهوشا أنه تناول عشاءه لا يدرى كيف ! الظلام يخيم فى غرفته ونفسه

حزينة مقفرة • مملكة الأحلام قد تهاوت حواليه بلا ضوضاء ولا صخب ولم تترك أثرا ! لقد هربت هروب طيف ! حتى أن بطلنا لا يتـذكر أنه حلم • ولكن عاطفة مبهمة تعود فتهز قلبه ، ورغبة أخرى تدغدغ خياله لذيذة ممتعة ، ثم سرعان ما تهيجه ، وتخلق له عالما جديدا من الاشباح شيئا بعد شيء • الصمت يرين على الغرفة ؛ والعزلة والكسل يهدهدان فكره الذى يصعد ويغلى غليانا خفيفا كالماء فى غلاية القهوة التى تصنع فيها العجوز ماتريونا قهوتها فى المطبخ • والكتاب الذى تناوله صاحبنا الحالم بغير هدف وعلى غير هدى يسقط من بين يده قبل أن يتم قراءة الصفحة الثالثة منه • لقد اهتاج خياله من جديد • وهـذا عالم رائع يظهـر له فى صور مثالية • وهذه حياة حافلة بالمباهج تخطر أمامه أشكالا أخاذة ، حلما آخر ، سعادة جديدة ! وها هو ذا يمتص مزيدا من الامتصاص سم اللذة المرهفة • ماله ولحياتنا الواقعية ! نحن لا نحيا الا قليلا جدا ! نحن لا نحيا الا بطيئا جدا ! نحن لا نحيا الا حياة رتيبة جدا • ونحن نندب حظنا كل يوم غير راضين عنه • انظرى من حولك : ألا ترين كل شيء فى الواقع برودة وغضبا وقسوة ؟ •• « يا لهم من بؤساء » كذلك يقول الحالم لنفسه• ولماذا لا يقوله لنفسه ؟ ان صورا جميلة بعينها تخطر أمامه ، وان أطيـافا رائعة تداعب خياله على متعه ونشوة ، فيرى بطلنا نفسه شخصية أولى فى الصف الأول • تصورى جميع تلك المغامرات المتنوعة • تصـورى هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الأحلام الحارة • ولكن لعلك تسألينني عن موضوع أحلامه ••• هو رسالة الشاعر ، المغمور فى أول الأمر ، المتوّج بأكليل المجد بعد ذلك •• هو صداقته مع هوفمان* ، هو ليلة سان بارتلمى، هو ديان فرنون ، هو السلوك البطولى الذى أظهره ايفان فاسيليفتش عند الاستيلاء على قازان ، هو كلارا موفبراى ، هـو ايفى دينز ، هـو أحبار المجمع البابوى وأمامهم هوس ، هو يقظة الموتى فى « روبير الشـيطان »

(ألا تذكرين هذه الموسيقى التى تفوح منها رائحة المقابر ؟) هو مينا وبراندا ، هو معركة بيريزينا ، هو قراءة قصيدة عند الكونتيسة ف٠٠د٠٠ هو دانتون ، هو كليوباترا وغرامها ، هو بيت كولومنا الصغير ، هو ركن صغير تجلس الى جانبه فيه مخلوقة حبيبة تصغى الى كلامه فى أمسية من أمسيات الشتاء فاغرة فاها ، محملقة بعينيها الصغيرتين ـ كما تصغين الىّ الآن يا ملاكى الغالى ٠٠ لا يا ناستنكا ما شأن هذا الانسان الوانى بهذه الحياة التى تجنح اليها كلانا ؟ انه مقتنع بأن هذه الحياة صغيرة مسكينة عامية مبتذلة ٠ وهو لا يقول لنفسه ان ساعة قد تجيء فاذا هو يفرحه ان يبيع جميع هذه السنين التى قضاها فى الاحلام بيوم من تلك الحياة ٠ ولا تحسبى أنه سيختار اليوم الذى هو أسعد الأيام فى هذه الساعة التى يعانى فيها الندامة والالم ، ولكنه فى هذه اللحظة ، بينما هو يحلم ، لا يرغب فى شيء ، لأنه فوق الرغبات ، لأن أحلامه تشبع جميع حاجاته ، وتروى كل ظمئه ٠ انه صانع حياته ، وهو فى كل لحظة يخلق حياته على ما يريد له هواه ! وما أسهل ما يولد هذا العالم الخيالى الاسطورى طبيعيا من تلقاء نفسه ، حتى لكأن الأمر ليس أمر أشباح ! فان صاحبنا الحالم مؤهب حتى للاعتقاد بأن هذه الحياة ليست أكذوبة من أكاذيب الخيال ، ولا خطأ من أخطاء الحواس ، بل هى الواقع الحق القائم ! والا فلماذا يا ناستنكا تتسارع نبضات قلبه وتتدفق الدموع من عينيه وتحترق خداه الشاحبتان ؟ لماذا يمتليء كيانه كله بفرح لايوصف ، ولماذا تذوب ليالى بأسرها من الأرق فى لحظة سعادة لا سبيل الى التعبير عنها ؟ حين تطلع أشعة الفجر الشاحبة فتنسل من النوافذ وتنير الغرفة الصغيرة الحزينة التى يقطنها صاحبنا الحالم بضياء مبهم لا يحدد ، فانه يرتمى على سريره متعبا مهدود القوى ، وينام باكيا من الفرح مهتاج الروح اهتياجا يشبه أن يكون مرضا ٠ نعم ياناستنكا، قد يخطيء المرء عندئذ فيحسب أن هوى حقا يضطرم فى روحه ، وأن

الواقع قائم فى أحلامه المجنونة • خطأ ذلك ! هكذا يكون الحب قد نفذ الى قلبه بفرحه الذى لا ينضب ، وآلامه الحادة الكاوية ••• ولكن انظرى اليه ! هل تحسبين أنه لم يعرف أبدا تلك التى يحبها فى أحلامه ! ألم ير حقا تلك المرأة الا طيفا فاتنا ، ولم يزد على آن عانى هواه فى الأحلام ! من يدرى ؟ لعلهما قد عاشا كلاهما سنى عمرهما يدا بيد ، بعيدين عن العالم ، موحدين حياتيهما الى الابد • هل يمكن آن لا تكون هى التى ، فى أواخر الليل ، لحظة الفراق ، قد رقدت ناحبة يائسة على حضنه لا تسمع العاصفة الهوجاء تحت السماء المشئومة ، ولا تسمع الريح التى تنتزع الدموع من أهدابها السوداء وتطير بها فى الفضاء ؟ ألم تكن الا حلما تلك الحديقة الحزينة المتوحشة المنعزلة التى كثيرا ما عاشا فيها اعتكافهما فى الأمل واليأس والحب الحنون الخالد ، وذلك المنزل العريق القديم الغريب الموروث عن الأجداد الذى عاشت فيه زمناً طويلاً مع زوجها الشيخ الكالح المتجهم الصامت المبغض الذى يلاحقهما هما الخجولين كطفلين فى حبهما الصامت المتخفى ! ما أكثر ما كانت تنزل عليهما الالام ! وما أكثر ما كانا يمتلئان خوفا وقلقا ! ما أكثر ما كان حبهما بريئا صافياً ! وما أكثر ما كان الناس (بطبيعة الحال يا ناستنكا) أشرارا فى معاملتهما ! ويا رب ، أليست هى التى التقى بها بعد ذلك بعيدة عن وطنها فى سماء أجنبية جنوبية حارقة ، فى « المدينة الخالدة » الرائعة ابان حفلة راقصة ساطعة وسط أصوات الموسيقى (موسيقى البالازو طبعا) الغارقة فى خضم من نيران ، على الشرفة التى تتعانق فيها فروع الآس وأزهار الورد ، فلما عرفته أسرعت تنضو عن وجهها القناع ، مدمدمة أنا حرة ، وهى ترتجف وتنتحب وترتمى فى ذراعيه، فاذا هما فى صرخه من الحماسة وقد احتضن كل منهما الآخر ، ينسيان ما قاسياه من ألم وما عانياه من عذاب الفراق وصروف الأيام ، وينسيان المنزل القاسى والشيخ والحديقة القاتمة فى

الوطن البعيد ، والمقعد الذى كانا جالسين عليه فى آخر يوم حين انزعت نفسها من عنده فى قبله محمومه وقد تشنجت من فرط الألم ••• أواه يا عزيزتى ناستنكا ! اعترفى بأن المرء قد يطير صوابه ويضطرب ويحمر كتلميذ كان يدس فى جيبه تفاحه سرقها من بستان مجاور ، حين يكون على هذه الحال فاذا بفتى فارع القامه ممتلىء بالعافية مرح المزاج جـرىء الطبع ذرب اللسان حلو الحديث ، هو صديقه ، يفتح بابه بدون سـابق دعوة ويهتف صائحا كأن شيئا لم يكن : « هأنذا يا عزيزى وصلت الآن من بافلوفسك ! » يا رب ! الكونت الشيخ مات ، وهذه هى السعادة جاءت أخيرا ، السعادة التى لا تغلب ، فاذا الناس يصلون فى تلك اللحظـة من بافلوفسك !

سكتُّ بنوع من التفخم بعد أن فرغت من أقوالى المـلأى فخفخـة وانتفاخا • وانى لأذكر أن قد قامت فى نفسى رغبة رهيبة فى أن أضحك ضحكه مجنونه طويله لأننى شعرت شعورا قويا بوجود شيطان عدو يتحرك فى أعماقى بينما أخذ حلقى ينقبض وأخذت ذقنى ترتعش وأخذت عيناى تخضل •• كنت آمل من ناستنكا التى كانت تصغى الى محملقـة بعينيهـا الدكيتين أن تضحك ضحكتها الفتية المرحه ، وكنت قد أخـذت منذ ذلك الحين أندم على أننى أسرفت فى الكلام وأطنبت فى قص ما كان يغلى فى نفسى • كنت قد أدنت منذ زمن طويل حياة الاحلام هذه التى أحياها ولم أكن آمل أن أفهم الآن حين فتحت قلبى • ولكن ما كان أشد دهشتى حين رأيت ناستنكا بعـــد أن لبثت صامتة بضع لحظـات تشد على يدى خجلى وتسألنى :

ـ أحقا عشت هذه الحياة ؟

فأجبتها :

ـ دائما يا ناستنكا • وأحسب أننى سأموت هكذا •

قالت قلقة :

ـ لا ! هذا مستحيل ! هذا لن يكون •• وهل أظل أعيش أنا أيضا قرب جدتى الى الأبد ؟ هل تعلم أن الحياة على هذا المنوال ضارة مؤذية ؟

صحت أقول وقد أصبحت لا أملك ضبط فكرى :

ـ نعم يا ناستنكا • أعـــرف ذلك • ولقد أصـــبحت لا أجهل أننى ضيعت أحسن سنى عمرى • وانى لأتألم من هذا اليقين • لا سيما الآن بعد أن أرسلك الله الىّ ، ياملاكى الطيب من أجل أن تعلمينى هـــذا وأن تبرهنى لى عليه • وانى اذ أحدثك ليبدو لى غريبا أن أفكر فى المستقبل الذى يمثل العزلة والوحدة ويمثل تلك الحياة الباطلة نفسها • وما عسى أن يكون موضوع أحلامى بعد اليوم وقد عشت واقع الســـعادة بالقرب منك ؟ بورك فيك أيتها الفتاة العزيزة • لأنك لم تصدينى ولأنك أتحت لى أن أقول اننى عشت فى حياتى أمسيتين •

صاحت ناستنكا تقول والدموع تتلألأ فى عينيها :

ـ لا ، لا ، هذا لن يكون ! لن ننفصل هكذا ! ما أمسيتان ؟

ـ آه يا ناستنكا ، ناستنكا •• ليتك تعلمين كم صالحتنى مع نفسى • لن أحكم على نفسى بعد الآن حكما يبلغ مبلغ سوء حكمى عليها من قبل• لن أظن أننى ارتكبت خطيئة ، اننى ارتكبت جريمة فى حياتى ، لأن هذه الحياة جريمة • ولا تحسبى أننى أبالغ ناشدتك الله ! لا تحسبى هـــذا ياناستنكا ، فاننى أعانى حقا لحظات رهيبة من الحزن ، وانى لأقتنع حينذاك أنه يستحيل علىّ أن أبدأ حياة حقيقية • لقد فقدت كل معرفة بالواقع ، فقدت كل شعور بالواقع ؛ وان ساعات اليقظة التى أعيشها بعد ليال خيالية،

لهى رهيبة الوقع فى نفسى • وأنا فى أثناء ذلك ، أرى جمهرة البشر تدور فى اعصار الحياة من حولى ، اعصار الحياة الواقعية التى لا تذهب بددا كحلم ، الحياة التى تتجدد تجددا متصلا وتبقى فتية ريانة الفتـوة • ولا كذلك أحلامى التى تبقى هى هى حزينة عادية أسـيرة لظلمـة الفكر ، لاول غمامه تحجب الشمس فتحزن قلوب أهل بطرسبرج الذين يحبون الضياء هذا الحب كله • ان هذه الاحلام لتسأم وتنضب وتنتثر غبارا ، فاذا لم تجىء حيـــاة جديدة تغذيها فمن هذا الغبار انما ســـتعود وتنشأ حياة التهاويل والأخيلة • والنفس ترغب أثناء ذلك فى شىء آخر ولكن الحالم يبحث عبثا فى أحلامه القديمة ، كمن يبحث فى الرماد عن شرارة يمكن أن تعيد الحركة الى قلبه الذى جلده الصقيع ويمكن أن تبث الحياة مرة أخرى فى كل ما كان حبيبا الى قلبه ، وحنانا وجمالا فى نظره ، وما كان يستدر دموع عينيه ويفتنه عن نفسه تلك الفتنه الساحرة • هل تعلمـين يا ناستنكا أننى اضطررت للاحتفال بأعياد سنوية لعواطفى ، لما عبدته دائما ولم يوجد فى الواقع قط • ذلك أن هذه الاحتفالات السـنوية تذكرنى بتلك الأحلام الغبية الباطلة التى اختفت هى نفسها • الأحلام تتبدد أيضا ، أليس كذلك ؟ هل تعلمين أننى أحب تذكر الأماكن التى كنت فيها سعيدا، وأن أعود فأراها ؟ اننى أحب أن أعيش الحاضر من خلال ذكرى الماضى، وكثيرا ما أهيم على وجهى حـــزينا بلا هدف أقصـــد اليه فى شـوارع بطرسبرج ودروبها ــ وما أكثر ما هنالك من ذكريات فى كل مكان ! ــ فأتذكر أننى منذ سنة تماما ، فى هذه الساعة عينها ، كنت أسير على هـذا الرصيف عينه منهوك القوى مهدود الروح كالآن؛ وكانت أحلامى حداداً، ولم تكن حياتى أقرب الى الفرح كثيرا ، ولكن يخيل الى أننى كنت أحيا حياة أجمل من حياتى الآن ، وأن الأفكار السود لم تكن تسكن دماغى قوية عنيفة كما تسكن فيه الآن ، واننى لم أكن أعانى من هذه الندامات

وآلام الضمير التى لا تدع لى اليوم راحة . وانني لأسائل نفسى : أين أحلامك كلها اذن ؟ ولشد ما تجرى السنون سريعة سريعة ! أحسن مافى حياتك مات . أأنت قد حييت حقا ؟ انظر كيف صار كل ما حواليك جليدا من الصقيع ، وستنقضى سنون أخرى وستظل تعيش هذه العزلة الرهيبة ثم تدب فيك الشيخوخة العاجزة . عالمك الخيالى ستحول ألوانه، وأحلامك الكثيرة ستسقط سقوط الأوراق الصفر عن أشجارها فى الشتاء ... آه يا ناستنكا ما أبأس أن يبقى المرء وحيدا ، وحيدا كل الوحدة . وما أبأس ألا يكون له ما يتحسر على انقضائه ... لأن كل ما فقده انما كان عدما باطلا ، صفرا غبيا ، حلما عابرا .

دمدمت ناستنكا تقول وهى تكفكف دمعها :

ـ كفى ! لا تحزنى مزيدا من الحزن . انتهى الأمر الآن . وسنكون بعد اليوم اثنين . ولن نفترق مهما يحدث لى . اسمع ! أنا فتاة بسيطة على حظ ضئيل من الثقافة ، رغم أن جدتى قد سمّت لى أستاذا . ولكننى أفهمك لأننى عشت بنفسى كل ما قصصته علىّ الآن . صحيح أننى ما كنت لأستطيع أن أقصه هذا القص الجميل (كذلك أضافت تقول خجلى) لكننى شعرت بهذا كله حين ربطتنى جدتى الى ثوبها بدبوس ، ويسعدنى أنك أفضيت الىّ بذات نفسك . أنا أعرفك الآن ، أعرفك حق المعرفة ، وأريد أن أحكى لك حكايتى دون أن أخفى عنك شيئا . وسوف تسدى الى بالنصح بعدئذ . أليس كذلك ؟ ألا تعدنى بهذا النصح يا من أنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء ؟

أجبتها أقول :

ـ آه يا ناستنكا ! ما أسديت فى حياتى بنصيحة لأحد ، فليس لى

اذن تجربة ، ولكنني أعلم أننا اذا عشنا بعد اليوم معا فسنكون قادرين على أن ينصح كل منا الآخــر كما لا يستطيع أحــد أن ينصحه • أما بعد يا ناستنكا اللطيفة ، فأية نصيحة تريدين ؟ كلميني بصراحة ، انني فرح• انني سعيد • انني مرتاح البـــال مطمئن النفس • وهأنذا أصــغي اليك وسأحدثك بغير اكراه •

قاطعتني ناستنكا ضاحكة تقول :

ـ لا ، لا ، أنا لاأريد نصيحة ذكية فحسب بل أريد نصيحة صديق، نصيحة أخ ، كأنك قد أحببتني طوال حياتك !

صحت أقول مفتونا :

ـ موافق يا ناستنكا ، موافق ، ولو كنت قد أحببتك منذ عشرين عاما لما كان حبي أقوى منه الآن •

قالت ناستنكا :

ـ هات يدك •

فأجبتها وأنا أمد اليها يدي :

ـ اليك يدي •

قالت :

ـ الآن أبدأ قصتي •

قصة ناستنكا

ـ لقد علمت نصف قصتي اذ علمت أن لي جدة عجوزا •••

قاطعتها أقول :

ـ اذا كان النصف الآخر موجزا ايجاز النصف الأول •••

ـ صه ! استمع ! ثم انني أطلب شرطا : أن لا تقاطعني قط ، والا لم أستطع أن أكمل • لي اذن جدة عجوز عشت معها منذ كنت بنية صغيرة بعد أن فقدت أبي وأمي في سن مبكرة جدا • وأغلب الظن أن جدتي كانت في الماضي غنية ، لأنها تحب أن تتذكر أيامها الخوالي التي كانت خيرا من أيامها الآن • وقد علمتني اللغة الفرنسية ، ثم سمت لي أستاذا ، فلما بلغت من عمري السنة الخامسة عشرة (وأنا اليوم في السابعة عشرة) انتهت دراستي • وفي ذلك الحين انما ارتكبت حماقات • لن أقول لك ماذا فعلت • ولكن اعلم ان الاخطاء التي قارفتها لم تكن كبيرة • غير أن جدتي نادتني في ذات صباح وقالت لي انها بسبب عماها لا تستطيع أن تراقبني ، ثم تناولت دبوسا شدتني به الى ثوبها ، وأعلنت لي عندئذ أننا سنظل نعيش على هذا النحو حياتنا كلها اذا لم يصبح سلوكي أقرب الى العقل والحكمة • معنى هذا أنني أصبحت لا أستطيع أن أسير خطوة واحدة لأعمل وأقرأ وأتعلم • أصبح عليّ أن أمكث قرب جدتي دائما •

وفي ذات مرة أردت أن أستعمل المكر والحيلة ، فرجوت تكلا أن تأخذ مكاني • ان تكلا خادمتنا وهي صماء • حلت تكلا محلي ، ونامت جدتي على مقعدها • وأسرعت أنا أمضي الى صديقة لي ••• وانتهي الأمر

نهاية سيئه فحين استيقظت جدتى ، كنت ما أزال غائبة فطلبت شيئا لظنها أننى قربها ، فأدركت تكلا ذلك ، ولكنها لم تستطع أن تلبى رغبتهـا ، وفكرت فيما عساها تفعـل فانتهت الى هـــذا القرار : انتزعت الدبوس وهربت •••

توقفت ناستنكا عن الكلام وهى تنفجر ضاحكه فضحكت معها فسرعان ما كفت عن الضحك وقالت :

ـ لا تهزأ بجدتى • انني أضـحك لأن الأمر كان سـخيفا •• وما عساى أفعل وهى عميـاء ! ولكننى أحبهـا مع ذلك • ما أكثر ما وعظتنى يومئذ بعد أن أمرتنى أن أظل قربها ومنعتنى من أية حركة •

نسيت أن أقول لك اننا نملك بيتاً ، أعنى أن جدتى تملك بيتاً • هو بيت ليس له الا ثلاثة نوافذ على واجهتـــه ، وهو من خشب كله ، طاعن فى السن كجدتى ، وفى أعلاه غرفة تحت سقف القرميد • وقد جاء مستأجر جديد يسكن تلك الغرفة •

قلت :

ـ اذن كان يسكنها قبل المستأجر الجديد مستأجر قديم •

أجابت :

ـ وكان يعرف كيف يصمت خيراً منك ! حقاً كان لا يكاد يحـرك لسانه • أنه شيخ قصير أعجف أخرس أعمى أعرج ، لذلك لم يقو على البقاء طويلا فمات • فجاءنا بعده بقليل مستأجر جديد (اننا لا نستطيع أن نعيش بغير مستأجر لأن معاش جـــدتى هو موردنا الوحيد) • وشاءت المصادفة التى تشبه العمد أن يكون المستأجر الجديد شابا • ولم يكن هذا

المستاجر الشاب من مدينتنا ، وانما وفد اليها لقضاء زمن • واذ لم يساوم فقد آجرته جدتي الغرفة فورا ، ونادتني وسألتني : « قولي لي يا ناستنكا أهو شاب أم لا ؟ » فلم أشأ أن أكذب عليها فقلت : « لا يمكن القول انه فتى ولكنه ليس بالكهل • فامعنت جدتي تسالني : وهل هو حسن المنظـر وسيم الطلعة ؟ فقلت لها : نعم هو كذلك ، لانني لم اشأ ان اكذب ايضا • فصاحت جدتي عندئذ تقول : « آه يا للمصيبه يا للمصيبه !! ••• لقــد سألتك هذا السؤال يا ناستنكا حتى لا تنظري اليه كثيرا • وياللهذا الزمان من زمان ! مستاجر حسن المظهر ثم هو لا يدفع أجـــرا أكبر ! ••• لم يكن الأمر كذلك في زماننا ! » ان جدتي تتحدث دائما عن « العهد الخالي» الجميل ، فتقول فيما تقول : انها كانت يومئذ فتيــه ، وان الشمس كانت يومئذ شابة ، وان الشمس كانت أكثر دفئا • وكانت القشـــدة لا تفسد بسرعة كما تفسد في هذا الزمان • كان كل شيء حسنا في ذلك العهـد الجميل ! وسكت أنا وفكرت : « لماذا تسألني جدتي هل هو جميل وهل هو فتى ؟ » • على أنني ألقيت هذا السؤال على نفسي ببساطه دون أية فكرة مبيته ، واستمررت أعد الأبازيم ، وأحيك الجــوارب ، ثم نســيت كل شيء •

وهذا هو المستأجر الجديد يجيء الينا في ذات صباح يذكّرنا بأن ورق جدران غرفته يجب تغييره ، فقالت لي جدتي عندئذ (وهي مكثار كما تعلم) : « هيا أسرعي الى غرفتي يا ناستنكا فأتني بكبسي » • فوثبت فورا وقد احمر وجهي لا أدري لماذا ، ناسيةً نسيانا كاملا أنني مشدودة الى ثوب جدتي بدبوس ، فبدلا من ان انتزع الدبوس في رفق حتى لا يلاحظ المستأجر شيئا ، وثبت مسرعة ، فاذا بالمقعد وجدتي يتبعانني في رحلتي • فلما قدرت أن المستأجر قد عرف عني عندئذ كل شيء ازددت احمرارا ، وتسمرت في مكاني لا أتحرك ، وانفجرت باكية في نشيج • لقد شعرت

في تلك اللحظة بخجل رهيب وعار فظيـع ، وتمنيت لو أغـور مئه متر تحت الارض ! صاحت جدتي تسالني : « لماذا وقفت ؟ » فازداد بكائي•• فأدرك المستأجر عندئذ اضطرابي ، فحياني وخـرج • ومنـذ ذلك الحين أصبح يملكني قلق قاتل كلما سمعت ضجة في الدهليز ، فأقول لنفسي : « انه المستأجر » ، وأسارع فأنزع الدبوس برفق وهـدوء ، ولكنه كان لا يجيء • وانقضى أسبوعان ، وكلف المستأجر تكلا أن تقول لنـا ان لديه كتبا فرنسية كثيرة شائقه جدا ، وأن تسألنا هل تأذن لي جدتي أن أقرأ لها هذه الكتب لأسليها ، ولكن جـدتي سألت عن هذه الكتب أهي كتب فاضله ، وأضافت تقول لي : « ان لم تكن فاضلة فلن تستطيعي أن تقرئيها يا ناسنكا ، والا علمك الشر والرذيلة » •

سألتها :

ـ لماذا يا جدتي ؟ ما عسى أن تضمه هذه الكتب ؟

ـ هي كتب تتحدث عن رجال يغوون البنات الفاضلات ، اذ يعدونهن بالزواج ، فيأخذوهن من أسرهن ثم يهجـرون هاته الفتيـات الشـقيات ويتركونهن للقدر يعبث بهن على ما يشاء ، فيهلكن عندئذ في حياة بائسة تعيسه • لقد قرأت كثيرا من تلك الكتب التي بلغ مؤلفوها من الحـذق والبراعة في كتابتها أن المرء يقضي ليلته كلها يقرؤها ثم يقرؤها • هـل سمعت يا ناستنكا ؟ اياك أن تفتحي هذه الكتب ! ما هي الكتب التي أرسلها هذا الشاب !

ـ هي روايات بقلم والتر سكوت يا جدتي !

ـ والتر سكوت ؟ لا شك أن في الأمر شيئا • انظري يا ناستنكا •• هل ترين في هذه الكتب بطاقات صغيرة حلوة ؟

ـ لا يا جدتي ••• ما من بطاقة •••

ـ انظرى تحت الغلاف ! ان هؤلاء الأوغاد يضعونها فى كثير من الأحيان تحت الغلاف •••

ـ لا شيء تحت الغلاف أيضا يا جدتى •••

ـ حسن اذن ••

وشرعنا نقرأ والتر سكوت ، واستطعنا فى أقل من شهر أن نقرأ نصف الكتب التى أعارنا اياها جارنا ، ثم أرسل الينا كتبا أخرى فقرأت بوشكين ، فما هى الا فترة قصيرة حتى أصبحت لا أستغنى عن القراءة ، وبلغت من ذلك أننى كففت تماما عن التساؤل : « كيف أستطيع أن أتزوج أميرا صينيا ! » وفى ذات يوم التقيت بالمستأجر على السلم • كانت جدتى قد أرسلتنى فى أمر من الامور • وقف الشاب فاحمر وجهى واحمر وجهه أيضا ، ثم ابتسم وحيانى وسألنى عن أنباء جدتى وقال لى : « هل قرأت كتبى ! » فأجبته : «نعم» • فقال : « أيها أحببت ؟ » • فقلت : « ايفانهويه * وبوشكين » •

كذلك انتهى حديثى •

وبعد أسبوع التقيت به مرة أخرى ، وكنت فى هذه المرة قد شعرت بالحاجة الى الخروج من أجل نفسى • كانت الساعة هى الثالثة ، وكان المستأجر عائدا الى المنزل • قال لى : « يومك سعيد » • فأجبته : « يومك سعيد » •

ـ أليس يضجرك كثيرا أن تلبثى مع جدتك طوال النهار ؟

فاحمر وجهى من هذا السؤال احمرارا قويا ، وشعرت بخجل شديد ، وأحزننى أن أرى الغرباء يسألوننى عن هذا الامر ، وأردت أن أنصرف دون اجابة ، ولكننى لم أقو على ذلك •

ـ اسمعي ! ان لك قلبا طيبا نبيلا ، فاعذريني اذا أنا قلت لك هـذا الكلام ! ولكنني أريد لك الخير أكثر من جدتك نفسها ! أليس لك أية صديقه ؟

فأجبته بأن لى صديقة هي ماشنكا . ولكنها سافرت الى بسكوف .

ـ هل تحبين أن تصحبيني الى المسرح ؟

ـالى المسرح ؟ وجدتي ؟...

ـ تستطيعين أن تنصرفي .. بهدوء ورفق .. فما يشعر بخروجك أحد .

ـ لا ، لا أريد أن أخدعها ! الى اللقاء !

ـ الى اللقاء اذن !

كذلك أجاب دون أن يزيد شيئاً .

ولكنه جاء الينا بعد العشاء ، ولبث يتحدث مع جدتي مدة طويله . وسألها هل هي تخرج أحيانا ؟ وهل لها أصدقاء ؟ ثم قال فجأة : « لقـد استأجرت اليوم شرفه في الأوبرا . انهم يمثلون « حلاق اشبيلية * » . وكان يجب أن يصحبني بعض الاصـدقاء ، غير أن مانعـا طرأ في آخر لحظة ، فأصبحت الشرفة خالصة لى وحدى .

صاحت جدتي :

ـ « حلاق اشبيلية » ! ... تلك التي كانوا يمثلونها في العهد الماضي الجميل !

قال :

ـ نعم هي نفسها !

ونظر اليّ • وكنت أنا قد فهمت كل شيء ، فأخذ قلبي يخفق أملا ورجاء •••

قالت جدتي :

ـ آه لقد غنيت بنفسي دور « روزين » * في عرض ببيتنا ذات مرة ••• انني أعرف هذا الدور معرفة جيدة •••

قال المستأجر :

ـ تعالوا اذن معي ، والا ضاعت الأماكن سدى •

قالت الجدة :

ـ نعم هيا بنا ! ولِمَ لا ؟ ان ناستنكا لم تذهب يوما الى المسرح • ما أجملها متعة يا رب !

وما لبثنا أن ارتدينا ملابسنا وخرجنا • كانت جدتي تحب الموسيقى كثيرا • وكانت عدا ذلك طيبة القلب جدا • فهي تحب أن تسرني • وما كان لنا أن نذهب الى المسرح وحدنا • لا أستطيع أن أصف لك الأثر الذي أحدثته في نفسي أوبرا « حلاق اشبيلية » • ولكن المستأجر ظل طوال تلك السهرة ينظر اليّ بعينين فيهما من الطيبة ويحدثني بكلام فيه من العذوبة ما جعلني أدرك فورا أنه قد أراد أن يمتحنني في الصباح حين عرض عليّ أن أخرج معه وحيدة • ما كان أشد فرحي ! لقد رقدت على فراشي في تلك الليلة فخورة مفتونة • كان قلبي يخفق خفقانا شديدا، حتى لقد أصابتني حمى ، وحلمت طول الليل ب « حلاق اشبيلية » • وقدرت عندئذ أن جارنا سيكثر اختلافه الينا وتردده علينا • ولكن ظني لم يصدق • لقد انقطع عن زيارتنا انقطاعا يشبه أن يكون تاما • لعله أصبح لا يزورنا الا مرة واحدة في الشهر • وهو لا يزورنا هذه الزيارة أيضا

الا ليدعونا الى المسرح • ذهبنا الى المسرح مرتين أخربين • ولاحظت أنه كان يشفق على ويرأف بى ويرثي لحالى اذ يرانى وحيدة مع جدتى دائما• ولكننى كنت أنا أفقد الهدوء يوما بعد يوم • وأصبح يستحيل علىّ أن أبقى ساكنه النفس مطمئنه البال ، حتى لقد صرت اعجز عن القراءة ، ولا أستطيع أن أعمل ؛ وكنت أبكى فى كثير من الأحيان ! وسرعان مانحلت ، وأوشكت أن أمرض • لقد انتهى موسم المسارح • وأصبحنا لا نرى جارنا البتة ، فاذا صادفه مصادفة ، وذلك يكون على السلم دائما ، حيانى صامتا برصانه وجد ، كأنه لا يريد أن يكلمنى ، فأتسمر على الدرجة التى أكون عليها من السلم ، بينما يكون هو قد خرج ، وكنت أحمر عندئذ احمرارا شديدا ، لأننى كنت لا أراه الا ويصعد الدم الى رأسى •

هأنذا أوشك أن أختم قصتى • منذ سنه تماما فى شهر أيار (مايو) جاء المستأجر يكلم جدتى • كان قد سوّى جميع شؤونه وأعماله ، فعليه أن يعود الى موسكو • وسيمكث هنالك سنه • فلما سمعته يقول ذلك الكلام شحب لونى ، وتهاويت على كرسى كالميتة • لم تلاحظ جدتى شيئا بطبيعة الحال ، أما هو فقد خرج بعد أن حيانا مودعا •

ماذا كان علىّ أن أعمل ؟ فكرت طويلا ، طويلا ••• ثم عزمت أمرى أخيرا ••• قلت لنفسى : ما دام مسافرا فى الغد ، فسوف اراه متى نامت جدتى ••• وذلك ما وقع • حزمت جميع أثوابى وملابسى فى صرة ، وصعدت اليه وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة • أحسب أنى سلخت ساعة برمتها فى صعود السلم ، فحين فتحت عليه الباب فأبصرنى، أطلق صرخة • لا شك أنه ظننى شبحا من الاشباح • ذلك أننى كنت لا أكاد أستطيع الوقوف على ساقى • فلما رآنى على هذه الحال أسرع يجىء بماء لينعشنى به • كان قلبى يبلغ من شدة الخفقان أن صداعا ألم

برأسي وأنني أصبحت لا أفهم ما يجرى من حولى • وثبت الى رسدى بعد قليل ، فوضعت صرتى على السرير ، وجلست غارقة فى دموعى ، دافنة رأسى فى يديه • وسرعان ما فهم هو كل سىء • فها هو ذا يقف أمامى شاحب الوجه ينظر الىّ نظرة تبلغ من الحزن أن قلبى تفطر لها •

قال لى :

ـ ناستنكا ! اسمعينى • لا أستطيع شيئا ! اننى فقير ، وليس لى أى مركز ، فكيف عسانا نعيش اذا أنا تزوجتك ؟

تحدثنا طويلا ، وفقدت صوابى آخر الامر فقدانا تاما ،فأعلنت له أننى لن أستطيع أن أعيش بعد الآن مع جدتى • قلت له اننى سأهرب فلست أريد أن أبقى مشدودة الى جدتى بدبوس ، وانني سأتبعه الى موسكو شاء أم أبى ، فقد أصبحت لا أستطيع أن أستغنى عنه • كان الخجل والحب والكبرياء ، كان كل سىء فى نفسى يتكلم فى آن واحد • وتهالكت على السرير مرتعشة أشد الارتعاش • كنت أشعر بذعر من تصورى رفضه •

لبث صامتا بضع لحظات ، ثم نهض واقترب منى ، وتناول يدى ، وقال لى منفعلا أشد الانفعال :

ـ عزيزتى الطيبة ناستنكا ، أقسم لك أننى اذا استطعت يوما أن أتزوج ، فلسوف تحققين أنت وحدك سعادتى • نعم انت وحدك ••• اسمعى ما سأقوله لك : أنا مسافر الى موسكو ، وسأقضى هنالك سنة تماما، وآمل أن أسوى أمورى ، فاذا عدت بعدئذ فوجدت أنك لم تنسينى ، سعدنا معا ، أقسم لك على ذلك • أما الآن فلست أستطيع ولا يحق لى أن أعدك بشىء • على أننى أؤكد لك أننا اذا لم نحقق سعادتنا فى السنة

القادمة ، فسنحققها في يوم من الايام حتما ، هـــذا اذا لم تؤثرى علىّ شخصا آخر بطبيعة الحال ! ذلك أننى لا أستطيع ولا أجرؤ أن أربطك بعهد !

تلك كانت أقواله • وسافر فى الغـداة • اتفقنـا على أن لا أحدث جدتى بشىء • فكذلك أراد • هذه هى قصتى أنهيت سردها لك تقريبا • وقد تصرمت السنة وعاد صاحبى الى بطرسبرج وهو هنا منذ ثلاثة أيام ، و •••

صحت أسألها مستعجلا معرفة النهاية :

ـ وماذا ؟

فأجابت ناستنكا وكأنها تجاهد نفسها ••

ـ ما رأيته بعد ! ولا تلقيت منه كلمة ! ••• لا شىء •••

وصمتت وخفضت رأسها وانفجرت تنتحب انتحـابا قويا تمزق له قلبى •

لم أكن أتوقع هذه الخاتمة •

قلت بصوت وجل متردد :

ـ ناستنكا ! لا تبكى ! ناشدتك الله ! لعله لم يصل بعد ، مايدريك ؟

صاحت ناستنكا تقول :

ـ بل وصل • انه هنا • أعرف ذلك • ولقد وضعنا هذا الشرط فى الليله التى سبقت سفره حين تنزهنا هنا على رصيف النهر • خرجنـا من البيت معا بعد حديثنا ، وكانت الساعة العاشرة ، وجلسنا على هذا المقعـد

وقد كففت عن البكاء • كنت سعيدة بالاصغاء الى كلامه ••• كل السعادة ••• قال انه سيأتي الينا متى عاد ، فاذا كنت ما أزال أحبه كاشفنا جدنى بكل شيء • وقد وصل ، فأنا أعرف ذلك ، ولم يبلغنى منه شيء بعد •••

قالت ذلك وطفقت تبكى من جديد •

صحت أقول وانا وقد تملكنى غم شديد :

ـ رباه ! ألا نستطيع أن نفعل شيئا لدفع هذا الكرب ؟ قولى ياناستنكا: ألا يمكننى أن أذهب اليه ؟

فأجابتنى وهى ترفع رأسها بسرعة وقوة :

ـ أهذا معقول ؟

قلت وقد عدت الى صوابى :

ـ طبعا لا ! ولكنك تستطيعين أن تكتبى اليه رسالة •

فأجابت بلهجة قاطعة وهى تخفض رأسها من جديد متحاشية نظرتى :

ـ لا ! هذا لا يمكن أن يكون •

فتابعت كلامى ملحاً :

ـ لماذا يا ناستنكا ؟ ثقى بى ••• فلن أسيء نصحك • ان من الممكن أن يُسوَّى كل شيء • لقد خطوتِ الخطوة الاولى ، فلماذا تحجمين الآن ؟

ـ لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا أريد أن أكرهه اكراها •••

قاطعتها أقول مبتسما :

ـ يا عزيزتي الصغيرة ناستنكا ! أنت مخطئة ! ان من حقك أن تخاطبيه ، لأنه قطع لك عهداً ، ثم انني أفهم من كل ما قصصته عليَّ أنه رجل مرهف العواطف رقيق المشاعر •

وتابعت أقول وأنا أزداد اقتناعا بمنطق براهيني :

ـ لقد كان سلوكه حسنا جدا : قطع لك على نفسه عهدا ، وأعلن أنه لن يتزوج غيرك ، وترك لك حرية رفضه اذا شئت ••• فبوسعك اذن أن تقومي بالخطوة الأولى ، ذلك من حقك تماما ما دمت تمتازين عليه بقدرتك على أن تجعليه في حل من عهده •••

ـ ولكن ما عساك تكتب ؟

ـ أكتب ماذا ؟

ـ الرسالة •

ـ أكتب هكذا : « السيد المحترم ••• »

ـ هل ضروري أن تكتب : « السيد المحترم ؟ »

ـ تماما ••• ثم انني أرى •••

ـ طيب •• طيب •• وماذا تكتب بعد ذلك ؟

ـ «السيد المحترم ! •• معذرة اذا أنا ••» لا •• لا داعي الى أي اعتذار •• فالأمر مسوغ من تلقاء نفسه :

« اكتبي فقط ما يلي » :

« أكتب اليك راجية أن تغفر لي نفاد صبري ، فان الأمل قد جعلني سعيدة سنة بكاملها • أفأكون مذنبة اذا أنا لم أطق احتمال الشك يوما

واحدا ؟ تُرى هل تغيرت نياتك وقد عدت ؟ ان رسالتي ستنبئك في هذه الحالة بأنني لا أدينك ، فليس يُدان امرؤ لأنه لا يملك زمام قلبه . ذلك هو القدر !

« انك امرؤ رفيع العواطف ، فلن تبسم اذن حين تقرأ هذه الاسطر التي تدل على نفاد الصبر ولن ترميها الى الارض . تذكر أن فتاة بائسة هي التي تكتب هذه الاسطر . انني وحيدة وليس لي أحد يرشدني ويسدد خطاي ويسدي اليّ النصح . ولم أستطع أبدا أن أسيطر على قلبي ، فسامحني اذا كان قد نبت شيء من الشك في هذا القلب . انك لا يمكن أن تريد اذلال تلك التي أحبتك ذلك الحب كله وما تزال تحبك ، لا تريد اذلالها ولو بالخيال » .

هتفت ناستنكا تقول وقد سطع الفرح بعينيها :

ـ نعم .. نعم .. ذلك ما كنت أفكر فيه . لقد وجدت لي مخرجا من سكوكي ! ان الله نفسه قد أرسلك اليّ ! أشكرك أجزل الشكر ، وأعرب لك عن أعمق الامتنان .

ـ لماذا أرسلني الله اليك ؟

كذلك أجبتها وقد أسعدني أن أتأمل وجهها الصغير الذي أشرق بشراً وبهجة .

قالت :

ـ من أجل هذا كله !

ـ آه يا ناستنكا ! انني أنا الذي أشكر لك أن قد أتيح لي أن ألقاك ، ولسوف تحيين دائما في ذكراي .

ـ كفى ! كفى ! استمع الىّ الآن ! قلت لك اننا قد تواضعنا على هذا الشرط ، وهو أن يبلغنى عودته متى عاد برسالة يودعها احدى صديقاتى المخلصات التى تجهل عنا كل شىء ، فاذا لم يستطع أن يكتب لأن المرء لا يقدر أن يقول كل شىء فى رسالة ، جاء الى هذا المكان نفسه يوم وصوله ذاته فى الساعة العاشرة • ولقد بلغنى نبأ وصوله • ولكننى لم أتلق منه شيئا ، ولست أستطيع أن أترك جدتى فى الصباح ، فانقل أنت هذه الرسالة الى صديقتى غدا فى ساعة مبكرة ، فتتولى هى ارسالها اليه ، فاذا جاء منه جواب ، حملته الىّ بنفسك فى مساء غد •

ـ ولكن الرسالة لا بد من كتابتها ، فلن نستطيع أن نتلقى الجواب اذن الا بعد غد •

فأجابت تقول وقد اضطربت بعض الاضطراب :

ـ الرسالة ••• الرسالة •• ولكن •••

ولم تتم كلامها بل أشاحت وجهها واحمرت حتى أصبحت بلون الورد ، ثم اذا أنا أشعر برسالة توضع فى يدى • لا شك أنها كُتبت وختمت منذ مدة ؟ وبرقت فى خيالى ذكرى حبيبة لطيفة :

ـ رو ••• زين

كذلك غنيت ، ثم غنينا معا روزين ، وأوشكت أن أعانقها فى غمرة هذا الفرح الذى ملأ نفسى • وكانت قد ازدادت احمرارا • وهى تضحك الآن من خلال دموعها التى ترتعش على أهدابها الجميلة كأنها اللآلىء •

وقالت أخيراً بسرعة :

كفى •• كفى ! •• الى اللقاء ! اليك الرسالة ! واليك العنوان الذى سننقلها اليه ! الى اللقاء ! الى الغد ! وضغطت يدى ضغطاً قوياً ، وحيتنى مودعةً بحركة من رأسها وانصرفت تشق طريقها نحو الجادة الصغرى كالسهم سرعةً • لبثت فى مكانى زمناً طويلا أشيِّعها بنظراتى •

ـ الى الغد ! ••

كذلك ترجعت هذه الكلمات فى نفسى حين غابت عن بصرى •

الليلة الثالثة

كان النهار حزينا ممطرا لا تتخلله فترات صحو ، كما سنكون سيخوختى • ان أفكارا غريبة قد عذبت روحي وان مسائل مبهمه مضطربة قد هزت فكرى ، وأنا لا أقوى على حلها ، لا ولا أرغب فى حلها •

لن نلتقي اليوم • وحين افترقنا أمس كانت السحب تغطى السماء وكان الضباب ينتشر فى الفضاء •قلت لها : ان الجو سيكون فى الغد رديئا• فلم تجب بشيء • ذلك أن هذا النهار سيكون مشرقا بضوء الشمس فى نظرها ، فما من غيمه يمكن أن تعكر سعادتها • لقد قالت لى :

ــ اذا أمطرت فلن نلتقى لأننى سأمكث فى بيتى •

ولكننى أمَّلت أن لا تفطن الى هطول المطر ، وأن تأتى مع ذلك • وأمس كان لقاؤنا الثالث ، كانت ليلتنا البيضاء الثالثة • لشد ما ينفتح الانسان ويزدهر ويزداد جمالا حين يملأ الفرح قلبه وحين تفيض نفسه بالسعادة !

وكأن القلوب تريد أن ينتشر بعضها فى بعض ، فترغب أن ترى من

حولها البهجة والضحك ! وما أشد سريان هذا الفرح بالعدوى !

كان في أقوال ناستنكا لي كثير من حنان وطيبة وحدب .. وكانت نفسها تفيض مداراة لي ، فهي تلاطفني وتشجع قلبي . وما أروع الفتنة الاخاذة في ذلك الدلال والغنج اللذين كانت سعادتها تضفيهما عليها ؟ حتى لقد نسيت ... فخطر ببالي في بعض اللحظات أن ...

يا رب ! كيف أمكن أن يدور في خلدي ذلك ! كيف أمكن أن أكون أعمى هذه العماوة كلها ، بينما لم يكن شيء لي أنا ، وكان كل شيء للآخر . لم يكن حنانها علي ولم تكن ملاطفاتها لي ولم يكن حبها اياي ، لم يكن هذا كله الا ثمرة فرحها بلقائها القريب معه ، والا الرغبة في اشراكي في سعادتها . فلما رأت انه لم يأت ، وأننا انتظرنا عبثا ، غدت قاتمة خجلة وجلة . لم تعد حركاتها ولا أقوالها منطلقة خفيفة فرحة كما كانت من قبل . والغريب أنها ضاعفت ملاطفاتها لي كأنها تريد على غير شعور منها أن تملأني بمخاوفها وبرغبتها . وفجأة بلغت صغيرتي ناستنكا من فرط الخجل والخشية والخوف أنها أدركت أخيرا فيما أعتقد أنني أحبها، وانني أشفق على حبي البائس . فكذلك نحن : نشعر بألم الآخرين شعورا أعمق حين نكون أشقياء معذبين . ان عاطفتنا تشتد عندئذ وتقوى ...

لقد جئت اليها طافح القلب . وقاسيت كثيرا من العناء في انتظار لحظة اللقاء . لم أكن أتنبأ بما سأشعر به حين ذاك ، ولم أكن أوجس الخاتمة ، وكانت هي مشرقة الوجه تنتظر جوابه . وكان الجواب أن يحضر هو نفسه ، الانسان الذي تحبه . وصلت قبلي بساعة ، فكانت في أول الامر تضحك لكل شيء ، لكل كلمة من كلماتي . وقد بدأت أتكلم ثم سكت فجأة .

قالت :

ـ هل تعلم لماذا أنا سعيدة هذه السعادة كلها برؤيتك ؟ هل تعلم لماذا أحبك هذا الحب كله ؟

قلت وقد اختلج قلبي :

ـ لماذا ؟

ـ اننى أحبك لأنك لم تقع فى حبى . لو كان شخص آخر غيرك فى مكانك لما تركنى وشأنى هادئة البال بل لعذبنى عذابا شديدا ولسقط مريضا ... انك طيب جدا .

قالت ذلك وضغطت يدى ضغطا بلغ من القوة أننى كدت أصرخ . وانفجرت ضاحكة . قالت بعد لحظات بصوت رصين :

ـ ولكنك صديقى ، أرسلك الله الىّ . ما كان عسى أن تصير اليه حالى لولاك الآن ؟ ألا ما أعظم اخلاصك وتنزهك عن الغرض! ألا ماأطهر عاطفتك وأصفاها وأنقاها ! حين سأتزوج سنبقى صديقين ، سنبقى كأخوين بل أكثر . وسأمحضك من الحب بقدر ما أمحضه هو تقريبا ..

حزنت حزنا رهيبا وأنا أسمع هذه الكلمات . ومع ذلك فان شيئا يشبه أن يكون ضحكة داخلية قد تحرك فى نفسى . قلت لها :

ـ أنت خائفة . انك تقدرين أن الآخر قد لا يأتى ، أليس كذلك ؟

أجابت :

ـ ما هذا الكلام الذى تقول ؟ لو كنت أقل سعادة فلربما كنت أبكى من سوء ظنك هذا ومن ملاماتك هذه ! على أنك قد أنبتّ فى نفسى معانى سأفكر فيها فى المستقبل ، بل اننى أستطيع أن أعترف لك منذ الآن بأن فيما قلته شيئا من حق . اننى أنتظر ، وأحسب أننى مسرفة فى الابتهاج والفرح . ولكن كفانا حديثا عن العواطف !

وسمعنا فى هذه اللحظة وقع خطوات ، وظهر لنا رجل فى الظلام .

كان مقبلا علينا • ارتجفنا كلانا • وأوشكت هي أن تطلق صرخة • تركت يدها ، وأردت أن أنصرف ، ولكننا كنا قد أخطأنا الظن فانه لم يكن هو القادم •

قالت وهي تمد الى يدها من جديد :

ـ لماذا هذه الخشية ؟ لماذا نبذت يدى ؟ لسوف نراه معا • انى أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر •

صحت أقول :

ـ كم يحب أحدنا الآخر ؟

وقلت فى نفسى : « آه يا ناستنكا ! ما أكثر الأشياء التى كشفت عنها فى هذه الأقوال ! ان هذا الحب يجمد القلوب ويشجى النفوس • ان يدك باردة ويدى تحترق كالجمر ! ما أعماك يا ناستنكا ! ••• ألا ان السعداء لا يطاقون ولا يحتملون ! ولكننى لا أستطيع أن أزعل » •

وطفح قلبى أخيرا وقلت :

ـ اسمعى يا ناستنكا ! هل تعلمين كيف قضيت نهارى ؟

ـ كيف قضيت نهارك ؟ قل بسرعة ••• لماذا ظللت صامتا حتى الآن ؟

ـ أولا : قمت بما كلفتنى به يا ناستنكا • نقلت الرسالة الى صديقتك ثم عدت الى بيتى فرقدت •••

قاطعتنى ضاحكة :

ـ أهذا كل شيء ؟

أجبتها وأنا أكظم انفعالى الذى فضحته دموع غبية ترقرقت فى عينى :

– نعم هذا كل شىء تقريبا ... واستيقظت قبل آزوف موعدنا بساعة ، وكان يخيل الىّ أننى لم أنم . لا أدرى ماذا حدث لى . لم يبق للزمان عندى وجود ، بعد أن أصبح كل احساس فريد أعانيه وكل شعور جديد أكابده لا بد أن يبقى فى نفسى الى الأبد ! لكأن الحياة كلها قد توقفت . وتراءى لى حين استيقظت أننى اسمع منذ مدة طويلة أغنية رخيمة عذبة كأنها كانت منسية ، وكأنها كانت تريد أن تنطلق من نفسى منذ الأبد ...

قاطعتنى ناستنكا تقول :

– رباه ! ماذا دهاك ؟ اننى لا أفهم ...

– أردت أن أطلعك على هذه العواطف الغريبة .

كذلك أجبتها بصوت شاك يختفى فيه أمل بعيد جدا .

فقالت وقد حزرت الماكرة الصغيرة ما أريد أن أقوله فورا :

– كفى ! اسكت !...

وسرعان ما أصبحت طلقة اللسان كثيرة الكلام فرحة النفس عابثة متخابثة . فتناولت ذراعى ، وأخذت تضحك ، ثم تضحك ، وتسألنى أن أضحك أيضا ، وأصبحت كل كلمة من كلماتى الخجلى تثير فيها هذا المرح الصاخب نفسه ... وبدأت أشعر بشىء من الغضب . لقد كانت حينئذ فتاة مغناجا .

قالت :

– هل تعلم أننى مستاءة قليلا من أنك لم تتوله بحبى . ما أصعب

فهم الرجل ! ولكنك يا أيها السيد الصامد لا تستطيع الا أن تحمد لى بساطتى • فأنا أقول كل شىء ، أية كانت السخافة التى تخطر ببالى •

قلت وأنا أسمع أصوات الناقوس البطيئة تترجع فى برج المدينة :

ـ أعتقد أن الساعة الحاديه عشرة تدق •

فصمتت فجأة ، وأخذت تعدُّ دقات الساعة ، وقالت أخيرا بصوت متردد خجلان :

ـ نعم هى الساعة الحادية عشرة •

ندمت على أننى أرعبتها واضطررتها الى عد دقات الساعة ، ولمت نفسى على روح الشر هذه التى دفعتنى الى ذلك • أسففت عليها فأخذت أهدئها محاولا أن أعلل غياب ذلك الذى كانت تنتظره • وجدت براهين واستخلصت نتائج ، وما من أحد يمكن أن يُخدع بأيسر مما كان يمكن أن تُخدع به هى فى تلك الساعة • ذلك أن جميع الناس فى مثل هذه اللحظات يصغون فرحين الى العزاء الممكن ، بل الى ظل عذرٍ يخطر بالبال •

وتابعت أقول :

ـ نعم ليس فى هذا غرابة • ما كان يمكن أن يأتى ! لقد ضللتنى يا ناستنكا ••• لذلك أخطأت تقدير الزمان ••• انه لم يكد يستلم الرسالة • فافرضى أنه لا يستطيع أن يجىء وأنه يريد أن يرد برسالة ، ففى هذه الحالة لا يمكن أن تصل رسالته الا غدا • سأمضى أستلمها فى ساعة مبكرة جدا من صباح الغد • فأنبئك بذلك على الفور • ثم ان هنالك ألف احتمال ممكن : فلعله لم يعد الى البيت ، فلم يستلم الرسالة • كل شىء يمكن أن يحدث •

أجابت :

ـ نعم نعم اننى لم أفكر • كل شيء يمكن أن يحدث •

وكانت تتكلم سريعا بصوت حـــزرت فيــه فكرة مختلفــة بعيدة • وأضافت تقول :

ـ اذن ســـتذهب فى أبكر ساعة ثم تنبئنى هــل هنالك شيء • أنت تعرف عنوانى •

قالت ذلك وكررت ذكر عنوانها ثم أصبحت دمنــة لطيفة خجــولة معى ••• وكانت تصغى الىّ بانتباه ولكن حين سألتها سؤالا على حين فجأة سكتت وأشاحت بوجهها ، فلما نظرت فى عينيها أدركت أن ما خطر ببالى صحيح ••• لقد كانت تبكى حقا •

ـ ما هذا ؟ ألا انك لطفلة ! لا تبكى ، أرجوك !

فحاولت أن تبتسم ، ولكن ذقنها كانت ترتجف وكان صدرها ينهد لاهثا •

قالت بعد دقيقة صمت :

ـ اننى أفكر فيك • انك طيب القلب نبيل النفس • أيكون قلبى من حجر فما أتأثر من ذلك ؟ هــل تعلم فيم أفكر ؟ لقــد وازنت بينكما فى ذهنى • لماذا ليس هو أنت ؟ لماذا لا يشبهك ؟ انك خير منه ، رغم أننى أحبه أكثر مما أحبك •

لم أجب بشيء وكان يبدو أنها تنتظر جوابى •

قالت :

ـ لعلنى لم أفهمه بعد فهما كافيا • اننى لا أعرفه معرفة تامة • كنت

أخشاه دائما ، فقد كان شديد الجد ، أشبه بالمتكبر ، ولكنه يظهر بهذا المظهر ، أما قلبه فأرق من قلبي .. انني أتذكر نظرته حين جئت اليه حاملةً صرتي .. انني أحترمه كثيرا . انه أعلى مني .

ـ لا يا ناستنكا ! أنت تحبينه أكثر من أي شيء في العالم ، تحبينه أكثر كثيرا مما تحبين نفسك .

أجابت بسذاجة :

ـ نعم ، ربما ... ولكن اسمع ! لن أتحدث عنه بل سأقول كلاما عاما ... انني أفكر في هذا الامر منذ زمن طويل : لماذا لا نكون جميعا كاخوة مع اخوة ؟ لماذا يحتفظ دائما أفضلنا بسرٍ في نفسه ؟ لماذا هو يلزم الصمت ؟ لماذا لا يقول احدنا فورا كل ما في قلبه حين يكون واثقا أن الآخر سيفهمه ؟ ان جميع الناس يبدون أقسى كثيرا مما هم قساة في الواقع ، ويتخيلون أنهم يخفضون قيمة عاطفتهم اذا هم عبروا عنها بسرعة مسرفة .

ـ آه يا ناستنكا ! انك على حق ! ولكن البواعث كثيرة . لقد شعرت أنا نفسي أن عليَّ في هذه اللحظة أن أخرس طائفة كبيرة من العواطف .

أجابت بانفعال :

ـ لا .. لا .. أنت لا تشبه الآخرين .. لا أعرف كيف أقول لك ما أشعر به ...

قالت ذلك ثم أضافت خجلة وهي ترمقني بنظرة مختلسة :

ـ انك الآن تضحي بنفسك في سبيلي ! واغفر لي أن أخاطبك على هذا النحو ... ولكنني فتاة بسيطة لم أر الناس الا قليلا ، ولا أعرف دائما أن أعبر عما بنفسي كما يجب أن أعبر عنه . (قالت ذلك بصوت

مرتعش تختفي وراءه عاطفه قويه وكانت تحاول أن تبتسم) • ولكنني أريد أن أفصح لك عن كل امتناني وشكرى •• انني أحس بكل ماتفعله• وأسأل الله أن يهب لك السعادة جزاء هذا النبل وهذه الشهامه ••• ان ما قصصته علىّ فى ذلك اليوم عن الرجل الحالم لا يتناولك قط • أنت الآن أحسن حالا • لقد تغيرت فلم تبق ذلك الرجل الذى وصفته لى • اذا أحببت يوما فانني أتمنى لك أن تتمتع بالسعادة الكبرى التى تستحقها ، ولست أتمنى لها هى شيئا ، لأنها ستكون سعيدة معك • أنا أعرف ذلك ، فأنا امرأة وفى وسعك أن تصدق ما أقول •

فرغت من الكلام وصمتت وضغطت يدى ضغطا قويا ، وبلغت أنا من شدة الانفعال أننى لم أستطع أن أجيب •

وانقضت لحظات •••

قالت أخيرا وهى ترفع رأسها :

ــ لن يأتى اليوم فالوقت متأخر •

فقلت لها بصوت جازم ولهجة قاطعة :

ــ سيأتى غدا •

فقالت جذلى :

ــ نعم ! أنا مقتنعة بذلك ••• الى اللقاء ! الى الغد ! وقد لا آتى اذا أمطرت السماء ، ولكننى سأجىء بعد غد ، مهما يقع لى ، فتعال حتما ، فاننى أريد أن أراك لأتحدث معك أيضا •

فلما افترقنا مدت الىّ يدها وتمتمت وهى تنظر فى عينى :

ــ لأننا سنظل دائما معا ، أليس كذلك ؟

ـ آه يا ناستنكا ! لو علمت كم أنا وحيد الآن •

حين دقت الساعة التاسعه لم أستطع أن أمكث في غرفتي ، فارتديت ثيابي ، وخرجت رغم سوء الجو ، وذهبت الى هناك أجلس على مقعدنا • وأردت أن أجتاز شارع بيتهم ولكنني خجلت • فرجعت دون أن أنظر الى نوافذ البيت ، رجعت الى غرفتي وقد استبد بي كرب شديد لم أعرف مثله في حياتي قط • وكان الجو كالحا جهما رطبا ، ولولا ذلك لخرجت أتنزه على شواطىء النهر طول الليل ••

ولكن الى الغد ، الى الغد ، غدا ستقص عليّ كل شيء •

ومع ذلك لم تصل منه رسالة اليوم • ولكن أليس هذا في طبيعة الامور • انهما الآن معا •

الليلة الرابعة

ربّاه يا لتلك النهايه التى انتهى اليها ذلك الأمر كله ! جئت فى الساعة التاسعة . كانت هناك . رأيتها من بعيد . انها متكئة على افريز الجسر كما كانت متكئة عليه فى اليوم الاول . ولم تسمع وقع خطواتى وأنا أقترب منها . ناديتها مجاهدا نفسى للتغلب على انفعالى .

ـ ناستنكا !

فالتفتت بسرعة وسألتنى قائلة :

ـ هيه ! هيه ! قل .. أسرع .

فنظرت اليها مشدوها .

ـ أين الرسالة ! أهى معك ؟

كذلك رددت تفول مستندة على الافريز .

قلت أخيرا :

ـ لا ! ليس معى أية رسالة . ألم يأت هو اذن ؟

شحب لونها شحوبا رهيبا . ولبثت تنظر الىّ جامدة لا تتحرك زمنا طويلا . لقد حطمت آخر رجاء لها .

وتمتمت أخيرا تقول :

ـ طيب .. لا باس .. فليفعل ما يشاء . ما دام يهجرني هكذا ...

وخفضت عينيها ، ثم أرادت أن ترفع بصرها نحوى ، ولكنها لم تستطع . جاهدت انفعالها بضع لحظات أخرى ، ثم وضعت كوعيها على افريز رصيف النهر وأجهشت تبكي منتحبه .

قلت لها :

ـ هدئي روعك ! هدئي نفسك ! أرجوك .. أضرع اليك .

ولكنني لم أقو على الاستمرار في الكلام . وما كان عساى أن أقول لها ؟ قالت من خلال دموعها :

ـ لا تحاول أن تعزيني وأن تواسيني . لا تحدثني عنه بعد الآن ! لا تقل لى بعد هذه اللحظة انه سيأتي وانه لم يهجرني بقسوة ! ... لماذا ؟ لماذا ؟ انني لم أكتب اليه شيئا في تلك الرساله . ما كان لتلك الرسالة الشقية أن ...

وعلا نحيبها فلم أستطع أن أسمع تتمة كلامها ، وكان قلبي يتمزق وأنا أنظر اليها .

وعادت تقول من جديد :

ـ ماأقسى هذا ! تلك قسوة فوق قدرة الانسان على احتمال القسوة . أما من سطر ؟ أما من كلمة ؟ كان في وسعه ان يجيب بأنه في غير حاجه الىّ . كان في وسعه أن يصدني . ولكنه لم يفعل شيئا طوال هذه الايام الثلاثة . ما أسهل عليه أن يذل وأن يؤذى فتاة مسكينة عزلاء كل ذنبها أنها تحبه ! آه كم قاسيت من آلام في هذه الايام الاخيرة ! يا رب يا رب!

يا رب .. لا أريد أن أتذكر أنني جئت اليه وأقبلت عليه وأذللت نفسي أمامه وتضرعت باكية أسأله قليلا من حب ... وماذا بعد ؟

قالت ذلك ثم أردفت وهي تنظر اليّ وقد سطعت عيناها السوداوان :

ـ ولكن اسمع ! ما ينبغي أن يكون الامر هكذا ! ذلك غير طبيعي ! لا بد أن أحدنا قد أخطأ ... لعله لم يتلق الرسالة ... لعله يجهل كل شيء حتى الآن ... ما رأيك ؟ مستحيل أن يكون الامر غير ذلك ! اشرح لي ، أرجوك ... أنا لا أستطيع أن أفهم سلوكا يبلغ هذا المبلغ من القسوة ... هل يعقل أن لا يكتب لي كلمة واحدة ؟ فأين الشفقة بالبشر اذن ؟ أيكون أحد قد قال له سوءا في حقي ؟ (كذلك صاحت) ما رأيك ؟

ـ ناستنكا ! سأذهب اليه غدا موفداً منك .

ـ ثم ماذا ؟

ـ سأسأله أن يقول لي كل شيء ... وأحكي له ...

ـ ثم ماذا ؟ .. ثم ماذا ؟

ـ اكتبي له رسالة أخرى ... لا تقولي لا . لا ترفضي . سوف أجبره على احترامك يا ناستنكا . وسوف نعلم كل شيء .. واذا ..

ـ لا يا صديقي ، لا ! كفى ! لن أكتب له كلمة واحدة ... لن أكتب له سطرا واحدا ... كفى ! انني لا أعرفه ... أصبحت لا أحبه .. سوف أنساه ... و

لم تتم جملتها .

قلت لها وأنا أجلسها على المقعد :

ـ هدئي نفسك ، هدئي نفسك ، اجلسي هنا .

ـ أنا هادئة . كفى ! لا ضير ... هى دموع ثم تجف ... أتظن أننى سأنتحر ؟ أتحسب أننى سوف أرمى نفسى فى الماء ؟

كان قلبى طافحا . أردت أن أتكلم ، ولكننى لم أقو على قول كلمة واحدة .

وتابعت تقول وهى تتناول يدى :

ـ اسمع ! لو كنتَ فى مكانه أكنت تتصرف تصرفه ؟ أكنت تنبذ الفتاة التى جاءت اليك من تلقاء نفسها ؟ أكنت تنصب احتقارك على قلبها الضعيف الغبى ؟ أما كنت تحمى هذه المرأة ؟ أما كنت تتذكر أنها وحيدة ليس لها من يرشدها ويسدد خطاها ، ولا هى قادرة على مجاهدة حبها لك ؟ وليس لها من ذنب ... ليس لها من ذنب ... ولم تصنع شيئا يمكن أن ... آه ! يا رب ! يا رب !

صحت أخيرا أقول وقد أصبحت عاجزا عن السيطرة على انفعالى :

ـ ناستنكا ! انك تمزقين نفسى ! انك تحطمين قلبى ! انك تقتليننى يا ناستنكا ! أصبحت لا أطيق أن أصمت ، ولا بد لى أن أقول أخيرا كل ما يخنقنى هنا فى قلبى ...

وكنت قد نهضت عن مكانى فتناولت يدى ونظـرت الىّ مدهوشـة وسألتنى :

ـ ما بك ؟

قلت بصوت حاسم :

ـ اسمعينى يا ناستنكا ! ان كل ما سأقوله لك الآن سـخيف غبى لا سبيل الى تحقيقه . أنا أعلم أن هذا لا يمكن أن يقع ، ولكننى لاأستطيع

أن أصمت فباسم آلامك وما تقاسين من ألوان العذاب ، أضرع اليك أن تغفرى لى ..

سألتنى وقد انقطعت عن البكاء والتمع فى عينيها الاستطلاع :

ـ ما الذى تريد أن تقوله لى ؟

ـ هو أمر لا يتحقق ... ولكننى أحبك ... هأنذا قد قلت كل شىء (وحركت يدى باشارة معبرة) فهل عليك بعد الآن أن تبوحى لى بشىء ، أن تفضى الى بسر من أسرارك ، وأن تصغى الى ما سأقوله لك .

قاطعتنى تقول :

ـ لم لا ؟ أنا أعرف منذ زمان أنك تحبنى ، ولكن كان يخيل الىّ أنك تحبنى هكذا .. حبا بسيطا .. آه يا رب ! يا رب !

ـ كان الامر بسيطا فى البداية . أما الآن فأنا أشبه ناستنكا حين صعدت الى صديقها حاملةً صرتها ، بل شأنى أسوأ الآن من شأن ناستنكا . فصاحبك لم يكن يحب أحدا حينذاك ، أما أنت فتحبين .

ـ أصبحت لا أفهمك البتة . فيم هذه الكلمات ؟ هذه أقوال لا داعى اليها . ولماذا تقولها على هذا النحو المباغت ؟ يا رب ! ما هذه الحماقات التى أنطق بها ! ... ولكنك ...

اضطربت ناستنكا كل الاضطراب واحمرت احمرارا شديدا وخفضت عينيها .

ـ ولكن ما حيلتى يا ناستنكا ؟ أنا مذنب .. لقد أسأت استعمال الثقة التى محضتنى اياها ... لا بل لست أنا بالمذنب ... اننى أحس بذلك .

فلبى يقول انى على حق • أنا لا يمكن أن أسيء اليك فى سيء • كنت صديقك وما زلت • ألم أخن لك عهدا • انظرى يا ناستنكا : اننى أبكى أيضا • فلتنهمر دموعي • انها لا تؤذى أحدا • انها ستجف يا ناستنكا •

فالت وهى تدفعنى الى المقعد :

ـ اجلس •• اجلس •• آه ! يا رب ••

ـ لا يا ناستنكا • لن أجلس • ما ينبغى لى أن أبقى هنا • ولن تريني بعد الآن • سأقول لك كل شيء ثم أنصرف • لو فد استطعت أن أسيطر على نفسى لما عرفت يوما أننى أحبك ، ولكنمت عنك سرى ، ولما عذبتك الان بأنانيتى • كنت أنت البادئه بالكلام ، فأنت المدنبة اذن ، ولا يمكنك أن تصدينى •••

قالت البنية المسكينة وهى تخفى اضطرابها ما وسعها ذلك :

ـ ولكننى لا أصدك ، لا •• لا ••

ـ أنت لا تطردينني • كلا • ولكننى كنت أود أن أهرب من تلقاء نفسى • على أننى سوف أنصرف بعد أن أقول لك كل شيء • اننى لم أستطع أن أحتمل رؤيه دموعك منذ برهه ، وأن أطيق هذا اليأس الذى هويت اليه حين شعرت أنك محتقرة وحين أحسست أن حبك منبوذ • لقد شب فى قلبى حب كبير يا ناستنكا ، حب كبير جدا لك ، وآلمنى أن لا أستطيع شيئا • آه من هذا الحب ! ••• وتمزق قلبى ولم أطق أن أسكت ، فكان لا بد أن أتكلم ياناستنكا •

ـ نعم •• نعم •• تكلم •• تكلم •• أرجوك أن تتكلم • قد يبدو لك هذا الرجاء غريبا •• ولكن تكلم وسأشرح لك بعدئذ كل شيء •

قالت ذلك بلهجه لا أملك أن اصفها :

ـ انك تشفقين عليّ يا ناستنكا • ان شفقتك وحدها هي التي تتكلم الآن يا ناستنكا • ما وقع فقد وقع • ولا عودة الى الماضي ! هانت ذي تعرفين الان كل شيء • ولكن اصغي الي ايضا • حين كنت تبكين كنت اقدّر ـ ولكن دعيني اعبّر عن فكرتي ـ كنت أقدر انك •• كنت أحسب على نحو من الانحاء أنك أصبحت لاتحبينه ، وعندئذ (وأنا منذ يومين اثنين لا افكر الا في هذا) كان يمكن ان أفعل كل شيء في سبيل ان تحبيني • فلقد قلت انت نفسك يا ناستنكا انك تحبينني يا ناستنكا ! هأنذا قد أنهيت كلامي ، ولم يبق علي الا ان اقول ما الذي سيحدث اذا احببتني فعلا • ذلك كل ما بقي عليّ أن أقوله ولا شيء سواه • فاستمعي اليّ اذن يا صديقتي الصغيرة ـ وأنت صديقتي على كل حال : أنا رجل فقير بسيط لا قيمة له (وليس الأمر أمرَ هذا على كل حال ، ولكنني لا أستطيع أن أخرس خجلي) غير أن في وسعي ، لو قد أحببتني ، أن أحبك حباً يبلغ من القوة أن هذا الحب ما كان ليبدو لك شاقاً متعباً ، حتى ولو ظللت تفكرين في الآخر • كل ما هنالك أنك كنت ستشعرين في كل لحظة بوجود قلب معترف بالجميل ممتلىء حرارة يخفق الى جانب قلبك • آه يا ناستنكا ! آه ياناستنكا ! ماذا صنعت بي ؟

قالت ناستنكا وهي تنهض :

ـ لا تبك ! •• لا أريد أن أرى دموعك •••

ثم أضافت تقول وهي تجفف دموعها بمنديلها :

ـ تعال • تعال معي •• سأقول لك كلاما آخر •• لقد هجرني •• لقد نسيني •• ورغم أنني ما زلت أحبه فانني لا أستطيع أن أخفي ذلك •

قل لى : لو أحببتك ... آه يا صديقى ، يا صديقى المسكين ! ما أشد ما آذيتك فى ذلك اليوم حين عبثت بعاطفتك وهنأتك على أنك لم تتوله بحبى ! يا رب ! كيف أمكن أن لا أتنبأ بهـذا ؟ ... والآن قررت أن أعترف لك بكل شيء ..

ـ اسمعى ياناستنكا . سأنصرف . اننى أعذبك . هـذا ضميرك يتألم منذ الآن من ألمك لم تفهمى حبى . اننى لا أريد أن أزيد حزنك حزنا ... لا ، أنا المذنب يا ناستنكا ، الى اللقاء .

ـ انتظر ... اسمع ... هل تستطيع أن تنتظر ؟

ـ أنتظر ماذا ؟

ـ اننى أحبه ، ولكن هذا الحب سينقضى ، سيزول ، بل انه ينقضى منذ الآن ... أنا أحس ذلك ... ومن يدرى ؟ ... فلعل هذا الحب سينتهى فى هذا اليوم نفسه ، لأننى أكرهه ما دام قد احتقـرنى . أما أنت فقد بكيت هنا معى . ولو كنت فى مكانه لمـا نبذتنى ، لأنك تحبنى حبا صادقا ، ولا كذلك هو ... فانه لا يحبنى ... الخلاصة ... اننى أحبك ... نعم أحبك كما تحبنى ... سبق أن قلت لك ذلك ... أنت تعلم هذا ... أنت خير منه ... أنت أنبل منه .. فانه هو ..

بلغ انفعال البنية المسكينة أنها لم تسـتطع أن تتابع كلامها ، فألقت برأسها على كتفى ، وأجهشت باكية . واسيتها ، حاولت أن أهدئها ، ولكن محاولاتى لم تنفع . كانت ما تزال تضغط يدى ، وتقـول من خـلال النشيج : انتظر .. انتظر .. لقد انتهى الأمر . لايذهبن بك الظن الى أن دموعى ناشئة عن ... لا ... فما هى الا من الضعف ... انتظر لقـد انتهى كل شيء ... وهدأت أخيراً ، وجففت دموعها وتابعنا طريقنـا ،

وأردت أن أكلمها ، ولكنها رجتني أن أصمت لحظة أخرى . صمتنا ، فما هي الا برهة ، حتى بذلت جهدا وأخذت تتكلم . قالت بصوت ضعيف مرتعش ، ولكنه صوت يترجع فيه شيء طعن قلبي وأحدث في نفسي ألماً لذيذاً :

ـ اسمع ! لا تحسب أنني خفيفة القلب متقلبة العاطفـــة ! فأنا لا أستطيع أن أنسى بمثل هذه السرعة ، وأن أخون بمثل هذه السهولة .. لقد أحببته سنةً بكاملها .. ويميناً ما خنت عهده مرة ولو بالخيال ! وقد احتقر هو هذه العاطفة فله ما يشاء ، ولكنه جرحني وأذلّ قلبي فأصبحت لا أحبه .. لأنني لا أستطيع أن أرتبط الا برجل نبيل ، برجل يفهمني ، برجل شريف . هـكذا خُلقت . انه غـير جدير بي ، وما وقع فهـــو خير . فلعل آمالي كانت ستخيب حين أعرفه على حقيقته ... ولعل حبي لم يكن الا خطأ من أخطاء الحواس ووهما من أوهام الخيال . وأغلب ظني أن اسراف جدتي في مراقبتي ومحاصرتي كان هو السبب الوحيـد الذي حملني على أن آخذ هذه العاطفة مأخذ الجد . ولعل واجبي كان يقضي عليّ أن أحب رجلا آخر ، رجلا آخر يشفق علي ... وأريد أن أقول لك اذا كنت تشاء رغم حبي لذلك الرجل (حبي الماضي) ... اذا كنت تعتقد أن عاطفتك تبلغ من القوة أنها تستطيع أن تنسيني الآخر ، اذا كنت لا تريد أن تتركني لمصيري محرومةً من الأمل محرومةً من العزاء ... اذا كنت تريد أن تحبني دائماً كما تحبني الآن ... فأنا أقسم لك أن امتناني ، أن حبي ، سيكون جديراً بحبك ... هل ترفض يدي ؟

فما ان سمعت هذا الكلام ، حتى صحت أقول والنشيج يهزني هزاً قوياً :

ـ ناستنكا ! ناستنكا ! آه يا ناستنكا !

قالت :

ـ كفى ! كفى ! لقــد قلت كل شيء . أليس كذلك ؟ أنت الآن سعيد ... اذن فاعلم أنني سعيدة أيضا ... ولا داعي الى كلمة واحــدة أخرى . اشفق على ... تكلم فى شيء آخر ... أرجوك .

ـ نعم يا ناستنكا ، نعم ... أنا سعيد ... هيَّا هيَّا ... فلنتكلم في شيء آخر ... فلنسرع الى الكلام في شيء آخر ... أنا مستعد ...

ولكننا لم نجد أى موضوع آخر يدور عليه الحديث . كنا نضحك ونبكى ونقول كلاما لا تسلسل فيه ، نسير تارةً على الرصيف ، ثم نعود أدراجنا مرة أخرى نجتاز الشارع ، ثم نتوقف ، ثم نرجع الى النهر من جديد ، كالاطفال ...

قلت :

ـ أنا أعيش الآن وحيداً يا ناستنكا ! أما غدا ... أنت تعلمين أنني فقير .. وأن مواردى كلها تقتصر على الفٍ ومائتى روبل في السنة ... ولكن لا قيمة لهذا ..

ـ حتماً ، ولجدتى معاش ... فلن نكون في عسر قط .. سنضم جدتى الينا .

ـ طبعاً سنضم الجدة الينا ... وعندى ماتريونا ...

ـ نعم ونحن عندنا تكلا .

ـ ان ماتريونا فتاة طيبة ... ولكن فيها عيباً : انها يعوزها الخيال ، ليس لها خيال البتة . هل تفهمين ؟ ولكن لا ضير في هذا .

ـ طبعاً . سنكونان كلتاهما معنا ... ولكن تعال الينا منذ الغد .

ـ أجيء اليكم ؟ أتمنى ذلك •• ولكن •••

ـ بل تعال ! تستأجر عندنا غرفة ••• ان لدينا شقة صغيرة مؤثثة فوق •• كانت تسكنها عجوز قصـيرة سافرت منذ قليل • وأنا أعلم أن جدتي تؤثر أن يكون المستأجر الجديد فتى • وحـــين سألتها لماذا تؤثر ذلك أجابتني بقولها : « لقد طعنت في السن يا ناستنكا ، ودلفت الى الشيخوخة ، ولكن لا يذهبنْ بك الظن أنني أريد أن أزوجك منــذ الآن ••• » • وأدركت أنا •••

ـ ناستنكا ! •••

وانفجرنا نضحك كلانا •

ـ هيا ! كفى ! أين تسكن أنت ؟ لقد نسيت •

ـ هناك ، قربَ جسر « ••• سكوى » في منزل بارانيكوف •

ـ أهو منزل كبير ؟

ـ نعم هو منزل كبير •

ـ ها ! •• نعم •• أنا أعرف •• انه منزل جميل •• ولكن اتركه وتعال الينا بأقصى سرعة •

ـ غداً يا ناستنكا غداً • انني ما زلت مديناً لصاحبة البيت ببعض المال •• ولكن لا قيمة لهذا •• سوف اتقاضى راتبي قريباً •

ـ اسمع ، لعلني أستطيع أن أعطي دروساً ؟ أتلقى دروساً في أول الأمر ، ثم أعطي دروساً بعد ذلك •

ـ عظيم ••• وسأنال أنا مكافأة في القريب يا ناستنكا •••

ـ اذن تعال غداً وستكون جارى •

ـ نعم وسنذهب الى المسرح معاً ، نسمع « حلاق اشبيلية » ••• سيمثلونها قريباً •••

قالت ضاحكة :

ـ فكرة حسنة ، أو قل سنذهب الى المسرح نسمع شيئاً آخر •••

ـ نعم نسمع شيئاً آخر ••• انك على حق ••• لم يخطر ببالى هذا ••• الافضل أن نسمع شيئاً آخر •••

كنا ونحن نتكلم هكذا نسير كلانا سيرَنا فى ضباب ، لا نفهم ماذا يجرى لنا • اجتزنا أحياء مجهولة ، وظللنا نمعن فى السير ثم نمعن فى السير ، نضحك ذلك الضحك نفسه ، ونذرف تلك الدموع نفسها • وأرادت ناستنكا فجأة أن تعود الى البيت ، فرافقتها ، ولكننا وجدنا نفسينا بعد ربع ساعة على رصيف النهر قرب المقعد ••• كانت تتنهد ، وكانت تنبجس من عينيها دموع • شعرت بوجل ، وتجمد قلبى ، ولكنها سرعان ما ضغطت يدى بيدها ، وجرتنى من جديد لنمشى ، لنثرثر ، لنتكلم ••

قالت :

ـ آن لنا أن ننصرف ••• لا شك أننا تأخرنا كثيراً ••• كفانا صبيانية •

ـ نعم يا ناستنكا ! ولكننى لن أستطيع أن أنام ، ولن أعود الى بيتى ••

ـ وأنا أيضاً لن أستطيع أن أنام • ليس بى نعاس ولكن رافقنى •

ـ طبعا •

ـ ذلك أنه لا بد للمرء أن يعود الى بيته •

ـ حتماً •

ـ أتقطع لى عهداً بذلك ؟ ••• ان على المرء أن يعود الى بيته عاجلا أو آجلا ••

قلت ضاحكا :

ـ لك عليّ هذا العهد •

ـ اذن هيا

وسرنا • قلت :

ـ انظرى الى السماء يا ناستنكا ! سيكون الجو فى الغد جميلا •• ما أروع هذا القمر ! ما أروع هـــذه السماء الزرقاء ! انظرى الى تلك الغمامة الصفراء ! انها سوف تغشى القمر ، ولكن لا ، انها تمر قريبـــةً منه • انظرى ! لماذا لا تنظرين ••

لم تنظر ناستنكا الى الغمامة بل لبثت صـــامتة ، وكأنها مسمرة فى مكانها • وما هى الا لحظة قصيرة حتى شدّت نفسها اليّ وجلةً ، وكانت يدها ترتعش فى يدى • نظرت اليها ••• ازدادت التصاقاً بى •

وفى تلك اللحظة مرّ شاب قربنا ، وتوقف فجأة ، وحدّق الينا ، وأقبل نحونا بضع خطوات أخرى • ارتجف قلبى ••• قلت أسأل ناستنكا بصوت خافت :

ـ من هذا يا ناستنكا ؟

فتمتمت تقول وهى تزداد اقتراباً منى :

ـ انه هو •••

أوشكت أن أسقط على الأرض •••

صاح صوت خلفنا :

ـ ناستنكا ! ناستنكا ! أهذا أنت ؟

وفى هذه اللحظة نفسها جاء الشاب الينا •••

رباه ! يا لها من صيحة ! ماأشد ماارتجفت ناستنكا ! وانتزعت ناستنكا نفسها من بين ذراعىّ وهرعت اليه ••• نظرتُ اليها مصعوقاً ، وماكادت تمد يدها اليه ، ثم تعانقه ، حتى اندفعت نحوى سريعةً كالريح ، كالبرق ، ثم اذا هى ، قبل أن أثوب الى نفسى ، تمسك رأسى بيديها وتقبلنى قبلةً قوية • ودون أن تقول كلمة واحدة ، عادت الى الآخر ، فأمسكت ذراعه وسارت معه •••

لبثت أتابعهما بنظرى طويلا ••• وما هى الا برهة حتى أصبحت لا أراهما •

الصباح

انتهت لياليّ في ذلك الصباح . كان النهار حزيناً .. المطر يتساقط ، ويلطم زجاج نافذتي كئيباً كآبة الحداد . الظلام يخيم في غرفتي ، وأنا أشكو من صداع في رأسي ، وأعاني دواراً .

قالت لي ماتريونا :

ــ رسالة لك يا مولاى جاء بها ساعي البريد .

ــ رسالة ؟ ممَّن ؟

كذلك صحت وأنا أثب من على كرسيي .

ــ لا أعرف يا مولاى . أنظر أنت ، فترى بنفسك .

ففضضت الرسالة ، انها منها :

« اصفح عني ! أتوسل اليك راكعةً أن تصفح عني ! لقــد خدعتك

وكنت مخدوعة عن نفسي . كان ذلك حلماً ... لشد ما تألمت من أجلك اليوم ! فاغفر لى ، اغفر لى ! ...

« لا تتهمنى ! لقد قلتُ لك اننى سأحبك . وانى لأحبك الآن حقاً. بل اننى أحبك مزيداً من الحب . رباه ! ليتنى أستطيع أن أحبكما كليكما ! لماذا لست أنت هو ؟ لماذا ليس هو أنت ؟

شقت هـــذه العبارة رأسى . « هـــذه أقوالك أنت يا ناســتنكا تعاودنى ... » .

«الله يعلم ماذا كنت أحب أن أفعل في سبيلك ! اننى أحس كم تتألم. لقد أذللتُ عاطفتك ، ولكنك لا تجهل أن المحب ينسى الاساءة . وأنت تحب .

« وانى لأشعر نحو حبك هذا بأعمق الامتنان ، وسيظل منقـوشاً فى ذاكرتى حلماً من أجمل الاحلام ، يتذكره المرء بعد اليقظه زمناً طويلا. سأذكر دائماً تلك اللحظة التى فتحت لى فيها قلبك ، كما يفتح الأخ لأخته قلبه ، ثم قبلت قلبى الجريح لتحميه وتداويه وتشفيه ... فاذا غفرت لى، فان ذكراك ستعيش فى نفسى تجمّلها عاطفة الامتنان الأبدى هذه التى لن تزول يوماً .. سأبقى وفية لهذه العاطفة . لا أخون قلبى قـط . فانه ثابت لا يتغير . وأنت تعلم بأية سرعة رجع هـذا القلب الى ذلك الذى امتلكه الى الأبد .

« سوف نلتقى فى المستقبل . ستجيء الينا ، ولن تهجـرنا . ستظل صديقنا دائماً . ستظل أخى ، فاذا رأيتنى ، فسوف تمد الىّ يدك ، أليس كذلك ؟ نعم سوف تناولنى يدك لأنك قد غفرت لى ، ولست أشـك فى ذلك . انك تحبنى كما كنت تحبنى قبل الآن . آه ! أحبنى ! ولاتتركنى!

لأننى ما زلت أحبك كثيرا فى هذه اللحظة وسأكون جديرة بعاطفتك • سأكون خليفة بها يا صديقى العزيز • لقد حددنا الاسبوع المقبل موعدا لزواجنا • لقد عاد الىّ ممتلئا حبا ولم ينسنى قط •••

« لا تزعل اذا أنا حدثتك عنه ، سنجيء اليك كلانا وسوف تحبه ••

« اغفر لى وتذكرنى وأحبّ عزيزتك :

ناستنكا

قرأت الرسالة مرارا وانبجست من عينى دموع • وأفلتت الرسالة من يدى أخيراً فأغمضت عينى •

ـ مولاى ! مولاى !

كذلك قالت ماتريونا •

فسألتها :

ـ ماذا يا عجوز ؟

قالت :

ـ انظر ! لقد نزعت نسيج العنكبوت • تستطيع الآن أن تتزوج ، تستطيع أن تدعو أصدقاءك ، فالبيت نظيف •

نظرتُ الى ماتريونا • انها ما تزال عجوزاً قصيرة ، شابة ، نشيطة • ولكن نظرتها بدت لى ميتة على حين فجأة ، ورأيت فى جبينها غضونا ••• وتراءت لى الغرفة كلها عجوزا هرمة مثلها ••• الجدران والارض حائلة ألوانها • أنسجة العنكبوت تكاثرت • ونظرتُ من خلال النافذة فبدا لى المنزل المقابل (لا أدرى لماذا) قد دلف الى الشيخوخة وحال لونه هو

أيضاً ، وتقشرت أعمدته واسودّت أطنافه ، وتشققت ، وصارت جدرانه ضاربة الى احمرار ، بعد أن كانت صفراء قاتمة ...

فاما أن شعاعاً من شمس كان قد شق الغيوم لحظه ثم عاد يختبىء تحت السحب المثقلة بالمطر ، فاذا كل شيء يرتد مظلماً قاتما في نظري . واما أنني أدركتُ في طرفة عين آفاق مستقبلي الحزين فرأيت نفسي على نحو ما أنا الآن بعد انقضاء خمسة عشر عاماً على ذلك العهد ، وقد شخت في هذه الغرفة نفسها ، على هذه العزلة نفسها ، مع ماتريونا هذه نفسها التي لم تجعلها هذه السنون كلها أكثر رهافة .

وقد قلت لنفسي يومئذ : كفاني يا ناستنكا ! لا أريد أن أنكأ جرحي بالذكرى . لا لن أحمل غيوماً قاتمة الى سعادتك المضيئة الساجية ، لن أوقظ في قلبك الحسرات بملامات مرة ، لا ولن أثير فيه ظلاً خفياً من عذاب الضمير . لن أضطره أن يخفق حزينا في لحظات سعادتك وهناءتك .. لا لن أجعد الزهرات الحلوة التي ستضيفينها الى ضفائرك السود يوم تجيئين معه الى الهيكل للزفاف . لا لن أفعل هذا أبداً ! ألا فلتظل سماؤك مضيئة . ألا فلتظل بسمتك مشرقة مطمئنة ، وبوركت يا من وهبت لحظة من هناءة وسعادة لقلبي الممتن الذي يعيش في وحشة العزلة !

« لحظة بكاملها من سعادة ... رباه هل تحتاج حياة انسان الى أكثر من هذا ؟ » .

بروخارتشين

١٨٤٦

« بروخارتشـــين » * : كتـــب دوستويفسكي هــذه القصــة ســنة ١٨٤٦ ، ونشرت في مجلة « حوليات الوطن » في شـــهر تشرين الاول (أكتوبر) ١٨٤٦ ، مج ٤٨ ٠

كان سيميون ايفانوفتش بروخارتشين يشغل من مسكن أوستينيا فيدوروفنا ركناً هو أحلك أركانه ظلمةً وأكثرها ضعة . انه رجـــل بلغ سن الكهولة ، عاقل حكيم ، لا يتعاطى شرب الخمـر ، وهـــو موظف صغير ، يتقاضى مرتباً ينفق وكفاءاته . وكانت أوستينيا فيدوروفنا ترى أنه من غير اللائق أن تطالبه بأكثر من خمس روبلات فى الشـــهر أجراً للركن الذى يشغله من مسكنها . كان بعض الناس لا يرون فى رحابة صدرها هذه الا نتيجة حساب معيّن مقصود. تُرى هل كان ذلك رغبةً منها فى السخر من النمامين الثالبين ؟ المهم أنها كانت تعامل السيد بروخارتشين معاملة انسان أثير عندها ، عزيز عليها ، ولكن فيما لا يجانب الخير ، ولا يجافى الشرف . يجب أن نذكر أن أوستينيا فيدوروفنا ، وهى من أجدر النساء بالاحترام وأميلهن الى البدانة ، عدا ميلها القوى الى أكل اللحم وشرب القهوة ، وعدا نفورها الشديد من أيام الصيام ، كان يسكن فى بيتها مستأجرون أُخَر . ولكن هؤلاء كانوا يدفعون ضعفى ما يدفعه سيميون ايفانوفتش . كان هؤلاء الطائشون المعربدون ، هؤلاء « العابثون

الأشرار » قد سقط اعتبارهم فى نظر صاحبه البيت من سخرهم بها واستخفافهم بوضعها كأرملة ليس لها من يحميها أو يدافع عنها • ولولا أنهم كانوا يدفعون أجور حجراتهم فى مواعيدها لما ارتضت أن تؤويهم ، بل لما ارتضت أن تراهم •

ولقد أصبح سيميون ايفانوفتش عزيزا عليها أثيرا عندها منذ اليوم الذى نقل فيه الى مقبره فولكوفو جثمان" كان أثناء حياته يحب الشراب حبا عظيما • ان هذا الشخص الذى أحيل على التقاعد ــ ولا أقول طرد من وظيفته طردا ، وذلك من قبيل الأدب ــ هذا الشخص ، رغم عينه المفقوءة وساقه المقطوعة اللتين فقدهما فى « حادثة شهامة وشجاعة » على ما كان يقول ، هذا الشخص كان قد حظى بجميع النعم التى كانت تستطيع أوستينيا فيدوروفنا أن تُنعم بها على أحد من الناس ولا شك فى أنه كان يمكن أن يظل عالة عليها زمنا طويلا لولا أنه مات على حين فجأة سكيرا بلغ الدرك الأسفل من الادمان ، على أثر سكرة بلغت من الاسراف أنه لم يصح منها • حدث ذلك فى بيسكى يومَ لم يكن عند أوستينيا فيدوروفنا الا ثلاثة مستأجرين تركها اثنان منهم بعد انتقال المسكن وتوسعه فلم يبق لها الا السيد بروخارتشين وحده •

لا أدرى أيجب أن نضع اللوم على عيوب السيد بروخارتشين التى لا شك فيها أم يجب أن نضعه على نقائص جيرانه : المهم أن العلاقات بينه وبينهم لم تكن على ما يرام منذ البداية • يجب أن نذكر أن المستأجرين الجدد لدى أوستينيا فيدوروفنا كانوا يعيشون كما يعيش اخوة حقا • كان بعضهم موظفين فى مكاتب واحدة ؛ وكانوا يتناوبون الخسارة بالمقامرة بعضهم مع بعض فى مطلع كل شهر ؛ وكانوا جميعا يحبون أن ينعموا بمباهج الحياه جماعة • وكان يحلو لهم فى بعض الأحيان أن يتحدثوا

في سئون رفيعة أيضا ، رغم أن الأمور لا تجرى عنـدئذ بدون مشاحنات ومشاجرات ، ولكن الوئام ما يلبث أن يسود ، لأن الأحكام السابقة لاوجود لها في هذه الجمهورية •

وابرز هؤلاء السادة مارك ايفانوفتش ، وهو رجل عافل متبحر في الآداب ، وآوبلافانييف وهو أحد المستاجرين ، وبريبولوفينكو وهو رجل يفيض شهامة وبساطه • وهناك ايضا زينوبى بروكوفتش الذى كان هدفه الوحيد أن يصل الى المجتمع الرافى ، واوكيبانوف الكاتب فى المحكمـة الذى أوشك فى لحظة من اللحظات أن يحظى بآلاء أوستينيا فيدوروفنا • وهناك شخص اخر هو كاتب في المحكمة أيضا يقال له سودبين ، وهنـاك البورجوازى كانتاريوف ، وآخرون • ولكن يظهر أن سيميون ايفانوفتش لم يكن له بينهم صديق •

لا شك في أنه ما من أحد كان يريد له شراً ، لا سـيما وأن كل واحد منهم قد أنصفه منذ الأيام الأولى ، فعدَّه انسانا طيب القلب دمث الخلق ، لا يألف الناس كثيرا ، ولكنه امرؤ يوثق به ويُركن اليه• صحيح أن له نقائصه وعيوبه ، ولكنهم كانوا يقدرون ان العيب الوحيد الذى قد يعاب عليه أنه امرؤ يعوزه الخيال تماما •

وعدا هذا العيب ، كان السيد بروخارتشين لا ينعم بمظهر من شأنه أن يخلّف فيمن يراه أثرا حسنا ، وبالمظهر انمـا يحلو للمسـاخرين أن يتعلقـوا أكثر ما يحلو • ومع ذلك لم يسبب له مظهـره المنفّر هـــذا نتائج تعود عليه بالضر • والواقع أن مارك ايفانوفتش ، من حيث هو رجل عافل ، قد أخذ على عاتقه أن يدافع عن سيميون ايفانوفتش ، حتى لقـد جهر قائلا بأسلوب مزهر جميل ان بروخارتشين رجل ناضج السن جاد الطبع تجاوز زهرة العمر وعفى عليه عهد الشعر • وعلى هذا يمكن القول:

لئن لم تكن العلاقات بين سيميون ايفانوفتش ممتعة ، فان الذنب فى ذلك يقع عليه وحده .

ولقد ثبت الانباه أول الامر على بخله الشديد وشحه النادر . ذلك أمر سرعان ما اكتشفه فيه هؤلاء السادة وسجلوه له . كان مثلا لا يرضى بحال من الاحوال أن يعير أحدا غلاية الشاى التى يملكها ولو لحظة قصيرة ، وهذا أمر لا مسوّغ له ، لا سيما وأنه كان قلما يشرب الشاى ، فهو يستعيض عن الشاى بشراب طيب المذاق من أعشاب برية يختزن منها مئونة كبيرة دائما . وكان له الى ذلك طراز فى الطعام غريب جدا . فهو لا يسمح لنفسه يوما بتناول الوجبة التى تقدمها أوستينيا فيدوروفنا لسكان بيتها ؛ ذلك أن ثمن الوجبة خمسون كوبكا فكان سيميون ايفانوفتش لا يأكل الا بخمسه وعشرين كوبكا يطلب بها أجزاء من الوجبة : شيئا من خضار مع قطعة من فطير ، أو صحنا من اللحم ؛ ولكنه فى أكثر الأحيان لا يطلب خضارا ولا لحما ، بل يكتفى بالخبز مع بصل أو جبن أو بيض أو خيار مملح أو أى طعام آخر زهيد الثمن ، ولا يعزم أمره على العودة الى الوجبة التى سعرها نصف سعر الوجبة الكاملة الا حين يموت جوعا .

هنا يعترف كاتب قصة حياة هذا الرجل أنه ما كان له قط أن يسترسل فى سرد تفاصيل تافهة هذه التفاهة كلها فى الظاهر . تفاصيل تبلغ هذا المبلغ من الحقارة بل ومن الازعاج لقراء يفتنهم الأسلوب الراقى ، لولا أن هذه التفاصيل تؤلف السمة المميزة والصفة المسيطرة فى طبع بطلنا . ذلك أن السيد بروخارتشين لم يكن أبدا ، كما كان يحلو له أن يعلن ذلك ، فى عوز يضطره الى أن لا يطعم من جوع . فلئن كان يحرم نفسه هذا الحرمان كله بغير حياء ولا خجل ، غيرَ عابىء بما قد يقوله

القائلون من النمامين ، فانه كان يفعل ذلك ارضاء لبخله الذى يشبه أن يكون جنونا ، وكذلك من باب الافراط فى التبصر بالعواقب ، كما سنفهم ذلك مزيدا من الفهم فيما سيلى من سرد قصه حياته .

وكان يمكن أن نتحرج من املال قرائنا باستعراض جميع أهواء سيميون ايفانوفتش الغريبة استعراضا مفصلا ، وكان يمكن أن نعدل حتى عن وصف ثيابه مهما تبدُ لنا عجيبة مضحكة ، ولكن أوستينيانا فيدوروفنا أصرت اصرارا قاطعا على أن نذكر الامر التالى : ان سيميون ايفانوفتش لعله لم يعهد يوما بشىء الى الغسالة ، أو لعله على الأقل لم يفعل هذا الا نادرا جدا حتى ليمكن أن يجهل المرء هل كان يملك فى عداد أمواله المنقولة أى ملبس من الملابس الداخلية .

قالت صاحبة البيت :

ان العزيز جدا سيميون ايفانوفتش قد حلا له خلال عشرين سنة متتالية أن يراكم النتن فوق النتن فى الركن المخصص له ، دون أن يبدو عليه أنه خجلان من ذلك كثيرا ، وعدا انه طوال حياته على هذه الارض لم يهتم أى اهتمام بالأجربة أو المناديل أو غير ذلك من الزينات الباطلة ، فقد استطاعت أن ترى بعينى رأسها من خلال ثقب فى الحاجز العتيق ، أنه كان يتفق له أن لا يستطيع ستر عورة جسمه . ولم تأخذ هذه الشائعات بالانتشار الا بعد موت سيميون ايفانوفتش لأنه فى أثناء حياته ـ وعن هذا خاصة انما نشأ عدم تفاهمه مع المستأجرين الآخرين ـ لم يكن يطيق ، رغم علاقات الصداقة أن يسمح أحد لنفسه بأن يحشر أنفه فى « ركنه » قبل أن يحصل منه على اذن سابق بذلك . كان سيميون ايفانوفتش رجلا صعب المراس متجمعا على نفسه عنيدا لا يجدى فيه الكلام ولا تنفع معه الخطب الطويلة . كان لا يقبل النصائح أكثر مما يقبل السخريات ، وكان

يعرف كيف يسارع الى افحام كل من يخطر بباله أن يسدى اليه نصحا ، فهو يقول له : « اانت تزجى الى النصائح ايها الولد الطائش ؟ خير لمهرج من نوعك ان يعنى بشئون نفســه قبل ذلك • » • ولم يكن سيميون ايفانوفتش منكبرا ، وكان يحب ان يخاطب جميع الناس بصيغه المفرد ، وهو لا يطيق افشاء أسراره ، ولا يحتمل ، حين يعرف آحد شيئا عن اهوائه ، ان يساله عما يحتويه صندوقه الصغير ••• لقد كان لسيميون ايفانوفتش صندوق صغير يضعه تحت سريره ويحافظ عليه محافظته على بؤبؤ عينه ، رغم آن كل واحد يعرف حق المعرفة أن الصندوق لا يحتوى الا خرقا باليـة ، وزوجين أو ثلاثة أزواج من أحذية أصبح لا يمكن انتعالها ، وأنواعا شتى من ملابس عتيقة • كان يحرص على هذا الصندوق حرصا شديدا ، حتى لقد سُمع يعلن أنه سيشترى له قفلا جديدا من صنع ألمانى • ويوم قادت الحماقة زينوبى بروكوفتش الى ابداء رآى فظ قليل الأدب خال من الحشمة قائلا ان سميون ايفانوفتش لعـله يخفى مدخراته فى هذا الصندوق لورثته ، فقد اهتاج السيد بروخارتشين اهتياجا صعقت نتائجه الخارقة جمع الحضور •

فى أول الأمر لم يعرف السيد بروخارتشين كيف يعثر على تعبيرات مناسبة يدفع بها هذا الغمز السخيف المضحك • وانقضت لحظة طويلة لم يخرج خلالها من فمه غير كلام خال من أى معنى • واستطاع الحضور أخيرا ، بغير قليل من العناء ، أن يفهموا أن السيد سيميون ايفانوفتش يعيب على زينوبى بروكوفتش عملا قديما لكنه شائن قذر ، ثم هو يتنبأ لهذا الرجل الطائش بالاخفاق المحقق فى جميع ما يقوم به من محاولات للنفاذ الى المجتمع الراقى ، ويبشره فى الوقت نفسه بأن الخياط الذى يدين له زينوبى ببعض المال سيضربه فى القريب ضربا مبرحا لا ريب فيه ؛ ثم هو يصفه بأنه ليس الا صبيا :

ـ أنطمع فى أن تصبح ضابطا من سلاح الفرسان ؟ هلا أنعمت النظر اذن فى نفسك ؟ انك لن تصبح كذلك • وفوق هذا فان رؤساءك سيعرفون كيف يؤدبونك حين يطلعون على حكاياتك كلها • هل سمعت أيها الصبى الاحمق الطائش !

قال سيميون ايفانوفتش ذلك ثم بدا عليه أنه هدأ بعض الهدوء وتخفف من حنقه • ولكنه بعد خمس ساعات من صمت ، استأنف يعظ زينوبى بروكوفتش ، فذهل الحفل من ذلك ذهولا شديدا • ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففى المساء ، حين نظم مارك ايفانوفتش والساكن بريبولوفانيكو حفلة شاى دعوا اليها كاتب المحكمة أوكيانوف ، ترك سيميون ايفانوفتش سريره ، وجاء ينضم اليهم دافعا نصيبه من نفقات الحفلة خمسة عشر كوبكا أو عشرين • وكان واضحا أن هذه الحاجة الى الشاى ليست الا عذرا وتعلة ، ذلك أنه لم يلبث أن أخذ يشرح فى اسهاب أن الانسان الفقير لا يمكن أن يخطر بباله التوفير والادخار ، لأنه ليس الا انسانا فقيرا • وانتهز السيد بروخارتشين الفرصة ليعترف بفقره ، مضيفا الى ذلك أنه فكر أول امس فى اقتراض روبل من رجل وقح ، ولكنه صرف النظر عن ذلك الآن طبعا • ذلك أن مثل هذا الانسان الوقح ، أن مثل هذا الصبى الطائش ، لا بد أن يمضى متباهيا بذلك مدلا به • أما هو سيميون ايفانوفتش ، فانه يرسل فى كل شهر خمسة روبلات الى امرأة أخيه ، وأن امرأة أخيه هذه كان يمكن أن تموت جوعا لولا أنه يرسل اليها هذا المبلغ فى كل شهر ، ومع ذلك فلو ماتت لاستطاع أن يشترى لنفسه رداء جديدا منذ زمن طويل •••وظل سيميون ايفانوفتش يتكلم على هذا النحو مسهبا مطنبا ، وبلغ من تكرار الحديث عن فقره وعن امرأة أخيه وعن الخمسة روبلات أثناء كلامه أنه ارتبك آخر الامر ولم يسعه الا أن يصمت •

وبعد ثلاثه ايام ، بينما كان لا يخطر ببال أحد أن يناكده ، وبينما نسوا جميعا هده القضيه ، جاء يختم كلامه قائلا : ان زينوبى بروكوفتش، هذا الرجل الوفح ، الذى لم يكد ينتسب ا لىسلاح الفرسان ستبتر ساقه فى الحرب ، فلا يملك عندئذ الا أن يحل محل الساق المبتورة ساقا من خشب ، وانه سيرى يومئذ آتيا الى سيميون ايفانوفتش مستجديا كسرة خبز ، ولكن سيميون ايفانوفتش سيسعده كثيرا أن يرفض ضراعات « الصبى » دون أن يلقى عليه نظرة واحدة •

وطبيعى أن يستطرف الجمع هذا الامر كله وآن يتسلوا به ، وأن يقرروا دون مزيد من التأمل والتفكير أن يشنوا على سيميون ايفانوفتش هجوما حاسما • وكان السيد بروخارتشين فد قرر أن يختلط بالحفل ، فهو يبدو الآن حريصا على الاطلاع على كل شيء ، يلقى الأسئلة تلو الاسئله لغايه سريه لا يعرف أحد ما هى ، حتى أصبحت المنازعات تشب بينه وبينهم بلا مصاعب ولا مقدمات • ومن أجل أن يدخل سيميون ايفانوفتش فى الموضوع ، ارتأى أن يلجأ الى وسيلة مرهفة جدا عرفها قراؤنا من قبل ، فهو يترك سريره متى حان وقت شرب الشاى ، ويقترب من الجماعة كما يمكن أن يفعل ذلك انسان متواضع ذكى أنيس بشوش، فيدفع العشرين كوبكا المفروضة ، معلنا عن رغبته فى المشاركة فى هذه الحفلة الصغيرة ، فتأخذ هذه الجماعة الشابة تتواطأ فيما بينها بغمزات سريعة ، وتدير الحديث محتشما جادا وقورا فى أول الامر •

ثم ما يلبث واحد شجاع منهم أن يمضى ساردا ، على حين فجأة ، مجموعة من الأخبار مختلقة لا تصدق ، فهو يقول مثلا انه سمع صاحب السعادة يسر الى ديميد فاسيليفتش أن الموظفين المتزوجين خير من الموظفين العازبين ، وأنهم أجدر بالترفيع والترقية منهم ، لأن الرجال الهادئين العقلاء

حقا يكتسبون من ممارسه الحياة العائليه مزايا كثيرة ؛ ويضيف المتحدث الى ذلك قوله انه ينوى ، رغبة منه فى التميز على غيره وفى زيادة مرتبه ، أن يتزوج مرة أخرى امرأة يقال لها ففرونيا بروكوفييفنا ؛ أو انه لاحظ لدى بعض زملائه في كثير من الاحيان انهم يبلعون من جهلهم باداب المجتمع وباللباقه الاجتماعية ان قبولهم فى مجتمع الناس أمر مستحيل ؛ وان السلطات العليا قد قررت لذلك، تفاديا لهذا الوضع السيء ، أن يحسم من الرواتب مبلغ معين لانشاء قاعه رقص يمكن أن يتعلم فيها المرء رفعه الاوضاع ، وحسن الهندام ، وأدب المعاشرة ، واحترام الشيوخ ، وقوة الارادة ، وصلابة الخلق ، وطيبة القلب ، والشعور بالواجب ، والعرفان بالجميل ، وعددا آخر من المزايا الحميدة والخصال الجميله • أو يذكر فجاة ، فى مرات اخرى ، ان جميع الموظفين ، حتى اقدمهم ، سيخضعون قريبا لامتحان تعرف به درجة ثقافتهم * ، وان ذلك سينشأ عنه أن كثيرا من الحجب ستتمزق ، وان كثيرا من الموظفين سيطردون من وظائفهم • الخلاصة أن أنباء سخيفة كثيرة من هذا النوع كانت تذاع فى الجماعة بحضور صاحبنا • وكان الحضور جميعا يتظاهرون بتصديقها ، ويقبلون على الاصغاء اليها والاهتمام بها ، لانها تعنيهم ، ويشيرون الى عواقب مثل هذه الاجراءات بالنسبه الى بعض أفراد جماعتهم ؛ أو يصطنعون الحزن والأسى ، ويهزون رءوسهم كأنهم يستجدون النصح من كل جهة ويلتمسون أن يعرفوا ماذا يجب أن يفعلوا اذا وقعت مصيبة كهذه المصيبة•

والنتيجة معروفة طبعا : فحتى من كان أقل بساطة وأقل خوفا من السيد بروخارتشين يمكن أن تفقده هذه الأقاويل صوابه • ولقد ظهرت على بروخارتشين جميع العلائم التى تدل على أنه أخذ يفقد صوابه فعلا • انه انسان محدود العقل غير مهيأ لقبول أية فكرة جديدة عليه • ولا شك

أنه أخذ يقلب في رأسه كل نبا من هذه الانباء المثيرة ، باحثا عن الباعث عليه والدافع اليه ، حتى اختلطت الامور في عقله ، وحتى اضطرب ذهنه أشد الاضطراب في هذه المتاهه المتشابكة من الخواطر العجيبة ، لا يعرف كيف يوائم بينها وبين طريقته في التفكير ، ولا يعرف كيف يخرج منها الى شيء من استقرار النفس وهـدوء البال ••• وانكشفت في سيميون ايفانوفتش صفات عجيبه لم تخطـر ببال أحد ولا كانت في الحسبان ••• وسرت في حقه اشاعات ما انفكت تتضخم وتتضـخم ، حتى وصـلت الى الديوان • وتفاقم أثر ذلك من تبدلات ظهرت في هيئة بطلنا التي لم تتغير منذ سنين منلاحقة كثيرة : فوجهه الآن أصبح قلقا ، ونظرته أصبحت ريَّابة وجلة ، وأخذ يرتجف ويرتعد ، وصار يصغي الى كل نبأ كاذب جديد بانتباه شديد وعقل محموم ؛ واستبد به هوى استطلاع الاخبار واستجلاء الحقائق ، وبلغ هذا الهوس عنده أنه تجرأ فمضى الى ديميـد فاسيليفتش مرتين يسأله عن صحة هذه الأنباء • واذا كنا نسكت عن العواقب التي أدت اليها مساعي سيميون ايفانوفتش هذه ، فما ذلك الا من قبيــل الاحترام لذكراه •

وخلص الناس من ذلك في أول الامر الى أن الرجل انسان يـكره معاشرة البشر ويهمل المواضعات الاجتماعية ، ورأوا فيـه شخصا غريب الأطوار • وكانوا في ذلك مخطئين ، فقد فاجأوه مرارا على حـالة غريبة من نسيان نفسه ، والذهول عن ذاته ، فاغرا فاه ، رافعا قلمه في الهواء ، كأنه متجمد الجسم ، فهو أقرب الى شبح انسان عاقل منه الى هذا الشخص ذاته • وقد حدث غير مرة أن رآه زميل ذاهل من زملائه على هذه الحال الغريبة من جمود النظرة وشرود اللب ، فشده الزميل من ذلك وأخذ يرتعش خوفا ، وبلغ من جـزعه أن سقطت على تقـريره فطيره كانت في يده ، أو كتب في هذا التقرير كلمة ليست في محلها • وصار سـلوك

صاحبنا يذهل من يراه من عملاء الناس ، حتى لم يبق لدى احد شك في ان سيميون ايفانوفتش قد اختل عقله ؛ بل لقد سرت في ذات يوم اشاعه في الديوان تقول ان السيد بروخارتشين قد روع ديميد فاسيليفتش نفسه ، وجمده في مكانه فلم يستطع الرجل ان يرجع القهقرى ، وذلك حين صادف السيد بروخارتشين في احد الممرات على هذا الوضع المقلق المخيف ... فلما وصل هذا كله الى سمع سيميون ايفانوفتش ، نهض عن مكانه ببطء ، وسار في طريقه بين الموائد والكراسي محاذرا ، وتناول معطفه ، وغاب عن الديوان زمنا . ترى هل خاف ؟ هل دفعه الى ذلك دافع آخر ؟ اننا نجهل ذلك ، ولكن ما حدث هو انهم لم يستطيعوا ، خلال مدة طويلة ، أن يعثروا عليه لا في بيته ولا في مكتبه .

لن نحاول أن نعلل أفعال سيميون ايفانوفتش باختلال عقله . وحسبنا أن نذكر للقارىء أن بطلنا كان لا يحب معاشرة الناس وأنه لخجله قد عاش حتى ذلك الحين في عزلة تشبه أن تكون كاملة ، متميزا بطبع سري صموت في آن واحد . لقد ظل طوال مدة اقامته في بيسكي مستلقيا على سريره وراء الحاجز ، في صمت مطلق ، دون أن تكون له علاقة بأحد من الناس . كان الشخصان الآخران ، اللذان يساكنانه في ذلك المنزل ، غريبين مثله ، يعيشان حياة كحياته تماما ، فقضى الثلاثة حوالى خمسة عشر عاما يضطجع كل واحد منهم في سريره وراء حاجزه ، في صمت كامل ، والأيام والليالى تمضي على هذا النحو سعيدة بطيئة خدرة ، وكل شيء يجري على ما يرام ، حتى أن سيميون ايفانوفتش وأوستينيا فيدوروفنا أصبح لا يذكر أحد منهما المصادفة التي جمعتهما . كانت المرأة تقول للسكان الجدد الذين يقيمون في منزلها : « انه يعيش في منزلى ربما منذ عشرة أعوام ، وربما منذ خمسة عشر عاما ، وربما منذ عشرين عاما . » . فمن الطبيعي اذن أن يضطرب صاحبنا بعض الاضطراب خلال

هذه السنة الأخيرة بين شبان صاخبين معربدين ، وهو الانسان الرصين الوقور المتحفظ •

أثار اختفاء سيميون ايفانوفتش اضطرابا كبيرا فى المنزل ، أولا لأنه أثير صاحبه البيت ، وثانيا لأن جواز سفره الذى كان محفوظا لديها لم يعثر عليه • وظلت اوستينيا فيدوروفنا يومين تذرف سيلا من الدموع على عادتها فى اللحظات الحرجة الصعبه • وظلت يومين كاملين تنهجم على سائر المستأجرين ، ناعية عليهم أنهم سبب جميع مبائس صاحبها المستأجر الآخر الذى فقدته بسبب سخرياتهم • وفى اليوم الثالث أمرتهم جميعا أن يهبوا باحثين عن التائه ، وأن يردوه اليها حيا أو ميتا مهما كلف الأمر • وفى المساء رئى كاتب المحكمة سوبدين يعود الى البيت أول العائدين معلنا أنه تقفى أثر الهارب ، فرآه فى سوق تولكوتشى * وفى غيره ، وأنه تبعه من قرب ، لكنه لم يجرؤ ان يكلمه حتى حين واجهه آنفا لانف عند الحريق الذى شب فى شارع كريفوى • وبعد نصف ساعة وصل أوكيانوف وكونتاريوف فأيدا ما ذكره سوبدين حرفا حرفا : لقد مرّا قرب الهارب ، ربما على مسافة عشر خطوات منه ، لكنهما لم يجسرا ان يكلماه أيضا • وقد لاحظا ، كلاهما ، أن سيميون ايفانوفتش كان فى صحبة رجل يشبه أن يكون شحاذا هو شخص سكير « تلاحقه الديون » • ثم وصل الساكنان الأخيران • فلما أصاخا بسمعهما الى ما سلف قوله ، قررا أن بروخارتشين ليس بعيدا عن المنزل ، وأنه لن يلبث أن يعود • وكانا يعلمان من جهة أخرى ، منذ زمن طويل ، أن بروخارتشين أصبح يعاشر هذا الشحاذ ، وهو رجل سيىء السيرة كثير العربدة منافق مراء ، فلا شك أنه قد فتن صاحبنا بحيلة من الحيل • ولقد ظهر هذا الرجل أول مرة فى كنف الرفيق رمينوف ، فقضى فى المنزل بضعة أيام ، مدعيا أنه انسان « معذب فى سبيل الحقيقة » ، وأنه كان موظفا فى الأقاليم ، ثم طرد من

وظيفته مع عدد من رفاقه على أثر مرور أحد المفتشين • فلما وصل الى بطرسبرج ارتمى على أقدام بورفيرى جريجوريفتش متوسلا اليه أن يجد له عملا فى مكتب من المكاتب ، ثم أمكنه أن يحصل على هــــذا العمل ، ولكن شاء سوء حظه أن يجد نفسه بلا عمل مرة أخرى ، اذ أغلق المكتب ثم أعيد تنظيمه دون أن يؤخذ صاحبنا فى عداد الموظفين الجدد ••• وذلك بسبب عجــــزه الادارى ، وبسبب كفاءته فى نوع آخر من العمل ••• ناهيك عن حبه الحقيقه وعن مؤامرات زملائه • فبعد أن قص الرجل هذه القصة التى هب أثناءها زيموفايكين هذا عدة مرات يقبل صديقه رمينوف، الرجل القاتم المزاج المشعث اللحية ، سلم على سائر الحضور واحدا بعد واحد ، سلاما خافتا جدا ، واصفا كل واحد منهم بأنه محسن اليه مفضل عليه ، ثم راح يصف نفسه بأنه انسان سيىء الخلق ، جبان ، رعــديد ، مزعج ، عربيد ، أحمق ، متضرعا الى الحفل ألا يحقد عليه وهو فيما هو فيه من شقاء وبؤس •

فلما نال حماية هؤلاء السادة ورعايتهــم ، غــدا مرحا مسرورا على الفور ، وأخذ يقبّـل يدى أوستينيا فيدوروفنا ، رغم الاحتجاجات المتواضعة التى قدمتها هذه السيدة واصفة يديها بأنهما غليظتان خشنتان ، وبأنهمــا ليستا على شيء من الرفعة والنبل • ووعد الرجل الجماعة بأن يكشف لهم فى ذلك المساء نفسه عن مواهبه فى رقصة من طراز قوى • ولكن القصة انتهت فى الغداة نهاية مؤسفة ، اما لأن زيموفايكين أودع رقصته قوة مبالغا فيها ، واما لأنه « لطخ شرف » أوستينيا فيدوروفنا حقا ، كما تؤكد ذلك هى التى « كانت تعرف ياروسلاف ايلتش والتى كانت منذ زمن طــويل زوجة ضابط مرموق » • المهم أن الرجل انصرف يومئــذ ، ثم عاد مرة أخـــرى ، فطرد شر طردة ، لكنه عرف كيف يستميل اليـــه سيميون

ايفانوفتش وكيف ينال حظوته ، وها هو ذا يظهر مرة اخرى بصفه جديده هى انه صاحب بطلنا وفاتنه ومغويه •

ما ان عرفت صاحبه البيت ان سيميون ايفانوفتش سليم لم يمسسه سوء ، وانه لا داعى الى البحث اذن عن جواز سفره ، حتى هدات توا ، ومضت تستريح • وفى اثناء ذلك اتفق عدد من سكان المنزل ان يستقبلوا الهارب استقبالا رائعا • عمدوا الى الحاجز فأبعدوه عن السرير دون خوف على مفصلاته أن تفسد ؟ ونفشوا السرير واضعين الصندوق الصغير عند موضع القدمين ، ومددوا على السرير نفسه « امرأة الاخ » دمية صنعوها من شال صاحبة البيت وقبعتها ومعطفها ، واجادوا صنعها حتى ليحسبها الناظر اليها شخصا حقا • فلما فرغ هؤلاء السادة من انجاز هذا العمل على أكمل وجه لبثوا ينتظرون وصول سيميون ايفانوفتش بصبر نافد ليبلغوه عند وصوله أن امرأة أخيه تركت قريتها وجاءت تزوره ، وأن المسكينة لم تملك الا أن تنزل وراء الحاجز • وانتظروا طويلا •••

وفى أثناء هذا الانتظار اتسع وقت مارك ايفانوفتش لأن يقامر مع بريبولوفينكو وكوتتاريوف وأن يخسر أجره البالغ خمسه عشر روبلا • ومن كثرة ما لطم أوكيانوف أنفه توبة وندامة تورم هذا النتوء واحمر احمرارا شديدا • وكان آفدوتيا بعد أن نام طوال سكرته يهم أن ينهض عن فراشه ليجىء بشىء من الحطب يشعل به المدفأة • أما زينوبى بروكوفتش فقد تبلل حتى صار كالحساء من فرط ما كان يمضى الى الشارع مرة بعد مرة عسى أن يرى وصول سيميون ايفانوفتش • ولكن بطلنا لم يظهر ، لا ولا ظهر الشحاذ صديقه • وأيس الجماعة من الانتظار، فانتهى كل منهم الى النوم ، مع ابقائهم « امرأة الأخ » وراء الحاجز • وفى الساعة الرابعة من الصبح سُمعت جلبة رهيبة عند باب الدار أيقظت النائمين

من نومهم فكانت مكافاة لهم على ما بذلوا من جهد حتى لا يناموا • انه هو، هو نفسه ، سيميون ايفانوفتش ، السيد بروخارتشين ، ولكن في آية حاله !!••• صاح الجميع بصوت واحد : آ ••• وبلغوا من شدة الانفعال حين رأوه أنهم نسوا « امرأة الاخ » فهي لا تخطر لهم الآن ببال • كان الهارب يبدو مغشيا عليه ، يفوده بل قل يحمله على كتفيه حوذي ليلي يرتدي أسمالا ممزقه ، وترتعد فرائصه من شدة البرد • فلما سألته صاحبة البيت أين استطاع نزيلها أن يبلغ هذا المبلغ من السكر ، أجابها بقوله :

ـ ما هو بسكران • أؤكد لك أنه لم يشرب قطرة خمر واحدة • يظهر أن الأمر سكتة أو ما يشبه ذلك •

أسندوا سيميون ايفانوفتش الى المدفأة من قبيل السهولة ، وأخذوا يفحصونه ، فثبت لهم فعلا ان الامر ليس سكرا ، ولكنه ليس سكتة أيضا• لاشك أن به سيئا ، ولكن ما هو هذا الشيء ؟ ذلك أنه كان ، دون أن يستطيع تحريك لسانه ، يهتز اهتزازا شديدا ويصفق أجفانه ، ويحدق مدهوشا تارة الى هذا وتارة الى ذاك من الشهود الذين كانوا في ملابس النوم • وسألوا الحوذي من أين أتى به ، فقال :

ـ سادة لطاف مرحون أسلمونيه وهو على هذه الحال • كانوا عائدين من كولومنا • هل انتجروا معه ؟ هل أصابته تشنجات ؟ لا أدرى ••• مهما يكن من أمر ، فهم سادة محترمون لطاف مرحون •

أنهضوا سيميون ايفانوفتش ، وحملوه الى سريره • فلما رقد على السرير فأحس بوجود « امرأة الاخ » الى جانبه ، وأحس بالصندوق الصغير عند قدميه ، أطلق صرخة رهيبة ، وأنهض جسمه حتى صار كالجاثي على أربع ، محاولا وهو يرتعش أن يغطي بيديه وبجسمه كله

أكبر مساحة من مرقده ، وينظر الى من حوله نظرات وحشـية مذعورة كأنه يريد أن يقول انه يؤثر الموت على ان يترك ولو جزءا من مائة جزء مما يملك •

لبث سيميون ايفانوفتش يومين أو ثلاثة أيام راقدا وراء الحاجز على هذه الحال ، بعيدا عن الناس فى منجى من كل تلك الجلبة الباطلة • لقد نُسى منذ الغداة ، فما يخطر ببـال أحد • والزمان يجرى مجراه أثناء ذلك : الساعات تتلو الساعات ، والايام تعقب الايام ؛ والمريض راقـد فى فراشه وقد استولى على رأسه المحمـــوم المنزق الثقيـــل نوع من الخدر الهاذى • ولكنه لا يتحرك ، ولا يئن ، ولا يتوجع او يتشكى ، بل يلزم صمتا وحشيا ، ويشد جسمه الى سريره كأرنب مذعور يلتصق بالارض متى اقترب منه صياد • وكان يخيم على المنزل صمت حزين قاتم فى بعض الاحيان ، اشارةً الى ان جميع النزلاء قد مضى كل منهم الى مشـــاغله ، فكان سيميون ايفانوفتش يستطيع عنـدئذ أن يسلى نفســه عن حزنه على مهل ، مصغيا الى الأصوات القريبة الصادرة عن المطبخ حيث تقوم صاحبه البيت بعملها ، أو مصيخا بسمعه الى وقع أقدام تطوف فى أرجاء جميـع الغرف ، وقع أقدام آفدوتيا تنظف المنزل • هكذا كانت تنقضى ساعات ، ساعات كسل ووسن ، ساعات رتيبة تجرى على وتيرة واحدة ، كقطرات الماء التى يسمع تساقطها على مغسل المطبخ • ثم يتوافد النزلاء آحادا أو جماعات ، فيسمعهم سيميون ايفانوفتش يتذمرون من رداءة الجو أو يطلبون وجبة الطعام ، ويحـــدثون جلبة وصـــخبا ، ويدخنـــون ، ويشتجرون ويتصالحون ، ويقامرون بالورق ، ويقرقعون الفناجين حين اعداد الشاى• ويقوم المريض بحركة آلية من أجل أن ينهض وان ينضم اليهم بدفع ما يترتب عليه، ولكنه مايلبث أن يسقط الىخدره مرة أخرى على حينفجأة • فاذا هو يحلم عندئذ أنه كان منذ لحظة على المائدة يشرب الشاى ويشارك

في الحديث ، وان زينوبى اسرع ينتهـز الفرصـــة فدس في الحـديث غمزات تتناول « تســـوة الاخوة » وما قد يقوم بينهن وبين مثـل اولئك الرجال الشرفاء من علاقات • فيحاول سيميون ايفانوفتش ان يبرىء نفسه وان يجيب ، ولكن جملة جبارة فويه تتساقط من جميع الافواه دفعـة واحدة تقول : « لاحظنا مرارا ••• » ، فتقطـع عليه هـــذه الجمله كل اجوبته ، فلا يجد عندئذ خيرا من ان يحلم باليوم الاول من الشهر ، اليوم المبارك الذى يتقاضى فيه الروبلات من الحكومة • وها هو ذا على الســلم يفض الاوراق النقديه التى قبضها، ويلقى نظرة مختلسة عجلى على ماحوله، ثم يسارع الى اخفاء نصف المبلغ الذى استحقه أجرا له ، في عنق احد حذائيه • وها هو ذا يقرر ، وهو ما يزال على السلم (دون أن يدرك أن هذه الأمور كلها انما يجريها فى سريره) أن يدفع لصاحبة البيت أجرها متى وصل الى المنزل ، وأن يشترى بعد ذلك بعض الاشـياء التى لا غنى عنها ، وأن يصرح لمن يجب أن يصرح له بذلك أنه قد اقتطعت من راتبه « حسميات » فلم يبق له ما يرسله الى امرأة أخيه ، ثم يرثى لحالها على النحو المناسب ، ثم لا يتحدث الا عنها يومين متتاليين ، ثم يعود يتكلم بعد عشرة أيام على فقره وبؤسه حتى يقتنع رفاقه بذلك مزيدا من الاقتناع • وها هــو ذا يلاحظ ، بعد أن اتخـــذ هذه القرارات كلهـا ، ان آندره يافيموفتش ، الرجل الصموت الأصلع ، الذى تفصله عنه فى المكتب ثلاث غرف ، والذى ظل عشرين سنة لم يسمع منه كلمة واحدة في يوم من الأيام ، ها هو ذا يلاحظ أن آندره يافيموفتش هذا واقف هو أيضا على سلم المكتب يعد روبلاته ، ويقـول ملوحا برأسه : « أهذا مالى ؟ » ، ثم يهبط السلم خاتما كلامه بقوله « اذا لم يكن مال فلا طعام ! » ، حتى اذا وصل الى درجات الفسحة أمام الباب أضاف يقول : « لى سبعة أولاد أيها السيد » ، ثم اذا بهذا الرجل القصير الأصلع لا يخشى أن يسلك سلوك

سبح ، ويخالف قوانين الحياة الواقعية ، فيعلو فجاة مقدار ذراع فوق الارض ويرسم بيده المرتعشة في الهواء خطا مواربا هابطا ، ويجمجم قائلا ان ابنه الاكبر تلميذ في المدرسه الثانويه ، ثم يرشق بروخارتشين بنظرة حانقة كأنه يعده مسئولا عن وجود هؤلاء الاولاد السبعة ، ثم يغطس قبعته حتى تصل الى عينيه ، ويلتفت يسره ويغيب • ويتاثر سيميون ايفانوفتش تاثرا شديدا • ورغم ايمانه المطلق بانه برىء ، يأخذ يسلم بأن الذنب ذنبه حقا اذا كان هذا البيت البائس يضم سبعة أولاد • ويستبد به خوف ، فياخذ يركض ، لانه يعتقد ان الرجل القصير الأصلع عاد أدراجه يحاول ان يمسك به عازما عزما أكيدا على ان ينبشه ويسلبه ماله باسم أولاده السبعة ، مستبعدا استبعادا كاملا ان ينظر بعين الاعتبار الى « نساء الاخوة » وما قد يكون بينهن وبين سيميون ايفانوفنش من صلات •

ويظل السيد بروخارتشين يركض ويركض حتى تنقطع أنفاسه ، وهؤلاء أناس كثيرون يركضون الى جانبه فيسمع رنين الفضة في جيوب صديراتهم ؛ ثم يأخذ جميع الناس يركضون ، وتدوى في الجو اصوات أبواق رجال المطافىء ، فتحمله أمواج من البشر على قللها تقريبا ، فيتدحرج الى مكان ذلك الحريق الذى شهده أخيرا في صحبة العربيد • كان السكير ، أقصد السيد زيموفايكين ، ينتظر هنالك • فلما رآه أقبل عليه محتفيا به وأمسك يده يقوده الى وسط الجمهور الكثيف • وها هو ذا سيميون ايفانوفتش يرى الآن ، مثلما رأى هناك ، جمهرة من الناس تتلاطم تلاطم الامواج من حولهما ، فتسد رصيف نهر فونتاكا بين الجسرين ، كما تسد جميع الشوارع والأزقة المجاورة ؛ والناس تدفعهما فتزجهما في ورشة واسعه من خشب ، امتلأت بالمستطلين جاءوا من كل حدب وصوب من المدينة ومن سوق تولكوتشى أو خرجوا من البيوت والملاهى القريبة • انه يرى هذا كله واضحا كأنه يشهده في الواقع ،

وها هي ذي وجوه غريبة تاخذ تتحاطر امام عينيه من خلال زوابع الحمى والهذيان • انه يتعرف بعض هذه الوجوه • هذا هو السيد المهيب ، الفارع القامة ، الطويل الشاربين ، الذى ظل طوال مدة الحريق معسكرا وراء ظهـره ، يزجى له المديح حين تعترى بطلنا حماسـة عنيفة فيروح يدبدب كانه يصفق تشجيعا لبسالات رجال المطافىء الذين يراهم من مكانه المرتفع رؤية تامة • وهذا وجه آخر : وجه ذلك الرجل الطويل القـوى الذى رفعه بضربة من قبضة يده على ذلك الحائط يريد أن يجتازه ليقوم بعمل من أعمال الانقاذ • وهذا وجه ذلك الشيخ العجوز الذى يشبه أن يكون لونه لون التراب ، والذى يرتدى معطفا باليا من معاطف المنزل ويحـزمه زنار لا تدرى ما هو : ان هذا الشيخ العجوز كان فد خرج من منزله قبل اندلاع الحريق يريد أن يشترى لنزيله من عند أحد البقالين قليلا من خبز وتبغ ، وها هو ذا الآن يشق الجمهور متجها نحو بيتـه الذى تأكله النيران وتحترق فيه زوجته وابنته مع ثلاثين روبلا ونصـفا مخبـأة تحت سرير من الريش • غير أن أوضح صورة كان يراها سيميون ايفانوفتش هى صورة تلك المرأة الفقيرة التى حلم بها مرارا أثناء مرضه ، وهو يراها الآن مرة أخرى كما كانت تماماً : بحذاءين من قشور الشـجر ، مع عصا باليد ، فى ثياب رثه بالية ، وعلى ظهرها كيس مضفور • لقد كانت تصيح وتصرخ أكثر من رجال المطافىء والجمهور مجتمعين ، قائلة ان أولادها طردوها ، وانها أضاعت فى الوقت نفسـه قطعتى نقـد بعشر كوبكات : « الأولاد •• النقود •• النقود •• الأولاد •• » • انها لا تنفـك تنطـق بهذه الألفاظ فى خليط من الكلام لا سبيل الى فهمه ، وقد انتهى النـاس الى تركها على حالتها تلك يائسين من أن يعرفوا ماذا تريد • ولكن العجوز لا تهدأ ، فهى تصرخ وتعول وتحرك يديهـا ، لا تلتفت أى التفـات الى

الحريق ولا الى الجمهور ولا الى شقاء الآخرين ، ولا الى الشرارات التي تتطاير من الحريق ونصل الى هناك •

وشعر السيد بروخاتشين أخيرا بخوف يعتريه ، ذلك أنه رأى بوضوح أن هذا كله ليس بالامر الهين ، وأنه لن ينقضي على هـــذه الصورة من البساطة واليسر • فهذا فلاح قريب جداً منه ، متدثر بمعطف ممـــزق ، يصعد على كومة من خشب ، ويأخذ ، وقد احترق شعره واحترقت لحيته قليلا ، ياخذ يحرض الجمهور على سيميون ايفانوفتش ، فيتكاثف الناس ويتكاثفون ويظل الفلاح يصيح ويشتم ، ويتجمد السيد بروخاتشين هلعاً وجزعا ، ثم ما يلبث ان يتذكر فجاة أن هذا الفلاح ليس الا حـــوذي عربة سبق لسيميون ايفانوفتش أن سرقه منذ خمس سنين سرقة دنيئة ، اذ قفز من العربة قبل أن يدفع الاجر واختفى مارقا كالريح عبر منزل له مخرجان • أراد السيد بروخاتشين أن يصرخ ، أن يتكلم ، ولكن صوته اختنق في حلقه • وهو يحس ضغط الجمهور الهائج الخانق الذي يحيط به احاطة أفعى متعددة الألوان ويخنقه خنقاً • وها هو ذا السيد بروخاتشين يبذل جهداً فوق طاقة البشر فيستيقظ • ولكنه ما ان يستيقظ حتى يرى أن الركن الذي يقبع فيه قد اندلعت فيه النار وأخذت تلتهم الحاجز والبيت كله وأوستينا فيدوروفنا ونزلاءها • ان سريره مشـــتعل لهباً ، وكذلك مخدته وغطاؤه وصندوقه ، وحتى فراشه الثمين • وثب سيميون ايفانوفتش عن سريره ، وتناول الفراش وركض يجره وراءه حتى وصل الى غرفة صاحبة الدار وهو على هذه الحال بقميص النوم حافي القدمين • هنـــالك قُبض عليه وأوثق ورُدَّ الى ما وراء الحاجز الذي لم يكن يحترق في الواقع ، وانما الحريق في رأس صاحبنا المسكين • أرقـدوا المريض على سريره من جديد • وعاد المريض الى تهاويله : هـــذا صاحب الدمى ، الرثّ الثياب ، الكالح الوجه ، الطويل الشعر ، يرتب في قاع صندوقه

أراجوزه الذى تحرك كثيراً ، لاطماً جميع الناس بائعاً روحه للشيطان، فالى أن يقوم صاحب الدمى بعرض جديد يكف أراجوزه عن الوجود راقـداً فى الصندوق مع ذلك الشيطان نفســـه ومع الزنجى وبيارو وكولومبين وعشيقها السيد ومفوّض الشرطة •

تحلق نزلاء الدار جميعاً حول سرير سيميون ايفانوفتش ، ولبثـوا واقفين هنالك يصوّبون نحو المريض نظرات مستطلعة • وآفاق المـريض آخر الامر ، فاذا هو ، اما حياءً واما لسبب آخر ، يأخذ يسحب الغطـاء على جسمه بكل ما أوتى من قوة، ، اختباءً عن هـذه العيون المشفقة من غير شك • وكان مارك ايفانوفتش أول من قطع الصمت ، اذ أخذ وهـو الانسان العاقل يقول بلطف ان على سيميون ايفانوفتش أن يهدىء نفسه ، وان من العيب والعار على المرء أن يبقى مريضاً على هذا النحو ، وان هذا شىء يصلح للأطفال لا للرجال ، وان على سيميون ايفانوفتش أن يبل من مرضه وأن يعود الى عمله • حتى لقد ختم كلامه بمزحة صغيرة قائلا ان رواتب الموظفين المرضى لمّا تُحدّدْ بعد ، ولما كان الموظفون المرضى لا ينالون أية ترقية ، فان حاله سيميون ايفانوفتش لن تعـود عليه بفائدة • الخلاصة : لقد شارك الجميع سيميون ايفانوفتش آلامه ، ورثوا لحاله •

ولكن سيميون ايفانوفتش كفر بالنعمة ولم يعترف بالجميل ، فأصرّ على البقاء فى السرير صامتاً لا يتكلم ، شاداً على جسمه غطاءه مزيداً من الشد • مع ذلك لم يشعر مارك ايفانوفتش بأنه غُلب ، وكبح جماح نفسه فقال بضع كلمات لطيفة ، لأن على المرء أن يدارى المرضى وأن يراعيهم • غير أن سيميون ايفانوفتش ظل مصراً على أن لايسمع • ان وجهه يعبـر عن الحذر ، وهو يدمدم بين أسنانه بكلام لا تدرى ما هو • وفجأة أخذ يُدير على اليمين والشمال عينين مهتاجتين حانقتين يخرج منهما شرر كفيل

وحده بسحق جميع الشهود • ان هذا الوضع يجعل المداراة زائدة لامحل لها • لذلك لم يستطع مارك ايفانوفتش أن يكبح ثورة نفسه ، واذ رأى أن الرجل قد آلى على نفسه أن يظل عنيداً ، فقد استاء استياءً شديداً ، وبلغ منه الغضب مبلغه ، فقال له بصراحة قاطعة دون تمهيد انه قد آن له أن ينهض وانه لا يجوز له أن يبقى على هذه الحال راقداً على أذنيه ، وان من الحماقة وقلة الحياء وسوء التربيه أن يظل يصيح فى الليل والنهار متكلماً عن حدائق ونساء اخوة وسكارى وصناديق وما الى ذلك ، وانه اذا كان لا يريد هو أن ينام فليس من حقه أن يحرم غيره من النوم، فليكن هذا معلوماً لديه •••

أحدث هذا الخطاب أثره • فها هو ذا سيميون ايفانوفتش يلتفت نحو الخطيب فوراً فيقول له حازماً ولو بصوت ضعيف مبحوح :

ـ اسكت أنت أيها الولد البطال ••• ما أنت الا ثرثار ••• أتراك تظن نفسك أميراً ؟ هه ؟

ثارت ثائرة مارك ايفانوفتش ، ولكنه وقد تذكر أنه أمام مريض هدأ وأراد أن يخجل المريض من نفسه بالملاطفه • ومع ذلك أجابه سيميون ايفانوفتش قائلا انه يرفض أى مزاح ، ولو جاء من ناظم أشعار مثل مارك ايفانوفتش • وأعقب ذلك صمت • وأخيراً أفاق مارك ايفانوفتش من دهشته فقال بلهجة قويه وفصاحة بليغة ان على سيميون ايفانوفتش أن يعرف أنه ابن أناس من علية القوم ، وأن لايجهل كيف يجب على المرء أن يتصرف فى مجتمع راق • ينبغى أن نذكر بالمناسبة أن مارك ايفانوفتش كان يمارس الخطابة ويحب أن يؤثر فى المستمعين • ولا كذلك سيميون ايفانوفتش فانه من طول تعوده الصمت لايقول الا كلاما موجزاً ولايجرى الا اشارات مختصرة ، فاذا اضطر الى القول فترة طويلة كانت الكلمة الأولى تستدعى

الكلمة الثانية ، وكانت الثانية تستدعي الثالثة ، فسرعان ما يمتلىء فمه بالكلمات ، فلا تنطق الكلمات عندئذ الا فى فوضى غريبة ، لذلك ينفق له رغم كل تعقله وحكمته أن تفلت من لسانه سخافات • أجاب يقول :

ـ أنت كاذب • ما أنت الا فاسق • ولكنك ستنتهى الى أن تحمل كيسك وتمضى مستعطياً مستجدياً • ما أنت الا زنديق • ما أنت الا صعلوك • هذا أنت أيها الشويعر !

ـ سيميون ايفانوفتش ، انك ما تزال تهذر •

قال المريض :

ـ هل تعلم ؟ يهذر أحمق ، ويهذر كلب ، أما العاقل فيحكم عقله • وأنت لا تعرف شيئاً البتة ، يا صعلوك ••• يا عالم ••• يا كتاب مطبوع • ستحترق فى ذات يوم ، ثم لا تشعر بأن رأسك يحترق • هل فهمت المثل ؟

ـ طيب ••• ولكن ••• أقصد ••• ماذا تقول ؟ تقول ان رأسى سيحترق ؟

ولم يكمل مارك ايفانوفتش كلامه • لقد اتضح للجميع أن سيميون ايفانوفتش لم يسترد توازن عقله وأنه يهرف •• ولكن صاحبة البيت لم تستطيع أن تمسك عن أن تذكر ، عرضاً ، أن هناك فتاه صلعاء أحرقت منزلا فى شارع كريفوى بايقاد شمعة أشعلت بلهبها خزانة حفظ الطعام • ولكن حادثا كهذا لا يمكن أن يحدث هنا قطعاً ، ويمكن كلّ فرد أن يكون مطمئنا فى ركنه كل الاطمئنان •••

صاح زينوبى بروكوفتش يقول مقاطعاً صاحبة البيت خارجاً عن طوره :

ـ اسمع يا سيميون ايفانوفتش ! ما عساك تظننا ؟ ما نحن بمن يقص عليك حكايات نساء الأخوة أو الامتحانات أو الرقص ••• أليس هـــذا ما تتخيله ؟

واستأنف بطلنا يقول وهو يجمّع آخر قواه لينهض عن سريره وقد أحنقته علائم الاهتمام هذه :

ـ واسمع أنت ، اسمع منى هذا يا أنت : ما المهرّج ؟ هو أنت أو هو كلب • ولكننى لن أقول سخافات لأسرّك وأمتعك • هل سمعت أيهـا الولد القذر ؟ أنا لست خادمك يا سيد ! •••

وأراد سيميون ايفانوفتش أن يقول شيئاً آخر أيضاً ، لكنه وقـد خارت قواه عاد يسقط على سريره • ولبث جميع الحضور هنـاك ، وقد فغرت أفواههم من الذهول ، وأدركوا أين هو صاحبهم الآن ، واحتاروا لا يعرفون كيف يسعفونه • وفجأة صرّ باب المطبخ ، و'شـقّ ، ورئى رأس يطل منه : انه رأس السكير صديق بروخاتشين ، السيد زيموفايكين، يفحص المكان وجلا على عادته • وكأنما كان الجميع ينتظرونه ، فها هم أولاء يومئون اليه أن يقترب بأقصى سرعة • فيسر الرجل سروراً عظيماً ، ويدنو من السرير حتى دون أن يخلع معطفه •

لا شك أن زيموفايكين قد مرت به في الليل لحظات صعبه • الجانب الأيسر من وجهه مختفٍ تحت ضماد، جفناه المتورّمان مبتلان بقيح يرشح من عينيه • والجزء الأيسر من ردنجوته ومن جميـع ثيابه الممزقة ملطخ بوحلٍ لا تدرى ما هو • وتحت ابطه كمان، لا شك أنه كان ماضياً يريد بيعه • لم يخطىء الجمع حين ناداه مستنجداً به ، فانه ما ان عرف الأمر ، حتى صاح يخاطب سيميون ايفانوفتش بلهجة من يشعر بتفوقه عليه ، ويعرف الزر الذى يجب أن يضغطه :

ـ هيّا يا سينكا ، انهض • ما هذا يا سينكا ؟ عد الى رشدك يا بروخارتشين العاقل الحكيم • فاذا أصررت على عنادك ، رميتك عن سريرك رمياً • فاياك والعناد ! هل تريد ؟

دُهش الحضور من القوة الموجزة فى هذا الخطاب • ولكن دهشتهم كانت أشد من ذلك كبيراً حين لاحظوا أن هذه الكلمات وما اصطنعه الرجل من مظهر فد أثرت فى بروخارتشين ، وأرعبته ، وبلغت من ذلك أنه لم يكد يستطيع أن يعزم أمره على الدمدمة بين أسنانه بما كان لا بد منه من تسفيه • قال :

ـ اذهب أنت أيها الشقى البائس • ما أنت الا انسان تعيس • ما أنت الا لص • هل تسمع ؟ ما أنت بصالحٍ لشىء أيها الأمير الجميل ••• أنت لص •

فأجابه زيموفايكين قائلا دون أن يفقد شيئاً من هدوء أعصابه وبرودة دمه :

ـ لا يا أخ ••• لا يابروخارتشين العاقل الحكيم • تصرفك هذا لا يليق بك •

وألقى على من حوله نظرة راضية ، وأردف يقول :

ـ أنصحك بالطاعة والاذعان ، اذا أردت أن لا أفضحك ، اذا أردت أن لا أروى كل شىء ، هل سمعت ؟

فوجىء سيميون ايفانوفتش بهذه الكلمات وهزته هزاً قوياً : لقد أخذ يرتعش ، ويجيل على ما حوله نظرات مذعورة • وسُرَّ السيد زيموفايكين بما أحدثه من أثر سروراً كبيراً ، وهمَّ أن يتابع كلامه ، ولكن مارك ايفانوفتش سبق حماسته ، فما ان رأى أن سيميون ايفانوفتش

قد ثاب الى صوابه قليلا حتى بادر يقول له : « ان تصور مفاهيم كهـذه المفاهيم ليس فى هذه اللحظة غيرَ ممكن فحسب ، بل هو ضار أيضـاً ، وليس ضاراً فحسب ، بل هو مناف للأخلاق أيضاً ، وان فى هذا اساءة الى الآخرين ، وانه يقدم للآخرين أسوأ مثل • »

توقع الحضور أن تؤتى هـذه الموعظة خير ثمرة ، لا سيما وأن سيميون ايفانوفتش ، وقد هدأ الآن كل الهدوء ، قد أجاب عليها باعتدال • وبدأت بين أفراد هذا الجمع مناقشة ودية • وأخـذوا يسألون سـيميون ايفانوفتش عن السبب الذى جعله يجزع هذا الجزع • فأجابهم ، ولكن جوابه كان هروباً من الجواب • وألحوا فرد عليهم • وتناوب الطرفان الكلام مرة أخرى ، وتدخل الجميع فى الأمر ، فاذا بالحديث يجـرى مجرى يبلغ من الغرابة والادهاش أن المرء يعجز حقاً عن نقله • لقـد استحال الاعتدال تبرماً ، واستحال التبرم صراخاً ، واسـتحال الصراخ دموعاً ، وهذا مارك ايفانوفتش يشتد به الحنق فينصرف مرغياً مزبداً ، قائلا انه لم يصادف فى حياته انسانا مناكداً كهذا الانسان• وهذا أوبليانيييف يبصق احتقاراً • وبدا الذعر على أوكيبانوف • وبكى زينوبى بروكوفتش •• وذرفت أوستينيا جدولا من دموع قائلة فى تأوه ان « نزيل بيتها قد انتهى أمره ، وانه قد فقد عقله ، وانه سيموت وهو فى ريعان شـبابه ، وانها يتيمة ، وانهم يجرونها الى الهاوية من غير شك •• » • الخلاصة أن الجميع قد استطاعوا أن يقتنعوا أن البذرة قد نبتت ، أن كل شيء قد أثمر ثمرته على ما كانوا يحبون، أن التربة كانت مباركة وأن سيميون ايفانوفتش قد فقد عقله فى صحبتهم الى الأبد ، وأنه صار الى الجنون أحسن مايكون الجنون • وصمتوا جميعا •• ذلك أنهم اذا كانوا قد استطاعوا أن يروّعوا سيميون ايفانوفتش قد أصبحوا هم أنفسهم خائفـين ، وأصبحت نفوسهم تفيض شفقة •••

صاح مارك ايفانوفتش يقول :

ـ ما هذا ؟ ما الذى تخشاه ؟ أية ذبابه لسعتك ؟ من ذا الدى تخطر أنت بباله ؟ بأى حق ترتجف هذا الارتجاف ؟ ماذا أنت ؟ أنت صفر ، يا سيد ، أنت أهون شأنا من بذرة برتقاله ! ذلك هو أنت ••• هل فى ذلك ما يستحق كل هذا الاضطراب والقلق ؟ أئذا سحقت امرأة فى الشارع تخيلت أنك سُحقت أنت أيضا ؟ أئذا احترق منزل ظننت أن من الواجب أن يحترق رأسك أنت أيضاً ؟ هيه ؟ ماهذا يا سيد ، ما هذا ؟

دمدم سيميون ايفانوفتش يقول :

ـ أنت ••• أنت ••• أنت ••• غبى ! سوف يؤكل أنفك • سوف تأكله أنت مع خبز ، ولكن دون أن تلاحظ ذلك •

صرخ مارك ايفانوفش يقول وهو لا يصدق أذنيه :

ـ غبى ! •• غبى ! •• طيب •• لنسلم أننى غبى • ولكن هل علىّ امتحانات يجب أن أؤديها ؟ هل علىّ أن أتزوج ؟ هل علىّ أن أتعلم الرقص ؟ هل ستعوزنى الأرض ؟ ماذا ياعزيزى ، أليس لك مكان كافٍ ؟ هل ستنهار الأرض تحتك ؟

ـ نعم نعم ••• سوف يسألونك رأيك • سيغلقونها ••• هذا كل شىء •

ـ كل شىء ! كل شىء ! ماذا سيغلقون ؟ ماهذه الحكاية أيضا ؟ هيه ؟

ـ هذا لا ينفى أن السكير قد طردوه •••

ـ طيب ••• طردوه ••• ولكنه سكّير ••• أما أنت وأنا فلسنا كذلك • نحن أناس لائقون !

ـ لائقون ... طيب ... ومع ذلك فهى ما تزال هناك ...

ـ ما تزال ؟ ... ماذا تعني ؟

ـ أعنى الادارة ... المكتب ...

ـ طبعاً يا أحمق ... هم فى حاجة الى المكتب .

ـ هم فى حاجة اليه اليوم ، وغداً ، وبعد غد ... ولكن من الممكن جداً أن تنقطع حاجتهم اليه فى يوم من الأيام . هى القصة نفسها ...

ـ ولكنهم فى هذه الحالة سيدفعون لك رواتبك عن السنه بكاملها.. ألا ان أمرك لعجيب حقاً . ثم انهم ، بحكم خدماتك السابقه ، سيوظفونك فى ادارة أخرى .

ـ رواتبى ... سأكون مضطراً الى أن آكلها ، وسيسرق منها سارقون ... ثم هناك امرأة أخى . هل فهمت ؟ هل فهمت يا رأساً من خشب !

ـ امرأة أخيك ؟ قل لى : أأنت رجل ؟

ـ أما أننى رجل فنعم ... أنا رجل ... أما أنت ، يا أيها العالم ، فأنت غبى ، أنت رأس من خشب ... ذلك أنت . لست فى حاجة الى الرد على تشجيعاتك الكاذبه . قد تُلغى فى لحظة من اللحظات كل وظيفة. ان ديميد فاسيليفتش ، هل تسمع ؟ ان ديميد فاسيليفتش هنا أيضاً ...

ـ آه ... ديميد ... ديميد ... ولكن .

ـ طبعاً ... تماماً ... واذا بالمرء يجد نفسه بلا وظيفة . حاول أن ترد على هذا الكلام !

ـ دعك من هـــذه السخافات ••• اللهم الا أن تكون قد سقطت مطرقة على رأسك • لا نستح يا عزيزى ، قلْ : هل فقدت صوابك ؟

صاح بعضهم يقول ، وهو يعض يديه أسفاً وحزناً :

ـ فقد صوابه ••• انه مجنون •••

واضطرت صاحبة البيت أن تمســـك ذراع مارك ايفانوفتش حتى لا يمزق سيميون ايفانوفتش ارباً •

قال زيموفايكين متوسلا :

ـ سينكا ، يا ذا القلب الرفيق ، ياذا العقل الحكيم ، أصارت نفسك وثنيهً اذن ؟ ألا تفهمنى اذن وأنت الانسان البسيط المهذب الفاضـــل ؟ وا أسفاه ! ما منشأ هذا كله الا اسرافك فى الفضـــيلة • أنا ، ما أنا الا عربيد غبى ، ما أنا الا شحاذ قدر ، ومع ذلك لم ينبذنى هـــذا الانسان الممتاز ، بل عاملنى بتقدير واحترام • اننى أشكر له جميله ، كما أشكر للسيدة صاحبة البيت جميلها • اننى أحييهما كليهما منحنيـــاً لهما حتى الارض ، وأنا اذ أفعل هذا لا أفعل الا واجباً أيتها السيدة المحترمة •

قال زيموفايكين ذلك وانحنى فعلا حتى الأرض ، بحركة لا تخلو من نبل • وأراد سيميون ايفانوفتش أن يتابع كلامه ولكنهم لم يدعوا له فرصة فى هذه المرة : هبوا جميعاً يغرقونه بسيل من الضراعات والحجج المقنعة ، والمواساة ، الى أن استحى فطلب اليهم بصوت ضعيف أن يشرح أمره • قال :

ـ طيب ••• صحيح ••• أنا لطيف ، مهـــذب ، رقيق ، دمث ، فاضل ، أمين ، مخلص ، مستعد أن أبذل آخر قطرة من دمى ••• فى سبيل المحافظه على وظيفتى ، هل سمعت أيها الصبى ؟ ولكننى فقير ، فاذا

ألغوها ••• ـ اسكت أنت ! ـ هي الآن موجودة ، ولكن من الممكن أن تُلغى فجأة ••• هل فهمت ؟ وفى هذه الحالة سأمضى فى الطرقات ، حاملا كيسى على ظهرى ، أطلب الصدقات • هل فهمت ؟

زأر زيموفايكين يقول بصوتٍ أقوى من كل الجلبة القائمة :

ـ سينكا ، ما أنت الا زنديق ••• وسأقص كل شيء • ماذا أنت ؟ ما أنت الا عيّاط شيّاط ، يا رأساً كرأس كبش ! أنت غبى ، أنت زّياط سيُكنس من وظيفته كنساً بلا احتفال • ماذا أنت ؟

قال سيميون ايفانوفتش :

ـ هذه هى القضيه تماماً •

ـ كيف هذه هى القضية ؟ هلاّ تحدثت معه ؟

ـ كيف أتحدث معه ؟

ـ طبعاً • من كان حراً فهو حر ••• أما من يبقى فى السرير •••

ـ أما من يبقى فى السرير كزنديق ، كواحدٍ من أنصار مذهب فولتير ، فانه ••• اسمع يا سينكا ، ما أنت الا زنديق ، ما أنت الا زنديق !

صرخ السيد بروخارتشين وهو يحرك يده طالباً الصمت :

ـ كفى • ولكن افهم ، افهم يا أحمق : أنا وجل ، وجل اليوم ، ووجل غداً ، ثم أفقد وجلى فى ذات يوم ، فأطلق كلمة وقحة ••• وافعل عندئذ ما تشاء ••• وأصبح زنديقاً !

أرعد مارك ايفانوفتش يقول واثباً عن كرسيه الذى كان قد قعد عليه ليستريح ، ومتجهاً نحو السرير وقد استبد به اضطراب شديد وأخذ يرتجف غضباً وحنقاً :

ـ ولكن ماذا دهاه ؟ ما هذا أيها الأحمق ؟ أتحسب أن الدنيا ُخلقت من أجلك ؟ أتراك نظن نفسك نابوليون ؟ ماذا أنت ؟ أأنت نابوليون ؟ قل لى : أأنت نابوليون ؟ ولكن هلا أجبتنى أيها السيد ؟ أأنت نابوليون ؟

ولكن السيد بروخارتشين لم يجب • لا لأن هذه الفكرة ، وهي أنه نابوليون ، قد أخجلته ، ولا لأنه يخشى أن يتحمل مثل هذه المسئولية ، بل لأنه أحس أنه عاجز عن المناقشة ، عاجز عن أن يقول أى شيء معقول ••• واعترته بعد ذلك نوبة : ان سيلا من الدموع يتدفق من عينيه البائستين الرماديتين اللتين أحرقتهما الحمى • وها هو ذا يخفى وجهه بيديه الهزيلتين المعروقتين ويأخذ يتكلم من خلال النشيج متأوها قائلا انه انسان فقير جداً ، بائس جداً ، بسيط جداً ، غبى جداً ، جاهل جدا ، فهو يستحق أن ُيمنّ عليه بالصفح ، وأن يعتنى به ، وأن يدافع عنه ، وأن ُيعطى ما يأكله ويشربه ، وأن لا ُيترك و ُيهجر ••• قال هذا وقال مالا يعلم الا الله أيضاً • وكان وهو يتشكى هذا التشكى يلقى على ما حوله نظرات مذعورة كأنه يتوقع أن يهوى السقف ، أو أن تغور الأرض •

ورثى الجميع لحاله ورق قلبهم له • وأخذت صاحبة البيت تبكى منتحبة ، وراحت ُترقد المريض بنفسها • واقتنع مارك ايفانوفتش بأنه لا جدوى من تهجمه على ذكرى نابوليون ، فعاد الى حسن المعاملة وساعد صاحبة البيت فى ارقاد المريض • وأحب الآخرون أن يكون لهم نفع هم أيضا فاقترحوا أن يهيئوا للمريض شراباً من مغلى التوت قالوا انه ذو تأثير سريع قوى فى جميع الأمراض • ولكن زيموفايكين اعترض على هذا الادعاء ، قائلا انه لا شيء أمتع من فنجان بابونج • أما زينوبى بروكوفتش فقد كان لطيبة قلبه يجهش باكياً ، ويذرف سيلا من الدموع ، ويعبّر عن ندمه على أنه أفزع سيميون ايفانوفتش بتلك الحكايات السخيفة •••

وتذكر أن المريض اشتكى من فقره ، وأنه طلب التصدق عليه ، فاقترح الاكتتاب فى تبرع يقتصر الآن على هذه الحلقة الصغيرة من النزلاء •

وراح كل واحد من الحضور يتأوه ويئن ويندب حـــظ سيميون ايفانوفتش العاثر ، دون أن يستطيع مع ذلك فهم مثل هذا الذعر الشديد الذى اعتراه على حين فجأة • فيم هذا الذعر كله ؟ ماذا لو كان يشـــغل منصباً خطيراً وكان له زوجة وأولاد ؟ وماذا لو كان قد أحيل الى محكمه؟ انه لا يساوى شيئاً ، ولا يملك من حطام الدنيا الا صندوقاً عتيقاً وقفــلا ألمانياً • وقد لبث عشرين عاما من حياته راقداً وراء حاجز ، جاهلا كل شىء عن العالم والحياة ومتاعبها • ثم اذا هو بمزحه باطلة سخيفه يقلب عقله فجأة ، ويجزع هذا الجزع كله حين يكتشف أن الحياة قاسية ••• أليست الحياه قاسية على جميع الناس ؟ « لو أنه كلف نفسه عناء التفكير فى أن الحياة قاسيه على الناس كافه ، كما سيقول أوكيانوف فيما بعد ، اذن لاحتفظ بعقله ، واستمر يعيش كما نعيش نحن جميعا • » •

لبث المنزل طوال النهار لا يُعنى أحد فيه بغير سيميون ايفانوفتش• فهم ما ينفكون يجيئون اليه ، ويسألونه عن حاله ، ويغدقون عليه المواساه ••• ولكن لم يبق ثمة حاجة الى مواساة فى المســاء حين التهب جسمه بالحمى وراح يهذى • وأوشكوا أن يستدعوا طبيباً ، وهبَّ جميع النزلاء يعتنون ويتناوبون السهر قرب سريره طوال الليــل مخافة أن يقــع له مكروه • ثم كلفوا صديقه السكيربالسهر عليه قرب سريره ، ومضوايلعبون بالورق ليساعدهم اللعب على مواصلة السهر • ولكنهم لم يلبثوا أن سئموا اللعب لأنه لم يكن قماراً بمال ، فليس فيه اغراء • وعندئذ تركوا اللعب وأخذوا يتناقشون ، واحتدم النقاش حتى صار صراخاً وضرباً على المائدة ، وحتى انسحب كل منهم الى ركنه وهو يصيح ويطلق كلاما هاجراً عنيفاً•

واد استبد بهم الحنق والغضب جميعاً ، لم يشأ أحد منهم أن يقوم بدوره في الحراسه • وانتهوا بأن ناموا جميعاً ، فخيَّم على البيت صمت مطبق • ثم ان البرد كان شديداً • وقد نام أوكيانوف آخر من نام • فاليكم ماوراه بعد ذلك :

« لا أدري أكان ذلك حلماً أم كان واقعاً • ولكنني أحسست أن رجلين ، على مقربة مني ، كانا يتحدثان في نحو الساعة الثانية من الفجر » •• لقد أدرك أوكيانوف أن زيموفايكين كان بسبيل ايقاظ صديقه رمينوف وسمع الرجلين يتحدثان زمناً طويلا ، ثم يقوم الثاني فيحاول أن يفتح باب المطبخ بمفتاح • وقد شهدت صاحبة البيت بعد ذلك أن المفتاح كان تحت مخدتها وأنه اختفى في تلك الليلة • ثم خيِّل الى أوكيانوف أنه يسمع الرجلين يمضيان الى ما وراء حاجز المريض ، فيوقدان هنالك شمعة •

ثم لم يعرف أوكيانوف عدا ذلك شـــيئا ، لأنه لم يلبث أن نام ولم يستيقظ الا مع سائر من استيقظوا وهرعوا نحو السرير على أثر صرخة كفيلة بايقاظ ميت • وخيِّل الى الجميع أنهم رأوا شمعة مشتعلة تختفي • وفي أثناء ذلك دوَّت وراء الحاجز ضجة صراع ، حتى اذا أضاءوا المكان، ورأوا رمينوف وزيموفايكين يقتتلان ويكيل كل منهما لصـــاحبه التهم والشتائم •• صاح رمينوف يقول :

ـ ما أنا ••• بل هذا القاتل •

فصرخ السيد زيموفايكين يقول :

ـ اتركني • انني برىء • أحلف انني لبرىء •

لم يكن وجها الرجلين وجهي بشر ، ولكن لم ينتبه أحد الى ذلك كثيرا أول الأمر ، لأن المريض كان قد غادر سريره • حتى اذا استطاعوا

أن يفصلوا المحتربين أحدهما عن الآخر ، رأوا السيد بروخارتشين ممدداً تحت فراشه ، وربما مغشياً عليه • كان قد شد الى جسمه غطاءه ومخدته ، فما يُرى على السرير الا فراش عتيق قذر لا مفرش عليه (ولا كان عليه مفرش في يوم من الأيام على كل حال) • فأخرجوا سيميون ايفانوفتش من تحت الفراش ، وأضجعوه فوقه ، ولكنهم لم يلبثوا أن لاحظوا فوراً أنه لا فائدة من القيام بأي شيء ، وأن أمر المريض قد انتهى ، فأعضاؤه قد تصلبت ، وأنفاسه لا تكاد تخرج من صدره • وأحاطوا به • ان جسمه كله يرتعش • ورأوه يحاول أن يومئ وأن يتكلم ، ولكنه لايستطيع أن يحرك لا يديه ولا لسانه • ومع ذلك كانت أجفانه تصطفق مثلما تصطفق، على ما يقال ، أجفان رءوس قطعها الجلاد منذ هنيهة فهي لا تزال حارة نازفه •

وتوقفت الارتجافات والتشنجات أخيراً ، فتمددت ساقا السيد بروخارتشين ومضى يؤدي حساب حسناته وسيئاته • ما الذي حدث له ؟ هل خاف ؟ هل وافاه كابوس كما أكد ذلك رمينوف فيما بعد ؟ هل وقع شيء غير هذا ؟ لا يعرف أحد • وانما الامر الواقع هو أن من المحتمل أن سيميون ايفانوفتش ما كان ليحرك أصبعا حتى ولو جاء مفوض الشرطة الى المنزل بنفسه ليطرد منه سيميون ايفانوفتش بسبب آرائه الفولتيرية وادمانه على السكر ، أو دخلت متسولة تعلن أنها امرأة أخيه أو جاء أحد يقول له انه استحق مكافأة قدرها مائتا روبل أو امتدت النار الى فراشه فاحترق رأسه• ولكن بينما كان يتبدد الانشداه الأول، ويسترد الحاضرون موهبة الكلام شيئاً بعد شيء ، ويأخذون يعرضون ما يبدو لهم من افتراضات ، وبينما كانت أوستينيا فيدوروفنا محمومةً تنبش تحت المخدة وتحت الفراش وحتى في الحذائين ، وبينما كانت تلقى أسئلة موجزة على رمينوف وزيموفايكين ، فان النزيل أوكيانوف الذي كان الى

ذلك الحين أقل هؤلاء الناس ذكاءً وأكثرهم خجلا وأقلهم حماسةً ، قد استرد ، على حين فجأة ، حضور الذهن وسرعة البديهة ، واسترد جميع مواهبه الطبيعية ، فتناول قبعه وانسل خارجا من البيت •• وفي اللحظة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها في هذا المنزل الذى كان الى ذلك الحين هادئاً ساكناً ، فتح الباب ، فظهر كالصاعقة تأثيراً سيدٌ مهيب الطلعه نبيل المظهر قاسى الوجه مسناء المعبر ، يتبعه ياروسلاف ايلتش * وتابعه ، ووراءهما يقف السيد أوكيانوف مضطرباً محتاراً • سار السيد النبيل المظهر القاسى الوجه قدما الى السرير الذى كان يرقد عليه سيميون ايفانوفتش ، فجسّه ، فاذا هو يصعّر وجهه ويرفع كتفيه ويعلن أن الأمر قد انتهى ، وأن الرجل مات ، مذكّراً مع ذلك أن هذا الحادث نفسه قد وقع فى هذه الأيام الأخيرة لسيد نبيل المحتد رفيع القدر فارع القامة بدا له هكذا أن يموت • قال ذلك وابتعد عن السرير ، مضيفاً أنه قد أزعج بغير فائدة ، ثم خرج •

وسرعان ما احتـــل ياروســـلاف ايلتش مكانه ، فأصبح رمينوف وزيموفايكين بين يدى من يجب أن يكونا بين يديه • ألقى المفوض بضعه أسئله ، واستولى بلباقة على الصـــندوق الذى كانت صاحبة البيت تتهيأ لفتحه ، وردّ الحذائين الى مكانهما ، ملاحظاً انهما منقبان باليان لايصلحان للاستعمال ، وأمر بأن ترد اليه المخدة ، ونادى أوكيانوف ، وطلب مفتاح الصندوق الذى وُجد فى جيب السكّير زيموفايكين كأنما بمصـــادفة ، وفتح مأوى كنوز سيميون ايفانوفتش • كان كل ما فى الصندوق كاملا لم ينقص منه شيء : خرقتان ، وجرابان ، ونصف منديل ، وقبعة عتيقة ، وعدة أزرار ، ونعال مهترئة ، وسيقان أحذية ، أى كل ما يخطر بالبال من مزق تفوح منها رائحة العفونة والنتن • ولم يكن هنالك ما يصلح غير القفل الألمانى • وسُئل أوكيانوف بقسوة ، فقال انه مستعد لحلف اليمين• وفتّشت المخدة ، فلم يلاحظ أن هناك ما يميزها غير قذاراتها الشديدة ، أما

من جميع النواحى الأخرى فهى تشبه أية مخدة • وأقبلوا عنـــدئذ على الفراش • رفعوه أولا ، ثم لم يلبثوا أن توقفوا لحظةً يفكرون ، حـين سقط منه على الأرض شيء ثقيل رنّ رنين معدن • وتناولوا الشيء الذى سقط وجسوه فعرفوا أنه لفافة عشرة روبلات •

ــ هيه ! هيه ! هيه !

كذلك هتف ياروسلاف ايلتش مشـــيراً الى ثقب فى الفــراش كان يخرج منه الشعر والقطن الذى حشى به الفراش • ونظروا فى الشق من كثب فلاحظوا أنه ، وطوله نصف ذراع ، قد شُق منذ وقت قصـــير بسكين اكتشفوها فى الفراش نفسه بدس اليد ، ولم تكن الا سكين مطبخ صاحبة البيت • وما كاد ياروسلاف ايلتش يهتف مرة أخرى « هيــه ! هيه ! » حتى سقطت لفافة ثانية تبعتها بضعة نقود مختلفة القيم • تنـاولوا فورا كل ما سقط • وقدّروا عندئذ أن من المستحسن فتــح الفراش ، فطلبوا مقصاً •

ان بقية باقية من شمعة كانت تضيء فى تلك اللحظة لوحةً شائقــة جداً لمن يلاحظها •• عشرة نزلاء متحـلقين حــول السرير ، بمــلابس غريبة ، مشعثى الشعر ، لم يحلقوا لحاهم ، ولا غســلوا وجوههم ، قد تورمت أجفانهم من النعاس • بعضهم شاحب ، وبعضهم يتصبب منه العرق •• بعضهم يرتجف محموماً ، وبعضهم يقشعر جسمه من البرد • وصاحبة البيت مذهولة عن نفسها ، تقف هنالك وجلى ، مكتوفة اليدين تنتظر امتثالا لياروسلاف ايليتش • ومن أعلى المدفأة تحملق الخادمة آفدونيا والقطـة الأثيرة عند صاحبة البيت ، متأملين باستطلاع وذعر ، هذا المشهدَ الذى يحده الحاجز المخلع • والصندوق المبتور بطنه يكشف عن أحشائه التى تبعث على الاشمئزاز • والغطاء والمخدة ملقيان على الارض تحت الحشو

الذى ينزع من الفراش • وهده كومه من قطع فضيه ونقـود أخرى ترى متلالئة على المنضدة العرجاء • وسـيميون ايفانوفتش محافظ على هدوئه ، متمدد على سريره ساكنا لا يبدو شاعرا بدماره وخرابه • حتى اذا جيء بالمقص ، وأراد مرءوس من مرءوسى ياروسلاف أن يظهر نشاطا وهمة فشد الفراش بشيء من العنف ليسحبه من تحت صاحبه بمزيد من السرعة ، أخذ سيميون ايفانوفتش يتحرك مندحرجا على جنبه بكثير من الادب ، حتى صار ظهره الى المشاهدين • فلما شد الرجل الفراش شدة أخرى دار سيميون ايفانوفتش على بطنه ثم تدحرج مره ثانيه ، ولما كان خشب السرير ينقصه أحد ألواحه رئى رأس سيميون ايفانوفتش يغطس فجأة الى تحت ، فما يرى الناظر بين ذلك الا قدمين معـروقتين هزيلتين مزرقتين تشبهان غصنين من أغصان الشجر متكلسين • ولما كانت غطسـة السيد بروخارتشين فى هذا الاتجاه هى الغطسة الثانية فى هذا الصباح ، فقد نبت فى الأذهان بعض الشك ، فاذا ببعض النزلاء يتسلقون على السرير بقيادة زينوبى بروكوفتش بغية أن يروا هل خُبِّيء هنالك شيء • ولكن هؤلاء المتحرين لم ينتفعوا من الصـاق جباههم بالجـدار باحثين منقبين• وبأمر موجز من ياروسلاف ايلتش يدعوهم الى أن يخلوا على الفـور مكان تحقيقاته ، قام اثنان من أعقلهم فشدّ كل واحد منهما احدى ساقى سيميون ايفانوفتش ، هذا الرأسمالى الذى لم يكن فى الحسبان ، وأعادوه الى السرير • وفى أثناء ذلك كانت قبضات الريش والقطن ما تنفك تطير هنا وهناك فى جميع الجهات ، وكان المال يتكدس أكواما ما تزال تكبر ثم تكبر ••• لقد أخرجت من الفراش روبلات ثقيـلة كثيفة من روبلات النبلاء ، وأخرجت منها روبلات جديدة وأنصاف روبلات ، ونقـود من ذات الخمسين كوبكا ، ونقود شعبية من ذات الخمسة وعشرين كوبكا ، وفسالات مما تجمعه العجائز ، أى نقود من ذات العشر كوبكات والخمسة

كوبكات فضه • وكانت قطع النقد هذه ملفوفه بورق في كثير من الاعتناء، ومرتبه على نظام ومنهج ، ومصفوفه صفا منفنا • وكان ثمه نقود نادرة ، ونقود مجهـوله ، وكانت بعض الروبلات ترجع الى عهـود قديمـه : مصكوكات مطموسه النقوش مختلطه الرسوم ، من عهد اليزابث وبطرس الاكبر وكاترين ، بينها دنانير المانيه من التاليرات المـــزدانه بصـلبان • ووجدت كذلك نقود اصبحت الان نادرة جدا : نقود فضيه من ذات الخمسه عشر كوبكا قد نمبت لتجعل افراطا ودرست نقوشها تماما ، ووجدت نقود نحاسية علاها صدا أخضر • وظهرت ورقه نقديه حمراء لا وجود لهـا الان • حتى اذا فرغوا من هذا الفحص التشريحى وهزوا حشو الفراش فلم يسمعوا صليل أى نقد ، وأيقنوا من أنه لم يبق ثمه شيء ، وضـعوا الاموال كلها على المنضدة وأخذوا يقومون بواجب عدّها • لقد تخيلوا فى أول الأمر أنها تبلغ مليونا • وكان المبلغ ضخما على كل حال ، وان يكن بعيدا كل البعد عن أن يبلغ مليونا • كان مجموعه ألفين وأربعمائة وسبعة وتسعين روبلا وخمسين كوبكا • فلو قد تم اكتتاب التبرع الذى اقترحه زينوبى بروكوفتش فى الليله البارحه اذن لوصل المبلغ الى ألفين وخمسمائة روبل •

صُرَّ المال • ووسم صندوق الميت بالختم ، وقيل لصاحبة البيت حين سُمعت شكاواها أين ومتى تستطيع أن تقدم الشهادة التى تثبت ديونها على المرحوم • وطُلب التوقيع ممن يجب أن يوقّعوا ، وأشير بكلمتين الى امرأة الأخ • ولكن سرعان ما وضح أن امرأة الأخ هذه لم تكن الا أسطورة ، نشأت عن فقر فى خيال المرحوم بروخارتشين ، وهو فقر فى الخيال طالما عيب عليه فتقرر عندئذ أن لا يؤتى على ذكرها ، باعتبار أن ذلك لا فائدة منه عدا أنه يسيء الى سمعة السيد بروخارتشـين • فلما انقضى الانفعـال الأول ، وعُرف ماذا كان المتوفى ، أصبح الحضـــور جميعاً صامتين لا

يتكلمون ، وأخذوا يتبادلون نظرات الريبة والشك • وثار بعضهم من أسلوب بروخارتشين هذا في الحياة ، وشعر بامتعاض عميق •• ثروة كهذه ! كيف أمكن هذا الرجل أن يجمع مبلغا ضخما كهذا المبلغ ؟

وأخذ مارك ايفانوفتش يشرح ، واثقا من نفسه مسيطرا عليها ، لماذا سقط سيميون ايفانوفتش فجأة في مرض الذعر هذا • ولكن لم يصغ اليه أحد • وأطرق زينوبي بروفوكتش شارد اللب يفكر ، وشرب أوكيانوف جرعة ، وتجمع الآخرون على أنفسهم ، وفي المساء أخذ كانتاريوف القصير الذي يتميز بأنف كأنه منقار عصفور ، أخذ يحزم أمتعته ويربطها بعناية ، ثم غادر البيت منتقلاً الى غيره قائلا لسائليه بلهجة فاترة ان الزمان صعب ، وان الأجور في هذا البيت باهظة جدا • أما صاحبة البيت ، فكانت تبكي بغير انقطاع ، لاعنةً سيميون ايفانوفتش هذا الذي لم يتورع عن الاضرار بيتيمة فقيرة مسكينة • ولمَّا سأل أحدهم مارك ايفانوفتش لماذا لم يودع سيميون ايفانوفتش ماله أحدَ البنوك في رأيه ، أجابه هذا بقوله :

ـ ماذا تريد ؟ هو انسان بسيط العقل ، يعوزه الخيال •

فقال أوكيانوف لصاحبة البيت :

ـ وأنت يا عزيزتي لم تكوني دونه بساطة ••• رجل أرْدَتْه مزحة بسيطة ، يقيم عندك عشرين عاما ثم لا تستطيعين أن ••• هيء هيء ! ••• يا عزيزتي ! •••

قالت صاحبة البيت تجيب ذلك الذي وجه السؤال الى مارك ايفانوفتش ، متظاهرةً بأنها لم تسمع الكلمات المغرضة التي قالها أوكيانوف:

ـ ما هذا الكلام الذي تقوله ؟ علام يودع أمواله البنك ؟ ما كان عليه

الا أن يحمل الىّ قبضة طيبة منها ، وأن يقول لى : « خذي هـذا لك يا أوستنيوشكا الشابة ، وأطعميني الى آخر أيامي • » وأحلف لك أنه لو فعل ذلك لأطعمته وعُنيت به ! آه ••• يا له من كذاب • لقد خدعنى أنا اليتيمة الفقيرة ! »

وعادوا قرب سرير سيميون ايفانوفتش • انه الآن راقد رقدة لائقة، مرتدٍ أحسن رداء عنده ، وهو الرداء الوحيد على كل حال ، وذقنه المتصلّبة مختبئة وراء ربطة العنق التى أسىء عقدها • لقد غسلوه ، ومشطوا شعره ، ولكنهم لم يحلقوا له ذقنه لأنهم لم يجدوا في المنزل موسى حلاقه• كان ثمة موسى حلاقه ، هي ملك زينوبى بروكوفتش ، ولكنها بلغت من التثلم أنها أصبحت لا تصلح للاستعمال ، فبيعت بسعر بخس فى سوق تولكوتشى ، وأصبح جميع النزلاء منذ ذلك اليوم يحلقون ذقونهم عند الحلاق • ولم يتسع الوقت لاصلاح الفوضى فى ركن سيميون ايفانوفتش• ان الحاجز المحطم راقدٌ على الأرض يكشف عن عزلة ذلك الانسان الذى اختبأ وراءه ، ويرمز الى هذه الحقيقه : وهى أن الموت ينزع جميع الحجب، ويهتك جميع الأسرار ، ويعرّى جميع المكائد • وحشو الفراش منثور على الأرض كلها ، فلو رآه شاعر لما فاته أن يشبه هذا الركن الذى أصبح الآن باردا خربا بعش من أعشاش أنثى السنونو « ربة البيت » • لقد خرّبت العاصفة كل شيء : ماتت الأم وصغارها ، وتبعثر العش الذى صنعه الحب من ريش وزغب •

غير أن وجه سيميون ايفانوفتش أقرب الى أن يكون وجه أنانى عجوز ، أو دورى سارق • هو الآن هادىء كل الهدوء ، كانسان مرتاح الضمير ، كأنه لم يكن صانع تلك المكائد التي تخدع الناس خداعا دنيئا • أصبح لايسمع بكاء صاحبة البيت المهجورة • بل انه أشبه برأسمالى خبيث

قرر أن لا يضيّع وقته فى غير عمل حتى القبر ، فهو الآن مستغرق استغراقا كاملا فى حسابات لاتنتهى . وجهه يعبّر عن تأمل عميق ، وشفتاه مزمومتان على وقار ما كان يظن يوما أنه قادر عليه أثناء حياته . كان يبدو أنه قد اكتسب ذكاء كثيراً . انه لم يغمض عينه اليمنى الا نصف اغماض ، كأنه أراد أن يبلّغ أمراً من الأمور على عجل ثم لم يتسع وقته لشرحه ... كان كمن يقول :

« هلاّ كفكفت دموعك أيها الحمقاء ؟ هيّا موتى ، هل تسمعين ؟ لقد مت أنا ولم تبق بى حاجة الى أى شىء . ما أحلى أن يرقد المرء هـذه الرقدة المريحة ... مادمت أقول لك اننى مت ! هذا مستحيل حقا ، ولكن ، مع ذلك ، هبينى لم أمت ، وهبينى أنهض فجأة ، فما عسى أن يترتب على ذلك ؟ »

« الجارة » (Hoziaïka) ، كتب دوستويفسكى هذه القصة سنتى ١٨٤٦ و ١٨٤٧ ، ونشرت فى مجلة « حوليات الوطن » فى شهرى تشرين الأول (أكتوبر) وكانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٧ ، مج ٥٤ ، مج ٥٥ .

الفصل الأول

١

قرّر أوردينوف أخيرا أن يستبدل بمسكنه مسكنا آخر • ان صاحبة البيت التى ينزل عندها ، وهى امرأة طاعنة فى السن ، فقيرة جدا ، أرملةُ موظف ، قد اضطرت ، لأسباب لم تكن فى الحسبان ، أن تترك سان بطرسبرج وأن تمضى تعيش عند أقرباء لها ، فى قرية صغيرة ، حتى دون أن تنتظر الى آخر الشهر ، موعد انتهاء استئجارها المنزل • وقد بقى الشاب حتى آخر الشهر ، المدفوع الاجرة سلفا ، وهو الآن يفكر ، على أسف وحسرة ، فى هذا البيت الذى يضطر الى تركه ، ويشعر من ذلك بحزن شديد • ومع ذلك فالشاب فقير ، وأجرة المسكن باهظه • ها هو ذا منذ الغداة ، بعد سفر صاحبة البيت ، يضع قبعته على رأسه ، ويخرج مطوّفا فى الأزقة الضيقة من بطرسبرج ناظرا الى اللافتات

الملصوقة على أبواب الدور ، متوقفا خاصة على العمارات القاتمة المظلمة المكتظة بالسكان ، فان الأمل في العثور على غرفة تناسبه لدى مستأجرين فقراء في مثل هذه العمارات أكبر منه في عمارات أخرى •

وانه لفي هذا الطواف والبحث ، اذا هو يشعر بعد فترة باحساسات جديدة تكاد تكون مجهوله ، تغزوه شيئا بعد شيء • لقد أخذ ينظر فيما حوله ، ذاهلا غير حافل أول الامر ، يقظا شديد الانتباه بعد ذلك • ان الجمهور وحياة الشارع والصخب والحركة والاشياء الجديده وهذا النشاط كله وهذا الاضطراب الذي تضطربه الحياة اليومية فيضجر ساكن بطرسبرج المشغول المجهد المرهق الساعي عمره عبثا ، بجهد ضخم ، الى الهدوء والراحة في عشٍ دافيء يحصّله بعمله أو وظيفته أو بوسائل أخرى ، ان كل هذه الاشياء التافهة السخيفة ، توقظ الآن في نفس أوردينوف احساسا عذبا فرحا يوشك أن يكون حماسة • فخداه الشاحبان يغشاهما شيء من حمرة ، وعيناه تسطعان بأمل جديد ، وهو ينشق الهواء البارد الطري أنفاسا كبيرة ، بشراهة • انه يحس بخفة عظيمة لا عهد له بمثلها من قبل •

لقد عاش دائما حياة هادئة معتزلة ، وحصل منذ ثلاث سنين على درجة علمية ، فلما أصبح بذلك حرا على قدر الامكان ، مضى يزور رجلا عجوزا لم يكن يعرفه قبل ذلك الا بالاسم • وقد تُرك ينتظر مدة طويلة ، الى أن تكرم حاجب يرتدي ثياب الحجاب في منازل الكبار ، أن يبلغ العجوز وصول الشاب مرة ثانية • فأدخل الى قاعة عالية السقف مظلمة مقفرة لا تحسن وفادة زوارها ، قاعة من هذه القاعات التي لا يزال يوجد مثلها في بعض القصور التي تجمدت فيها الحياة • هنالك في هذه القاعة رأى شيخا أشيب الشعر مثقلاً بالأوسمه والنياشين هو صديق المرحوم أبيه ، والوصيُّ عليه • نقده الشيخ مبلغا ضئيلا من المال هو البقية الباقية

من ميراث أجداده الذى بيع بأمر من القضـــاء سدادا لديونه • فتناول أوردينوف المال غيرَ مبال ، ثم ودّع الشيخ الوصيّ عليه الى الأبد ، وخرج الى الشارع • كان ذلك الأصيل من الخريف باردا مظلما ، وكان الفتى ساهما شارد اللب واجما ، فى قلبه حزن كبير يمزقه تمزيقا • ان عينيـه تشتعلان بلهب ، وان جسمه تعتريه رعشات حمى • وكان ، وهو سائر فى طريقه ، يجرى فى ذهنه حسابا ، فيدرك أنه بالمال الذى أخذه من الشيخ قد يستطيع أن يعيش سنتين أو ثلاثا ، وربما أربعا ، هذا اذا لم يأكل دائما كلما جاع • وهبط الليل • وأخذ المطر يهطل • واســتأجر الفتى أول مأوى وقع عليه ، فما هى الا ساعة حتى كان قد أقام به ، واستقر فيه • وهنالك ، فى هذا المسكن ، حبس نفسه حبس من يعيش فى دير ، واستغنى عن العالم استغناء كاملا ، حتى أصبح بعد سنتين متوحشــا كل التوحش لا يعاشر أحدا •

أصبح كذلك دون أن يلاحظ • كان لا يخطر بباله أن هناك حياة أخرى صاخبة مضطربة متغيرة جذابة ، لامفر منها عاجلا أو آجلا • صحيح أنه سمع عن هذه الحياة بالرغم منه، ولكنه كان يجهلها ولايسعى الى معرفتها •• لقد قضى حياته فى عزلة • وهــو الآن غارق غرقا كاملا فى هوىً عميق ، هوىً لا يشبع ولا يرتوى ، هوىً من تلك الأهواء التى لا تدع لأشخاص مثل أوردينوف أى فرصة للقيام بأى نشاط عملى حياتى : ذلك الهوى هو « العلم » • كان ذلك الهوى يفسد شبابه بسمٍ بطىء لذيذ ، حتى ليعكر عليه راحة لياليه ، ويحرمه من الغذاء الصحى والهواء النقى الذى لم يكن يدخل مأواه قط • ولكن أوردينوف ، المولع بهواه المشغوف به ، كان لا يريد أن يلاحظ ذلك • انه شاب ، وهو لا ينشد الآن شيئا عدا ذلك • ان هواه يدعه طفلا فى كل ما هو حياة خارجية ، ويجعــله عاجزا الى الأبد عن اقصاء بعض الناس ليتخذ لنفسه مكانا صغيراً بينهم عند

الضرورة • ان العلم هو فى بعض الأيدى رأسمال ، أما هوى أوردينوف فقد كان سلاحا موجها ضده •

ولم تكن الرغبة الواضحة المنطقية فى التعلم هى التى وجّهته الى الدراسات التى وقف نفسه عليها حتى ذلك اليوم ، بل كان ذلك نوعا من انجذاب لا شعورى • لقد عُدَّ سخصا غريبا متفردا منذ أن كان طفلا ، لأنه لم يكن يشبه رفاقه فى شىء • انه لم يعرف أبويه • وهو بسبب طبعه الغريب وبسبب توحشه قد قاسى كثيرا من زملائه فى المدرسة ، فزاده ذلك عبوسا ، حتى ابتعد شيئاً فشيئاً عن جميع الناس ابتعادا كاملا ، وانطوى على نفسه •

وهو فى دراساته المعتزلة لم يتبع لا فى الماضى ولا فى الحاضر نظاما أو ترتيبا • كان ذلك فيه أشبه بالاندفاعة الأولى ، بالحماسة الاولى ، بالحميا الاولى التى يشعر بها الفنان • خلق لذاته مذهبا خاصا به : فكر فيه سنين طويلة ، فكانت تتكون فى نفسه ، شيئا بعد شىء ، صورة ما تزال غامضة ، ما تزال بغير شكل ، ولكنها جميلة جمالا لا نظير له ، صورة الفكرة تتجسد فى شكل جديد مشرق مضىء • وكان هذا الشكل الذى يريد أن يخرج من نفسه يعذبه ويرهقه من أمره عسرا • انه يشعر بأصالته وصدقه وقوته شعورا وجلا خجلا • كان مخلوق يريد منذ الآن أن يعيش بنفسه ، أن يتخذ شكلا ، أن يتقوى وأن يتعزز فى هذا الشكل، ولكن نهاية الاختمار ما تزال بعيدة ، ولعلها بعيدة جدا ، ولعلها مستحيلة المنال لا يمكن الوصول اليها بحال •

ها هو ذا أوردينوف اذن يسير فى الشوارع كغريب ، كناسك خرج فجأة من صحراء صمته ، فى المدينة الصاخبة المتحركة • ان كل شىء يبدو له جديدا طريفا شائقا • ولكنه غريب عن هذا العالم الذى يغلى من حوله

ويضطرب ، يبلغ من غرابته عنـــه أنه لم يخطر بباله أن يدهش من احساساته العجيبه هذه • كان لا يبدو أنه واعٍ توحشه • بالعكس : ان شعورا بالفرح ، شعورا يشبه شعور الجائع الذى صام زمنا طويلا ، ثم أعطي ما يأكله ويشربه ، كان ينشأ في نفس اوردينوف • لقد يبدو امرا غريبا أن يكون حادث تافه تفــاهة تغيير مسكن كافيــا لأن يطيش لب ساكنٍ من سكان بطرسبرج وأن يلقى فى نفسه هذا الانفعال ، ولو كان أوردينوف• ولكن يجب ان نذكر أن هذه المرة التى يخرج فيها أوردينوف ربما كانت هى المره الاولى التى يخرج فيها لعمل• وكان استمتاعه بالطواف في الشارع ما ينفك يزداد ، وأصبح ينظر الى جميع الاسياء نظرة متسكع•

ولكنه ما يزال حتى الآن وفيا لشاغله المألوف ، فهو يقرأ فى المشهد، الذى ينكشف أمامه رائعا ، قراءته بين سطور كتاب • ان كل شيء يفجأ بصره ، انه لا يدع احساسا واحدا ، وهو بنظرته الساهمة ينفرس وجوه المارة ، ويلاحظ مظهر كل ما يحيط به فى انتباه ، ويصغي مفتونا الى اللغة التى يتخاطب بها الشعب ، كأنه يتحقق خاصة من صدق النتائج التى خلص اليها فى هدوء لياليه المعتزلة • وكثيرا ما يخطف بصره أمر تفصيلي ، فيوقظ في نفسه فكره ، فيشعر لأول مرة بالأسف والحسرة على أنه دفن نفسه حيا فى زنزانته • ان كل شيء يجرى هنا جريانا أسرع : نبضات قلبه أقوى ، وفكره الذى أرهقته العزلة وكان لا يعمل الا بتحريضٍ من الجهد المتحمس ينطلق الآن بخفة وثقة وجرأة • وهو يمني ، عدا ذلك، على غير شعور تقريبا ، أن يدخل في هذه الحياة الغريبة عليه ، بشكل من الأشكال • ذلك أنه ، حتى هذا اليوم ، كان لا يعرف هذه الحياة • أو قل انه كان لا يتوجسها الا بغريزة الفنان • ان قلبه يخفق الآن بقلق الحب والمودة رغما عنه • انه يتفرس بمزيد من الانتباه وجوه الناس الذين يمرون أمامه ، ولكنهم جميعا بعيدون مهمومون ساهمون ••• وشيئا فشيئا

تبددت عاطفة أوردينوف • أخذ الوافع يرهقه منذ الان ، ويفرض عليه نوعاً من الخشية والاحترام • ان هذه الفورة من الاحساسات التى كان يجهلها الى ذلك الحين آخذت تتعبه • فكما ينهض مريض من المرض عن سريره لأول مرة فرحا ، ثم يعود فيهــوى بتأثير الضياء وزوبعة الحياة الساطعة ، كذلك أوردينوف بهرته ألوان الجمهور الذى يمــر أمامه ، وأتعبته ضجته ••• فاعتراه الحزن ، وانتابه القلق • وأخذ يشعر بخوف على حياته كلها ، وعلى نشاطه ، وحتى على مستقبله • ان فكرةً جـديدة تفتل هدوءه : لقد قال لنفسه فجأة انه وحيد ، فما من أحد يحبه ، ولاأتيح له هو أن يحب أحدا فى يوم من الايام • ان بعض المارة الذين كلمهم عرضا حين بدأ جولته قد نظروا اليه نظرة غريبة ، جارحة • لقد لاحظ أنهم يعدونه رجلا مجنونا ، أو يعدونه انسانا شاذا كل الشذوذ فى أقـل تقدير ، وذلك صادق تماما على كل حال • وتذكر عندئذ أن جميع الناس كانوا يضيقون ذرعا بوجوده ، دائما ، وتذكر أن جميع الناس كانوا ، منذ طفولته ، يتحاشونه ويتجنبونه بسبب طبعه المغلق العنيد ، حتى أن العطف الذى كان يظهر فى نفسه أحيانا كان يشــق على الآخرين أو كانوا لا يفهمونه • ولقد تألم من هذا كله فى طفولته ، يومَ لم يكن يشبه أى طفل فى سنه • انه يتذكر ذلك الآن ، فيدرك أن جمــيع الناس قد هجروه وهربوا منه فى كل وقت من الأوقات •

وظل أوردينوف يسير ويسير ، فاذا هو يجد نفسه فى حيٍ بعيدٍ جدا عن وسط المدينة ، دون أن يشعر كيف وصل الى هذا المكان • وبعد أن تناول غداءً مختصرا فى مطعم صغير ، استأنف طوافه فى الشوارع ، فاجتاز ميادين ، حتى وصل هكذا الى طريق تصطف على جانبيه أشجار صفراء وغبراء • ليس ها هنا عمارات غنية ، بل أكواخ بائسة ، ومبــانى مصانع ضخمة عملاقة جمراء مسوّدة ذات مداخن عالية • وكل ما حول

ذلك أرض خلاء قفراء • ان كل شيء هنا عابس كالح عـدو ، أو ذلك ما يدا لصاحبنا أوردينوف • وكان المساء يقترب • وفي آخر شارع ضيق طويل وصـــل اوردينوف الى الساحه الصـــغيرة التي تقع فيها كنيسة الأبرشيه •

دخل اوردينوف الكنيسة ذاهلا • كان القداس قد انتهى منذ قليل• والكنيسة تشبه أن تكون خاليه • هاتان امرأتان عجوزان راكعتان عنـــد المدخل • وهذا قندلفت ، وهو سيخ قصير اشيب الشعر ، يطفيء الشموع• ان أشـــعة الشمس الغاربة تجتاز زجاج القبــة الضيقة موجة كبيرة فتنير أحد الهياكل بضياء ساطع • ولكن تلالؤ الاشعه يكبو شيئا بعد شيء ، فكلما ازداد تكاثف الظلام في داخل المعبد ازدادت في بعض المواضـــع روعة تألق الأيقونات المذهبة ينيرها الضياء المهتز المنبعث من السُرُج والشموع•

ألمَّ بأوردينوف غم عميق ، وشعور غريب بالاختنـاق ، فاستند الى الجدار في أعتم ركن من الكنيسة ، واسترخى لحظة • ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه حين سمع وقع خطوات صماء منتظمة تدوى تحت قبةالكنيسة، هى خطوات زائرين اثنين • رفع أوردينوف عينه فأحس بحب استطلاع لا يوصف حين وقع بصره على هذين القادمين • انهما شيخ عجوز وامرأة شابة • العجوز فارع القامة منتصب القد ، لكنه شديد النحول يعلو وجهه شحوب مرضى • يقدّر المرء من النظر الى مظهــــره أنه تاجر من اقليم بعيد • انه يرتدى قفطانا طويلا أسود محلول الأزرار مبطنا بفراء لا شك أنه الرداء الذى يرتديه للأعياد ، وتحت القفطان يبدو ثوب آخر طويل جدا أُحكم عقد أزراره من أعلاه الى أدناه • وقد لف عنقه بوشاح أحمر فاقع ، على اهمال ، وأمسك بيده طاقية من فرو ، وتهدّلت على صـــدره لحية رقيقة شيباء ، والتمعت تحت حاجبيه الكيفين نظرة محمومة متكبرة عميقة •

آما المرأة فهى فى نحو العشرين من عمرها ، جميلة جمالا رائعا • انها ترتدى معطفا جميلا قصيرا آزرق مبطنا بفراء نادر • وقد غطت راسها بمنديل من حرير أبيض ، معقود تحت الذقن • وهى تمشى غاضة طرفها : ان وقارا واجما نابعا من شخصها كله ، يلاحَظ واضحا حزينا على حواشى وجهها الرقيق ذى الخطوط الدقيقة المرهفه العذبة الحلوة ، الفتية المراهقة •

ان فى هذين الرفيقين غير المنتظرين لشيئا غريبا •

توقف الشيخ فى وسط الكنيسة وانحنى الى جميع الجهات رغم أن الكنيسة خالية خلوا تاما ، ففعلت صاحبته مثلما فعل ، ثم تناول ذراعها وقادها أمام صورة كبيرة من صور العذراء التى باسمها تسمى الكنيسة ؛ كانت الصورة تسطع قرب الهيكل فى ضوء باهر من نيران يعكسها اطارها الذهبى المرصع بالأحجار الكريمة •

سلم القندلفت ، الذى كان وحيدا فى الكنيسة ، على الشيخ باحترام• فرد عليه الشيخ السلام باشارة من رأسه • وركعت المرأة أمام الايقونة ؛ فتناول الشيخ طرف الحجاب المعلق بالأيقونة فغطى به رأسها • ودوى فى الكنيسة بكاء منتحب أصم •

دهش أوردينوف من جلال هذا المشهد كله ، واشتعل فيه شوق شديد الى رؤية خاتمته • بعد دقيقتين أنهضت المرأة رأسها ، فأنار ضوء المصباح القوى وجهها الجميل الأخاذ من جديد • ارتعش أوردينوف وتقدم خطوة الى أمام • كانت المرأة قد مدت يدها للشيخ ، فتناولها وخرج الاثنان من الكنيسة على هون • كانت دموع تلتمع فى عينى المرأة الشابة، وهما عينان زرقاوان عميقتان ، تعلوهما أهداب تبرز على بياض وجهها وتظلل خديها الشاحبين • وكانت ابتسامة تضىء شفتيها ، ولكن وجهها

يحمل اثار رعب غريب وذعر شديد من ذعر الاطفال • سدت نفسها الى الشيخ وجلة خجلى ، وكان من يراها يلاحظ آنها ترتعش ارتعاشا قويا من شدة الانفعال •

شعر اوردينوف بعاطفة غريبة فرحة عنيدة تحرضه على أن يتبعها فأسرع يسير وراءهما حتى اذا وصلا الى الفناء الذى يقع أمام الكنيسة قطع عليهما الطريق ، فرشقه الشيخ بنظرة شزراء قاسية معادية ، والقت عليه المرأة الشابة نظرة قاسية أيضا ، ولكن ليس فيها شىء من حب الاسنطلاع ، وانما هى نظرة ذاهلة ، كأن فكرة أخرى بعيدة كانت تستغرقها •

ظل أوردينوف يتبعهما من غير أن يدركا ذلك • وكان الليل قد هبط • دخل الشيخ العجوز والمرأة الشابة فى شارع كبير عريض قذر تملؤه دكاكين صغيرة شتى ، ومخازن دقيق ، وفنادق حقيرة ، شارع يفضى الى ظاهر المدينة رأسا • وفى هذا الشارع دخلا زقاقا طويلا ضيقا يحف به من طرفيه سياجان ، وينتهى عند جدار ضخم مسود هو جدار عمارة كبيرة مؤلفه من أربعة طوابق ، يطل مخرجها الآخر على شارع كبير مكتظ بالسكان • فلما أوشكا أن يبلغا هذه العمارة التفت الشيخ فجأة الى وراء ، ورشق أوردينوف بنظرة تعبر عن التبرم ونفاد الصبر • فتوقف الفتى فورا وقد دهش هو نفسه من سلوكه • ثم التفت الشيخ مرة ثانية كمن يريد أن يتأكد من أن تهديده قد أحدث أثره • وولج الاثنان ، الشيخ والمرأة الشابة ، فى فناء المنزل •

عاد أوردينوف أدراجه يثوب الى منزله • انه معتكر المزاج قاتم النفس • وهو يأخذ على نفسه أنه أضاع نهاره كله سدى على هذا النحو ، وأنه أجهد نفسه بغير داع الى هذا الاجهاد ، وأنه خاصة قد قام بهذا العمل الذى عده نوعا من مغامرة وما هو فى حقيقة الأمر الا حادث تافه مبتذل•

ورغم ما شعر به عند الصباح من أسف لعزلته وتوحشه ، فان غريزته الان تحمله على أن يتجنب كل ما يمكن آن يصرفه عن عالمه الداخلي الفنى ، وأن يذهله عنه وأن ينتزعه منه • انه الآن يفكر في ركنه الهادىء ، بشيء من الحزن وشيء من الحسرة • ثم شعر بغم وخوف ، وأحس بهم وقلق ، قلق على وضعه غير المستقر ، وعلى المساعي التي يجب أن يقوم بها ، وكان يحنقه في الوقت نفسه أن يضطر الى الاهتمام بمثل هذه الأمور التافهة البائسة • وأخذ منه التعب كل مأخذ حتى أصبح لا يستطيع أن يربط بين فكرتين ، ووصل أخيرا ، في ساعة متأخرة ، الى مسكنه • وما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه أوشك أن يمر أمام بيته دون أن يعرفه • فهز رأسه استغرابا لهذا الذهول الذى عزاه الى تعبه ، وصعد سلم المنزل صعودا آليا حتى وصل الى غرفته التى تقع تحت السطح • أشعل أوردينوف شمعة • فما هي الا دقيقة واحدة حتى انبعثت صورة المرأة الشابة الباكية في خياله • ان هذه الصورة تلازمه وتحاصره قوية التأثير فى نفسه • وهو يتأمل قسمات وجهها الحلوة العذبة الهادئة ، وجهها الذى يرين عليه حنان خفي وخوف قوى ، وتبلله دموع حماسة من حماسة الأطفال أو ندامة من ندامة الأطفال ، فيتأمل ذلك كله بحب يبلغ من القوة أنه يحس عينيه تحتجبان وأنه يشعر بنار تسرى في عروقه كلها • ولكن الرؤيا ما تلبث أن تزول • فبعد الاهتياج يأتى التفكير ، ثم يأتى الندم ، ثم يأتى نوع من الغضب • وبعد ذلك يتدثر أوردينوف بأغطيته ويرتمى على سريره ، دون أن يخلع ملابسه ، وقد هده التعب هدا •••

استيقظ أوردينوف في ساعة متأخرة من الضحى • انه يشعر بحنق، ويشعر بحزن ووهن • ارتدى ثيابه بسرعة محاولا أن يفكر في همومه اليومية ، حتى اذا صار خارج المنزل ، وجه خطاه في اتجاه هو عكس

الاتجاه الذي سار فيه بالأمس • واهتدى أخيرا الى غرفه فى مكان ما ، بمنزل رجل ألمانى فقير يسمى سبيز ، ويعيش مع ابنته تينيش • فبعد أن استلم سبيز عربون أجر الغرفة ، راح ينزع اللافتة التى كانت معلقة عند مدخل المنزل • وقد ارتضى أن يؤجر الغرفة لصاحبنا أوردينوف بسبب شغف أوردينوف بالعلم ، لأنه كان ينوى هو نفسه أن ينصرف الى الدرس انصرافا جديا • وقدر أوردينوف أنه سيستقر بهذا المنزل في ذلك المساء نفسه • وعاد يسير فى الطريق المفضى الى بيته ، ولكنه لم يلبث أن فكر قليلا ، فاذا هو يتجه فجأة في الاتجاه المعاكس • كان نافد الصبر ، فبدا له الطريق طويلا كل الطول • ووصل أخيرا الى الكنيسة التي دخلها مساء أمس • كانت الصلاة ترتل • فاختار مكانا يستطيع منه أن يرى جميع الداخلين الى الكنيسة تقريبا • ولكن الشخصين اللذين كان ينتظرهما لم يكونا هنالك • وبعد أن لبث ينتظر مدة طويلة ، خرج متقد الوجه احمرارا • واذ أصر على أن يكبح عاطفة كانت تغزوه رغما عنه ، حاول أن يغير مجرى تفكيره بكل ما أوتى من قوة • وارتد يفكر فى الشئون اليومية ، فرأى أنه قد آن له أن يتغدى ، واذ ظن أنه يشعر بجوع حقا ، دخل الى ذلك المطعم الصغير نفسه الذى تغدى فيه بالأمس • ولم يتذكر بعد ذلك كيف تركه •

وظل يطوف زمنا طويلا فى الشوارع والأزقة المزدحمة بالسكان أو الخالية المقفرة ، دون أن يكون في ذهنه أفكار واضحة ؛ فوصل أخيرا الى مكان ناء ليس من المدينة ، بل هو برية يمتد فيها حقل مصفر • هنالك كان يرين صمت عميق ، فشعر أوردينوف باحساس لم يشعر بمثله من زمن طويل ، فآب الى نفسه • ان ذلك النهار هو من تلك النُهُر الجافة الباردة التى تُرى أحيانا فى شهر تشرين الاول ببطرسبرج• وغيرَ بعيد من ذلك المكان كان ثمة كوخ من أكواخ الفلاحين ، وعلى مقربة من

الكوخ ، كان ثمة كومتا علف • وهذا حصان صغير ناتيء الجنبين، خافض الراس متدلي اللسان ، يقف بلا عدة قرب عربة صغيرة ذات عجلتين • كان الحصان كأنه يحلم بشيء ما • وهذا كلب يهمهم وهو يقضم عظمة قرب عجلة محطمة • وهذا طفل في الثالثة من عمره لا يرتدي من الثياب الا قميصا يحك رأسه الأشقر ، وينظر مدهوشا الى هذا الحضري الواقف هنالك • ووراء الكوخ تبدأ حقول وبساتين وعند الأفق يرى الخط الاسود الذي تبدأ عنده الغابة ، يحف بالسماء الزرقاء • وفي الجهة المقابلة تتكدس غيوم ثلج وتبدو كأنها تطارد أمامها سربا من الطيور المهاجرة هاربا في السماء بلا صياح • كل شيء صامت ، كل شيء حزين ، كأنه نوع من الانتظار ••• أراد أوردينوف أن يوغل مزيدا من الايغال ، ولكن القفر أخذ يقبض صدره • فعاد الى المدينة حيث سمع على حين فجأة رنين نواقيس الكنائس تدعو المؤمنين الى صلاة الغروب • حث أوردينوف الخطى ، فلم يلبث أن وجد نفسه أمام الكنيسة التي أصبح يعرفها معرفة جيدة منذ الليلة البارحة •

كانت المرأة المجهولة موجودة هنالك •

انها راكعة ، عند المدخل ، بين جمهور المصلين • شق أوردينوف لنفسه طريقا بين الشحاذين والعجائز اللابسات أسمالا رثة والمرضى وذوي العاهات الذين ينتظرون الصدقات على باب الكنيسة ، وجاء يركع قرب المرأة الشابة المجهولة • تلامست ثيابهما • سمع أوردين نفسها اللاهث يخرج من بين شفتيها ، ويهمس بدعاء حار • ان عاطفة من تقوى تعصف بقسمات وجهها الآن ، كما كانت تعصف بها أمس ، وان دموعا تسيل على خديها الملتهبين وتجف عليهما ، كأنما لتغسلهما من جريمة رهيبة • كان المكان الذي يصليان فيه مظلما تماما • وفي لحظات قليلة

كان الهواء الذى يدخل من النافذة الضيقة المفتوحة يهز شـعلة الشمعة فتنـير وجه المرأة الشابة بضياء مترنح ، فاذا بكل قسمة من قسمات هـذا الوجه المنقوش فى ذاكرة أوردينوف يعتم بصر الرجل ويطرق قلبه بألم أصم لا يطاق • ولكن هذا الألم كان يشـتمل على متعـة لا تغالب • ولم يستطع أوردينوف أن يتمـالك نفسـه ، فها هو ذا صـــدره يرتجف ، وها هو ذا يبكى ناشجا ويميل بجبينه المحترق فيضعه على البلاط البارد من أرض الكنيسة • أصبح لا يسمع شيئا ولا يحس شيئا الا عذاب قلبه الذى يموت ألما لذيذا •

هل العزلة هي التى أنشأت لدى أوردينوف هذه الحساسية المفرطة وهذا الصفاء وهذا الضعف في العاطفة ؟ أكان توثب القلب هذا يتهيأ فى ذلك الصمت الخانق اللانهائى ، صمت الليالى الطويلة الساهرة الأرقة التى تتخللها صوات لا يشعر بها صاحبها ، وتخالطها رعشات روح نفد صبرها، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون قد آن أوان اللحظة الباهرة ، المحتومة ، التى لا معدى عنها ولا مفر منها ؟ انه ليتفق فى يوم حار خانق أن تتجهم السماء كلها على حين بغتة ، فتسقط الصاعقة مطرا ونارا على الارض العطشى ؛ وتهطل الصـاعقة لآلىء ماء على أغصان الشجر ، وتلطم عشب الحقـــول وتسحق الأزهار الطرية على الارض ، حتى اذا طلعت اولى أشعته انبعثت الحياة فى كل شىء من جديد ، وأخذ كل شىء يهلل للسماء ويرسل اليها بخوره المنعش ، ويغنى لها نشيد العرفان بالجميل ••• ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن يدرك ما يجرى فى نفسه ، ولا يكاد يشعر بوجوده•

انتهت الصلاة أخيرا ، حتى دون أن ينتبه أوردينـوف الى ذلك ، ورأى نفسه يسير فى اثر المرأة المجهولة خـلال الجمهور المتكاثف عنـد مخرج الكنيسة • فكانت المرأة الشابة المجهولة تلتفت اليه كلما أوقفهـا

الجمهور عن سيرها من لحظة الى لحظـة • ان دهشـتها ما تنفك تزداد ، وها هو ذا وجهها يصطبغ بالحمرة على حين فجأة •

وفى هذه اللحظة ظهر الشيخ الذى كان يرافقها بالأمس ، ظهر بين الجمهور بغتة ، فأمسك بذراعها • والتقى أوردينوف من جديد بنظـرته الشزراء الساخرة ، فعض قلبه غضب غريب مفاجىء • واذ غابا عن بصره فى الظلام ، اندفع بجهد عنيف فخرج من الكنيسة • ولكن الهواء الطرى الذى كان يملأ جو المساء لم يستطع أن ينعشه • ان تنفسه يتقطع ويضعف، وان قلبه يخفق خفقـانا بطيئا قويا حتى لكأنه يريد أن يشق صـدره • وأدرك أخيرا أنه ضيع صاحبيه المجهـولين تماما ، فانه لم يرهمـا لا فى الشارع ولا فى الزقاق الضيق • ولكن ها هى ذى فكرة خطـة جريئـة غريبة تنبت فى ذهن أوردينوف ، فكرة مشروع من تلك المشاريع الجنونية التى تكلل مع ذلك بالنجاح فى جميع الأحيان تقريبا •

ففى الساعة الثامنة من صباح الغد مضى أوردينوف يذهب الى منزلهما من جهة الزقاق الضيق ، فدخل فناء صغيرا قذرا يشبه أن يكون حفـرة لأوساخ العمارة •

كان البواب منهمكا فى عمل من الاعمال بالفناء ، فلما رأى أوردينوف داخـلا توقف عن العمل مسندا ذقنـه الى ذراع مجرفته ، ناظـرا الى أوردينوف من رأسه الى قدميه ، ثم سأله عما يريد •

البواب فتى فى نحو العشرين من عمره ، تترى الأصل قصير القامة له وجه شاخ قبل الأوان فهو مغضن •

أجابه أوردينوف ثائرا :

ــ أبحث عن مسكن •

فسأله البواب مبتسما ، وهو ينظر اليه نظرة من يعرف قصته كلها :

ـ أى مسكن ؟

فقال أوردينوف :

ـ أريد استئجار غرفة لدى جيران •

قال البواب بلهجة غريبة :

ـ ليس فى هذا الفناء غرفة للتأجير •

ـ وهنا ؟

ـ ولا هنا !

قال البواب ذلك وعاد يتناول مجرفته •

قال أوردينوف وهو يدس فى يد البواب عشرة كوبكات :

ـ لعلهم يؤجروننى غرفة مع ذلك •

فنظر التترى الى أوردينوف ، ووضع النقود فى جيبه ، وعاد يتناول مجرفته مرة أخرى ، ثم قال يكرر بعد صمت قصير انه ليس هنالك غرفة للتأجير •

ولكن الفتى كان قد كف عن الاصغاء اليه ، وأخذ يصعد الألواح العفنة الملقاة على بركة واسعة من الماء تفضى الى المدخل الوحيد الذى يوصل من هذا الفناء الى الجناح الاسود الوسخ الذى يشبه أن يكون غارقا فى هذا الماء الموحل •

كان يسكن فى الطابق الارضى من الجناح صانع توابيت فقير ، مرّ أوردينوف أمام ورشته ثم أخذ يصعد الى الطابق الأعلى على سلم لولبى

زليج • وعثر وهو يتلمس فى الظلام ، على باب كبير أعوج ، فأدار مزلاجه وفتحـــه • لم يخطىء ظن أوردينوف • فها هو ذا العجوز الذى يعرفه أوردينوف واقفا أمامه يحدق اليه بنظرة ثابتة ودهشة شديدة •

قال العجوز موجزا بما يشبه الوشوشة :

ــ ماذا تريد ؟

ــ أعندكم مسكن للتأجير ؟

بذلك أجاب أوردينوف ناسيا كل ما كان يريد أن يقوله تقـــريبا • ومن وراء كنف الشيخ العجوز ، لمح المرأة الشابة •

لم يجب الشيخ بشىء ، بل طفق يعيـــد اغلاق الباب دافعـــا معـه أوردينوف •

فقالت المرأة الشابة ، فجأة ، بصوت رقيق عذب :

ــ عندنا غرفة •

فترك الشيخ الباب •

قال أوردنيوف وهو يهرع داخلا فى البيت متجها الى الجميلة :

ــ أنا فى حاجة الى ركن ، أى ركن •

ولكنه لم يلبث أن توقف مدهوشا ، حتى ليشبه أن يكون متجمدا ، حين ألقى نظرة على هذين الشخصين اللذين سيسكن عندهما • كان يمر أمام بصره مشهد صامت عجيب • ان وجه الشيخ ممتقع كوجه ميت • فمن رآه حسب أنه مريض • وهو يلقى على المرأة نظرة من رصاص ، نظرة ثقيلة ثاقبة • والمرأة تشحب فى أول الأمر ، ولكن الدم ما يلبث أن يزدحم

فی وجهها ، وما تلبث عيناها أن تسطعا بلمعان غريب • وها هی ذی تقود اوردنيوف الى الغرفة الاخرى •

المنزل يتألف كله من حجرة واســـعة يقسمها حاجـزان الى ثلاثة أقسام • فمن فسحه السلم يدخل المرء رأسا الى حجرة ضـيقة مظلمة ، فيواجهه الباب الدى يؤدى طبعا الى غرفة أصحاب المنزل ، وعلى اليمـين غرفة للتأجير • انها غرفة ضيقة واطئة السقف ، لهـا نافذتان صـــغيرتان واطئتان أيضا ، تزدحم بأشياء شتى مما يوجد فی كل بيت • ولئن كانت فقيرة طميفه ، فهی نظيفة على قدر الامكان • أثاثها لا يتعدى منضــدة من خشب أبيض وكرسيين عاديين جـدا ومقعدين ضـــيقين وضـعا فی جهتی الغرفة على طول الجدار • وقد علقت فی الزاوية أيقونة كبيرة ذات تاج مذهب ، يشتعل أمامها سراج • وهناك مدفأة روسية ضخمة غليظة يطـل نصفها على هذه الغرفة ويطل نصفها الآخر على حجرة المدخل •

واضـــح أنه ليس فی الامكان أن يعيش فی هـــذا المنزل ثلاثة أشخاص •

بدأت المساومة على الأجـر ولكن بغير تسلســل فی الأفكار ، حتى لا يكاد يفهم بعض عن بعض شيئاً • وكان أوردينوف يسمع خفقان قلب المراة الشابة وهو على بعد خطوتين منها • كان يرى انها ترتجف انفعالا ، بل وخوفا • وتم الاتفاق على الأجر أخـــيرا • قال الفتى انه سيسكن فی الغرفة فورا ، ونظر الى صاحب المنزل • كان الشيخ واقفا أمام البـاب ، لا يزال شاحب الوجه ، غير أن ابتسامة رقيقة بل وواجمة كانت تطوف على شفتيه • فما ان التقى بنظر أوردينوف حتى عاد يعبس مقطبا حاجبيه•

سأل الشيخ الفتى فجأةً بصوت عال وكلام موجز ، وهو يفتح باب حجرة المدخل :

ـ أعندك جواز سفر ؟

فأجابه الفتى بشيء من الدهشة :

ـ نعم •

قال الشيخ :

ـ من أنت ؟

فأجاب الفتى بلهجة هي لهجة الشيخ نفسها :

ـ فاسيلي أوردينوف • متعلم • لا أعمل في مكان ، وانما أهتم بشئوني •

قال الشيخ :

ـ وأنا كذلك • اسمي ايليا مورين ، بورجوازي • هل يكفيك هذا ؟ هيا •••

وما هي الا ساعة حتى كان أوردينوف في مسكنه الجديد • ولم تقل دهشته من هذا التغير عن دهشة الألماني الذي كان قد أخذ يخشى هو وابنته تينيشن أن يكون المستأجر الجديد قد دبر لهما مكيدة من المكائد •

أما أوردينوف فانه لم يكن يفهم كيف وقع هذا كله ، ولا كان يريد أن يفهم •••

٢

بلغ خفقان قلب أوردينوف من القوة أن بصره اضطرب ورأسه أصابه دوار • وأخذ أوردينوف يرتب أشياءه الضئيلة في مسكنه الجديد ذاهلا عن نفسه ، يعمل كما تعمل آلة • فض صرة تضم أشياء مختلفة ، ثم فتح صندوق كتب فنضد الكتب على الطاولة ، ولكن هذا العمل لم يلبث أن ثقل عليه • ان صورة المرأة الشابة التي هز لقاؤها كيانه كله، وبث فيه اضطرابا شديدا ، ما تنفك تسطع أمام عينيه ••• ان ايمانا كبيرا وحماسة لا تقاوم يدخلان الآن حياته ، بينما يخيم على أفكاره ظلام ، وتهوى نفسه الى القلق والاضطراب •

تناول جواز سفره ومضى يأخذه لصاحب البيت آملا أن يبصر المرأة الشابة • ولكن مورين لم يكد يشق الباب شقا ، فيتناول منه الورقة ، ويقول له « أرجو لك حياة هادئة » ، ثم يغلق الباب • ان شعورا مزعجا يعترى أوردينوف • ان رؤية هذا الشيخ تثقل على صدره ، لا يدرى لماذا ! ان في نظرته شيئا من احتقار ومن شر • ولكن الشعور المزعج لم

يلبث أن تبدد • ان اوردينوف يعيش منذ ثلاثه ايام فيما يشبه الزوبعة ، اذا قيست حياته الآن بحياة الهدوء التي كان يحياها من قبل ، ولكنه لا يستطيع ان يفكر ، بل هو يخشى أن يفكر • ان كل شيء قد اختلط واضطرب في وجوده • أحس احساسا مبهما بأن حياته قد انشطرت شطرين • فهناك الآن صبوة وحيدة ، هناك رنو وحيد استولى على كيانه كله ، فما من فكرة أخرى لها عليه سلطان •

عاد أوردينوف الى غرفته مدهوشا • وهناك ، قرب المدفأة ، حيث يهيأ الطعام ، كانت تعمل امرأة عجوز قصيرة متغضنة • انهـا تبلغ من القذارة ، وان ملابسها تبلغ من الرثاثة والوساخة ان منظرها يبعث الشفقة حقا • ولكن في وجهها خبثا وشرا ، وهي تدمدم بين أسنانها ببعض الكلام من حين الى حين • ان هذه العجوز هي خادمة أصحاب البيت • حاول أوردينوف أن يعقد معها حديثا ، ولكنها اعتصمت بالصمت ، عن مكر واضح • حتى اذا حانت ساعة الغداء أخرجت من المدفأة حساء كرنب وفطائر لحم فحملتهما الى أصحاب البيت ، ثم قدمت لأوردينوف هذا الطعام نفسه • وبعد الغداء ساد المنزل صمت كأنه صمت الموت •

تناول أوردينوف كتابا ، فظل يقلب صفحاته محاولا أن يفهم ماسبق ان قرأه مرارا دون أن يظفر بطائل ، فثارت ثائرته ، فرمى الكتاب ، وعاد يحاول أن يضع أشياءه في مواضعها • ثم مشط شعره ، وتدثر بمعطفه ، وخرج •

ظل يضرب في خارج البيت على غير هدى ، لا يعرف الطريق الذى يسير فيه ، محاولا طوال الوقت أن يركز أفكاره المشتتة ما أمكن التركيز ، وأن ينظر في وضعه قليلا • ولكن هـذا الجهد لم يزد على أن سبب له عذابا • انه يشعر ببرد ثم يشعر بحر ، وان قلبه ليبلغ من شدة الخفقان في بعض اللحظات أنه يضطر الى الاتكاء على جدار • همس يقول محموم

الشفتين مرتعشا دون أن يفكر فيما يقول : « لا ••• الموت خير من هذا ••• الموت أفضل من هذا ! » •

ولبث يمشي زمنا طويلا • فلما أحس أخيرا أنه ابتل حتى العظام ، ولما لاحظ لأول مرة أن المطر كان يهطل غزيرا ، قفل راجعا الى البيت •

فحين أصبح على مقربة من البيت لمح البـواب ، فبدا له أن التترى يحدق اليه بشيء من حب الاستطلاع ، ولكنه حين أدرك أن أوردينوف يلاحظه تابع سيره •

قال له أوردينوف وقد لحق به :

ــ نهارك سعيد • ما اسمك ؟

فأجاب التترى كاشفا عن أسنانه :

ــ أنا بواب ، واسمى بواب •

ــ أأنت في هذا المنزل منذ زمن طويل ؟

ــ نعم منذ زمن طويل •

ــ هل صاحب بيتى بورجوازى ؟

ــ هو بورجوازى اذا كان يقول ذلك •

ــ ماذا يعمل ؟

ــ انه مريض ، يعيش ، ويصلى ••• هذا كل شيء •••

ــ وهذه المرأة زوجته ؟

ــ أى مرأة ؟

ــ المرأة التى تعيش معه ؟

ـ هى زوجته اذا كان يقول ذلك • وداعا يا سيدى !

قال التترى ذلك ملامسا طاقيته ودخل بيته •

عاد أوردينوف الى مسكنه • فتحت له العجوز الباب وهى تتمتم بعض الكلام ، ثم أقفلته بالمزلاج ، ورجعت تستقر على المدفأة حيث تكمل حياتها • كان الليل يهبط • مضى أوردينوف يجىء بنور ، فلاحظ أن باب صاحبى البيت مقفل بالمفتاح • نادى العجوز • كانت العجوز تحدق اليه من فوق المدفأة مسندة رأسها الى كوعها وكأنها تتساءل ما عساه يستطيع أن يفعل قرب القفل من غرفة صاحبى البيت • ودون أن تقول له شيئا ، رمت اليه علبة كبريت •

رجع الى غرفته ، وأخذ للمرة المائه يرتب أشياءه وكتبه • ولكنه شيئا فشيئا ، دون أن يدرى ماذا يحدث له ، رأى نفسه يجلس على المقعد ، وخيّل اليه أنه ينام • وكان يتوب الى نفسه فى بعض اللحظات ، فيدرك أن نومه ليس نوما ، بل هو نوع من غيبوبة مرضية أليمة • سمع الباب يُفتح ثم يغلق • فقدر أنهما صاحبا البيت عائدان من صلاة الغروب • فخطر بباله ان عليه أن يذهب اليهما ليجىء من عندهما بشىء • فنهض عن مكانه يريد أن يذهب اليهما ، ولكنه ترنح وسقط على كومة من حطب كانت المرأة العجوز قد ألقتها فى وسط الغرفة • وعندئذ أغمى عليه تماما • فلما أفاق بعد فترة وفتح عينيه لاحظ مدهوشا أنه راقد على نفس المقعد الطويل العتيق ، مرتد ثيابه كاملة ، وأن وجه امرأة بارع الجمال ، مبللا بدموع عذبة حلوة كدموع أم ، كان يميل عليه حانيا عاطفا شديد الانتباه • وشعر أن مخدة توضع تحت رأسه ، وأنه يُدثَّر بشىء دافىء ، وأن يداً رقيقة تمسح جبينه المحترق • أراد أن يقول شكرا ، أراد أن يتناول هذه اليد الرقيقة ، أن يقربها من شفتيه الجافتين ، أن يبللها بدموعه ، أن يقبلها

الى الأبد ... أراد أن يقـول أشياء كثيرة أيضـا ... ولكن ماذا ؟ انه لا يدرى هو نفسه . أراد فى تلك اللحظة أن يمـوت ... كانت يداه كالرصاص ثقلا ، وظلتا ساكنتين جامدتين لا تتحركان . وخيّل اليه أنه أصبح أخرس . لكنه يحس بدمه يتدفق فى جميع شرايينه تدفقا قـويا كأنه يريد أن ينهضه عن مرقده . ناوله أحد ماء ... ثم أغمى عليه .

استيقظ فى الصباح ، فى الساعة الثامنه من الصباح . كانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية من خلال الزجاج الضارب الى الخضرة ، الوسخ ، زجاج نوافذ غرفته . ان احساسا عذبا يسرى فى جميع أعضاء المريض . كان هادئا ساكنا سعيدا غاية السعادة . وخيّل اليه أن أحدا كان منذ برهة ساهرا عليه . استيقظ باحثا من حوله عن ذلك الانسان الذى لا يراه . كان يود لو يستطيع أن يعانق صديقا ، أن يقول لأول مرة «صباح الخير، صباح الخير ، يا صديقى » .

قال صوت امرأة عذب رقيق :

ـ نمت نوما طويلا .

فاستدار أوردينوف . ان وجه الجارة الجميلة يبتسم ابتسامة فاتنة ، مضيئة كالشمس ، ويميل عليه .

قالت :

ـ طال مرضك . كفاك هذا . انهض الآن . لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ ان الحرية أشـهى من الخبز ، وأبهى من الشمس . انهض يا صديقى انهض ...

تناول أوردينوف يدها ، وشـد عليها شدا قويا . خيّـل اليه أنه ما يزال يحلم .

ـ انتظر • لقد أعددت لك شايا • هل تريد قليلا من الشاى؟اشرب شيئا من الشاى • سينفعك شرب الشاى • أعرف هذا ، فقد مرضت أنا أيضا •

ـ نعم نعم ، اسقنى شيئا •

كذلك قال أوردينوف بصوت منطفىء •

ونهض • كان لا يزال ضعيفا جدا • ان قشعريرة تسرى فى ظهره• وانه يحس بأوجاع فى جميع أعضائه ، كأن جميع أعضائه مكسرة محطمة• غير أن فى قلبه نورا ، وأشعة الشمس تنعشه وتبث فى روحه فرحا رائعا• انه يشعر أن حياة جديدة ، قوية ، خفية عن الأبصار قد بدأت فيه • وكان يشعر بشىء من دوار •

قالت المرأة الشابة :

ـ هل اسمك فاسيلى ؟ لعلنى أخطأت السمع ، ولكن رب الدار سماك بهذا الاسم أمس •

ـ نعم ، فاسيلى • وأنت ما اسمك ؟

قال أوردينوف ذلك وهو يقترب منها ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه •

وترنح ، فأمسكته من يده وضحكت ، ثم قالت له وهى تحدق الى عينيه بعينيها الزرقاوين الصافيتين :

ـ أنا ؟ كاترين •

وتماسكا يدا بيد •

سألته أخيرا :

ـ هل تريد أن تقول لى شيئا ؟

فأجابها أوردينوف بقوله :

ـ لا أدرى •

واظلم بصره •

ـ ألا ترى الحالة التى أنت فيهـا ؟ •• حسبك هــــذا يا طائرى ، حسبك • لا تعدب نفسك مزيدا من التعذيب • اقعد هنا ، أمام المنضدة ، قبالة الشمس • امكث هنا هادئا ، ولا تتبعنى (أضافت قولها هذا اذ لاحظت أن الفتى يهم أن يتحرك ليمسك بها) • سأعود فورا • سترانى كثيرا •

وعادت بعد دقيقة تحمل الشاى ، فوضعت الشاى على المائدة ، وقعدت أمام أوردينوف •

فالت :

ـ خذ • اشرب • هل بك صداع ؟

ـ لا • زال الصداع الآن • لا أدرى • فد يكون بى صــــداع • لا أريد ••• كفى كفى ! لا أعرف ما الذى بى •

قال ذلك مضطربا أشد الاضطراب بعد أن استطاع أخيرا أن يتناول يد كاترين ••• وأضاف يفول لاهثا من فرط الحماسه ، وكأنه ينتزع كلامه من قلبه ، بينما يملأ النشيج حلقه :

ـ على عينىّ غشاوة ••• عينـاى مبهـورتان ••• اننى أنظـر اليك نظرتى الى الشمس •

ـ يا صديقى ، أنت اذن لم تعش فى كنف انســـان شـهم • أنت وحيد ، وحيد • أليس لك أقرباء ؟

ـ ليس لى أحد . أنا وحيد . ليس لى أحد . آ ... تحسنت حالى الآن . أنا الآن بخير .

قال أوردينوف ذلك هاذيا ، وكان يرى الغرفة تدور من حوله .

قالت بعد لحظة صمت :

ـ أنا أيضا ظللت وحيدة عدة سنين . ما أغرب نظرتك الىّ ! ...

ـ ماذا فى نظرتى ؟

ـ انك تنظر الىّ نظرة من تحييه رؤيتى وتبث الدفء فى قلبه ! هل تعلم ؟ انك تنظر الىّ نظرة من يشعر بحب ... أما أنا فقد خفق قلبى لك منذ أول كلمة . اذا مرضت فسوف أعنى بك . ولكن لا تمرض. لا لا ، حين ستشفى من مرضك سنعيش أخا وأختا . هل تريد ؟ صعب أن يصبح للمرء أخت اذا لم يكن الرب قد وهب له أختا ..

قال أوردينوف بصوت واهن :

ـ من أنت ؟ من أين أنت ؟

ـ أنا لست من هنا ! ولكن فيم يعنيك هذا ؟ هل تعلم ؟ يُحكى أن اثنى عشر أخا كانوا يعيشون فى غابة مظلمة ... وحدث أن ضلت فتاة فى هذه الغابة ... فوصلت الى منزلهم ، فرتبت كل شىء فيه ، وشملتهم بحبها جميعا . عاد الاخوة ، فعرفوا أن أختا مرت بمنزلهم فى النهار .. نادوها . جاءت اليهم . سموها جميعهم أختا . فكانت لا تفرق بينهم ، بل تعاملهم معاملة واحدة . هل تعرف هذه الحكاية ؟

أجاب أوردينوف بصوت خافت :

ـ نعم أعرفها .

ـ الحياة متعة • أيسرك أن تحيا ؟

ـ نعم نعم •• أن أحيا طويلا •• طويلا ••

كذلك أجاب أوردينوف • فقالت كاترين ساهمة :

ـ لا أدرى • اننى أتمنى الموت أيضا • الحياة متعة ••• ولكن ••• أواه ! ما لوجهك يشحب لونه من جديد ؟

ـ بى دوار !

ـ انتظر • سأجيئك بفراشى • انه خير من هذا • وسأجيئك بمخدة أخرى ، وسأهيىء سريرك • وسوف تنام ، فترانى فى نومك ، فيذهب مرضك ••• عجوزتنا مريضة هى أيضا •••

كانت تقول هذا الكلام وهى تهيىء السرير ، وتلقى من فوق كتفها نظرة على أوردينوف من حين الى حين •

قالت وهى تدفع صندوق الكتب :

ـ عندك كتب •

واقتربت من أوردينوف ، فتناولت يده اليمنى ، وقادته نحو السرير ، فأضجعته ، وأحاطت به • قالت وهى تهز رأسها واجمة ساهمة :

ـ هل تحب قراءة الكتب ؟

ـ نعم •

قال أوردينوف ذلك وهو لا يدرى أنائم هو أم يقظ ، قال ذلك ، وهو يشد على يد كاترين شدا قويا ليتحقق من أنه ليس بنائم :

ـ عند سيدى كتب كثيرة أيضا • يقول انها كتب رائعة • انه يقرأ

لى دائما فى أحد هذه الكتب • سأريك هذا الكتاب بعد ، فتقول لى مادا فيه •••

ـ نعم سأقول لك •••

قال أوردينوف ذلك وهو يتفرس فيها •

سألته بعد صمت قصير :

ـ هل تحب الصلاة ؟ أتعلم ؟ اننى أشعر بخوف ، أشعر بخوف من كل شىء ، دائما •••

لم تكمل كاترين جملتها ، ولاح عليها أنها تفكر فى شىء ما •

حمل أوردينوف يدها الى شفتيه •

ـ لماذا تقبل يدى ؟

قالت ذلك وقد احمر خداها قليلا •

ثم أضافت ضاحكة وهى تمد اليه يديها كلتيهما :

ـ هيا ••• قبلهما •

ثم سحبت احديهما ووضعتها على جبينه المحترق • ثم أخذت تلاعب شعره • ان حمرة وجهها تشتد • وأخيرا قعدت على الأرض قرب السرير • وأسندت خدها على خد الفتى • ان أنفاسها الحرّى تهب على وجهه •••

وشعر أوردينوف فجأة بدموع سخية تسقط على خده ثقيلةً كالرصاص • كانت كاترين تبكى • أخذ أوردينوف يزداد ضعفا ووهنا • أصبح منذ الآن لا يستطيع أن يرفع يديه • وفى هذه اللحظة دوت ضربة فى الباب • وصرّ المزلاج • استطاع أوردينوف أن يميِّز صوت

رب المنزل آتيا من الغرفه المجاوره • ثم سمع كاترين تنهض فتتناول كتابها دون تعجل ودون اصغاء ، ورآها بعد ذلك ترسم عليه اشارة الصليب وهي تنصرف • أغمض عينيه • وفجأة أحس بقبلة حارة طويله تحرق شفتيه ، وشعر كأن طعنة سكين تنفذ في قلبه • أطلق صرخه ضعيفة ، ثم أغمى عليه •

بعدئذ بدأت بالنسبة اليه حياه غريبه عجيبة •

ففي بعض اللحظات ينبع في فكره شعور غامض مبهم بأنه قد حُكم عليه أن يعيش حلما طويلا لا نهايه له ، مليئا باضطرابات غريبه وصراعات وآلام عقيمة ؛ فيشعر بذعر شديد ، ويحاول أن يتمرد وأن يثور على هذا القدر الذي يثقل صدره • ولكن حين يبلغ الصراع أشد لحظاته حدة وضراوة ، يحس بقوة مجهولة تضربه من جديد ، فيدرك ادراكا واضحا كيف أنه يفقد ذاكرته مرة أخرى ، وكيف أن ظلاما رهيبا ، لا مخرج منه ، ينتشر أمامه من جديد ، فيندفع اليه صارخا صرخة قلق ويأس • وفي لحظات أخرى يشعر بسعادة عنيفة مسرفة في العنف ، سعادة ساحقة ؛ يحدث ذلك حين تزداد الحيوية في الكيان الانساني كله الى غير حد ، حين يصبح الماضي أوضح وتترجع أصداء انتصار الفرح ، حين يحلم المرء بمستقبل مجهول ، حين يهبط على النفس أمل رائع كالندى المنعش ، حين يشتهي المرء أن يصرخ من فرط الحماسة ، حين يحس أن الجسد عاجز أمام كثرة الأحاسيس وغزارتها ووفرتها ، حين ينقطع خيط الوجود ويعلو في الوقت نفسه هتاف التهليل لانبعاث الحياة الجديدة •

وكان أوردينوف يرتد في لحظات أخرى الى خدره ، وعندئذ فان كل ما حدث له في الأيام الأخيرة يمر في خاطره من جديد مرور زوبعة• ولكن المنظر يعرض له حينذاك في مظهر غريب سري •

وكان فى بعض الأحيان ينسى أثناء مرضه ما حدث له ، ويستغرب أن لا يجد نفسه فى مسكنه القديم عند صاحبة البيت القديمة ؟ ويدهشه أن لا يرى العجوز تقترب ، كما اعتادت أن تفعل ذلك دائما ، من المدفأة شبه المنطفئة التى تنير بضيائها الضعيف المهتز المترجح كل الركن المظلم من الغرفه ، وأنها لا تدفىء يديها المعروقتين المرتجفتين على الموقد الذى خبت ناره ، كما ألفت أن تفعل ذلك دائما ، ملقيةً من حين الى حين نظرة دهشةٍ على نزيلها العجيب الذى كانت تعده مجنونا بعض الشىء من طول ما يكب على القراءة •

وكان فى لحظات أخرى يتذكر أنه أبدل مسكنه ، ولكن كيف تم ذلك ؟ انه لا يدرى كيف تم ذلك ، رغم كل ما يبذله من جهود عنيفة عنيدة فى سبيل أن يفهمه ••• أما أين وماذا وما هذا الذى يعذبه ويلقى فى نفسه هذه النار التى لا تطاق ، هذا اللهب الذى يخنقه ويحرق دمه فذلك ما لم يكن فى امكانه أن يعرفه • وها هو ذا يعود الى النسيان من جديد ، فلا يتذكر شيئا البتة • وكثيرا ما كان يقبض قبضا شرها على طيف من الأطياف • وكثيرا ما كان يسمع وقع خطوات خفيفة قرب سريره ، ودمدمة أصوات عذبة مهدهدة رقيقة كأنها موسيقى • وهذه أنفاس لاهثة رطبة تمر على وجهه ، فيهتز كيانه كله حبا • وهذه دموع محرقة تسيل على خديه الملتهبين ، وهذه قبلة طويلة رقيقة تنصب فجأة على شفتيه • ان حياته كلها تنطفىء عندئذ فى عذاب لا نهاية له ؟ ويبدو له أن الوجود كله ، والكون كله يتوقفان من حوله ، يموتان من حوله قرونا برمتها ، وأن ليلا طوله ألف سنة يمتد عليه •••

وهو فى بعض الأحيان يعيش مرة أخرى السنين الحلوة من طفولته الأولى ، بأفراحها الصافية وسعادتها التى لا حدود لها ، بأولى مشاعر

الدهشة الفرحة ، بجمهرة الأرواح المضيئه تخرج من كل زهرة يقطعها ، وتمضى تلعب معه فى السهل الأخضر المعشب أمام البيت الصغير الذى تحيط به أشجار الأكاسيا ويبتسم له عند بحيرة البلور التى يقضى على شاطئها ساعات طويلة مصغيا الى خرير أمواجها ؛ ومصيخا بسمعه كذلك الى اصطفاق أجنحة تلك الأرواح التى تنشر على مهده الصغير أحلاما زاهية الالوان كقوس قزح بينما تكون أمه ، الحانية على هذا السرير ، تقبله وتنوِّمه مغنية له أغنية حلوة عذبة حلوة فى الليالى الهادئة الساكنه . ولكن انسانا يظهر له من جديد فيقلقه أشد القلق ويرعبه بفزع ليس كفزع الأطفال ، ويسكب فى نفسه أول سم بطىء من سموم الالم والدموع . انه يشعر شعورا مبهما بأن الشيخ المجهول يقبض بسلطانه على جميع سنيه المقبلة ، فها هو ذا يرتعش أمامه ولا يستطيع أن يحول عنه بصره . ان الشيخ الخبيث الشرير يلاحقه فى كل مكان ويطارده أينما يذهب. يظهر له ويطل عليه ويهدده برأسه من فوق كل دغل فى الغابة الصغيرة . يضحك مقهقها ويعاكسه ويناكده ؛ يتجسد فى كل دمية من الدمى التى كان يلعب بها ابان طفولته ؛ يكشِّر له ، ينفجر ضاحكا فى يديه ، كجنى خبيث شرير من الجن التى تسكن جوف الأرض . ينبثق من كل كلمة من كلمات كتاب النحو الذى يقرأ الصبى سطوره ، ينبثق مصعِّرا وجهه عن أسنانه ... فاذا نام الصبى جلس الشيخ قرب سريره ... يطرد أسراب الأرواح المضيئة التى ترفرف حول مهده بأجنحتها التى هى من ذهب وياقوت . وهو يدفع عنه ، الى الأبد ، أمه المسكينة ؛ ويظل ليلة بكاملها يهمس له بقصة رائعة لا يفهمها قلب طفل ، ولكنها تبث فيه اضطرابا ورعبا وهولا ، وتشعل قلبه بهوى جامح كيس كهوى الأطفال . والشيخ الشرير لا يسمع نحيبه ونشيجه ، ولا يصغى الى رجائه ودعائه ، ويمضى يحدثه ثم يحدثه الى أن يغمى عليه .

ويستيقظ الطفل رجلا • لقد انفضت سنين طـويلة دون أن يدرك ذلك • وفجأة يعرف وضـعه على حقيقته ، ويفهم أنه وحيـد وغريب عن الكون كله • وحيد بين أناس أشرار ، أناس مقلقين ، أعداء ينجمعـون ويتهامسون في أركان غرفتـه المظلمة ، ويومئـون برءوسهم الى العجوز القاعدة قرب النار تدفيء يديها الواهيتين العجفاوين ، وتوميء هي لهـم اليه • ان نفسه مضطربة أشـد الاضـطراب ، يريد أن يعرف ما هـؤلاء الناس ، ولماذا هم هنالك ، ولماذا هو في غرفته • ويقدّر أنه وقع في مغارة لصوص من قطاع الطرق ، وأن قوة جبارة مجهـوله هي التي قادته الى هذه المغارة ، قبل أن يفحص هؤلاء السكان وهؤلاء الناس • تستبد به الخشيه منذ الآن • وفجاه ، في وسط الليل ، في الظلام ، يعود يسمع القصة الطويلة بصوت خافت • هي امرأة عجـوز تتـكلم برفق ، هازّة رأسها الأبيض على حزن ، أمام النار التي تنطفيء • ويقبض عليه الهول والرعب من جـديد • الحكاية تشتد حميّاها أمامه ، وهـذه وجوه وصـور تتضح لبصره • وهدا هو يرى أن كل شيء ، تهاويله المبهمة في أيام طفولتـه ، أفكاره وأحلامه جميعها ، ما عرفه من الحياة كلها ، ما قرأه في الـكتب كافة ، ما نسيه منذ زمن بعيـد ، ذلك كله ينبعث الآن ويتجسـد وينتصب أمامه صورا ضخمة ، ويسير ويرقص حلقة حوله • جنائن بديعـة تنبت أمام بصره ، مدن برمتها تتهاوى خرائب وركاما ، مقابر ترد اليه موتاها أحياء يسعون • أمم وشعوب بأسرها تظهر وتكبر وتموت على مرأى منه • كل فكرة وكل حلم ينجسد الآن حول سريره ، سرير المريض ، تجسده حين ولد ؛ فهو لا يحلم الآن بمكان من غير لحم ودم ، بل بعوالم بأسرها• وهو نفسه الآن يجرفه اعصار ، كذرة غبار ، في هذا العـالم اللانهائي ، هذا العالم الغريب ، الذي لا مخرج له • وهذه الحياة كلها ، باستقلالها

المتمرد ، تدفعه دفعا ، وتلاحقه بسخريتها الأبدية الحقود التى لا يشفى لها غليل •

أحس أنه يموت ، أنه يتهاوى ترابا ، الى الأبد ، بغير انبعاث ممكن • أراد أن يهرب ، ولكن ليس فى الكون كله ركن يختبىء فيه • ويستولى عليه أخيرا ذعر رهيب ، فيصرخ ، ويستيقظ •••

ان عرقا باردا كالثلج يغطى جسمه • ومن حوله يخيم سكون كسكون الموت فى ليل عميق • ومع ذلك يتراءى له أن حكايته العجيبة ما تزال مستمرة فى مكان ما ؟ وأن صوتا أجش يشرع فى حديث طويل عن الموضوع الذى يعرفه • انه يسمع كلاما عن غابات مظلمة ، ولصوص خارفين ، وعن فتى باسل شجاع يشبه أن يكون ستنكا رازين* نفسه ، وعن سكارى مرحين فرحين ، وعن رجال يجرون المراكب ، وعن فتاة جميلة ، وعن نهر الفولجا • أهذا حلم ؟ أهو يسمع هذا حقا ؟

وظل راقدا مدة ساعة ، مفتح العينين ، لا يحرك عضوا ، غارقا فى خدر رهيب • وأخيرا نهض محاذرا ، فأدرك على فرح أن المرض الفظيع لم يجهز على جميع قواه • تبدد الهذيان • وبدأ الواقع •

لاحظ أنه ما يزال مرتديا ثيابه كما كان أثناء حديثه مع كاترين ، فقدّر أنه لم ينقض اذن وقت طويل على تركها اياه • ان نار العزيمة تجرى فى عروقه • وانه لكذلك اذا بيده تلمس ، عرضا ، مسمارا كبيرا مغروزا فى الحاجز الذى وُضع سريره حذاءه • أمسك المسمار وتعلق به بكل جسمه ، فوصل بذلك الى شق يتسلل منه الى غرفته شعاع ضئيل من نور • وضع عينه على هذا الشق ، وحبس أنفاسه ، وأخذ ينظر •

فى ركن من الغرفة الصغيرة التى يسكنها صاحبا البيت ، كان هنالك

سرير ، وأمام السرير مائدة فُرشت بسجادة • وعلى المائدة كتب كثيرة من حجم كبير وشكل قديم ، كتب مجلدة تذكر بكتب الطقوس الدينية • وفي زاوية من الزوايا أيقونة معلقة لا تقل قدما عن الغرفة ، وأمام الأيقونة سراج مشتعل • كان الشيخ مورين ، المريض ، راقدا على السرير • كان يبدو عليه أنه يعاني آلاما شديدة • انه شاحب شحوب ميت • وكان مدثرا بغطاء من فراء ؛ وعلى ركبتيه كتاب مفتوح • وكانت كاترين مستلقية على مقعد قرب السرير ، محيطة صدر الشيخ باحدى ذراعيها ، مسندة رأسها على كتفه • كانت تحدق اليه بعينين منتبهتين ، طفوليتين ، مدهوشتين ، وتبدو مصغية بشراهة شديدة ونهم غريب الى ما كان يقصه عليها مورين• وفي بعض اللحظات يعلو صوت القصاص ، وينتعش وجهه الشاحب ، ويتقطب حاجباه ، وتسطع عيناه ، فيصفر وجه كاترين خوفا وانفعالا ، فيظهر في وجه الشيخ عندئذ شيء يشبه الابتسام ، فاذا بكاترين تأخذ تبتسم في هدوء ورفق هي أيضا • وتترقرق في عينيها دموع أحيانا • فيأخذ الشيخ يلاعب رأسها عندئذ كما يلاعب رأس طفلة ، فتعانقه بمزيد من القوة بذراعها العارية الناصعة كالثلج ؛ وبمزيد من الحب أيضا تميل على صدره •

تساءل أوردينوف أليس ما يراه الآن تتمة حلمه ؟ بل لقد أيقن من ذلك • غير أن دمه ازدحم في رأسه ، وأخذت شرايينه وصدغاه تنبض نبضا يبلغ من القوة أنه أوجعه •

أرخى المسمار ، ونزل عن السرير ، وتقدم يسير مترنحا كمن يمشي في نومه ، لا يفهم هذا الاهتياج الذى اشتعل كحريق في دمه • فلما وصل الى باب غرفة رب المنزل دفعه دفعا قويا عنيفا ، فسقط المزلاج

الصدى ؛ وفي غمار هذه الجلبة وهذه الضجة وجد أوردينوف نفسه في وسط الغرفة •

ورأى أوردينوف كيف ارتعشت كاترين فجأة ، وكيف النمعت عينا الشيخ تحت حاجبيه العابسين المقطبين التماعا شريرا ، وكيف شوّه الحنق والغيظ وجهه تشويها على حين بغتة • ثم اذا بالشيخ يتناول بيده المرتجفة البندقية المعلقة بالجدار ، فيرى أوردينوف أنبوبها ساطعا تسدده الى صدره يد مترددة راعشة غضبا •• وتنطلق الطلقة •• فتجاوبها صرخة وحشية لا يكاد يكون فيها شيء انساني •• حتى اذا تبدد الدخان ، رأى أوردينوف منظرا مروعا فظيعا •

أخذ جسم أوردينوف يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ومال على الشيخ المتهاوى على الأرض وقد تشنج وجهه وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه المكشرتين • أدرك أوردينوف أن الشيخ المسكين قد انتابته نوبة صرعة • فهب يسعفه مع كاترين •

٣

قضى أوردينوف ليلة سيئة . فلما طلع الصباح خرج من المنزل رغم ضعفه ورغم الحمى التى لم تزاوله. فالتقى فى الفناء بالبواب مرة أخرى . ما ان رآه التترى من بعيد حتى نزع قبعته يحييه ، وينظر اليه مستطلعا ؛ ثم لم يلبث أن تناول مكنسته ، وأخذ يكنس الأرض ملقيا من حين الى حين نظرة سريعة على أوردينوف الذى كان مقبلا بخطى بطيئة .

سأله أوردينوف :

ـ هيه ! ألم تسمع شيئا هذه الليلة ؟

ـ بلى ! سمعت .

ـ ما هذا الرجل ؟ من هو ؟

ـ أنت استأجرت ، فأنت تعرف . أما أنا فأجنبى .

فصاح أوردينوف خارجا عن طوره وقد استبد به هياج مرضى :

ـ أتراك ستتكلم فى يوم من الأيام ؟

قال البواب :

ـ ولكن ماذا فعلت أنا ؟ انها خطيئتك • أنت أرعبتهم • صانع التوابيت ، تحت ، أطرش • ومع ذلك سمع كل شيء • وامرأته ، وهي طرشاء ، سمعت كل شيء أيضا • وحتى في الفناء الثاني ، البعيد مع ذلك، سمع كل شيء • هذا ما وقع ••• سأذهب الى مفوض الشرطة •

ـ بل أذهب اليه أنا •

قال أوردينوف ذلك واتجه نحو باب الفناء •

ـ لك ما تشاء ••• ولكنك أنت الذي استأجرت ! سيدي ، سيدي! انتظر !•••

نظر أوردينوف الى البواب الذي لمس طاقيته احتراما •

سأله أوردينوف :

ـ ماذا ؟

ـ اذا كنت ذاهبا الى مفوض الشرطة ، فسأخبر المالك •••

ـ ثم ؟

ـ الأفضل أن تغادر هذا المنزل •

ـ ما أنت الا غبي أحمق !

أراد أوردينوف أن ينصرف •

ـ سيدي ! سيدي !

كذلك هتف البواب وهو يضع يده مرة أخرى على طاقيته ، ويظهر أسنانه ابتساما من قبيل التودد • وأردف يقول :

ـ سيدى ! لماذا طردت انسانا مسكينا ؟ ان طرد انسان مسكين اثم لا يرضى عنه الرب •

ـ اسمع ••• خذ هذا ••• من هو هذا الرجل ؟

ـ من هو ؟

ـ نعم •

ـ سأقول لك من هو ، حتى دون أن تنقدنى مالا •

تناول البواب مقشته ، فكنس بها كنستين ، ثم توقف ، فنظر الى أوردنيوف بانتباه مصطنعا خطورة الشأن :

ـ أنت طيب ياسيدى ، ولكن اذا كنت لا تريد أن تعيش مع انسان صالح ، فلك ما تشاء ••• ذلك ما أقوله لك •••

قال التترى ذلك وألقى على أوردينوف نظرة تفيض بمزيد من التعبير ، ثم طفق يكنس كأنه غاضب • وأخيرا اصطنع هيئة من أنجز أمرا هاما ، اقترب من أوردنيوف كمن يريد أن يفضى اليه بسر ، وقال معبرا بحركة من وجهه :

ـ هو هكذا ! ••

ـ ماذا ؟ ما معنى هذا ؟

ـ ليس له عقل !

ـ ماذا ؟

ـ نعم • ذهب عقله •

كذلك ردّد التترى بلهجة فيها مزيد من السر أيضا • ثم أضاف :

ـ انه مريض • كان يملك سفينة كبرى ، وسفينة ثانية ، وثالثة • كان يطوف نهر الفولجا • أنا من الفولجا • وكان يملك مصنعا أيضا • ولكن الحريق التهم كل شيء • ففقد الرجل عقله •••

ـ أهو مجنون ؟

قال التترى ببطء :

ـ لا •• لا •• ليس بمجنون •• هو انسان روحانى •• يعرف كل شيء •• قرأ كتبا كثيرة •• وهو يتنبأ للناس بالحقيقة كاملة : يجيئه أحدهم ، فينقده روبلين ، ويجيئه آخر فينقده ثلاثة روبلات ، أو أربعين روبلا ، فيقرأ هو فى الكتاب فيرى الحقيقة كلها • ولكن على شرط أن توضع الدراهم فوق المائدة ، أما بدون دراهم ، فلا شيء •

وهنا أطلق التترى ضحكة فرحة ، بعد أن أوغل فى الكلام على شئون مورين •

قال أوردينوف :

ـ ماذا ؟ أهو اذن ساحر ؟

قال البواب وهو يهز رأسه :

ـ هم •• انه يقول الحقيقة • انه يصلى •• يصلى كثيرا •• وأحيانا تصيبه لوثة •••

وكرر التترى حركة رأسه المعبِّرة •

وفى هذه اللحظة نادى أحدهم البواب فى الفناء الآخر ، ثم ظهر شيخ قصير القامة يرتدى معطفا من جلد الخروف • كان الشيخ يسير

بخطى مترددة وهو يتنحنح مطرقا الى الأرض مدمدما ببعض الكلام • كان الشيخ القصير يبدو مرتدا الى الطفولة •

ـ المالك ، المالك !

كذلك همس البواب بسرعه ، وأومأ لأوردينوف بحركة طفيفة من رأسه ، ثم اندفع مقبلا على الشيخ خالعا طاقيته •

خيّل الى أوردينوف أنه سبق أن رأى هذا الوجه منذ فترة قصيرة فى مكان ما • ولكنه اذ لم ير فى ذلك ما يستغرب ، خرج من الفناء ، وهو يشعر أن هذا البواب رجل وغد دنيء من أحقر طراز • قال لنفسه: « يا للنذل ! انه يساومنى ••• الله يعلم ماذا يجرى هنا ! » •

حين قال أوردينوف هـــذه الكلمات كان قد وصل الى الشـــارع • وشيئا فشيئا احتكرت ذهنه أفكار أخرى • ان نفسه تفيض بمشاعر أليمة• النهار أشـــهب بارد • الثلج يتســـاقط • وأحس الفتى بالحمى تنهشه من جديد • كان يشعر أيضا بأن الأرض تنسل تحت قدميه • وفجأة سمع صوتا معروفا له ، صوتا من مقام التينور متصنع العذوبة ، مرتجفا ، مزعجا، يحييه قائلا : نهارك سعيد •

هتف أوردينوف :

ـ ياروسلاف ايلتش * !

كان أمام أوردينوف رجل فى نحو الثلاثين من العمر ، قوى البنية أحمر الخدين مربوع القامة له عينان صغيرتان مخضـــلتان ، شهباوان ، باسمتان •• يرتدى •• ما يرتديه ياروسلاف ايلتش دائما • وهذا هـــو يمد يده لأوردينوف بتودد كبير •

كان أوردينوف قد عرف ياروسلاف ايلتش منذ سنة على وجه الضبط، معرفه عارضة تماما ، فى الشارع تقريبا • ومما سهل هذا التعارف ، عدا المصادفة ، ما يتصف به ياروسلاف ايلتش من ميل قوى الى البحث فى كل مكان عن أناس طيبين نبلاء ، مثقفين خاصة ، تجعلهم مواهبهم وآدابهم على الأقل ، جديرين بالانتماء الى المجتمع الراقى • ورغم أن ياروسلاف ايلتش قد وهب له صوت من مقام التينور متصنع العذوبة جدا ، حتى فى حديثه مع الحميمين من أصدقائه ، فلقد كان ينبعث فى صوته شىء خارق الوضوح، قوى ، يفرض نفسه ، ولا يطيق أيه معارضة ، ولعله ليس الا ثمرة العادة •

صاح ياروسلاف ايلتش يقول فرحا أشد الفرح متحمسا أصدق الحماسة :

ـ كيف ؟ ماذا جاء بك الى هنا ؟

فقال أوردينوف :

ـ انني أسكن في هذه الجهة •

فتابع ياروسلاف ايلتش يسأل بلهجة ماتنفك تعلو مزيدا من العلو :

ـ منذ زمن طويل ؟ ثم لا أعلم أنا بذلك ؟ ••• نحن اذن جيران • اننى أعمل هنا ، فى هذه الدائرة • عدت من اقليم ريازان منذ شهر • ها ••• لقد قبضت عليك يا صديقى القديم النبيل !

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وانفجر يطلق ضحكة لطيفة أنيسة •

ثم صاح منتفخا يخاطب شخصا آخر :

ـ سيرجييف ! انتظرى عند تاراسوف ، وقل لهم ان لا يمسوا

أكياس القمح قبل وصولي ••• واشحذ همة بواب أولسوفييف قليلا • مره أن يأتي الى المكتب فورا • سأكون في المكتب بعد ساعة •••

فلما انتهى ياروسلاف الرفيق من اصدار أمره هـذا مسرعا ، تأبط ذراع أوردينوف وقاده الى أقرب مطعم • قال :

ـ لن أكون راضيا قبل أن نتبادل بضع كلمات على انفراد ، بعـد فراق طويل كل هذا الطول •

وأضاف بلهجة نشبه أن تكون احتراما وهو يخفض صوته خفضـا غريبا :

ـ ماذا تعمل الآن ؟ أما زلت تعمل في العلوم ؟

أجاب أوردينوف وقد راودته فكرة طيبة جدا :

ـ نعم ، كما كنت دائما •

فقال ياروسلاف ايلتش وهو يصافح أوردينوف بقوة :

ـ هذا عظيم يا فاسيلي ميخائيلوفتش ، هـــذا نبيـل • ستكون زينة جماعتنا ••• أسأل الله أن يفرش طـــريقك بالســـعادة ! رباه ! ما أشد سعادتي بلقائك ! لطالما فكرت فيك ! لطالما قلت لنفسي : أين صديقنا الطيب النبيل الروحاني فاسيلي ميخائيلوفتش ؟

فعد الرجلان في حجرة خاصة بالمطعم • أمر ياروســلاف ايلتش بمشهيات ومقبلات ، وأمر بخمرة ، ونظر الى أوردينـــوف منفعلا كل الانفعال ؛ ثم بدأ يقـــول بصـــوت خجول ، صوت فيه شيء من المـداراة والمراعاة :

ـ لقد قرأت كثيرا منذئذ • قرأت بوشكين كله •

كان أوردينوف ينظر اليه ذاهلا •

أضاف ياروسلاف ايلتش :

ـ ما أروع وصفه لأهواء الانسان • ولكن اسمح لى قبل كل شيء أن أعرب لك عن شكرى وامتنانى • لقد أحسنت الىّ احسانا كبيرا بنبل الهامك ، وروعة أفكارك •••

ـ العفو •••

ـ لا •• اسمح لى •• أنا أحب الانصاف • واننى لفخور بأن هذا الشعور على الأقل لم ينطفىء فى نفسى •

ـ العفو •• أنت لا تنصف نفسك ! أما أنا فالحقيقة أننى •••

ـ لا بل اننى منصف تماما • ماذا أنا بالقياس اليك ؟

كذلك اعترض ياروسلاف ايلتش بحرارة شديدة •

ـ العفو •••

ـ نعم •••

وأعقب ذلك صمت •

واستأنف ياروسلاف ايلتش يقول بلهجة خجولة مادحة :

ـ لقد انتفعت بنصائحك فقطعت صلاتى بكثير من الأشخاص التافهين• وأنا أقضى فى المنزل أكثر أوقات الفراغ التى يدعها لى عملى فى الوظيفة• فأقرأ فى المساء ، أقرأ كتابا جيـــدا ، و ••• ليس لى من رغبة يا فاسيلى ميخائيلوفتش الا أن أكون نافعا لوطنى بعض النفع •••

ـ لقد عددتك دائما انسانا نبيلا جدا يا عزيزى ياروسلاف ايلتش•

ـ ستظل أنت العطر الفواح ••• أيها الشاب النبيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يشد على يد أوردينوف شدا قويا •

ثم أضاف يلاحظ بعد أن هدأ بعض الهدوء :

ـ أراك لا تشرب •

ـ لا أستطيع • أنا مريض •

ـ مريض ؟ أجد" ما تقول ؟ أمنذ زمن طـويل ؟ كيف مرضت ؟ هل تريد أن أقول لك•• أى طبيب يعالجك ؟ هل تريد أن أخبر طبيبنا ؟ سأذهب اليه بنفسى • انه حاذق جدا •••

لم يقل ياروســلاف ايلتش ذلك الا وكان قد تنـاول قبعته يهم أن ينهض للبحث عن الطبيب •

قال أوردينوف :

ـ لا ••• شكرا • ليس يعالجنى طبيب ، أنا لا أحب الاطباء •••

قال ياروسلاف ايلتش متوسلا :

ـ ما هذا الذى تقول ؟ أهــذا الكلام معقول ؟ ثم انه طبيب حاذق جدا ، منذ مدة ••• اسمح لى أن أقص عليك هذا يا عزيزى فاســيلى ميخائيلوفتش ••• منذ مدة جاءه قفّال فقير ، فقال له : « لقـد وُخزت أصبعى بأداة من أدواتى ، فعالجنى واشفنى » ، فلما رأى سيميون بافنوتتش أن المسكين مهدد بالغنغرين قرر أن يبتر العضـو المصاب • ففعـل ذلك بحضورى ••• فعله بحذق يبلغ من النبل ، أقصد يبلغ من المهارة اننى أؤكد لك أن رؤية العملية كان يمكن أن تكون متعة كبيرة ، من قبيل حب

الاطلاع على الأهل ، لولا ما يشعر به المرء من شفقة انسانية ••• ولكن أين وكيف مرضت ؟

ــ مرضت على أثر تبديل مسكني ••• ولم أنهض الا منذ قليل •••

ــ ولكنك ما تزال ضعيفا جدا ، وما كان ينبغي لك أن تخرج • ادن لقد انتقلت من مسكنك القديم ؟ ولكن ما الدى دعاك الى ذلك ؟

ــ صاحبة البيت الذى كنت أسكنه غادرت بطرسبرج •

ــ دومنا سافيشنا ! أهذا ممكن ؟ يا لها من عجوز طيبة ، نبيله حقا ! هل تعلم أننى كنت أشعر نحوها باحترام يشبه أن يكون احترام الابن أمّه ؟ كان فى حياتها المنتهية شيء من تلك الروعة الباقية من زمان أسلافنا القدامى ، فاذا نظر اليها المرء رأى ماضينا القديم يحيا مرة أخرى أمام عينيه ، رآه بكل ما فيه من عظمة ! •• أقصد •• هل ترى •• شيء شعرى •••

بذلك ختم ياروسلاف ايلتش كلامه ، وقد اشتد خجله فجأة ، واحمر وجهه حتى الأذنين •

ــ نعم لقد كانت امرأة شهمة •

ــ ولكن هل تسمح لى أن أعرف أين تسكن الآن ؟

ــ هنا •• غير بعيد •• فى منزل كوشماروف *

ــ أعرفه •• شيخ مهيب • أستطيع أن أقول اننى أكاد أكون صديقه المخلص • شيخ نبيل •

قال ياروسلاف ايلتش ذلك وهو يكاد يرتعش فرحا وحنانا • وأمر بكأس أخرى من الخمر ، وبغليون •

ـ لقد استأجرت شقة اذن ؟

ـ بل استأجرت غرفة •

ـ عند من ؟ لعلنى أعرف أيضا •••

ـ عند مورين ، شيخ طويل القامة •

ـ مورين ، مورين ••• اسمح لى ••• أهو ذلك الذى يسكن فى الفناء الداخلى فوق صانع التوابيت ؟

ـ نعم ، نعم •

ـ أأنت مرتاح هنالك ؟

ـ لم أسكن الا منذ برهة قصيرة •

ـ هيم ••• أردت فقط أن أقول ••• هيم ••• ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟

ـ لاحظت •

ـ أقصد ••• أنا واثق أنك ستر تاح اذا كنت راضيا عن مسكنك •• لم أقصد هذا ••• ولكننى لمعرفتى بطبعك •• كيف وجدت هذا العجوز البورجوازى ؟ •••

ـ يخيّل الىّ أنه رجل مريض •••

ـ نعم ••• مريض جدا ••• ولكن ألم تلاحظ شيئا خاصا ؟ هل كلمته ؟

ـ قليلا جدا ••• انه لا يحب معاشرة الناس كثيرا ••• وهو سريع الغضب •••

ـ هيمْ •••

كذلك قال ياروسلاف ايلتش سادرا مفكرا • ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

ـ انه رجل تعيس شقي جدا •

ـ هو ؟

ـ نعم • تعيس شقي جدا • وهو في الوقت نفسه غريب الاطوار •• طريف كل الطرافة • على كل حال ، اذا كان لايزعجك ••• معذرة اذا كنت أتكلم في مثل هذا الموضوع ••• لقد ثار حب الاستطلاع في نفسي•

ـ الحق أنك أثرت في نفسي حب الاستطلاع أيضا ••• وددت لو أعرف من هذا الرجل ! ثم انني أسكن في بيته •••

ـ يقال انه كان في الماضي على جانب كبير من الثراء • كان تاجرا ، ولعلك سمعت عن ذلك • ولكنه فقد ثروته على أثر ظروف تعسة مختلفه : غرقت له بواخر أثناء عاصفة • وكان يملك مصنعا عهد بادارته الى قريب من أقربائه يحبه كثيرا ، فتدمر المصنع بحريق ومات قريبه في الحريق • لا شك أنك تعترف أن هذه خسارات جسيمة رهيبة ! وعندئذ انهار مورين فيما يقال ، حتى أصبح الناس يخشون على عقله أن يذهب • وبالفعل ، فانه أثناء مشاجرة قامت بينه وبين تاجر آخر يملك بواخر على الفولجا أيضا تصرف فجأة تصرفا يبلغ من الغرابة والشذوذ أن الناس عزوا ذلك الى جنون متأصل • وأنا أميل الى تصديق هذا أيضا • لقد سمعت الناس يتحدثون عن غرائبه ••• وأخيرا حدث في يوم من الأيام شيء يبلغ من الشذوذ أن المرء أصبح لا يستطيع أن يعلله الا بأن الرجل قد أفقده القدر القاسي الحانق صوابه •

ـ ما الذى حدث ؟

ـ يقال انه أثناء نوبة جنون مرضى حاول قتل تاجر شاب كان يحبه حتى ذلك الحين حبا كبيرا . فلما ثاب الى رشده بلغ هوله من فعلتـه أنه أراد أن ينتحر . ذلك ما يروى على الأقل . لا أدرى على وجه الدقـة ماذا حدث بعد ذلك .ولكن من المحقق أنه عاش عدة سنين فى «العقوبة» *. ولكن ماذا بك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ ألم تتعبك قصتى البسيطة هذه ؟

ـ لا ، لا ، أرجوك ... تقول انه عاش معاقبا ... ولـكنه ليس وحيدا ...

ـ لا أعلم ... يقال انه كان وحيدا ... نعم لم يدخل أحد فى هذه القضية . على كل حال لم أسمع شيئا عما جرى بعد ذلك ... ولكننى أعرف ...

ـ تعرف ماذا ؟

ـ أعرف أنه ... ولكن ليس ثمة شىء ذو بال أضـيفه ... كل ما أريد أن أقوله هو أن عليك ، اذا لاحظت فيه شيئا غريبا يخـرج عن المألوف ، أن لا تردّ ذلك الا الى المصـائب التى نزلت به واحدة بعـد أخرى ...

ـ نعم ... انه تقى ، بل هو مسرف فى التقوى .

ـ لا أظن ذلك يا فاسيلى ميخائيلوفتش ... لقـد تألم كثيرا ... ويخيل الىّ أنه صافى القلب ...

ـ ولكنه ليس مجنونا الآن ... انه معافى ...

ـ نعم نعم ، هذا محقق ، أستطيع أن أؤكده وأن أحلف عليه ...

انه يتمسع بجميع ملكاته العقلية • كل ما هنالك أنه كمـا أشرت أنت الى ذلك عرضـا غريب الأطـوار جدا و ••• متدين متعبد ••• انه عاقل جدا ••• حسن الكلام جرىء القول ولا يخلو حديثه من مكر • وما تزال تلاحظ فى وجهه آثار حياته الماضية المليئة بالعواصف والاعاصير • رجل طريف • وقد قرأ كثيرا •

ـ يبدو لى أنه يقرأ دائما كتبا مقدسة •

ـ نعم ، هو انسان متصوف •

ـ كيف ؟

ـ متصوف ••• ولكننى أقول لك هذا سرا • واليك سراً آخـر : لقد ظل هذا الرجل مراقبا مدة طويلة ••• كان له سلطان كبير عـلى من يجيئون اليه •

ـ أى سلطان ؟

ـ لن تصدق ما سأرويه لك ••• اسـمع ••• فى ذلك الوقت لم يكن يقطن فى هـذا الحى ••• جاء اليـه فى يوم من الأيام ألكسـندر اجناتيفتش ، وهو رجل محترم جدا ، عالى المقـام ، ينعم باعتبار جميع الناس ، جاء اليه من قبيل حب الاطلاع ، مع رجل آخر هـو ملازم فى الجيش • وصل الرجلان الى منزله ، فاستقبلهما، فأخذ هذا الانسان الغريب ينظر اليهما بانتباه شديد ، متفرسا فى وجهيهما • تلك عادته فى النظر الى الناس متفرسا فى الوجه اذا هو ارتضى أن يفيدهما فى شىء • أما اذا لم يرتض ذلك ، فانه يطرد زائريه ، بل يقال انه يطردهم شر طردة ، بغير لباقة ولا أدب ولا تهذيب • سـألهما : « ماذا تريدان أيهـا السيدان » ، فأجابه الكسندر اجناتيفتش بقوله : « موهبتك كفيلة باطلاعك على ما نريد

دون أن نذكره لك ».، فقال : « ادخلا معى الى الغرفة الثانية » ، وهناك عيّن الشخص الذى كان فى حاجة اليه • لم يقص ألكسندر اجناتيفنتش على أحد ما جرى بعد ذلك• ولكنه خرج من منزل الرجل أبيض الوجه كمنديل ••• وقد وقع هذا الأمر نفسه لسيدة عظيمه من المجتمع الراقى: خرجت من عنده شاحبة كأنها ميتة ، غارقة فى دموعها ، مشدوهة العقل من تنبؤاته ومن فصاحة كلامه •••

ـ غريب ••• ولكنه الآن لا يعنى بهذه الأمور ؟

ـ ممنوع منعا باتا • هناك حالات خارقة تناقل الناس روايتها ••• دخل عليـــه فى يوم من الأيام شاب ضــابط كان معقــد رجاء أسرته الارستقراطية ومناط أملها ومحل اعتزازها وافتخارها ، فلما ابتسم الشاب حين نظر الى الرجل ، قال له هذا غاضبا : « ما الذى يضحكك ؟ لن تمضى ثلاثة أيام الا وتكون هكذا ، قال ذلك مصالبا ذراعيه ، ممثلا بهذه الحركه شكل جثة •••

ـ وبعد ذلك ؟

ـ لا أجرؤ أن أصدق ما حدث ، ولكن يقال ان النبوءة تحققت ، فمات الشاب بعــد ثلاثة أيام فعلا • انه يملك هــذه الموهبة يا فاسيلى ميخائيلوفتش • أراك تبتسم لقصــتى • أنا أعلم أنك أثقف منى • ولكننى أؤمن بالأمر • ليس الرجل بدجال • ان بوشكين نفسه يتكلم عن شىء من هذا القبيل فى كتبه •

ـ همْ ••• لا أحب أن أكذّب ما تقول •••

ـ يخيل الىّ أنك قلت منذ برهة انه لا يعيش وحيدا ؟

ـ لا أعلم ... أظن أن ابنته تعيش معه ...

ـ ابنته ؟

ـ نعم ، أو ربما زوجته . أعرف أن امرأة تعيش معه ... رأيتها عرضا ... ولكنني لم أنعم النظر .

ـ ﺇِهمْ ... غريب .

عاد الفتى يفكر ساهما . ورقت عواطف ياروسلاف ايلتش . تأثر قلبه من لقيا صديق قديم ، ومن أنه قص على هذا الصديق القديم أمورا شائقة بهذه الطريقة الجميلة . كان قاعدا على كرسيه يدخن غليونه ولا يحول نظـــره عن فاسيلى ميخائيلوفتش ، ولكنــه انتفض فجـأة ، وتهيأ للنهوض على عجل . قال :

ـ انقضت ساعة كاملة ، وأنا ناسٍ ... مرة أخرى أشكر للحـظ يا فاسيلى ميخائيلوفش أنه جمعنا ، ولكن يجب عليّ أن أذهب . هل تسمح لى بأن أزورك فى منزلك الكريم ، منزل العلم والادب ؟

ـ سيكون هذا فضلا منك ... سيسعدنى هذا كثيرا . وسـأجىء اليك أنا أيضا متى استطعت ذلك .

ـ أهذا ممكن ؟ انك لتغدق عليّ اذن فضلا لا نهاية له . لا تستطيع أن تتصور مدى سرورى بلقياك .

خرج الرجلان من المطعم ، فرأيا سرجيف يقبل عليهما راكضـا . ثم يبلغ ياروسلاف ايلتش مسرعا أن فيليم ايمليانوفتش * سيمرُ تواً . وفعلا ظهر فى الشارع فرسان يجران مركبة جميلة جدا ، ويجريان خبباً ويلفت أحدهما النظر بروعة خاصة .

شد ياروسلاف ايلتش على يد صديقه الحميم شداً قويا كما تشد كلابة ، ورفع رأسه الى قبعته فلامسها محييا ، واندفع الى داخل العربة • وفيما كانت العربة تسير به التفت مرتين الى وراء يسلم على أوردينوف بحركة من رأسه •

كان أوردينوف يشعر بتعب شديد واعياء كبير في جميع أعضائه حتى ليكاد يعجز عن جر ساقيه • فلم يستطع أن يصل الى المنزل الا بعد لأي • والتقى مرة أخرى عند مدخل المبنى بالبواب الذي كان قد راقب تحيات الوداع بينه وبين ياروسلاف ايلتش مراقبة دقيقة ، وأومأ الى الفتى من بعيد ايماءة دعوة ، ولكن الفتى مرّ دون أن يتوقف • وعند باب المسكن، اصطدم بشخص قصير القامة أشهب الشعر كان خارجا من عند مورين خافض العينين • فقفز الرجل جانبا بمرونة كبيرة بينما كان يدمدم قائلا :

ـ يارب يارب ، اغفر خطاياي ، اعف عن ذنوبي يارب •

فقال أوردينوف :

ـ هل آذيتك ؟

ـ لا ••• شكرا ••• يا رب ، يا رب •••

هبط الرجل القصير على السلم ببطء وهو يتأوه ويدمدم ببعض الكلام بين أسنانه ؛ انه صاحب العمارة الذي يخشاه البواب تلك الخشية كلها • عندئذ فقط تذكر أوردينوف أنه كان قد رآه أول مرة هنا عند مورين يوم انتقاله الى هذا المسكن •

كان أوردينوف يشعر باهتياج واضطراب • وكان يعلم أن خياله واحساسه متوتران الى أقصى حدود التوتر ، فقرر أن لا يسترسل في مشاعره ، وأن لا يركن اليها • وشيئا فشيئا هوى الى نوع من الخدر •

كان يجثم على صدره شعور اليم مقلق • وكان قلبه موجعا كانه جريح ، وكانت نفسه تفيض بدموع مخنوقة لا ينضب معينها •

وارتمى من جديد على سريره الذى كانت قد أعدته له كاترين ، ومن جديد أخذ يتنصت مصيخا بسمعه مرهفا أذنيه • سمع تنفسين : أحدهما شاق أليم مرضى متقطع ، والثانى رقيق هادىء ولكنه متفاوت مضطرب أيضا ؛ فكأن اندفاعا واحدا وهوى واحدا يحملان القلبين كليهما على هذا الخفقان ، هناك فى الغرفة المجاورة •• وكان يسمع فى بعض الاحيان حفيف ثوبها ، وانزلاق خطواتها الرقيقة انزلاقا خفيفا ، بل كان يسمع صوت قدمها يترجع فى قلبه عذابا أصم لكنه ممتع • وأحس أخيرا أنه يسمع نشجات بكاء ، ثم أصوات صلاة من جديد • كان يعلم انها الآن راكعة أمام الأيقونة ضامة ذراعيها احداهما الى الأخرى فى حزن سديد ويأس رهيب • من هى هذه المرأة ؟ لمن تدعو الله ؟ أى هوى يائس يبعث هذا الاضطراب فى قلبها ؟ لماذا يتألم قلبها هذا الألم كله ، لماذا ينفجر دموعا محرقة يائسة الى هذه الدرجة ؟

وأخذ يستعيد ذكرى أقوالها • ان كل ما قالته له ما يزال يترجع فى أذنيه ترجّع موسيقى ؛ وان قلبه يستجيب لكل ذكرى ، لكل كلمة من كلماتها التى رددتها على مسمعه كترتيل صلاة ، ان قلبه يستجيب لكل هذا حبا قويا ، وخفقة صماء موجعة أليمة ••• وفى لحظة من اللحظات التمع فى ذهنه كل ما قد رآه فى الحلم • ولكن قلبه كله ارتجف حين عاد الى خياله احساسه بأنفاسها الحارة وبكلماتها وبقبلتها • أغمض أودينوف عينيه ، واستسلم للنسيان ••• دقت ساعة فى مكان ما ••• لقد انقضى زمن طويل ••• الليل يهبط •

وفجأة خيّل اليه أنها تميل عليه من جديد ، انها تنظر الى عينيه

عينيها العذبتين الوضاءتين كقبة السماء اللانهائية فى ساعة الظهر الدافئة . ان وجهها ينيره هدوء رائع ، وان ابتسامتها تشيع في نفسه سعادة كبيرة ، وانها تميل على كتفه بعطف عظيم ، فما يملك لهذا كله الا أن تخرج من صدره الموهن أنة سعادة .

كانت تريد أن تكلمه . وها هى ذى تسرّ اليه بأمر ما ، حانية عليه متلطفة معه ... فتترجع فى أذنيه موسيقى نافذة مؤثرة من جديد ، ويتنفس صدره الهواء الدافىء الذى تلهبه أنفاسها القريبة ، يتنفسه بشراهة ونهم . وها هو ذا يمد يديه قلقا ويتأوه ويفتح عينيه .

كانت كاترين أمامه حقا ، مائلة على وجهه ، شاحبة اللون هلعا ، غارقة فى دموعها ، مرتجفة أشد الارتجاف من فرط الانفعال . وكانت تقول له شيئا ما ، ضارعة اليه وهى تضم يديها وتعضهما . أخذها بين ذراعيه . فلبثت على صدره وجسمها كله يرتعش .

الفصل الثاني

١

سألها أوردينوف وقد صحا صحوا تاما وما يزال يضمها بين ذراعيه الملتهبين ضما قويا :

ــ ماذا هنالك ؟ ماذا بك ؟ ماذا بك يا كاترين ؟ ماذا بك يا حبيبتى ؟

كانت تنشج فى رفق ، غاضة طرفها ، مخبئة وجهها المحترق فى صدر الفتى • ولبثت على هذه الحال زمنا طويلا لا تستطيع أن تتكلم ، وترتجف كأنها خائفة •

قالت أخيرا بصوت ضعيف لا يكاد يُسمع :

ــ لا أدرى •

كانت تختنق ، ولا تكاد تقوى على النطق بهذه الكلمات •

وأضافت :

ـ لا أدرى كيف جئت الى هنا ، الى عندك •

وشدت جسمها اليه بمـزيد من القوة ؛ وكأن عاطفـة لا سبيل الى مقاومتها قد هزتها هزا قويا ، فاذا هى تقبل كتفيه ، وذراعيه ، وصدره • وأحست أخيرا بانهيار ، فخبأت وجهها في يديها ، وأسقطت رأسـها على ركبتيها •

فلما استطاع أوردينوف ، وقد استبد به قلق شديد ، أن ينهضهـا وأن يجلسها قربه ، كان وجههـا يحترق خجـلا وحياء ، وكانت عينـاها تضرعان ملتمستين العفو والصفح ، وكانت البسمة التى تبدو ضـعيفة على شفتيها تحاول أن تغالب القوة الهائلة التي لاسبيل الى مغالبتها ، قوة شعورها الجديد • ولاح عليها مرة أخرى أنها خائفـة من شىء ما : فها هى ذى تدفعه عنه بيدها ، ولا تكاد تنظر اليه ، وتجيب على أسـئلته ، خافضـة الرأس ، بكلمات متقطعه ، وهمس وجل •

سألها أوردينوف :

ـ أتراك رأيت فى نومك حلما ثقيلا ، أو رؤيا مفزعة ؟ قولى ••• هل هو أفزعك ؟ ••• انه يهذى ، انه لا يملك عقـله ••• أتراه قال أشـياء ما كان ينبغي أن تسـمعيها ؟ ••• هل قال شـيئا من هذا القبيل ؟ نعم ؟

أجابت كاترين وهى تكبح انفعالها بكثير من الجهد والعنف :

ـ لا ••• لم أنم ••• لم أستطع الى النوم سبيلا • وصمت هو طول الوقت • لم ينادنى الا مرة واحدة • اقتربت منه • ناديته • لم يسمعنى•

حالته سيئة جدا • أعانه الله • وعندئذ استبد بى قلق شديد، قلق رهيب • صليت طول الوقت ، صليت بلا توقف ، ثم فجأة ذهلت عن نفسى •••

ــ كفى يا كاترين ، كفى يا حياتى ••• أمس انما اعتراك الخوف •

ــ لا لم أخف أمس •

ــ أيحدث هذا أحيانا •

ــ نعم يحدث •

كانت ترتجف من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وراودها الهلع والفزع من جديد ، فشدت نفسها اليه كطفل •

قالت وهى تحبس نشجاتها :

ــ هأنت ذا ترى اذن أننى لم أجىء اليك بغير سبب •

ثم ردّدت تقول وهى تصافحه عرفانا بالجميل :

ــ لم يصعب عليّ أن أبقى هنالك وحدى الا لسبب • كفاك سكب الدموع حزنا على شقاء الآخرين • احتفظ بدموعك ليوم تتعذب فيه وحدك ، ليوم لا يكون معك فيه أحد • اسمع ••• هل سبق أن أحببت ؟

ــ لا ••• لم أحب قبلك ؟

ــ قبلى ؟ وتنادينني حبيبتك ؟

قالت ذلك وهى تنظر اليه مدهوشة على حين فجأة • وأرادت أن تقول شيئا ، لكنها صمتت وغضت طرفها • ثم احمر وجهها بغتة ، ومن خلال الدموع التى ما تزال حارة ، الدموع المتسية على أهدابها ، سطعت عيناها • كان واضحا أن هناك سؤالا يحرك شفتيها • نظرت اليه مرتين، نظرة ماكرة ، ثم خفضت عينها فجأة من جديد • قالت :

ـ لا ••• لا يمكن أن أكون أول حب لك •

ثم رددت تقول وهى تهز رأسها ساهمة ، بينما كانت تضىء وجهها ابتسامة جديدة :

ـ لا •• لا ••.

وقالت أخيرا وهى تنفجر ضاحكة :

ـ لا ••• لست من يمكن أن تكون حبيبتك !

ثم نظرت اليه • غير أن حزنا رهيبا قد طاف بوجهها عندئذ على حين فجأة ، وحوفا يائسا قد ارتسم على جميع قسماتها ، فشعر أوردينوف بشفقة غريبـــه ، شفقة لا تفهم ، شفقه مرضية ، شعر بعطف قوى على شـــقاء مجهول ؛ وبعذاب لا يغالب نظر اليها • قالت بصوت يمضى الى القلب ، وهى تشد على يدى أوردينوف بين يديها ، وتحاول أن تخنق نشجاتها :

ـ اسمع ما سأقوله لك • اسمع جيدا • اسمع يا فرحتى ! ســيطر على قلبك ، وكف عن حبى اذا كنت تحبنى الآن • ذلك خير لك • فان استطعت أن تكف عن حبى أصبح قلبك أخف وأفرح ، وتحاشيت عدوا رهيبا ، وكسبت أختا حنونا • سآتى اليك ان شئت • وسأداعبك ، ولن أخجل من البقاء قربك • لقد بقيت قربك يومين حين كنت مريضا جدا ! فاتخذنى أختا • لقد دعوت لك العذراء دعاء حارا ، وما فعلت هذا عبثا ؟ لن تجد أختا أخرى مثلى • لو طفت الكون بأسره ، فلن تجد حبا كحبى، اذا كان قلبك ينشـد الحب • سأحبك بقلبى كله ، كما أحبك الآن ، وسأحبك لأن روحك صافية ، مضيئة ، شفافة ، لأننى حين نظرت اليـك أول مرة ، رأيت فيك على الفور نزيل مسكنى ، النزيل الذى أريده ، فليس من باب المصادفة أنك جئت الينا •أحبك لأن عينيك ،حين تنظران،

تحيان وتخاطبان من أعماق قلبك • وحين تخاطبني عيناك أدرك فورا كل ما تفكر فيه وكل ما يجول في خاطرك • لذلك أريد أن أهب لحبك حياتي وحريتي • لسوف يحلو لي أن أكون عبدة من وقع عليه قلبي ••• ولكن حياتي ليست لي • انها لانسان آخر ، وحريتي سجينة • ولكن اقبلني أختا ، كن أخي ، خذني لقلبك متى استبد بي الخوف والقلق من جديد• افعل ما من شأنه أن لا يجعلني أخجل من المجيء اليك والبقاء قربك ليلة طويلة • هل سمعتني ؟ هل فتحت لي قلبك ؟ هل فهم عقلك ما قلته لك ؟

وأرادت أن تقول شيئا آخر أيضا • ولكنها نظرت اليه ، ووضعت يدها على كتفه ، ثم ارتمت على صدره مهدودة القوى • توقف صوتها في نشجات محمومة ولهى • ان صدرها يعلو ناهدا ، وان وجهها يصطبغ بحمرة كحمرة الشفق عند غروب الشمس •

دمدم أوردينوف يقول وهو يشعر بغشاوة تحجب عينيه ، ويحس بأنفاسه تتوقف :

ـ حياتي •••

واذ أصبح لا يعرف ماذا يقول ،ولا يفهم ماذا يقول ، واذ اصبح يرتجف مخافة أن يدمر بنسمة هذا الذي يحدث له فيحسبه رؤيا أكثر مما يحسبه واقعا من فرط ما أصبحت الأمور غامضة مبهمة أمام بصره ، قال :

ـ فرحتي ••• لا أعرف ••• أنا لا أفهمك ••• لا أتذكر ما قلته منذ هنيهة • عقلي أظلم • قلبي يتألم ••• مليكتي •••

وخنق الهياج صوته • شدت جسمها الى جسمه بمزيد من القوة • نهض • فقد صبره • سقط على ركبتيه محطما طائش اللب من الانفعال•

وانطلقت من صدره أخيرا نشجات • ان صـــوته الذى يصدر من القلب رأسا ، يهتز اهتزاز حبل على مدى حماسة عظيمه وحب مجهول • قال وهو يحاول أن يخنق نشجاته :

ـ من أنت ؟ من أنت أيتها الحبيبة الغاليه ؟ من أين جئت يا حمامتى ؟ من أى سماء هبطت ؟ لكأن حلما يلفنى ، فما أستطيع أن أصدق وجودك •• لا تلومينى •• دعينى أتكلم •• منذ مدة طويلة أريد أن أتكلم ••• من أنت ؟ من أنت يا فرحتى ؟ كيف وقعت على قلبى ؟ قولى ••• أأنت أختى منذ زمن طويل ؟ قصى على كل شىء عنـك • أين كنت الى هـذا اليوم ؟ قولى لى ما اسم المكان الذى عشت فيه • ما الذى أحببته هنالك ؟ بماذا كنت سعيدة ، وما الذى كان يجعلك حزينة ؟ أكان الهواء دافئا ثمّ ؟ أكانت السماء صافية ؟ ••• ما هى الموجودات التى كانت حبيبة الى قلبك، أثيره فى نفسك ؟ من أحبـك قبلى ؟ الى من اتجهت نفســك هنالك أول ما اتجهت ؟ أكانت أمك معك ؟ أكانت هى التى تهدهدك وتلاعبك وتداعبك حين كنت طفلة ؟ بماذا كنت تحلمين ؟ فيم كنت تفكرين ؟ ما هى أحلامك التى تحققت ، وما هى أحلامك الأخرى ؟ قولى لى كل شىء ••• من هو الانسان الذى خفق له قلبك البكر أول ما خفق ؟ من هو الانسان الذى وهبته قلبك أول ما وهبت قلبك ؟ قولى لى ••• ما هو العطاء الذى يجب أن أقابل به عطاءك قلبك ؟ تكلمى يا حبيبتى الغالية ، يا ضيائى ، يا أختى ! قولى لى كيف أستطيع أن أستحق حبك ؟

توقف صوته من جديد ، وخفض رأسه • ولكنه حين رفع عينيه تجمد هولا ورعبا ، وانتصب شعر رأسه هلعا وجزعا •

كانت كاترين قاعدة ، ساحبة الوجه كميت •

انها ساكنة جامدة ، شاخصة ببصرها الى الفضاء • شفتاها مزرقتان

كشفتني جثة ، وعيناها تفيضان بألم أخرس رهيب • وها هي ذي تنهض ببطء ، فتخطو بضع خطوات ، ثم ينطلق من صدرها نحيب حاد ، وتسقط أمام الأيقونة ••• ان كلمات موجزة ، مضطربة ، تخرج من بين شفتيها• وأغمي عليها • فأسرع أوردينوف ينهضها مروعا ، ويرقدها على السرير • لبث واقفا أمامها لا يتذكر شيئا • وبعد دقيقة فتحت عينها ، وجلست على السرير ،ونظرت حولها ، وأمسكت يد أوردينوف • جذبته نحوها ، تمتمت بشيء بين شفتيها الصفراوين ، ولكن صوتها لم يسعفها • وآخيرا تدفقت دموعها غزيرة تحرق يد أوردينوف الباردة كالثلج • وأخيرا قالت هلعة :

ــ ما أشد هذا الألم ••• ما أشده ! •• حانت ساعتي الأخيرة •

أرادت أن تقول شيئا آخر ، ولكن لسانها لم يطاوعها • كانت عاجزة عن النطق بكلمة واحدة • انها تنظر يائسة الى أوردينوف الذي لايفهمها• مال أوردينوف عليها ، ازداد دنوا منها ، أصغى اليها ، فسمعها تنطق بهذه الكلمات واضحة :

ــ أنا مسحورة •• سحروني •• ضيعوني ••

رفع أوردينوف رأسه ونظر اليها مدهوشا • ان فكرة فظيعة تبرق في رأسه • رأت كاترين تقبض وجهه • أردفت تقول :

ــ نعم سحروني • رجل شرير سحرني •• انه هو • هو قاتلي • لقد بعته نفسي •• لماذا ، لماذا تكلمت عن أبي ؟ لماذا أردت أن تعذبني ؟ جازاك الله !

وبعد برهة أخذت تبكي في رفق • ان قلب أوردينوف يخفق خفقانا قويا ، ويعاني قلقا قاتلا :

همست تقول بصوت محبوس ، عجيب :

ـ يقول انه سيأتي يأخذ روحي اذا مات ••• انني له • لقد بعت نفسي • عذبني • قرأ في الكتب • انظر ••• هذا كتابه • اليك كتابه • يقول انني ارتكبت اثما قاتلا •• انظر •• انظر ••

أشارت الى كتاب • لم يكن أوردينوف قد لاحظ الكتاب ، ولا عرف كيف وجد في هذا المكان • تناول الكتاب بحركة الية • هو كتاب من طراز الكتب القديمة التي يقرؤها قدامى المؤمنين والتي أتيح له ان يرى مثلها قبل الآن • ولكن أوردينوف لا يستطيع الآن أن ينظر • ان انتباهه منصرف الى شيء آخر انصرافا كاملا • سقط الكتاب من بين يديه • ضم كاترين ضما رفيقا ، محاولا أن يردها الى صوابها • قال لها :

ـ كفي كفي ••• لقد روعوك • أنا معك • ثقي بي ، يا حبيبتي الغالية ، يا ضيائي •••

قالت وهي تشد على يديه شداً قويا :

ـ أنت لا تعرف شيئا ، لا تعرف شيئا • أنا دائما هكذا ••• خائفة من كل شيء •

ثم قالت بعد لحظة ، وهي تلهث لهاثا شديدا :

ـ حسبك ، حسبك ، لا تعذبني مزيدا من التعذيب ، والا ذهبت اليه • انه كثيرا ما يخيفني بأقواله ••• أحيانا يتناول كتابا ، هو أكبر الكتب ، ويأخذ يقرأ لي فيه ••• انه يقرأ دائما أشياء قاسية جدا ، أشياء رهيبة فظيعة ! لا أعرف ماذا يقرأ ، لا أفهم جميع الكلمات ، ولكن الخوف يعتريني ؛ وحين أسمع صوته ، فكأنه ليس هو الذي يقرأ ، بل شخص

شرير لا سبيل الى ترويضه ، ولا يمكن تأنيسه وتلطيفه . عندئذ ينقبض قلبي حزنا ... عندئذ يحترق قلبي ... شيء مروّع ، فظيع ! ...

قال أوردينوف وهو لا يكاد يفهم كلماتها :

ـ لا تذهبي اليه ! لماذا تذهبين اليه ؟

ـ لماذا جئت اليك ؟ اسأل هذا السؤال .. أنا نفسي لا أعرف . وهو يقول لي طول الوقت : « صلي لله ، صلي » أحيانآ انهض في الليل المظلم البهيم ، فاصلي مده طويلة ، ساعات كاملة . وكثيرا ما أكون نعسى ولكن الخوف يمنعني من النوم فاظل يقظى ، ويخيل الى عندئذ أن الصاعقة تتهيأ حولى ، أن هذا سيحمل الىّ الأذى ، أن الأشرار سيمزقونني ، سيقتلونني ، أن القديسين لن يسمعوا صلواتي وضراعاتي ، وأنهم لن ينقذوني من العذاب الرهيب ... نفسي تتهشم ، كأن الجسم كله يريد أن يذوب دموعا ... أستأنف الصلاة ، وأظل أصلي الى أن تنظر الىّ السيدة العذراء ـ في الأيقونه ـ بشيء من الحنان . وأنام أحيانا على الأرض ، ساجدة أمام الأيقونة . ولكن يحدث أيضا أن يستيقظ ، فيناديني، ويأخذ يلامسني ويواسيني ، فأشعر عندئذ بتحسن ، وأصبح خفيفة فرحة قادرة على احتمال أي شقاء . متى كنت معه ، لا أشعر بخوف . كلامه عظيم .

سألها أودينوف وهو يعض على يديه ألماً ويأساً .

ـ ولكن ما هو الشقاء الذى ألم بك ؟

امتقع لون كاترين امتقاعا رهيبا . نظرت اليه نظرة من حكم عليه بالاعدام ولا أمل له في عفو . قالت :

ـ الشقاء الذى ألم بي أنا ؟ أنا ابنة لعنتها أمها ... أنا أمَتُّ أمي.

أحاطها أوردينوف بذراعيه دون أن ينبس بكلمة .

شدت جسمها اليه . شعر بقشعريرة تسرى في جسم المرأة الشابة وخيل اليه أن روحها تنفصل عن جسدها .

قالت مضطربة الذكريات ناظرة الى ماضيها :

ـ لقد دفنتها ... أردت أن أتكلم منذ مدة طويلة . ولكنه يمنعني من الكلام بالصلوات ، والملامات ، والتهديدات ... وفي بعض الاحيان يضرم هو نفسه خوفي كما يمكن أن يفعل أعدى عدو لي ... والآن توافيني هذه الأفكار كلها في الليل ... اسمع ، اسمع ... حدث ذلك منذ زمن بعيد ، بعيد جدا . أصبحت لا أتذكر الآن متى حدث ، ولكن كأنه حدث أمس ... كأنه حلم رأيته أمس فكان يأكل قلبي . والقلق يضاعف طول الزمان ... اجلس هنا ، اجلس قربي ، فسأقص عليك قصة ألمي كله . لا يهمني أنني لُعنت ... سوف أروى لك حياتي كلها .

أراد أوردينوف أن يمنعها من ذلك ، ولكنها ضمت يدها احديهما الى الأخرى ضارعة اليه أن يسمع كلامها . ثم أخذت تتحدث من جديد ، باضطراب ما ينفك يزداد . قصتها مفتتة . في أقوالها تهمهم عاصفة نفسها . ولكن أوردينوف كان يفهم كل شيء ، لأن حياتها كانت قد أصبحت حياته ولأن ألمها كان قد أصبح ألمه ، ولأن عدوه كان قد انتصب أمامه ، يضخُم في عينيه عند كل كلمة جديدة تقولها ، ويجثم على قلبه بقوة كأنها لا تنضب ، ضاحكا من غضبه ، مستهزئا بحنقه . كان دمه يزدحم في قلبه ، ويعتم أفكاره . ان الشيخ الشرير الذى رآه في المنام (كان أوردينوف يعتقد أنه رآه في المنام) هو الآن أمامه فعلا .

بدأت كاترين كلامها :

« كان ذلك في ليلة تشبه هذه الليلة لكنها أعصف منها • الريح نهب في الغابه هبوبا لم أشهد مثله حتى الآن •• أو لعلني أظن ذلك لأن تلك الليلة هي الليلة التي تم فيها ضـــياعي ! •• تحت نافذتي تحطمت شجرة سنديان •• لقد أكد لنا شحاذ ، وهو شيخ أبيض الشعر تماماكان يأتي الينا ، أنه رأى هذه الشجرة حين كان طفلا ، وأنها كانت في ذلك الحين لا تقل ضخامة منها يوم حطمتها الريح ••

« وفي تلك الليله نفســـها ــ انني أتذكر كل شيء كأنه حدث بالامس ــ حطمت العاصفه سفن أبي ، فذهب أبي الى الشاطيء فوراً ، رغم انه كان مريضـــا ، منذ هرع الصـــيادون يبلغونه النبأ عندنا في المصنع • بقينا أنا وأمي وحدنا • كنت وسني •• وكنت حزينة أبكي بكاء مرا •• أعرف لماذا ••• كانت امي قد مرضت منذ قليل ، وكانت شاحبه الوجه ، وكانت تردد على مسامعي في كل لحظه ان عليّ أن أهييء لهــا كفنها • وفجاه طرق باب منزلنا .• قفزت من مكاني • اردحم الدم في قلبي • صرخت أمي •• لم أنظر اليها •• كنت خائفة • حملت المصباح ، ومضيت افتح الباب بنفسي •• كان هو • خفت • كنت دائماً أخاف حين يأتي الينا• كان ذلك شأني منذ أبعد عهد أتذكره من طفولتي•• ولم يكن شعره أبيض في ذلك الحين • كانت لحيته ســوداء كالقار ، وكانت عيناه تلمعان لمعان الفحم ، ولم ينظر اليّ نظرة حنان مرةً واحدة •• سألني هل أمي في البيت • أغلقت البــاب ، وأجبته بأن أبي ليس في البيت • قال : « أعرف » ، ونظر اليّ على حين فجأة نظرة خاصـــة • تلك أول مرة ينظر اليّ فيها هكذا • انصرفت • ظل ساكنا لا يتحرك • قلت لنفسي: « لماذا لا يجيء ؟ » • ودخلنا الغرفة • سألني : « لمــاذا أجبتني بأن أباك ليس في المنزل حين سألتك هل أمك في المنزل ؟ » • صمت •

« كانت أمي في ذعر • ارتمت عليه ••• لم يكن ينظر اليها • كنت

أرى كل شيء • كان مبللا يرتجف • لقد لاحقته العاصفة عشرين فرسخا • من أين كان آتيا ؟ لم نكن نعرف ذلك ، لا أنا ولا أمي • اننا لم نره منذ تسعة أسابيع • خلع طاقيته ونزع قفازيه • لم يصلِّ للأيقونات ، ولا حيا أهل المنزل ••• قعد قرب النار •• » •

أمرّت كاترين يدها على وجهها كأن شيئاً كان يخنقها • ولكنها رفعت رأسها بعد دقيقة وتابعت تروى قصتها :

« اخذ يكلم امى ، باللغة التترية • كانت امى تعرف هذه اللغة • أما أنا فلم افهم كلمة واحدة • كانا فى بعض الاحيان يصرفانى اذا جاء ••• أما الآن فان امى لم تجرؤ ان تقول شيئا لابنتها • الشيطان يشترى نفسى ، وانا انظر الى امى مسرورة • رأيت أنهما ينظران الى ، انهما يتحدثان عنى ••• أخذت أمى تبكى ••• أمسك سكينه • سبق أن حدث عدة مرات أن أمسك سكينه أثناء مخاطبته أمى • نهضت وتشبثت بحزامه • كنت أريد أن أنتزع من يده السكين • صر بأسنانه ، وصرخ ، وأراد أن يدفعنى عنه ••• لطمنى على صدرى ، ولكننى لم أتراجع • قدرت أننى سأموت فى مكانى ••• غشيت عينى سحابة • سقطت على الأرض دون أن أقول كلمة واحدة ••• ونظرت ما وسعنى أن أنظر وأنا على هذه الحال ••• خلع حزامه ، وشمر كم اليد التى لطمنى بها ، وتناول السكين فأعطانيها ، وقال لى : « ابترى يدى ، افعلى ما تشائين ، ما دمت قد أسأت اليك ، وأنا ، أنا المتكبر ، سوف أخر ساجدا أمامك • » • أعدت السكين الى غمدها ••• كنت أختنق ••• أبيت حتى أن أنظر اليه • أذكر أننى تبسمت دون أن أباعد شفتى ، وأننى ألقيت نظرة قاسية على عينى أمى الحزينتين ••• كانت أمى جالسة ، شاحبة الوجه كميتة ••••»

كان أوردينوف يصغى بانتباه شديد الى هذه القصة المشوشة • وشيئا

فشيئا تبدد اضطراب كاترين • أصبح تدفق كلامها أهدأ • كانت الذكريات تستدرج المخلوقة البائسة ، وتبعثر قلقها على صفحة الماضي العريض •

« تناول طاقيته وخرج دون ان يحيي • حملت المصباح من جديد لأرافقه ، بدلا من أمي التي أرادت أن تشيعه برغم انها مريضة • وصلنا الى الباب الخارجي • كنت صامتة • فتح الباب وطرد الكلاب • نظرت اليه • خلع طاقيته وانحنى أمامي انحناء كبيرا • رأيته بعد ذلك يضع يده في جيب صديرته فيخرج منها علبة صغيرة مفروشة بمخمل أحمر • فتح العلبة • نظرت • انها لالىء ضخمة • قدم الي اللآلىء قائلا : « لي جميلة غير بعيدة من هنا• كنت أحمل هذه اللآلىء اليها ، ولكنني لن أعطيها اياها • خذيها أنت يا حلوتي ، زيني بها جمالك ؟ أو اسحقيها بقدميك اذا شئت ، ولكن خذيها » • أخذت اللآلىء ، ولكنني لم أسحقها بقدمي • تناولتها تناول حية ، دون أن أعرف لماذا تناولتها • عدت الى الغرفة ، ووضعت اللآلىء على المائدة أمام أمي •

« لبثت أمي برهة لا تنطق بكلمة ، شاحبة شحوبا شديدا ، كانها تخشى أن تكلمني • ثم قالت : « ما هذا يا صغيرتي كاترين ؟ » ، فأجبتها « لك انما جاء هذا التاجر بها ••• أنا لا أدرى ••• » • نظرت اليها • أجهشت باكية • قالت : « لا ••• ليست لي يا كاترين ، ليست لي أيتها البنت الشريرة • ليست لي • » • ما زلت أتذكر مدى الحزن الذي لاح في وجهها وهي تنطق بهذه الكلمات • لكأن قلبها كان يطعن طعنا • رفعت عيني ••• أردت أن أرتمي على قدميها • ولكن الشيطان وسوس لي فجأة أن أقول : « اذا لم تكن لك ، فلعلها اذن لأبي • سأعطيه اياها متى عاد • سأقول له ان تجارا جاءوا الى هنا وتركوا هذه البضاعة ••• » • عندئذ أجهشت أمي باكية منتحبة ، وقالت : « سأذكر له بنفسي من هم التجار

الذين جاءوا الى هنا ، ومن أجل أية بضاعة جاءوا ••• سأقول له من أنت يا ابنة الزنا ! ••• ما أنت بنتي بعد الآن ! أنت أفعى ! أنت ابنة لعنتها أمها ! » • سكت • كانت عيناى بلا دموع ، كان كل شيء قد مات في نفسي ! ذهبت الى غرفتي ، ولبثت الليل كله أنصت الى العاصفة وأفكر •••

انقضت خمسة أيام • وفي مساء اليوم الخامس وصل أبي ، مقطب الحاجبين ، حانق الوجه • ولكن المرض كان قد حطمه في أثناء الطريق• نظرت فرأيت ذراعه مضمدة • فهمت ان عدوه قد لقيه في طريقه • وأنا أعرف ماذا كان عدوه • كنت أعرف كل شيء • لم يقل لأمي شيئا • لم يسأل عني • واستدعى جميع العمال • أمرهم بوقف العمل في المصنع ، وبان يحرسوا المنزل من العين الخبيثة • قال لي قلبي في تلك اللحظة ان نازلة تهدد منزلنا • لبثنا ننتظر • انقضى الليل • ليلة أخرى تملؤها الصواعق • كان الاضطراب يغزو قلبي • فتحت نافذتي • كان وجهي يحترق ، وكانت عيناى تفيضان دموعا ، وكان قلبي يشتعل بنار • كان جسمي كله أشبه بجمرة • كنت أود لو أمضي الى بعيد ، الى آخر العالم، الى حيث تولد الصاعقة • ان صدري ينتفخ ••• وفجأة ، في ساعة متأخرة، بينما كنت نائمة ، أو قل غافية نصف اغفاء ، سمعت طرقا على نافذتي وصوتا يهتف : « افتحي • » • نظرت • ان رجلا قد تسلق بواسطة حبل حتى وصل الى نافذتي • عرفته فورا • فتحت النافذة وتركت له أن يدخل غرفتي • انه هو • لم ينزع طاقيته • جلس على مقعد من المقاعد ، يلهث لهاثا قويا ، ولا يكاد يستطيع أن يتنفس ، كأن أحدا كان يطارده • لطوت في ركن • أحسست أن وجهي يشحب •••

قال : « هل الأب في البيت ؟ » قلت : « نعم » • قال : « والأم ؟ » ،

قلت « والأم أيضا • » • قال : « اسكتي الآن • هل تسمعين ؟ » قلت : « أسمع » • قال « ماذا تسمعين ؟ » قلت : « الريح تحت النافذة » • قال : « طيب يا جميلتي ، هل تريدين أن تقتلي عدوك ، أن تنادي أباك ، ان تزهقي روحي ؟ أنا أخضع لمشيئتك • اليك هذا الحبل ، فأوثقيني به ، اذا كان قلبك يهيب بك أن تنتقمي للاساءة » • سكت • قال : « هلا تكلمت يا فرحتي ؟ » • قلت : « ماذا يجب ؟ ••• » قال : « يجب عليَّ أن أبعد عدوي ، وأن أودع حبيبتي القديمة ، وأن أنحني لك أنت أيتها الفتاة انحناء كبيرا من قبيل التحية ••• » • أخذت أضحك ، ولا أدري أنا نفسي كيف نفذت هذه الكلمات الموبوءة الى قلبي • » • قال : « دعني اذن يا جميلتي أنزل الى تحت وأحيي رب المنزل » • ارتعشت من قمة رأسي الى أخمص قدمي ، واصطكت أسناني ، واشتعل قلبي نارا ••• مضيت أفتح الباب ، وأدع له أن يدخل البيت • ولكنني قلت عند العتبة : « استرد لآلئك ، ولا تُهد اليَّ شيئا بعد الآن » • ورميت له العلبة الصغيرة • » •

توقفت كاترين عن الكلام لتتنفس قليلا • كانت تارة ترتعش وتشحب ، وتارة يزدحم الدم في وجنتيها • ففي اللحظة التي توقفت فيها عن الكلام كان وجهها مشتعلا ، وكانت عيناها تلتمعان من خلال الدموع ، وكانت أنفاسها الثقيلة ترعش صدرها • ولكنها لم تلبث أن اصفرت فجأة، ثم استأنفت تقول بصوت يفيض حزنا :

« لبثت عندئذ وحدي ، وكنت أحس أن العاصفة تهمهم حولي ••• وفجأة سمعت صرخات ••• ان عمال المصنع يركضون في الفناء ••• ويصيحون : « المصنع يحترق » • اختبأت في ركن • هرب الجميع من المنزل ••• بقيت وحيدة مع أمي • كنت أعرف أن الحياة تغادرها : انها راقدة على فراش الموت منذ ثلاثة أيام • كنت أعلم ذلك ، أنا البنت التي

لعنتها أمها ! وانطلقت فى غرفتى على حين بغتة صرخة ضعيفة ، كصرخة طفل يخاف من الليل • ثم هدأ كل شيء • نفخت على الشمعة • كنت متجمدة كالجليد • خبأت وجهي في يدي • خفت أن أنظر • وفجأة سمعت صرخة على مقربة مني • كان أناس يهرعون من المصنع • ملت من على النافذة ••• رأيت أبى ميا يحملونه الى البيت • وسمعت الناس يقولون : « لقد سقط من السلم في مرجل الماء الغالى ، كأن الشيطان دفعه اليه ! » • شددت جسمي الى السرير • انتظرت • لا أدرى من انتظرت، لا أدرى ماذا انتظرت • أتذكر الآن أن رأسي أصبح ثقيلا عندئذ دفعة واحدة • وكان الدخان يخز عيني ، فيسعدني أن ضياعي أصبح قريبا • وفجأة شعرت بأن أحدا ينهضني من كتفي ••• نظرت ما أمكنني أن انظر ••• انه هو ! انه محترق • ثيابه ساخنة ، تفوح منها رائحة الدخان• قال : « جئت آخذك يا جميلتي • فقدت روحي من اجلك ، في سبيلك • مهما أصلي، فلن تغفر لى هذه الليلة الملعونة ، اللهم الا اذا صلينا معا ! »• وضحك ، ضحك الملعون ! قال : « دليني على الطريق الذى يمكن أن نخرج منه دون أن يرانا أحد • أمسكت يده ، وقدته • اجتزنا الدهليز • كانت المفاتيح معي • فتحت الباب الاحتياطي ، ودللته على النافذة • ان النافذة تطل على الحديقة • تناولني بذراعيه القويتين ووثب من النافذة ••• أخذنا نركض • ركضنا مدة طويلة • لمحنا غابة كثيفة مظلمة ••• أصاخ بسمعه • قال : « انهم يلاحقوننا يا كاترين • انهم يطاردوننا ! انهم يطاردوننا يا جميلتي ؟ ولكن ليس هذا أوان الاستسلام • قبليني في سبيل الحب الأبدى ، والسعادة الأبدية ! » • قلت له : « لماذا فى يديك دم ؟ » قال : « دم ؟ يا عزيزتي ••• لأنني قتلت الكلاب التى كانت تنبح • هيا بنا • » • واستأنفنا الركض • وفجأة رأينا فى الطريق حصان أبى • كان الحصان قد انتزع رسنه وهرب من الاسطبل لينجو من اللهب • قال :

« اركبى معى يا كاترين ، لقد أرسل الله الينا نجدة ! » • صمت • قال : « ألا تريدين ؟ أنا لست وثنياً ، ولا شيطانا ، سأرسم اشارة الصليب اذا شئت • » • رسم على نفسه أشارة الصليب • جلست على الحصان ، واذ شددت جسمي الى جسمه ، ذهلت عن نفسى على صدره ، فكأننى فى حلم ••• حتى اذا ثبب الى رسدى ، كنا قد اصبحنا قرب نهر عريض ، عريض ••• أنزلنى عن ظهر الحصان ، ثم ترجل ، ومضى نحو شجيرات القصب على شاطىء النهر • كان قد أخفى هنالك قاربه • قال : « وداعا يا حصانى الشجاع ، ابحث لنفسك الآن عن صاحب آخر • أصحابك القدامى تركوك • » • ارتميت على حصان ابى أقبله بحنان • ثم ركبنا القارب • تناول المجدافين ، فسرعان ما غاب عنا الشاطىء • فلما ابتعدنا هذا الابتعاد ترك المجدافين وأخذ يجيل نظره فيما حوله • قال : « سعد يومك أيها النهر ، يا مرضع العالم ويا مرضعى ! قل لى هل احتفظت برزقى فى غيبتى ؟ هل بضائعى سليمة لم يمسسها أذى ؟ » • صمت وخفضت عينيّ • كان وجهى قد اصطبغ بالحمرة من الخجل • قال : « خذ كل شيء ان شئت ، ولكن عدنى أن تصون وأن تحب لؤلؤتى التى لا تقدر بثمن ••• قولى كلمة واحدة على الأقل يا جميلتى ! أضيئى وجهك بابتسامة ! كما تطرد الشمس الليل المظلم البهيم ••• » • قال ذلك وابتسم • أردت أن أقول كلمة ••• كنت خائفة • صمت • قال يجيب على فكرى الوجل الخجل « لك ما تشائين ! ما من شيء يمكن الحصول عليه عنوة • حفظك الله يا حمامتى ! أرى أن ما تحملينه لى من كره هو الأقوى ••• » • كنت أصغى اليه • اعترانى غضب • قلت له : « نعم أكرهك لأنك لطختنى فى تلك الليلة المظلمة ، وما تزال تسخر من قلبى قلب الفتاة ••• » • قلت ذلك ولم أستطع أن أحبس دموعى • بكيت • وصمت • لكنه نظر الىّ نظرة لم أملك معها الا أن أرتعش ارتعاش

ورقة في مهب الريح • قال لي وعيناه تسطعان سطوعا رائعا : « اسـمعي يا جميلتي ! ان ما ساقوله له ليس لغوا ، بل هو عهد عظيم : ما ظللت تهبين لي السعادة فساكون سيدا ، ولكن اذا انقطعت عن حبي في لحظة من اللحظات ، فلا حاجة بك الى الـكلام ، بل تكفي اشـارة من حاجبـك ، يكفي أن تلقي عليّ نظـرة من عينـك الكحـلاء حتى أرد اليـك حبك والحرية • ولكن اعلمي ، أيها الجمال الشامخ ، أن ذلك اليوم سـيكون آخر أيامي ! » جسمي كله ابتسم لدى سماع هذه الكلمات ••• » •

هنا قطع الانفعال قصـــه كاترين • فتنفستْ ، حتى اذا همَّت أن تتابع حديثها التقت نظرتها الملتمعة بنظرة أوردينوف المشتعلة تحدّق اليها، فارتعشت ، وأرادت أن تقـول شيئا ما ، ولكن الدم صـعد الى وجهها • خبأت وجهها في يديها ، ودفنته في المخدات • كان أوردينوف مضـطربا اعمق الاضطراب • ان انفعالا اليما لا يحدد ولا يطاق ، كان يسري في جميع أنسجة جسمه سريان السم ، ويكبر ويعظم عند كل كلمة جديدة من قصة كاترين • ان رغبة لا يشفعها أمل ، وهدى جامحا شرها ، كانا يملكان عليه كل أفكاره ويبثان الاضطراب في عواطفه ، وان حزنا عميقا لا نهايه له كان في الوقت نفسه يجثم على صدره بمزيد من الثقل شـيئا بعد شيء • كان يريد في بعض اللحظات أن يصرخ مناشدا كاترين أن تصـمت ، كان يريد أن يرتمي على قدميهـا ، ضارعا اليهـا والدموع في عينيه ، أن تعيد اليه آلامها السابقة وعاطفتها الصافية القديمة • كان يشعر بالشفقة على دموعها التي جفت منذ مدة طويلة • كان قلبه يتألم ويتعذب• لم يفهم كل ما قالته كاترين ؟ كان حبه يخاف من العاطفة التي تهز المرأة الشقية • لعن في تلك اللحظة هواه • ان هذا الهوى يخنقه خنقا ، وهو يشعر بما يشبه الرصاص يجري في شراينه بدلا من الدم •

استأنفت كاترين كلامها تقول فجأة وقد رفعت رأسها :

ــ آه ... ليس شقائي فيما قصصته عليك حتى الآن . ليس هـــذا عذابي . لا يضيرني ان تلعنني أمي في ساعتها الاخـيرة ! انني لا آسف على حياتي الذهبية السالفه ! ولا يضيرني ان آكون قد بعت نفسي للاثم وان احمل الخطيئة الابديه من أجل لحظة سعادة ! لا .. ليس شقائي في هذا ، ليس عذابي في هذا ! ... لا ... وانما الذى يؤلمني ويمزق قلبي تمزيقا هو أن أكون له عبدة ملوثة ، أن يكون عارى عزيزا في نفسي ، أن يجد قلبي لـــذة ومتعة في تذكر ألمه كما لو كان هذا الالم فرحا وسعادة . ذلك هو شقائي : أن لا استطيع ان أغضب وأن أحقد للاساءة التي نالتني ، والاذى الذى الحق بي ! ...

كانت أنفاس حــــرّى لاهثة تحـــرق شفتيها . كان صـــدرها يهبط هبوطا عميقا ويعلو علواً كبيرا ، وكانت عيناها تسطعان بحنق مسعور ... ولكن فتنة رائعة كانت تنتشر على وجهها في تلك اللحظة ، فتكتسب كل قسمة من قسماتها جمالا يبلغ من القوة أن جميع الأفكار السود المظلمـه التي غزت أوردينوف أخذت تتبدد بما يشبه السحر . ان قلبه يرنو الى ضمّ قلبها ، انه يصبو الى أن ينسى نفسه معها في عناق مجنون جامح حتى ليموتا معا . التقت عينا كاترين بنظرة أوردينوف المضطربة ، فابتسمت له ابتسامة أجـرت في قلبه تيـارين من نار يحرقانه ، وهو لا يكاد يدرك ذلك . همس يقول لها حابسا صوته المرتجف :

ــ ارحميني ... رفقا بي ! ...

مالت كاترين عليه متكئة باحدى ذراعيها على كتفه ، ونظـــرت اليه من قرب حتى اختلطت أنفاسهما .

ــ لقد ضيعتني ! لست أعرف ألمك ، عصفت بقلبي ... ماذا يهمني

أن أعرف أن قلبك يبكى ؟ قولى لى ما الذى ترغبين فيه ، فأفعله • تعالى معى • هيا بنا • لا تقتلينى ! لا تودى بحياتى ؟ •••

نظرت اليه كاترين ساكنه لا تتحـــــرك ، وقد جمت الدموع على وجنتيها المحترقتين • ارادت ان تقاطعه ، ان تمسك بيده ، أن تقول له شيئا ، ولكن الكلمات لم تسعفها •

وهذه ابتسامة غريبة تظهر بطيئة على شفتيها ، ثم هذه ضحكة تخرج من الابتسامه •

وتابعت أخيرا تقول :

ـ لم اقص عليك كل شيء ••• سأحكى لك أمورا أخرى • ولكن هل تراك تصغى الى كلامي ؟ اصغ الى حديث اختك ••• أريد ان اروى لك كيف عشت سنة معه •• لا •• لن افعل هذا •• « انقضت سنه ••• سافر مع رفاقه فى النهـــر • وبقيت انا مع أمه أنتظر • انتظرته شهرا ، فشهرا آخر • وفى ذات يوم ، التقيت بتاجر شاب •• نظرت الى التاجر الشاب •• فتذكرت السنين الخوالى ••• قال لى التاجر الشاب بعد كلمتين من حديث معى : « صديقتى الغالية ••• أنا ألكسى ، خطيبك السابق • لقد خطب أهلونا أحدنا للآخر منذ كنا طفلين • هل نسيتينى ؟ تذكرى•• أنا من قريتك ! » • قلت : « ماذا يقولون عنى هناك ؟ » • أجاب ألكسى ضاحكا : « يقول الناس انك نسيت خفر العذارى ، وتعلقت بلص من قطاع الطرق • » • قلت : « وأنت ماذا كان رأيك فيّ ؟ » • قال : « هنـاك أشياء كثيرة كنت أريد أن أقولها (اضطرب قلبه) ••• كنت أريد أن أقول أشياء كثيرة ••• أما وأننى رأيتك الآن ، فقد ضعت • خذى روحى يا جميلتى ، دوسى قلبى ، اهزئى بحبى • أنا الآن يتيم • وأنا سيد نفسى• نفسى ملكى لم أبعها لأحد ••• » • أخذت أضحك • وكلمنى مرات

أخرى أيضا • وبقى فى القريه شهرا بكامله ••• ترك تجارته ، صرف عماله ، وبقى وحـــده • اشفقت على دموعه ، دموع اليتيم • قلت له : « الكسى ، انتظرني عند الجسر متى هبط الليل • سنذهب الى منزلك • سئمت الحياة هنا • » • جاء المساء ، وأعددت حقيبتي ••• وحانت مني التفاته ، فاذا انا ارى مولاى راجعا على حين فجاة • قال : « يومك سعيد • هيا بنا • سنهب العاصفة • يجب أن لا نضيع الوقت • • » • تبعته • وصلنا الى ضفة النهر • نظرنا • راينا هنالك زورقا وربانا ••• لكانه كان ينتظر احدا •• « يومك سعيد يا الكسى • أعطاك الله العافية ! ماذا ؟ هل تأخرت فى المرفأ ؟ ••• انك ستسارع للحاق بالسفن ••• فخذنا معك ، أنا وزوجتى ••• لقد تركت قاربي هنـــاك ، ولا أستطيع أن أذهب اليـه سباحه ! » • قال ألكسى : « اجلس » • شعرت بألم يجتاح نفسى كلهـا حين سمعت صوته • « اجلس انت وزوجتك • الريح مواتية لنا جميعا ، وفى منزلى مكان لكما • » • جلســـنا • أظلم الليل • اختفت النجـوم ، وهبت الريح ، وأخذت الامواج تعلو • كنا قد ابتعدنا عن الشاطىء مسافة فرسخ • لزمنا الصمت نحن الثلاثه • قال مولاى : « يا لها من عاصفة ! ان العاصفة تنذر بشر • ما رأيت فى حياتى عاصفةً كهذه العاصفة على هذا النهر ! زورقنا مثقـل ••• لن يستطيع أن يقلنا نحن الثـلاثة ! » • قال ألكسى : « نعم ، لن يستطيع أن يقلنا نحن الثلاثة ••• واحد منا زائد اذن عن طاقة الزورق • » • كان صوته يرتجف ارتجاف حبل • « اسمع يا ألكسى ، لقد عرفتك طفلا صغيرا جدا ، وكنت لأبيك كالاخ • قل لى يا ألكسى : هل تستطيع أن تصل الى الشاطىء سباحة ، أم تراك تهلك اذا حاولت ذلك ؟ » • قال ألـكسى : « لا ••• لن أسـتطيع الوصـــول الى الشاطىء ، وسأهلك فى النهر • » • « اسمعى أنت يا كاترين ، يا لؤلؤتى التى لا تقدر بثمن • اننى أتذكر ليلةً كهذه الليلة ، مع فرق واحد هـو

أن الأمواج لم تكن تعلو كما تعلو الآن ، وكانت النجوم تتلألأ فى السماء ، وكان القمر يرسل أشعة فى الفضاء ... أريد أن أسألك هل نسيت تلك الليلة ؟ . » . قلت : « بلى أذكرها . » . قال : « اذا كنت لم تنسيها ، فأنت لم تنسى اذن الوعد المقطـوع أيضـا ... لم تنسى كيف علم الفتى الشجاع حبيبته الجميلة ، الطريقه التى يجب أن تعمد اليها من أجل أن تسترد حريتها ... هه ؟ » . قلت : « لا ... لم أنس ذلك أيضا ؟ » . قال : « لم تنسى ذلك ؟ اذن ... فانظرى الآن ... المركب منقل بنا . وقد حان أجل واحدٍ منـــا . تكلمى يا حمــــامتى . قولى لى كلمتك الحلوة ... » .

همست كاترين تقول لأوردينوف :

ــ ولم أقلها ...

ولم تكمل كلامها ، فهذا هو صوت أصم يدوّى مناديا على حسين فجأة :

ــ كاترين !

ارتعش أوردينوف . كان مورين واقفا عند الباب ، لا يكاد يرتدى شيئا غيرَ غطاء من فراء ألقاه على جسمه ، وكان شاحب الوجه كميت . انه يحدق اليهما بعين تشبه أن تكون مجنونة . أخذت كاترين تنظر اليه وهى تزداد شحوبا وكأنها منوَّمة :

قال الشيخ بصوت لا يكاد يُسمع :

ــ كاترين ، تعالى الىَّ .

وخرج من الغرفة .

ظلت كاترين ساكنة ، تنظر فى الفضاء كما لو كان الشيخ ما يزال

ماثلا أمامها • ولكن الدم لم يلبث أن تدفق في وجهها فجأة ، فجعــل خديها الشاحبين حمراوين بلون الارجـــوان • تذكر أوردينوف لقاءهم الأول •

قالت وهي تبتسم :

ـ اذن الى الغد يا دموعي • الى الغد • تذكر الى أين وصلنا من القصه ••• « اختارى أحد اثنين يا جميلتى : من الذى تحبينه ومن الذى لا تحبينه • » • لا تنس أن تتذكر أننا وصلنا من القصة الى هنا •

ثم أضافت تقول وهى تضع يديها على كتفى أوردينوف وتنظر اليه فى حنان :

ـ سوف تنتظر ليلة كاملة •

تمتم أوردينوف يقول وهو يرتعد خوفا عليها :

ـ كاترين ، لا تذهبي اليه ، لا تضيعي نفسك • انه مجنون •

وناداها الصوت من وراء الحاجز :

ـ كاترين !

قالت كاترين لأوردينوف تسأله ضاحكة :

ـ ماذا ؟ أتحسب أنه سيقتلني ؟ نعمت مساءً يا قلبي ، يا طائري ، يا أخي •

قالت ذلك وهي تسند رأسها على صدره ، بينما أخذت دموع تطفـر من عينيها فجأة •

أضافت تقول :

ـ هذه آخر الدموع • ثم يا عزيزى • ستستيقظ غدا للفرح •

وقبلته قبلة محمومة •

ركع أوردينوف أمامها محاولا أن ينثنيها عن الذهاب اليه ، قائلا :

ـ كاترين ، كاترين ، كاترين !

استدارت كاترين وهى تحييه بحركة من رأسها وتبتسم له ، ثم خرجت من الغرفة •

سمعها أوردينوف تدخل على مورين • حبس أنفاسه وأنصت ، ولكن لم يصل الى سمعه شيء •

كان العجوز صامتا ، أو لعله قد أغمى عليه من جديد •••

أراد أوردينوف أن يذهب اليها ، ولكن ساقيه كانتا تترنحان ••• أحس بوهن شديد ، فجلس على السرير •

٢

حين استيقظ ، لبث برهة طويلة لا يدرك فى أية ساعة هو من الليل أو النهار ! أهذا هو الفجر أم هـو الشفق ؟ ما تزال غرفته ظلماء • لم يستطع أن يحدّد المدة التى قضاها نائما ، ولكنه يحس أن نومه كان نومَ مريض • مسح وجهه بيده ، كأنما ليطرد الاحلام ورؤى الليل • ولكنه حين أراد أن يضع قدمه على أرض الغرفة أحس أن جسمه كله كان محطما تحطيما • ان أعضاءه المتعبة ترفض أن تطاوعه ، وان فى رأسه صداعا ، وان كل شيء من حوله يدور • جسمه يرتعد من البرد تارة ، ويحترق تارة أخرى • ثم عاد اليه وعيه ، وعادت اليه ذاكرته ، فاختلج قلبه حين عاش بخياله تلك الليلة كلها مرة أخرى • بلغ قلبه من شدة الخفقان حين تذكر تلك الليلة ، وبلغت احساساته من القوة والجدة والنضارة والطراوة أنه خيّل اليه أن كاترين لم تتركه منذ ساعات طويلة ، بل منذ دقيقة واحدة • لمّا تجف عيناه بعد ، أو لعل هذه الدموع جديدة تتدفق من ينبوع فى روحه الحارة ! والشيء الغريب أن آلامه كانت عذبة

فى نفسه ، رغم شعوره بأنه ما كان لكيانه كله أن يحتمل صدمةً كهذه الصدمه . وفى لحظة من اللحظات اعتراه ما يشبه الشعور بالموت ، فكان مستعدا لان يستقبله استقبال زائر حبيب . كانت أعصابه تبلغ من شدة التوتر ، وكان هواه يبلغ من قوة الغليان والاندفاع ، وكانت روحه تبلغ من فرط الحماسة أن الحياة وقد أهاجها هذا التوتر تبدو كأنها توشك أن تنفجر فتفنى فى لحظه وتزول الى الأبد .

وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، ترجَّع ذلك الصوت المعروف ، جوابا على قلقه ، جوابا على ارتعاش قلبه ، ترجَّع ترُجع تلك الموسيقى الداخليه التى تغنى فى نفس كل انسان فى ساعات فرحه وسعادته . انه صوت كاترين الرزين ، الرنّان كالفضة ، فعلى مقربة منه ، عند موضع رأسه تقريبا ، بدأ ذلك الصوت ينشد أغنية رخيمه حزينة فى أول الامر.. يعلو تارة ، ثم ينخفض وينطفىء تارةً أخرى ، ثم يرتعش بهوى عارم ويمتد بحرا من حماسة وسيلا من أنغام قوية لا نهائية ، كالدقائق الأولى من سعادة الحب . ان أوردينوف يميز كلمات الاغنية أيضا : هى كلمات بسيطة ، رقيقة ، حنون ، قديمة ، تعبر عن عاطفة ساذّجة بريئة هادئة صافية مضيئه . ولكن أوردينوف كان يغفل عن الكلمات ، فلا يسمع الا الانغام . ثم هو يسمع من خلال الكلمات الساذجة التى يصدح بها الغناء كلمات أخرى ، كلمات يغلى فيها كل ما يضمه قلبه من صبوة ، وكل ما ترنو اليه روحه من شوق وتوق ، كلمات تلبى هواه ، فهى تارة آخر أنة من أنات قلب أضناه الحب ، وهى تارة فرحة الحرية ، فرحة الروح التى حطمت أغلالها وطارت وضاءةً حرة طليقة فى الخضم اللانهائى ، خضم الحب ، هى تارة أولى العهود تقطعها الحبيبة على نفسها ، مع صلواتها ودموعها وهمسها السرى الخجول ، وهى تارة شهوة امرأة سكرى خلعت

العذار مبكرةً فرحةً بقوتها ، فلا حجب ولا سرً ، تتبختر أمام عينه النشوى ...

نهض اوردينوف عن سريره دون أن ينتظر ختام الأغنية . فسرعان ما توقف الصوت عن الغناء وناداه قائلا :

ـ نعمت صباحا يا حبيبي . انهض . تعال الينا . استيقظ للفرح الوضاء . نحن ننتظرك ، أنا ومولاي . نحن أناس فضلاء ... وقد خضعنا لمشيئتك . اطفيء الكره بالحب ... قل كلمة عذبة حلوة ! ...

خرج اوردينوف من الغرفة مستجيبا للنداء ، ومضى يذهب الى جيرانه كانما على غير شعور . انفتح الباب أمامه ، وسطعت ابتسامة صاحبه البيت الجميلة نيّرةً كالشمس . لم ير في تلك اللحظة ولا سمع الا كاترين . ان حياته كلها وفرحته كلها قد انصهرت في قلبه على الفور صورةً وضاءةً هي صورة كاترين .

قالت وهي تصافحه :

ـ فجران انقضيا على لقائنا . الفجر الثاني ينطفيء الآن . أنظر من النافذة ...

ثم أضافت ، مبتسمة :

ـ فجران كفجري الحب عند فتاة : الأول يصبغ خديها بحمرة الخجل ، حين يأخذ قلبهما يخفق وحيدا ، والثاني يحرقها كاللهب ، بعد أن تنسى خجلها الأول ، فهو يُنهد صدرها ويُصعد الى وجنتيها دما قانيا. مالك تتلبث على عتبة الباب ؟ أهلا بك وسهلا . مولاي يحييك ...

قالت ذلك وضحكت ضحكة رنانة كموسيقى ، ثم تناولت يد أوردينوف وأدخلته الغرفة . استولى الخجل على قلبه . ان اللهب الذي كان يحرق صدره منذ قليل يبدو كأنه ينطفيء الآن . خفض عينيه محتارا .. كان يخاف أن ينظر اليها . لم ير كاترين قبل الآن على مثل هذه

الحال • ان الضحك والمرح يضيئان وجهها لأول مرة ، وقد جفّفا الدموع الحزينة على أهدابها السود • يدها ترتجف في يده • ولو رفع بصره لراى كاترين تحدّق بعينيها المشرقتين الى وجهه الذى جهّمه الاضطراب والهوى ، مبتسمة ابتسامة الظفر •

وقالت أخيرا :

ــ هلاّ نهضت أيها الشيخ ! هلا قلت لضيفنا كلمة ترحيب ؟ ••• الضيف كالاخ ••• فانهض أيها الشيخ المتكبر •• سلّم على الضيف •• تناول يده البيضاء وأجلسه الى المائدة !

رفع أوردينوف عينيه • لكانه يشعر لأول مرة بوجود مورين• كانت عينا الشيخ تحدقان اليه وكأن الخوف من الموت قد أطفاهما • انقبض صدر أوردينوف حين تذكر هذه النظرة ، التى سبق أن رآها تلتمع كالتماعها الآن تحت الحاجبين الطويلين المقطبين اهتياجا وغضبا • شعر ببعض دوار •• نظر حوله ، فأدرك عندئذ فقط كل شيء • ان مورين ما يزال راقدا فى سريره • وهو مرتد ثيابه كلها تقريبا ، كأنه كان قد نهض وخرج فى الصباح • عنقه محاطة بوشاح أحمر هو الوشاح الذى كان على عنقه قبل ذلك • وفى قدميه بابوجان • واضح أن ألمه كان قد زال ، ولكن وجهه لا يزال رهيب الشحوب والصفرة • جلست كاترين قرب السرير مسندةً ذراعها الى المائدة ، تنظر الى الرجلين صامتة • الابتسامة لم تفارق شفتيها• وكان كل شيء كأنما تمّ بأمرها •

قال مورين وهو ينهض جالسا على السرير :

ــ نعم ••• هو أنت ••• نزيل بيتى ••• أنا آثم فى حقك أيها السيد ••• لقد أسأت اليك مؤخرا حين عبثت بالبندقية ••• ولكن من ذا الذى كان يعلم أنك تصاب أنت أيضا بنوبات صرعة ••• هذا يحدث

لى أنا ... (كذلك أضاف يقول بصوت أجش ، مرضى ، وهو يقطب حاجبيه ويشيح ببصره) • الشقاء ينزل على الانسان دون أن يطرق الباب مستأذنا بالدخول ، انه يتسلل تسلل اللصوص • ولقد أوشكت أن أغمد سكينا فى صدرها هى (قال ذلك وهو يومىء الى كاترين) • أنا مريض، وكثيرا ما تعترينى النوبة • اجلس • أهلا بك !

كان أوردنيوف ما يزال يحدق اليه ويتفرس فيه • صاح الشيخ نافد الصبر :

ـ لماذا لا تجلس ؟ اجلس ... ما دام هذا يناسبها هى • لكأنما من سروركما عشيقان ...

جلس أوردنيوف •

تابع الشيخ يقول ضاحكا كاشفا عن صفين من أسنان بيضاء سليمة

ـ أرأيت الى هذه الاخت التى لك ! ... امرحا يا صديقى •• قل لى أيها السيد : هل أختك هذه جميلة ؟ قل ... أجب ... انظر الى تلألؤ وجنتيها • لماذا لا تنظر ؟ أعجب بالحلوة الجميلة ... أظهر أن قلبك يتألم ...

قطب أوردينوف حاجبيه ، ونظر الى الشيخ حانقا • فارتعش الشيخ لهذه النظرة • ان غيظا أعمى يغلى فى صدر أوردينوف • ان غريزة صادقة كغريزة الحيوانات تجعله يحزر أنه أمام عدو رهيب • لكنه مع ذلك لا يدرك ما الذى يجرى فى نفسه • لم يسعفه عقله •

قال صوت وراء أوردينوف :

ـ لا تنظر •

التفت أوردينوف • قالت كاترين ضاحكة :

ـ لا تنظر • قلت لك لاتنظر • اذا كان الشيطان هو الذى يحرضك، فارحم حبيبتك !

وفجأة تسمرت وراءه ، وعصبت عينيه بيديها • ولكنها لم تلبث أن سحبتهما ، وغطت بهما وجهها • ان حمرة خديها تظهر من خلال أصابعها• نزعت يديها وحاولت، وقد احمرت احمرارا شديدا ، أن تواجه ابتساماتهما ونظراتهما المستطلعة مواجهـــة جريئة بغير تحرج • ولكن الرجلين ظلا ساكتين يرنوان اليها : فأما أوردينوف فهو يرنو اليها بدهشـــه الحب كأن هذا الجمال الرهيب ينفذ الى قلبه لأول مرة ، وأما الشـــيخ فيرنو اليهـا بانتباه وبرود ، لا يعبِّر وجهه الشاحب عن شيء ، وانما تختلج شـــفتاه المزرقّتان اختلاجا خفيفا •

اقتربت كاترين من المائدة وقد كفت عن الضحك • وأخذت تنضد الكتب والأوراق والمحبرة وكل ما كان على المائدة ، ثم تحملها جميعا الى المنضدة الصـــغيرة عند النافذة • لقد أصبحت أنفاسها سريعة متقطعة ، وأصبحت فى بعض اللحظات تستنشق الهواء عميقا ، كأن قلبها يختنق • ان صدرها يعلو ويهبط بطيئا كموجة • وخفضت عينيها وتلألأت أهدابها السود فوق خديها كابر دقيقه •

تمتم الشيخ :

ـ ملكة !

ودمدم أوردينوف وهو يرتجف من رأسه الى قدميه :

ـ حبيبتى !

ولكنه ثاب الى رشده اذ أحس بنظرة الشيخ تنصب عليه • لقـد

سطعت هذه النظرة خلال ثانية سـطوعَ برق : شرهةً خبيثةً باردةً مزدريه • أراد اوردينوف ان ينصرف ، ولكنه أحس انه مسـمر فى مكانه بقوة لا تُرى • جلس من جديد • انه يشد فى بعض اللحظات على يديه ، ليتأكد من انه فى يقظة ، لانه يحس ان كابوسا يجثم على صدره ويخنقه ، وانه ألعوبة فى يد حلم أليم مرضى • ولكن الأمر الغريب انه كان لا يريد أن يستيقظ من هذا الحلم •

نزعت كاترين عن المائدة غطاءها العتيق، ثم فتحت صندوقا ، فأخرجت منه مفرشا مطرزا بالحرير والذهب ، فغطت به المائدة • ثم تناولت من الخزانة آنيه فضية لحفظ الخمور ، كانت لجد جدها ، فوضعتها فى وسط المائدة ، ثم أعدت ثلاثة أقداح من الفضة ، واحدٍ للضيف ، وواحد لرب البيت ، وواحد لها • وبعد ذلك نظرت الى الشيخ والى أوردينوف مفكرة ساهمة • قالت :

ـ من منا يحب من ؟ اذا كان واحد منا لا يحب آخر ، فهذا الآخر أنا أحبه وسيشرب قدحه معى • اننى أحبكما كليكما ، حبَّ القـريب للقريب • فلنشرب معا للحب والسلام !

قال الشيخ بصوت أشوه :

ـ فلنشرب ، ولنغرق فى الخمرة أفكارنا القاتمة • صبى ياكاترين !

سألت كاترين وهى تنظر الى أوردينوف :

ـ وأنت ، هل تريد أن أصب لك ؟

فقدم أوردينوف قدحه دون أن ينطق بكلمة •

قال الشيخ وهو يرفع قدحه :

ـ انتظرى ••• اذا كان لأحدٍ رغبة ما ، فلنحقق هذه الرغبة !

تلاطمت الكئوس وشرب الثلاثة •

قالت كاترين متجهة بكلامها الى رب البيت :

ـ والآن فلنشرب نحن الاثنين • فلنشرب اذا كان في قلبك حنان عليّ وحب لي • لنشرب تحيةً للسعادة التي عشناها ••• تحيةً للسنين الماضيات ، تحيةً للهناء والحب ! مرني اذن أن أصب لك اذا كان قلبك يحترق هياما بي !

قال الشيخ ضاحكا وهو يمد قدحه من جديد :

ـ خمرك قوي يا جميلتي ، ولكنك لا تزيدين على أن تبلي به شفتيك بلاً •

ـ سأشرب قليلا ، أما أنت فأفرغ قدحك حتى الثمالة • لماذا تعيش مع أفكار حزينة يا شيخي ؟ ذلك لا يزيد على أن يعذب قلبك ! الافكار تنشأ من الألم ، والألم ينادي الافكار ، فاذا كان الانسان سعيدا لم يفكر قط ! اشرب اشرب أيها الشيخ ، أغرق أفكارك في الخمر •

ـ حزنك عظيم يا حمامتي البيضاء ، وأنت تريدين أن تتخلصي منه دفعة واحدة • انني أشرب معك يا كاترين • وأنت ، أيها السيد ، أتأذن أن أسألك هل في قلبك حزن ؟

تمتم أوردينوف يقول دون أن يحول بصره عن كاترين :

ـ نعم ، ولكنني أخفيه في اعماق نفسي •

قالت كاترين :

ـ هل سمعت أيها الشيخ ؟ لقد ظللت زمنا طويلا لا أعرف نفسي ،

ولكننى عرفت بعدئذ كل شيء ، تذكرت كل شيء ، عشت الماضى كله من جديد .

قال الشيخ مفكرا :

ـ نعم ، انه لشيء حزين أن يتذكر المرء الماضى ، ما مضى فهو كالخمر الذى شُرب ... ما نفع السعادة الماضية ... متى بلى التوب وجب أن يُرمى ...

قالت كاترين ضاحكةً بينما تدلت على أهدابها عبرتان كبيرتان تشبهان الماس :

ـ لا بد عندئذ من ثوب جديد . هل فهمت أيها الشيخ ... أنظر لقد دفنت فى كأسك دموعى .

قال أوردينوف متهدج الصوت من الانفعال :

ـ وسعادتُك ، هل اشتريتها بحزن كثير ؟

قال الشيخ :

ـ لعل عندك ، أيها السيد ، سعادةً كثيرة تريد أن تبيعها ! ما هذا الذى تتدخل فيه ؟

قال الشيخ ذلك وانفجر يضحك ضحكاً خبيثاً على حين فجأة ، وينظر الى أوردينوف غاضبا .

قالت كاترين :

ـ اشتريتها بما اشتريتها به ... فبعضهم يرى الثمن باهظا وبعضهم يراه بخسا ... واحد يريد أن يبيع كل شيء وأن لا يخسر شيئا ، وآخر لا يعد بشيء ، ولكن القلب المطواع يتبعه ... وأنت دعك أنت من الملامات

(أضافت ذلك متجهة الى أوردينوف بنظرة حزينة) • صُب فى كأسك خمرا أيها الشيخ • واشرب تحيةً لسعادة ابنتك ، لسعادة عبدتك الرقيقة العذبة الطيِّعة ، كما كانت حين عرفتك أول مرة ••• ارفع كأسك !

قال الشيخ وهو يتناول الخمر :

ــ لك ما تشائين ! واملئى كأسك اذن •

ــ انتظر أيها الشيخ ، لا تشرب بعد ، دعنى أقول لك شيئا قبل أن تشرب •••

كانت كاترين مسندةً ذراعيها الى المائدة ، تحدق الى الشيخ بعينين محمومتين • ان عزيمةً غريبة تسطع فى نظرتها • حركاتها جميعا هادئة ، اشاراتها متقطعة ، سريعة ، غير متوقعة • انها كمن يحترق بنار • ولكن جمالها يعظم بالانفعال والانتعاش • وشفتاها المنفرجتان تكشفان عن صفين من أسنان بيضاء كاللآلى • وطرف ضفيرتها المفتولة حول رأسها ثلاث مرات متهدل على أذنها اليسرى باهمال • وعرق قليل يخضِّل صدغيها •

ــ اقرأ هنا يا صديقى ، اقرأ فى راحة يدى قبل أن يظلم فكرك • اليك يدى البيضاء فاقرأ فى راحتها • ما أخطأ الرجال فى بلدنا حين سموك ساحرا • أنظر فى يدى ايها الشيخ وحدثنى عن حظى الحزين • ولكن حذار أن تكذب ! قل : هل ستكون ابنتك سعيدة ؟ أم تراك سوف لا تغفر لها ، وسوف تدعو عليها بسوء الطالع ؟ هل سيكون لى ركن دافىء أعيش فيه سعيدة ، أم سأظل حياتى كلها كالطائر المهاجر أبحث لى عن مكان بين الناس الاخيار ؟ قل لى من هو عدوى ، ومن الذى يحبنى ، ومن يهيىء لى الضر ؟ ••• قل لى هل سيظل قلبى الفتى الحار يحيا وحيدا ، أم أنه سجيد القلب الذى يخفق معه للفرح ••• الى أن يحل شقاء

جديد ؟ ... قل لى : في أيه سماء زرقاء ، وراء اى بحر ، وسـط اية غابة ، يقيم صقرى ؟ آهو ينتظرني مشتاقاً نافد الصبر ، أهو يحبني كثيرا ، ام تراه سيكف عن حبى قريبا ؟ ... هل سيخدعني ويخونني أم لا ؟ وقل في الوقت نفسه ، قل لى آخر مرة أيها الشيخ ، هل سنبقى معا مدة طويله في مسكننا البائس هذا نقرأ كتبا شيطانية ؟ ... قل لى هل ستحين اللحظة التى أودعك فيها شاكرةً لك انك أطعمتني وحكيت لك قصصا .. ولكن حذار ثم حذار ... قل الحقيقــه كلها ، ولا تكذب ! لقد آن الآوان .

كانت حميَّاها تزداد على قدر امعانها في الكلام ، ولكن الاهتياج لم يلبث أن حطم صوتها ، كأن زوبعة عصفت بقلبها . عيناها تسطعان، وشفتها العليا تختلج قليلا . مالت على الشيخ من فوق المائدة ، وأخذت تحـدِّق الى عينيه المضطربتين بانتباه نهم .

سمع أوردينوف دقات قلبها حين توقفت عن الكلام...أطلق صرخة حماسة وهو ينظر اليها ، وأراد أن ينهض عن المقعد . ولكن النظـرة السريعة العابرة التى ألقاها عليه الشيخ سمَّرته في مكانه من جديد . ان مزيجا غريبا من الاحتقار والسخرية والقلق والبرم ، ومن الاستطلاع الخبيث الشرير الماكر في الوقت نفسـه ، كان يسطع في تلك النظرة الخاطفة السريعة التى كانت تُرعش أوردينوف في كل مرة ، وفي كل مرة كانت تملأ قلبه غيظا وغضبا عاجزا .

كان الشيخ ينظر الى كاترين مفكرا مستطلعا محزونا . انه مصعوق القلب ، ولكن ما من عضلة في وجهه تختلج . فلما أنهت كلامها لم يزد على أن ابتسم . ثم قال :

ـ تريدين أن تعرفي أشياء كثيرة مرةً واحدة ، يا طائرى الصغير

الذى لم يكد يخرج من العش ! صبى لى اذن بمزيد من السرعة فى هذا الكأس العميق • ولنشرب أولا تحيةً للسلام ••• والا فان عينا سوداء معتكرة ستفسد علينا أمنياتنا ••• ان الشيطان قوى قدير ! •••

رفع الشيخ كأسه وشرب • فكلما أمعن فى الشراب أمعن وجهه فى الشحوب والاصفرار • عيناه حمراوان كالجمر • ان بريقهما المحموم ، وان ازرقاق وجهه ينذران بأن نوبةً جديدة توشك أن تعتريه •

وكان الخمر قويا ، فكل كأس جديدة يشربها أوردينوف ، كانت تزيد عينيه زيغانا • ان دمه المحموم المشتعل لا يطيق احتمال مزيد من الخمر • كان عقله يضطرب ، وكان قلقه يشتد •

صبَّ أوردينوف لنفسه خمرا وجرع جرعة ، لا يعلم ماذا يفعل ولا يدرى كيف يهدىء هياجه المتزايد • ان دمه يجرى فى شرايينه بمزيد من السرعة أيضا • كان كمن يهذى ، فهو لا يكاد يستطيع أن يدرى مايجرى حوله رغم شدة اهتمامه به وانتباهه اليه •

قرع الشيخ كأسه بالمائدة فى صخب ، وهتف يقول :

ـ صبى يا كاترين ، صبى أيضا أيتها البنت الشريرة ! املئى الكأس الى آخره • نوِّمى الشيخ حتى الموت ! صبى أيضا صبى يا جميلتى •• وأنت لماذا لم تشرب الا قليلا جدا ؟ ••• أتحسب أننى لم ألاحظ ذلك ؟

أجابته كاترين بكلام لم يسمعه أوردينوف ••• لم يدع لها الشيخ أن تكمل كلامها • أمسك يدها ، كأنه أصبح لا يقوى على أن يحبس فى صدره كل ما كان يثقل صدره • ان وجهه شاحب ، وان عينيه تظلمان تارة ، وتسطعان ببريق قوى تارة ، وان شفتيه الصفراوين تختلجان • قال بصوتٍ يسمع المرء فيه فرحا غريبا فى بعض اللحظات :

ـ هاتى يا جميلتى ، هاتى • سأقول لك الحقيقة كلها • أنا ساحر يا كاترين • ما أخطأ ظنك : قلبك الذهبى ألهمك الحقيقه • غير أن هناك أمرا لم تفهميه : هو أننى ، أنا الساحر ، لست بمن يعلمك العقل • ان رأسك ثعبان ماكر ، رغم أن قلبك ملىء بالدموع • سوف تهتدين الى طريقك بنفسك ، سوف تسللين بين الشقاء • فأحيانا تتغلبين بالعقل ، فاذا لم يكف العقل ، بهرت بالجمال • تثيرين الفكر ، تحطمين القوة ، فاذا القلب ينشق ولو كان من برونز ••• وتسألين : هل ستنزل بك مصائب• هل سيلم بك شقاء وعذاب ؟ ان العذاب الانسانى أليم ، ولكن الشقاء لايلم بالقلب الضعيف • وشقاؤك يا جميلتى سيكون مثله كمثله خط على رمل: فسرعان ما تغسله الامطار ، وتجففه الشمس ، وتمحـــوه الريح ! انتظرى •• سأقول لك مزيدا من القول • أنا ساحر • من ستحبينه ، ستكونين له عبدة • أنت نفسك سترهنين حريتك ثم لا تستردينها ••• ولكنك لن تسطيعى أن تكفى عن الحب لحظة يحين الأوان • سوف تبذرين بدرة ، فيجبى الذى أغواك السبل كله ••• يا طفلى الحلو ، يا رأسى الذهبى ، لقد خبأت فى كأسى عبرة من عبراتك تشبه لؤلؤة ، ولكنك أسفت عليها ! ثم سكبت مائة عبرة ! ولكن ما ينبغى لك أن تأسفى على هذه العبرة ، على هذا الندى السماوى • لأنها ستعود اليك ، ثقيلة مزيدا من الثقل ، تلك العبرة التى تشبه لؤلؤة ، ستعود اليك فى ليلة غير ذات نهاية ، ليلة عذاب مر ، حين توافيك فكرة عكرة فتأخذ تأكلك أكلاً • وعند ذاك ، من أجل تلك العبرة ، ستسقط على قلبك المحترق ، عبرة شخص آخر ، عبرة من دم ، حارة حرارة رصاص منصهر • سوف تحرق هـــذه العبرة تحرك الأبيض حتى تصل منه الى الدم ، والى أن يطلع نهار كالح حـزين قاتم جهم ، ستظلين تتقلبين على فراشك تاركةً لدمك القانى أن يسيل ، ولن تبرئى من جرحك النازف الى الفجـــر التالى • صبى يا كاترين ، صبى

أيضا يا حمامتي ، اسقيني جزاء ما أسديت اليك من نصائح ••• وما انت في حاجة الى معرفه المزيد ••• ولا خير في تبدير الكلام سدى بغير طائل •••

كان صوته يضعف ويرتجف • وكان نشيج يهم أن يخرج من صدره • صبّ خمرا ، وأفرغ في جوفه كاسا اخر شربه بشراهه • وقرع المائدة بالكأس مرة أخرى • وعادت نظرته المضطربة تسطع من جديد • هتف يقول :

ــ عيشي كما تريدين ان تعيشي ! ما مضى فقد مضى • صبّي أيضا •• صبّي حتى يسقط رأسي ، حتى تفنى روحي كلها ••• صبّي حتى أنام ليالي طويلة ، وحتى افقد الذاكرة فقدانا تاما •• صبي صبي ايضا يا كاترين !

ولكن يده التي تمسك الكأس تبدو كأنها مخدّرة ، فهي لا تتحرك• كان يتنفس تنفسا ثقيلا ، كان يتنفس بمشقة • مال رأسه ••• ومرة اخيرة القى على اوردينوف نظرة كابيه • وحتى هذه النظرة لم تلبث ان انطفأت • وسقط حاجباه أخيرا ثقيلين كالرصاص • وشاعت في وجهه صفرة كصفرة الموتى • واختلجت شفتاه بضع لحظات أيضا ، وارتجفتا كأنه يبذل جهدا من أجل أن يقول شيئاً • وفجأة رئيت دمعه كبيرة تتعلق بأهدابه ثم تسقط وتسيل بطيئةً على خده الشاحب •••

لم يطق أوردينوف صبرا • فنهض ، وسار نحو كاترين مترنح الخطى • تناول يدها • ولكنها لم تنظر اليه ••• حتى لكأنها لا تراه ولا تعرف من هو •••

كانت هي أيضا كمن فقد وعيه ، وكان يبدو أن فكرةً واحدة

تشغلها ، فكرة واحدة • ارتمت على صدر الشيخ الوسنان ، وأحاطت عنقه بذراعها ، وثبتت فيه نظرتها المشتعلة حتى لكأنهما أصبحا كائنا واحدا •• كان يبدو أنها لا تشعر بأن أوردينوف ممسك يدها • وأخيرا التفتت نحو الفتى ، وألقت عليه نظرة طويلة نافذة ، كأنها فهمت أخيرا • فظهرت على شفتيها ابتسامة حزينة اليمة • وتمتمت تقول :

ـ اذهب • أنت سكران وشرير • أنت لست صديقي •

وعادت تلتفت نحو الشيخ ، وتتبّت فيه بصرها • لكأنها ترصد كل خفقة من خفقات قلبه ، وتهدهد بنظرتها نومه ، وتخشى أن تتنفس ، وتحضن قلبه المتأجج ••• وكان في كيانها كله من الاعجاب العاشق الموله، ما جعل أوردينوف يستبد به اليأس والحنق والغضب على حين فجأة •

ناداها وهو يضغط يدها بعنف :

ـ كاترين ! كاترين !

ان الألم الذي يشعر به أوردينوف ينعكس في وجهه • التفتت كاترين ، وألقت على أوردينوف نظرة تبلغ من التعبير عن السخرية والتحقير أنه أحسّ بساقيه تنثنيان تحته • ثم أومأت الى الشيخ النائم ، ونظرت الى أوردينوف مرة أخرى نظرة باردة مزدرية •

قال لها أوردينوف حانقا أشد الحنق :

ـ ماذا ؟ لسوف يقتلك ! •••

وكأن جنيا وسوس له أنه فهمها • فقال :

ـ سأشتريك من مولاك يا جميلتي ، اذا كنت في حاجة الى روحي ! لن يقتلك •

ان الابتسامة الصامتة التى كان تجمد أوردينوف لا تتحـــول عن وجه كاترين • وبدون أن يعرف ماذا يفعل ، أخذ يتلمس بيديه فينتزع من الجدار خنجرا يملكه الشيخ • ظهرت الدهشـــة فى وجه كاترين ، ولكن الغضب والاحتقار لاحا فى عينيها فى الوقت نفسه وقد ازدادا عنفا وقوة •

شعر أوردينوف بألم وهو ينظر اليها ••• ان قوة غامضة تدفع يده• اخرج الخنجر من غمده • ان كاترين تتابعه بنظراتها ســاكنه حابســة انفاسها •

نظر أوردينوف الى الشيخ •

فخيل اليه فى تلك اللحظة أن الشيخ يفتح عينيه ببطء ، وينظـر اليه مبتسما • التقت أعين الرجلين • حدق أوردينوف الى العجوز بضع دقائق ساكنا لا يتحرك •• وفجأة تراءى له أن كل وجه الشيخ يضحك ، وأن هذا الضحك الشيطانى ينفجر مدويا فى الغرفة آخر الامر • وهـذا خاطر اسود ، كريه ، يتسلل فى رأسه تسلل أفعى ••• ارتجف ••• أفلت الخنجر من يديه ، وسقط على أرض الغرفة مقرقعا •

أطلقت كاترين صرخة ، كأنها تستيقظ من كابوس قاتم أليم ••• نهض الشيخ عن سريره ببطء وقد اصفر اصفرارا شديدا • ركل الخنجر بقدمه الى ركن من الغرفة غاضبا حانقا ••• كانت كاترين شـاحبة ساكنة كأنها ميتة ••• ان ألما رهيبا لا يطاق يرتسم على وجههـا • وها هى ذى ترتمى على قدمى الشيخ وهى تصرخ صرخة تشق النفس وتكاد تســقط مغشيا عليها •

ـ ألكسى ! ألكسى !

كذلك انطلقت هاتان الكلمتان من صدرها المخنوق •

حضنها الشيخ بذراعيه القويتين ، وشدها الى صدره شدا قويا • أخفت رأسها فى نحر الشيخ ، فأطلق الشيخ عندئذ ، بكل قسمات وجهه ، ضحكة تبلغ من قوة التعبير عن الظفر والانتصار ، وتبلغ من شدة الهول أن الذعر استولى على أوردينوف • المكر ، الحساب ، الطغيان البارد المستبد الغيور ، السخرية بقلبه الممزق ، ذلك كله سمعه أوردينوف فى تلك الضحكة •

دمدم يقول وهو يرتجف خوفا :

ـ « مجنونة »

وولّى هاربا •

٣

فى الساعة الثامنة من صباح الغد كان أوردينوف يطرق باب ياروسلاف ايلتش شاحب الوجه مهتاج النفس • لما يبل من اضطراب الليلة البارحة • لو سألته لماذا جاء الى ياروسلاف ايلتش لما عرف بماذا يجيبك • فما ان فُتح له الباب حتى تقهقر من الدهشة ، ثم تسمر فى مكانه عند العتبة جامدا ، اذ رأى مورين فى الغرفة • كان الشيخ أشد شحوبا من أوردينوف أيضا ، لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، مهدود الجسم من المرض • ومع ذلك كان يرفض أن يقعد رغم أن ياروسلاف ايلتش يكرر دعوته الى الجلوس سعيدا بزيارته كل السعادة •

تهلل ياروسلاف ايلتش مبتهجا حين رأى أوردينوف ، ولكن فرحه تبدد فى تلك اللحظة نفسها تقريبا ، واستبد به نوع من الضيق فجأة ، عند منتصف الطريق بين المائدة والكرسى المجاور ، فهو لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل • ولقد أدرك أنه من غير اللائق أن يدخن الغليون فى مثل هذه اللحظة ، ومع ذلك ظل من فرط اضطرابه يدخن ما استطاع، بل يدخن بشىء من الحذلقة أيضا •

دخل أوردينوف الغرفة أخيرا • وألقى نظرة خاطفة على الشيخ• طاف فى وجه الشيخ شيء يذكر بالابتسامة الخبيثة التى رآها أوردينوف فى وجهه أمس ، والتى تثير ذكراها فيه الارتعاد والحنق • ولكن كل تعبير عن العداوة ما لبث أن زال ، وعاد الى وجه الشيخ هدوءه وسكونه الذى لا يمكن النفاذ اليه • وسلم على أوردين بانحناءة كبيرة •

هذا المشهد كله أيقظ أخيرا شعور أوردينوف، فحدق الى ياروسلاف ايلتش يريد أن يفهم خطوره الموقف • اضطرب ياروسلاف ايلتش وشعر بحرج •

قال أخيرا :

ـ ادخل ، ادخل يا صديقى العزيز فاسيلى ميخائيلوفتش • أفرحتنى بزيارتك وشرف بحضورك جميع هذه الاشياء التافهة •••

قال ياروسلاف ايلتش وهو يشير الى ركن فى الغرفة • انه أحمر الوجه كقرنفلة ، وقد بلغ من الاضطراب والحرج أن الجملة المتفخمة التى بدأها انقطعت فجأة ، وها هو ذا يجر كرسياً الى وسط الغرفة ، فيحدث ضجة كبيرة •

ـ ألا أزعجك يا ياروسلاف ايلتش ؟ كنت أريد ••• دقيقتين لا أكثر •••

ـ ما هذا الذى تقوله ؟ أأنت تزعجنى يا فاسيلى ميخائيلوفتش ؟ هلاّ قبلت قدحاً من الشاى من فضلك ••• من يخدم هنا ؟ أنا واثق أنك لن ترفض فنجاناً ثانياً •••

أضاف الجملة الأخيرة متجهاً بها الى مورين ، فأومأ مورين برأسه

معبراً عن موافقته على شرب قدح آخر .

دخل شرطى ، فأمره ياروسلاف ايلتش بلهجة قاسية أن يحضر ثلاثة أقداح من الشاى ، ثم أقبل يجلس قرب أوردينوف . ظل بضع دقائق يدير رأسه يمنة ويسرة كقطعة من خزف ، متجها الى مورين تارة والى أوردينوف تارة أخرى . كان واضحا انه يريد أن يقول شيئاً هو فى نظره حرج كل الحراجة بالنسبة الى أحد الرجلين على الاقل ، ولكنه رغم كل جهوده ظل عاجزا عن أن ينطق بكلمة ...

وكان يلوح على أوردينوف أنه فى ضيق وحرج هو أيضا . وجاءت لحظة فاذا بالرجلين كليهما يأخذان بالكلام معاً فى آن واحد ... أما مورين الصموت ، الذى كان ينظر اليهما بكثير من حب الاستطلاع ، فقد انفتح فمه ببطء ، كاشفاً عن كل أسنانه ...

قال أوردينوف مخاطبا الشيخ :

ـ جئت لأقول لك اننى على أثر ظروف مزعجة جدا أرانى مضطرا الى ترك منزلك ، و ...

فقاطعه ايلتش صائحاً :

ـ شىء غريب جداً ... لقد طار عقلى من الدهشة حين أبلغنى هذا الشيخ المحترم قرارك فى هذا الصباح ولكن ...

سأله أوردينوف مدهوشاً وهو ينظر الى مورين :

ـ أبلغك قرارى ؟

كان مورين يلاعب لحيته ويبتسم .

قال ياروسلاف ايلتش مؤكداً :

ـ نعم •• بل لعلني مخطيء ••• ولكنني أستطيع أن أحلف لك بشرفي أن أقوال هذا الشيخ المحترم لم تتناولك بأي سوء •

احمر ياروسلاف ايلتش ولم يستطع أن يسيطر على انفعاله الا في عناء •

وكأنما ضاق مورين ذرعاً بعدم المبالاة باضطراب رب البيت ، فتقدم خطوة الى أمام ، وبدا يقول وهو يحيي أوردينوف بأدب :

ـ اليك المسألة يا صاحب السيادة • انك تعلم بنفسك يا سيدي أننا أنا وزوجتي كان يمكن أن نسعد من أعماق قلبنا ، وكان يمكن أن لا نتجرأ على قول كلمة واحدة ••• ولكنك ترى بنفسك كيف تجري حياتي ••• انك ترى أنني أكاد أحتضر •

قال مورين ذلك وعاد يلاعب بأصابعه لحيته •

شعر أوردينوف بأنه يوشك أن يهوي على الأرض •

ـ نعم ••• نعم ••• لقد سبق أن قلت لك ذلك • انه مريض • تلك نازلة ألمت به • أردت أن أقولها بالفرنسية • ولكن اعذرني • ان لساني لا يجري طلقا بهذه اللغة ••• يعني •••

ـ نعم ••• نعم ، يعني •••

حيّا كل من أوردينوف وياروسلاف ايلتش صاحبه تحية صغيرة ، وهما جالسان على كرسييهما ، ثم استأنف ياروسلاف ايلتش كلامه يقول:

ـ ثم انني سألت هذا الرجل الشريف عن الأمر تفصيلا ، فقال لي ان مرض هذه المرأة •••

وهنا ألقى ياروسلاف ايلتش ، المرهف الشعور ، نظرة سائلة على مورين .

ـ أقصد أن مولاتنا ...

ثم لم يلح مزيدا من الالحاح ، بل عاد يخاطب أوردينوف فيقول :

ـ نعم ... ان صاحبة البيت ... أقصد صاحبة البيت الذى تقيم أنت فيه وستتركه ... امرأة مريضة . هو يقول انها تضايقك فى أعمالك ... وأنت نفسك ... لقد أخفيت عنى أمرا هاما جدا يا فاسيلى ميخائيلوفتش ...

ـ ما هو هذا الأمر ؟

أجاب ياروسلاف ايلتش بهمس تقريبا ، وبصوت يُسمع فيه شىء من العتب الى جانب التسامح :

ـ أمر البندقية .

وأسرع يستأنف كلامه فيقول :

ـ أنا أعرف كل شىء . حكى لى كل شىء . لقد كنت أنت نبيلا كل النبل حين غفرت له جريمته فى حقك ، وهى جريمة لم يتعمدها ولا أرادها ... أحلف لك ... لقد رأيت دموعا فى عينيه !

احمر وجه ياروسلاف ايلتش من جديد. والتمعت عيناه. واضطرب على كرسيه منفعلا أشد الانفعال .

قال مورين مخاطبا أوردينوف ، بينما أخذ ياروسلاف يحدق اليه وقد تخلص من اضطرابه :

ـ أنا ••• أقصد ••• نحن يا سيدى ، أنا ومولاتى ، ندعو لك الله دائما • ولكنك تعرف بنفسك يا سيدى أنها امرأة مريضة ، حمقاء ••• وأنا امرؤ لا أكاد أستطيع التماسك •••

قال أوردينوف وقد نفد صبره :

ـ ولكننى مستعد ••• كفى ••• أرجوك ••• فورا اذا أردت •

ـ كلا يا سيدى . نحن مغتبطان بوجودك جدا (قال مورين ذلك وهو ينحنى انحناءة كبيره) • أنا يا سيدى ••• كنت أريد أن أقول لك الأمر كله فورا • هى ، يا سيدى ، قريبة لى ••• تمت الىّ بشىء من قربى ••• قربى بعيدة ••• انها كذلك منذ الطفولة ••• رأس تعصف به الأهواء •• لقد نشأت وترعرعت فى الغابة •• كفلاحة •• بين الرجال الذين يجرون المراكب ، والعمال الذين يعملون فى المصنع ••• وفجأة احترق منزلهم ••• هلكت أمها فى الحريق ، وهلك أبوها أيضا ••• أقصد من يقال له أبوها ••• انها مستعدة لأن تروى لك هذه الحكايات•• أنا لا أتدخل فى هذا الأمر ••• ولكن يجب علىّ أن أقول لك ان أطباء من موسكو قد فحصوها ••• أعنى يا سيدى ••• هى مجنونة تماما ••• هذه هى المسألة • أنا وحدى معها ، وهى وحدها معى • نعيش ، نصلى•• ونأمل ••• ولكننى لا أعارضها فى يوم من الأيام •••

كان وجه أوردينوف مضطربا أشد الاضطراب • وكان ياروسلاف ايلتش ينقل بصره بين الرجلين ، فينظر الى هذا تارة والى ذاك تارة أخرى •

استأنف مورين كلامه وهو يهز رأسه فى وقار :

ـ ولكن لا •• يا سيدى •• هى كذلك •• رأسها يبلغ من الجنون

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتبًا اجتماعيا يدافع عن "الفقراء والمذلين المهانين" فإذا عالج مشكلات ماتنفك تزداد عمقًا أخذ بعضهم يتشهّر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التى يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكى إنما تسبر أعمق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكى كان رائدًا سبق نظرية التحليل النفسى التى أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، فى كل نفس.."

الكسندر ف سولوفييف